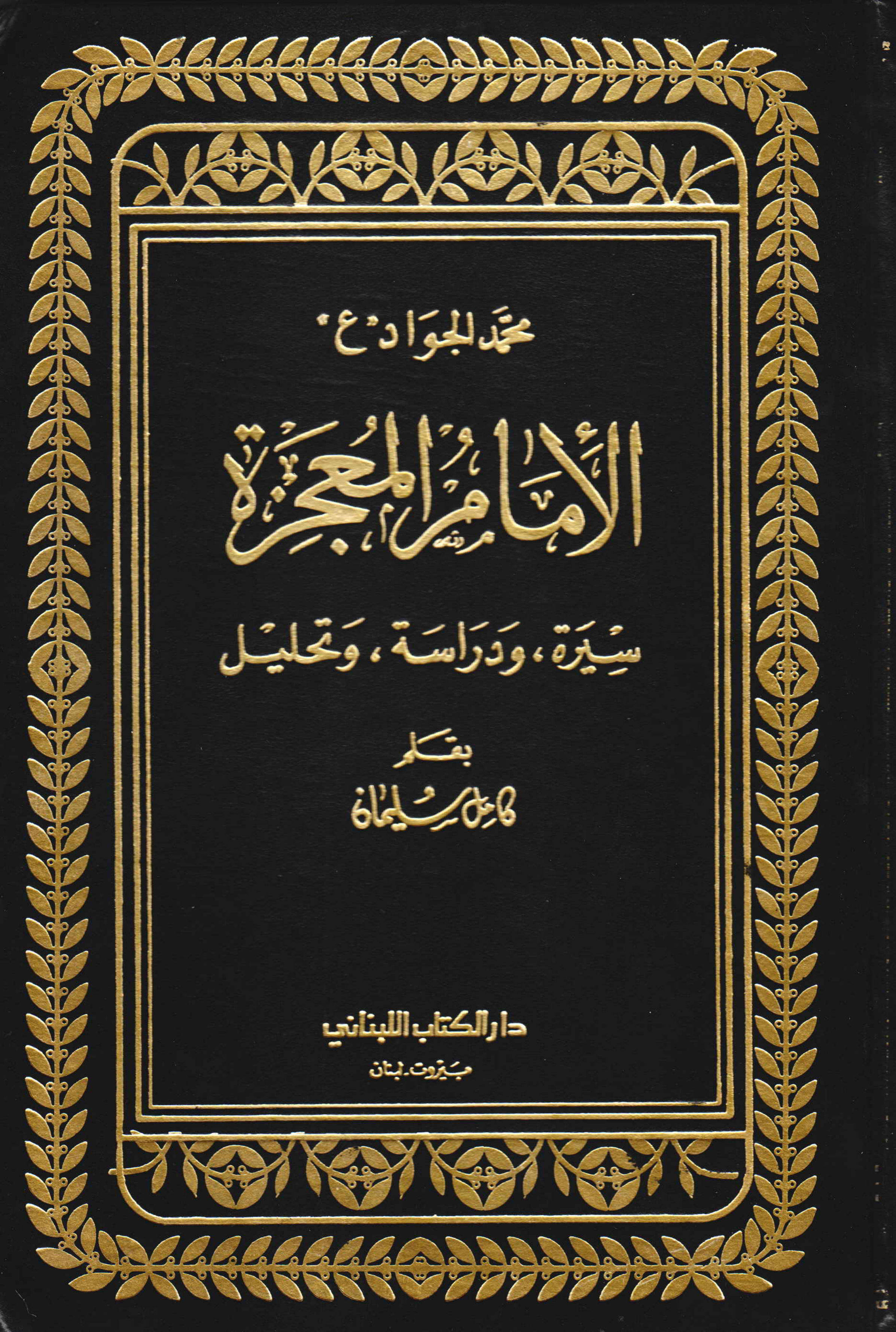


محمد الجواد "ع"
الإمام المعجزة
سيرة، ودراسة، وتحليل
بقلم
كامل سليمان
دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان



محمد الجواد "ع"

الإمام - المعجزة

سيرة، ودراسة، وتحليل

محمّد الجواد "ع"

الامَامُ - المُعجِزَة

سِيرة، ودِرَاسَة، وَتحليل

بقلم

كَامِل سليمان

الشركة العالميّة للكتاب
دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة



الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل.

طباعة - نشر - توزيع

دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة
دار الكتاب العالمي المركز العربي
دار العالم الاسلامي دار الكتب الاسلامية
دار الكتاب للجميع الدار الافريقية العربية

الادارة العامة

الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية
هاتف ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠ - ص ب ٣١٧٦
تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً: كتالبان
بيروت - لبنان

المستودعات
هاتف ٣٥١٤٣٣



١٩٨٧ - ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

•

ألسَّلاَمُ عليك يَا أَبَا جعْفَرٍ ، مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ ، الْبَرّ التَّقِيّ ، الإِمَامَ الْوَفِيّ .
ألسَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا كَلمَةَ اللهِ وَسِرَّهُ فِي بَرِيَّتِه ،
ألسَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الآيَةُ الْعَظْمَى ، وَالْحُجَّةُ الْكُبْرى ،
أَشْهَدُ أَنَّكَ وَلِيُّ اللهِ ، وَحُجَّتُهُ فِي أَرْضِه ،
وَأَنَّكَ خِيرَةُ اللهِ ، وَمُسْتَوْدَعُ عِلْمِهِ وَعِلْمِ أَنْبِيَائه ،
وَأَنَّك رُكْنُ الإِيمَان ، وَتَرْجُمَانُ الْقُرْآن ، وَهَادِي الأُمَّةِ ، وَوَارِثُ الأَئِمَّة ،
وَأَنَّكَ **صَادِعٌ** بِأَمْرِ اللهِ ، وَنَاصِرٌ لِدِينِهِ ، وَحُجَّةٌ عَلَى خَلْقِهِ ، وَشَفِيعٌ تُنَالُ بِهِ رَحْمَتُهُ وَجَنَّتُهُ . . . وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه .

(ممَّا هو منصوصٌ في زيارته عليه السلام)



الإهداء

●

إلى مَن يفتح بصيرتَه قبلَ بصرِه.. وقلبَه قبلَ **فمِه**،

ليقرأ.. شيئاً.. عن إمامٍ - معجزة!.

شاءه الله «كذلك».. ورَمَى به عنجهيَّةَ عصرِ الازدهار في الفقه، والعلم، والكلام، والحكمة.

واختاره - سبحانه - للعصرِ الذهبيِّ - خاصةً - ليكبحَ غرورَ أهله، ويُظهر إعجازَ الأئمة الذين أودعهم - تعالى - سرَّه، وفوَّض إليهم أمره.

بعد أن جعله عجيباً: رضيعاً، وطفلاً، وصبيّاً، وغلاماً يافعاً..

ومبجَّلاً من مشايخ العصر: فتىً رشيداً، وإماماً سديداً - منذ الثامنة من عمره!. -

ومهاباً في مجالس الأولياء، وحلقات الأعداء، وقصور الأُمراء ومُنْتَدَباً للأمر الخطير، في عصرٍ لا يَقبل أهلُه بالْمَيسور، إذ كانوا أربابَ فهمٍ، وعلمٍ، وفلسفةٍ، وانحراف!.

.. فإلى من يفتح قلبَهُ، وعقلَه، ويُلقي سَمْعَهُ - وهو رشيد - لقراءة سيرةِ إمامٍ - معجزة:

أُهدي هذه النهلات، المستقاةَ من بحرِ آلِ الله عزَّ وعلا!.

بيروت: في ذي الحجة سنة ١٤٠٦ هـ.

وآب سنة ١٩٨٦ م.

المؤلف



مبــرِّرات هــذا الكِتـاب

هذا الكتابُ ضرورةٌ إسلاميةٌ من ضرورات عصرنا الحاضر؛ لأن معرفةَ أهل البيت عليهم السلام واجبةٌ، وطاعةَ أوصياءِ رسول الله صلّى الله عليه وآله مفترَضةٌ، والتغاضيَ عن أحد الأمرَين لا يشكِّل عُذراً للمسلم بين يدَي خالقه. « فَهُمُ الذين **قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ..﴾**[1] » **دون سائر مَن بَرَأَ وذَرَأ**.

وقد قال الإمامُ الباقرُ عليه السلام: « لا يستكملُ عبدٌ الإيمانَ حتى يعرفَ أنَّه يَجري لآخرهم ما يَجري لأوَّلهم في الْحُجة، والطاعة، والحلال، والحرام، سواء. ولمحمدٍ صلَّى الله عليه وآله، وأميرِ المؤمنين عليه السلام، فضلُهما »[2]. فلا ينبغي رَدُّ ما يُنْسَب إليهم من الآيات لمجرَّد الضِّيق باستيعابها، أو لعدم موافقتها للرأيِ الشخصيّ، حتى لا يقعَ الرادُّ لها في حظيرة المنكِرين لما جاء من عند الله فيكونَ من الهالكين الذين إذا حُدِّثوا بالْمُعجزة ـ أو بشيءٍ لا يحتملونه ـ قالوا: واللهِ ما كان هذا، لا واللهِ ما كان هذا ولا يكون!.

---

(١) الاختصاص ص٢٧٧ وبحار الأنوار ج٧ ص٦٢ رواه الحسين بن أبي العلا، عن الإمام الصادق عليه السلام، والآيةُ الكريمةُ في النساء ـ ٥٩.

(٢) بحار الأنوار ج٥٠ ص٣٥٣ وفي الاختصاص ص٢٢ ورُوي بلفظه عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن الإمام الرّضا عليه السلام.

ونحن إذا استعرضْنَا المسلمين عامةً ـ والشيعةَ الإماميَّةَ منهم خاصةً ـ وسألناهم شيئاً مفصَّلاً عن أيِّ واحدٍ من أوصياء النبيِّ ﷺ، لَهالَنا الأمر! لأنَّنا نجد « قِلَّةً » قليلةً تعرف أسماءهم.. « وبعضاً » من هذه القِلَّة **يُلِمُّ** بموجَزاتٍ عن سِيَرهم.. و« أفراداً » نادرين يعرفون عن كلِّ واحدٍ منهم نصّاً مختصَراً يبرهن على كون أحدِهم « إماماً » لائقاً بالسفارة عن عرش السماء، ويستطيعون رسم مَعالِم شخصيَّتِه المميِّزةِ له عن علماء الأمّة وفقهاء الزمان، ولكنهم يُفَأْفِئون ويُتَأْتِئون إذا سألتَهم عن خصوصيَّات عهده، وسلطان عصرِه، وجلائل أقواله وأعماله.. ثم لا يُحرون جواباً إذا سُئلوا عن دوره الرِّياديِّ، وأثرِهِ التوجيهيِّ، وعمّا يُثبت « وجودَهُ » الفعَّالَ، ويبيِّن أفكارَهُ وفلسفتَهُ التي تتقرَّرُ على ضوئها شخصيَّتُه الربَّانيَّة.

فهذا هو الذي حَملني على دراسة جوانبَ من حياة هذا الإمام الفذِّ الذي لا يَعرف عنه الخاصَّةُ إلاَّ نزراً يسيراً، وتَجهلُه جمهرةُ المسلمين جهلاً تامّاً، فإنَّ لكلِّ واحدٍ من الأئمةِ الاثنَي عشر دوراً محدَّداً في مجالي الدِّين والدُّنيا، أناطتهُ به السماءُ فلا يتعدَّاه، ولذا كانت أدوارُهم ـ المتباينةُ شكلاً، المتَّفقـةُ هـدَفـاً ـ مفـروضـةً عليهم حتى لَكأنَّهم كانوا « موظَّفين » لأدائها كما قرَّرها « عهدُ » رسول الله ﷺ المعهودُ الذي نَزل عليه من ربِّه عزَّ وعَلا وتوارثوه عنه واحداً بعد واحد..

•

وأنا أعرف ـ ومعي عددٌ كبيرٌ من القرَّاء يعرف ـ أن المسلم الشيعيَّ الذي يحفظ أسماء أئمَّتِه الاثنَي عشر عليهم السلام، إذا أراد أن يعلِّم أسماءهم لولَده ـ في طفولته ـ ربَّما قال له: تعالَ يا حبيبي احفظْ « شهادةَ الموت »!. ثم يتلو على سمعِه: اللهُ ربِّي، والإسلامُ ديني، ومحمدٌ نبيِّي، والقرآنُ كتابي... وعليٌّ إمامي... وَ... وَ... إلى الإمام الثاني عشر ـ عجَّل الله تعالى فرَجه ـ فيردِّد الولد ذلك ـ صدًى لصوت أبيه ـ **رغم أنه يُرعبه اسمُ « شهادة الموت »! ثم يحفظ أسماءً لا يعرف عن أصحابها إلاَّ مـا** يعرفه من يعلَمك أسماء الخلفاء الراشدين بقوله: هم أبو بكر بن عفَّان، وعمرُ بنُ أبي طالب، وعثمانُ بنُ الخطَّاب، وعليُّ بنُ أبي قحافة!. فتَظهر لك « براعتُه » في التاريخ، و« علمُه » بالأنساب!.

أمّا مَن لا يَعرف أسماء أئمتّه فلا **تستغربْ** إذا وجدتَه لا يميِّز بينهم وبين عنترة العبسيّ، وأبي زيدٍ الهلاليّ، والزِّير بن أبي ليلى المهلهل، وإنْ كان يعتقد تفوُّق عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام على سائر الأبطال في كلِّ حال..

وحين أقول ذلك لا أُنكر أن أسماء الأئمة عليهم السلام تدور على أَلْسنة بعض الشيعة الإماميِّين، ولكنَّ « حقيقة » أصحاب تلك الأسماء تكاد تكون مجهولةً منهم إلى حدٍّ كبير.. ومَن يَدَّعِ أنه يستطيع أن يحدِّث أُسرته ـ في سَهرتِه ـ عن هذا الموضوع سهرةً كاملةً، حديثَ معرفةٍ صحيحة، يكنْ قد أبطلَ قولي وردَّ دعواي..

فأَمامَ هذا الواقع من المفارَقة بين شِدَّة تمسُّك الشيعة بأئمَّتهم، وبين جهلهم بحقائق ذَواتهم، رأيتُ نفسي مطالَباً بكتابة بعض سِيَرِهم الكريمة كتابةً متواضعةً في جنب عظَمة كلٍّ منهم، محاولاً إبرازَ الدَّور الذي قام به الواحدُ منهم في الحياة، وكشْفَ ما يدلُّ على أنَّه كان « موجوداً » بين مُعاصريه « كإمام »، وبيانَ ما أدَّى من وظيفته الإلَهيَّة، وما أعطى للنَّاس أثناءَ تولِّيه « الأمر » لأُوضحَ أنه كان « إماماً » اسماً ومسمًّى وكما اختاره اللهُ تعالى لوِلاية أمرِ الدِّين وإرشادِ المسلمين.. **ولن أدَّعِيَ بلوغ الإحاطة بحقيقتهم وواقعهم، ولكنني سأبرز مَعالـمَ الصورة بخطوطٍ بعيدةٍ عن الخرافيَّات،** لأن أهل البيت عليهم السلام عظماءُ بجدِّ ذاتهم، ولا حاجة بهم إلى التعظيم حين التقويم.

وإمامُنا الذي نحن بصدد الكتابة عنه، لم يتعدَّ « خَطَّ السماء المرسومَ » لِسِيرته في مجتمعه. ولكنَّنا إذا لم نَكشف عن بعض جوانب حياته المميِّزة، نبقى ندور في الفراغ ولا نصل إلى معرفة ما كان عليه كمسؤول ربَّانيٍّ حملَ أعباءَ الإمامة والرِّيادة مدةَ ثماني عشرة سنةً رغم أنه لاقَى الرفيقَ الأعلى وهو في الخامسة والعشرين من عمره، أي أنه اغتِيلَ وهو في عُمر الزُّهور، بعد أن تولَّى « الأمرَ » فيما بين السابعة والثامنة من عُمره!.

•

الإمام الجواد عليه السلام ذو « عُمر قصير ».. وذو « وُجود » عريض.. سارَ عكساً مع قِصَرِ حياته.

فقد وُلد فكان طفلاً عجيباً،

ثم دَبَّ ودرجَ، وقامَ وقعدَ مَرجعاً مرموقاً..

فَعُرف «إماماً» بذاته وبصفاتِه، مع أنّه قضى طفولتَهُ ـ وحدَه ـ مع أُمّه في الحجاز، وكان والدُه فيما بين العراق وإيران.. فلم يَخْفَ أمرُه على أحدٍ ـ وإن كان الباطلُ يَعدو على الحقّ ليطمسَ آثارَه ـ لأنَّ الحقَّ لا يَضيع في زَبَد الباطل وفقاقيعه، ولا في سَوراتِ الشرّ وثوراته.

ولكننا بحاجةٍ إلى الجرأة على قول الحقّ.

وإلى الصراحة في لفظِ الكلمة الْمُنصِفة،

وإلى الإيمان الذي لا تَنهاثُ فيه وسوسةُ الشيطان،

لترتاحَ ضمائرُنا لِمَا نقوله..

بل لنقفَ موقفَ أسلافنا الشُّرَفاء. فإنَّ عليَّ بن جعفر ـ مثلاً ـ عمَّ إمامِنا هذا، كان من أجلِّ مشايخ الهاشميّين، وأكبرِ فقهاء المسلمين، وحكى عنه محمد بن الحسن بن عمّار قائلاً: «كنتُ عند علي بن جعفر بن محمدٍ جالساً بالمدينة، وكنتُ أَقمتُ عنده سنتَين أكتبُ عنه ما سمعه من أخيه، يعني أبا الحسن ـ الكاظم عليه السلام ـ إذ دخل عليه أبو جعفر، محمد بن عليٍّ الرِّضا المسجد، مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وهو طفل ـ فوثب عليٌّ بنُ جعفر بلا حذاءٍ ولا رِداءٍ فقبَّل يدَه وعظَّمه.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: اجلسْ يا عمّ، اجلسْ رحمك الله.

فقال: يا سيّدي كيف أجلسُ وأنت قائم؟!.

فلمَّا رجع عليٌّ بنُ جعفر إلى مجلسه، جعل أصحابُه يوبِّخونه ويقولون: أنت عمُّ أبيه!. وأنت تفعل به هذا الفعل؟!.

فقال: اسكُتوا.. إذا كان اللهُ عزَّ وجلَّ ـ وقبضَ على لِحْيَتِه ـ لم يؤهِّلْ هذه الشيبة، وأهَّلَ هذا الفتى ووَضَعَه حيث وَضَعه، أُنْكِرُ فضلَه؟!. نعوذ بالله ممّا تقولون، بل أنا له عَبْد!.»[1].

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٣٦ والكافي م ١ ص ٣٢٢ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣١.

فقد قال شيخُ الهاشميين كلمةَ الحقِّ بملءِ فيه، وهو صاعدٌ فوق الثمانين، وابنَ ابنِ أخيهِ الذي عظَّمهُ فقبّل يدَه كان لا يزال في طفولته ونُعومة أظفاره!.

وقالها وهو من أكابر أهل عصره، ومن سادة القرشيِّين.

وفي غلامٍ لم يَبلغ السّبع من السِّنين!.

فضرب مثلاً رائعاً في عدم النِّفاقِ حين امتُحنَ في مجلسٍ كان أكثرُ رُوَّاده مُزلزَلين زلزالاً شديداً.

وفي عهدٍ كانت فيه الْمِدْيَةُ بيد الجزَّار، والسيفُ الظالِـم يَقُطُّ رقابَ مُعارِضي السلطان.

ذلك لأنه ربّى نفسه على أن لا يُصانع غيرَ وجه الله تعالى، ولا يخشى لَوماً ولا لُؤماً، ولا يهاب سلطاناً أرضيّاً!. بل بقيَ مع كتاب الله وسنّة رسوله يتولّى أولياءَ ربّه ويُعادي أعداءه.

فكم وكم من مراتب الإيمانِ يجب أن نترقّى حتى نصلَ إلى مرتبة إيمان هذا الشيخ الهاشميّ الْمُنصف؟.

وكم من الانانيّات يجب أن نَدوسَ حتى نَبلغَ شأْوَ حَمْلِه «لأمانة السَّماء» وصِدْقَ أدائهِ لها؟!.

يلزمنا من أجل ذلك شيءٌ واحد، وهو التخلّص من أدران النفوس لنصير مؤمنين.. ولنتحرّر من هَمَزات الشياطين فنكون جريئين على قول «كلمة الحقّ».

•

كتابُ الله عزّ وجلّ هو القرآنُ الصامتُ الذي سَنّ وشرّع،
والإمامُ ـ وليّ الله ـ هو القرآنُ الناطق الذي يوضِحُ ويبيِّن.
ولكنّ الحاكم «المتأ سْلِمَ» الظالم، كان يتعدّى القرآنَ الصامت ولا يأخذ بما فيه،
ثم لا يرأف بالقرآن الناطق، ولا يرعَى له إلاًّ ولا ذمةً..
بل يُلاحقه فيما بين الخافقين لِيكُمّ فاه:
فيفرضُ عليه الإقامةَ الجبريّة مرّة،

ويستقدمه فيَسجنه ـ بلا جُرمٍ ـ مرةً ثانية،

ثم يحتال في قتلِه.. ويُلحقه بالقرآن الصامت في المرَّة الأخيرة.. لأنهما العدوّانِ الأبَديَّانِ لِظُلمِه وجَوره!.

وليس عجيباً أن يجورَ سلطانُ كلِّ زمانٍ على إمام عصره.. لأنه يرى فيه الْمُنازِعَ الوحيدَ في حُكمِه المغتصَب!.

كما أنه ليس غريباً أن يستعديَ للإمامِ فُقهاء السُّوءِ، لأن فضيحةَ باطلِهم على لسانه، ولعنةَ سِيرَتهم بينَ شفتَيه..

ولا هو عجيبٌ ـ كذلك ـ أن يَظلمه رجالُ القصر وفئرانُه الذين يَخضمون مالَ الله خضماً فما يَشبعون، ويأكلون التُّراث أكلاً لَمّاً فما يَقنعون.. ولا المؤرِّخون المأجورون الذين يستقُّون فُتات الموائد ليزوِّروا الحقائق ويحوِّروا الوقائع!.. بل العجيب ـ عَجباً لا ينقضي ـ هو أنّنا نُصِمُّ آذانَنا عن الحقِّ إذا ظفرنا به، لأننا «لا نريد» أن نَسمع «كلمةَ الْغَيب» التي حملَها نَقَلَةُ الْغَيب، ولا نروض أنفسَنا على التفكُّر والتدبُّر..

ونشمئزُّ ممَّن ينبش حقائقَ ألقى عليها التاريخُ جواشنَ تحبسها في أقبية الظُّلم،
وجنادلَ تَمنع مجراها إلى القلوب التي «تُريد» أن تعي!.

والْمُريبُ حقّاً، هو أن نتبجَّحَ بالعلم الحديث الكافر بالمغَيَّبات، الذي قالوا: إنه **«حقَّقَ» المعجزاتِ بغزوِ الكواكب والْمَجرَّات..**

مع أنَّهُ ـ لتحقيق غزوِه هذا ـ انتزعَ اللُّقمةَ من أفواه ملايينِ الْجَوعَى في المعمورة،

و«عَجزَ» عن حلِّ أيٍّ من المشكلات العالميَّة،
وخسِىءَ عن دَفْعِ أيَّةِ معاناةٍ إنسانيَّة،
ثم لم يُنتج علمُه إلاَّ الطُّلوعَ إلى الكواكب.. والعودةَ بِخُفَّي حُنين؟.

ولم تُخْرِجْ مَصانعُه الحديثةُ إلاَّ الكومبيوترَ والإلِكْترونيّات التي تَدفع الأسلحة التدميريَّة الآليَّة، لِتقضَّ مضاجعَ أمنِ الدنيا من أطرافها!.

●

فأدعياءُ « العلم الحديث » عمالقةُ سِلاح..

وجابرةُ صواريخ موجَّهة..

وأرباب حَرْبِ نجوم!.

و« **فراعنةٌ عصريُّون » لم يُعتِّم أن يُعلنوا عن غزو السَّماء لِيَطَّلِعُوا إلى إلَهِ موسى**، مع أنَّهم خرَّبوا الأرض بالطُّول والعرض حتى وصلوا إلى كواكبَ لا تزال بعيدةً بعيدةً عن السماء الدنيا..

وجَهِلُوا أنَّهم طمعوا « بخربشة السماء » التي بينها وبين الكواكب التي وَصلوا إليها مثل ما بينَهم وبينَها آلاف الآلافِ من الْمَرَّات!.

وَلِيَصِلوا إلى « خربشتها » لا بدَّ لهم من مختبراتٍ ذَرِيَّةٍ ـ صاروخيَّةٍ تعمل ملايينَ ملايينِ الملايينِ من السنين..

ثم يَفجأُهم أن وراء هذه السماءِ سماءً ثانيةً.. وثالثةً.. إلى سابعة،

وأنَّ بين كل سماءٍ وسماءٍ أكثرَ ممَّا بين سمائنا وأرضِنا بأضعافٍ مضاعَفة!.

ووراءَ ذلك كلِّه العرشُ القدسيُّ الذي تكون الكائناتُ كلُّها بالنِّسبة إليه كالحلَقة الْمُلقاة في الصحراء الواسعة الشاسعة!.. وإنَّ « هامان » ـ بالأمسِ ـ لم يستطع أن يَبنيَ « لفرعون » صرحاً يُوصِلُه إلى إلَه « موسى »!.

ولن يصلَ إليه ـ اليومَ ـ فراعنةُ عصرنا الحاضر:

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ!.﴾[1]

وصَمَمُ الآذانِ عن كلمة الحق، هو دائماً إيقادٌ على الطِّين لبناء صرحٍ يطَّلع منه فراعنةُ بَيْعِ الأسلحة إلى ما وراء الْغَيب..

واللهُ تعالى ـ وحدَه ـ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ، فَلاَ يُظهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ..﴾[2].

وقد أراحَنا سبحانه من هده الناحية وأطلعنا على كثيرٍ من غُيوبه بواسطة رُسله

---

(١) المؤمن ٥٦.

(٢) الجن ـ ٢٧.

وأوليائه، ولم يستأثرْ بسوى شيئينِ هما:

موعدُ قصفِ عُمرِ كلِّ واحدٍ منّا،

ووقتُ قيام الساعة، والوقوف للحساب بين يدَيه!.

فَلِمَ لا نَسمع قولَ مَن لا ينطقون عن الهوى، وهم يقدِّمون إلينا ما نبحث عنه على طَبَقٍ من ذهب؟!.

ولِمَ تَعْشَى أبصارُنا عن النظر فيما عن ربِّهم حَمَلُوا، وتصطكُّ أسماعُنا عن الإصغاء لِمَا عن الله نَقلوا، وتَتبلَّد أذهاننا عن استيعاب الآياتِ التي فعلوا؟!!

ألاَ إنَّه لا يميِّزُ عُمْيُ الأبصار بين غَسَقِ اللَّيل وَأَلَقِ النهار..

وفرقٌ بين ظُلمة الليل الدَّامس، وضحوة النَّهار الشامس!.

فكيف بِعُمْيِ البصائر إذا حاولوا معرفة ما ثَمَّ.. وراء الغَيب؟!!

•

إمامُنا الذي نحن بصدد التعرُّف إلى سيرته الكريمة، فردٌ من الأُسرة التي اختارتها السماء لأمْرِها ونَهْيِها.

وواحدٌ من أهل بيت النبوَّة الذين فاقوا الناسَ طِيبَ عنصرٍ وزكاءَ ميلاد، فما دانَى أصلَه أصلٌ، ولا شارفَهُ شرفٌ، ولا باراهُ علمٌ ولا فضل؛ لأنَّه مُغْرَقٌ في السِّيادة والرِّيادة، مُنْتَمٍ إلى شجرةٍ مباركةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء..

جمعَ أَشتاتَ المعالي: فلا أَبَ كأبيه، ولا جُدودَ كَجُدوده، ولا أُسرةَ ولا عشيرةَ كَأُسرته وعشيرته.

وهو من المصطفَين الأُلَى اتَّضحتْ بهم سُبُلُ الهدى، وسَلِمَ الورى من العمى؛ ومن الذين حازوا أشرفَ المآثر فالناسُ كلُّهم عيالٌ عليهم.. وحُبُّهم فريضةٌ لازِمةٌ من فرائض الدِّين ولوازمه..

قد قال أبوهم أميرُ المؤمنين عليه السلام:

« نحن ـ أهلَ البيت ـ لا يُقاس بنا أحد. فينا نزل القرآن، وفينا معدِن الرِّسالة »[1].

ويكفيهم شرفاً أنهم أبناءُ رسول الله ﷺ، ووُلْدُ فاطمة الزهراءِ عليها السلام التي نقل عنها « المأمون » العباسيُّ، فيما حَدَّثَ به عن أبيه « هارون الرشيد » عن أبيه « المهدي » عن أبيه « المنصور » عن أبيه عن جدِّه الذي قال:

« قال ابنُ عبَّاس:

أتدري لِمَ سُمِّيتْ فاطمةُ فاطمة؟.

قال: لا.

قال: لأنَّها فُطِمَتْ هي وشيعتُها من النار. وسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقوله »[2].

فالمتجاهِلَ لأهل البيت عليهم السلام يتعمَّد أمراً خطيراً ﴿يَوْمَ ندعوا كُلَّ أُنَاسٍ بإمَامِهِمْ!.﴾[3].

وويلٌ لمن لم يكن له إمامٌ يُدْعَى به يومَ حسابه، بعد أن يكونَ قد تولاَّه واقتدى به في حياته!..

والطريقُ الموصلُ إلى السعادة في الدارَين، هو الطريق الذي مهَّده نبيُّنا العظيمُ ﷺ لأمَّته بوصيَّتِهِ المتكرِّرةِ بكتاب الله وأهل بيتِهِ الذين عَقَلُوا الدِّين ـ وحدَهم ـ عَقْلَ وِعايةٍ ورِعايةٍ لا عقْلَ سماعٍ ورواية؛ والذين هم معدِنُ الحكمة، وعنصرُ الرَّحمة.. وصِغَرُ السنِّ عندهم لا يُنافي كمالَ العقل وبلوغ الرُّشد، خرقاً للعادة خاصّاً بهم، لأنهم حُجَجُ الله والأدِلاَّءُ عليه.

« ... لم يَزل الله تعالى يختارهم لِخلقه من وُلْد الحسين عليه السلام، من عَقِبِ كلّ إمام ـ يصطفيهم لذلك ويجتبيهم، ويرضى بهم لِخَلْقه ـ فجرَت بذلك فيهم

---

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٦٥.

(٢) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٧١ ـ ٧٢ وهو مرويٌّ في مصادر إسلاميَّة كثيرةٍ بهذا الإسناد وبغيره، ومصحَّحٌ عند أئمة المذاهب من السنَّة والشيعة.

(٣) الإسراء ـ ٧١.

مقاديرُ الله على محتومها »[1].

وكانوا كذلك.. لأن الله تعالى « جعلهم كذلك ».

و« إنَّ رَحِمَ آلِ محمد معلَّقةٌ بالعرش يقول:
اللهم صِلْ مَنْ وصلَني، واقطعْ مَن قطعَني »[2].

وفاطمةُ الزَّهراء عليها السلام نصحتْ بعض النساء قائلة لها:
« أَرْضي أَبَوَي دِينكِ محمداً وعلياً بسُخط أَبَوَي نَسَبِك، ولا تُرضي أَبَوَي نَسَبِك بسُخطِ أَبَوَي دِينكِ.

فإنَّ أَبَوَي نَسَبِكِ إنْ سَخِطَا، أَرضاهما محمدٌ وعليٌّ بثواب جزءٍ من ألفِ ألفِ جزءٍ من ساعةٍ من طـاعتهما - أي بالشفاعة -. وإن أَبَوَي دِينكِ إن سَخِطَا، لم يَقْدِرْ أَبَوَا نَسَبِكِ أن يُـرضِيَـاهما، لأن ثـوابَ طـاعـاتِ أهـلِ الدُّنيـا كلِّهـم لا تفـي بِسُخطهما »[3].

فَمِنَ التعدِّي على الْحُرمات، والتسوُّرِ على الكرامات، الخوضُ في موضوع فضلِ إمامٍ مفترَض الطاعة، حال كونه « منصوباً » من ربِّه تبارك وتعالى، و« منصوصـاً » عليه من جدِّه رسول الله ﷺ، و« موصًى » له من آبائه عليهم السلام.

وَمِنَ التجنيِّ على قداسة الحقِّ، والسَّطوِ على الْقِيَم، إتعابُ أنفسنا في إثبات كون المهندس أو الطبيب أو العالِم أو المحامي يُحسن القراءة والكتابة، وأنه ليس أُمياً بالمرَّة!. إذ المفروض بهؤلاء جميعاً أن يكونوا مثقَّفين ومُتقنين لأصول حِرَفهم، وأَنهم إنْ جهلوا غيرها، لا يجهلون ما هو من ركائز قواعدها وأصولها.

وفي الإمام جانبٌ خفيٌّ ينبغي أن نوضحه للناس، وهو أنه - بحُكم كونهِ خليفةَ النبيِّ - مُقيمِ الدولة الإسلامية - ليس من الضروريِّ أن يَملك ويَحكم دُنْيَوِياً، ولا

---

(١) تجد الحديث مفصلاً في المحجة البيضاء ج ٤ ص ١٨٠ عن إسحاق بن غالب، عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) بحار الأنوار ج ٢٣ ص ٢٦٥ رواه محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام، وهو في مصادر إسلاميَّة كثيرة.

(٣) بحار الأنوار ج ٢٣ ص ٢٦١ - ٢٦٢.

من طبيعة وظيفته أن يكون مَلِكاً أو سلطاناً، كما أنه ليس مأموراً بمحاربـة النـاس وإكراهِهم على الإيمان. ولذا كان سائرُ أئمتنا عليهم السلام زاهدين في أمور الدُّنيا، عازفين عن زُخرف الحياة، لا يُهمُّهم إلا تقويمُ الاعوجاج، وهداية التائهين والوقوفُ في وجه المنحرفين.. وهم ـ جميعُهم ـ كجدِّهم الذي «كان ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاةَ ـ ليحتلبَها ـ ويُجيب دعوةَ المملوك على خُبز الشعير»[1].. فلا طمعَ لهم مطلقاً، إلاَّ بإصلاح أمورِ مَعاشِ الناسِ ومَعادهم.

والإمامُ ـ المنصَّبُ لسائر الأنام ـ يمرُّ في حياته العالِمُ والجاهلُ، والمؤمنُ والكافر من مختلَفِ أجناس البشَر وألوانهم، وهو «مكلَّفٌ» بالوقوف ضدَّ التعدِّي على حُرمات الله، منزَّهٌ عن الخنوس أمام التيَّارات الضالَّة، ومبرَّأٌ عن الهروب من الأخطار التي تَعرض للرسالة، لأنه «موظَّفٌ» لإقامة الحقِّ وإبطالِ الباطل بالْحُجة الدامغة والبرهان القاطع، «مسلَّحٌ» بجميع مقوِّمات الكمال، معلَّمٌ، مفهَّمٌ، مفقَّه لا يَحجب عنه «معلِّمُه وموظِّفُهُ» حلَّ مُعضلة، ولا يتركه عَيّاً عن جواب، بل «جبلَهُ» كما شاء و«جعلَهُ» كاملاً مكمَّلاً لا يخطر في ذهنه الرَّيبُ، يَصدر ـ دائماً ـ عن كتاب الله الذي يَعلم تفسيرَهُ وتأويلَه، وعن سُنَّةِ الرسول التي يُدرك حقائقَها ودقائقَها، ولا يَحيد عمَّا جاء فيهما قيدَ شعرةٍ، عصمةً من الله تبارك وتعالى له عن الزَّلل والْخَطل، وتأييداً منه بِجُنودٍ من الملائكة المسدِّدين يُطلعونه ـ فوقَ علمِه ـ على حقائق أمور الدُّنيا والدِّين. ولذا قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إنَّ مِنْ عِلْمِ ما أوتينا، تفسيرَ القرآن وأحكامه، وحكايةَ عِلْمِ تغيُّـرِ الزَّمـان وحُدثانه. وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً أَسمعهُ، ولَو أَسمعَ مَن لم يَسمع لَولَّى مُعرضاً كأَنْ لم يَسمع ـ ثم أَمسك هُنيئةً، ثم قال ـ: لَو وَجدْنا وعاءً أو مستراحاً لَعَلَّمْنا»[2]. فهم علماء معلَّمون، وفقهاء مفقَّهون، لا يحَجب الله تعالى عنهم شيئاً يحتاجون إليه كما سنُثبت ذلك في موضوعٍ لاحق.

ونحنُ ما كُنَّا لِنَعرض إلى هذه الاستطرادة هنا، لَولا أَنَّ أكثرَ الناس يظنُّون في

---

(١) المصدر السابق ج١٦ ص ٢٢٢ ومجالس الشيخ ص ٢٥٠.

(٢) بحار الأنوار ج٢٣ ص ١٩٤ عن بصائر الدرجات ص ٣٥ رواية عن عمر بن صعب.

أمر الإمام ظنَّ الجاهليَّة، ويعتقدون أنَّ بمقدورهم مُحاكمتَهُ كما يُحاكِمون أيَّ فردٍ من أفراد الرعيَّة، ساهين عن أنَّ النائبَ المنتخَبَ لمجالس التشريع له حَصانتُه القانونيَّة ولا يجوز محاكمتُه قبلَ رفعِ الْحَصانة عنه لتجريده من صفته، ومُستجيزين لأنفسهم وَضْعَ الإمام على وَضَمِ التشريح كأنَّه مخلوقٌ عاديٌّ بلا حمايةٍ ولا حصانة، أو كأنَّه لا ترعاه حكومةُ السماء «سفيراً» عنها يتحدَّى أهل العناد ويُسكت ذَوي الأَلْسنة الْحِداد!.

فالإمام ليس واحداً من النَّكِرات فيتطاولَ إلى قُدس ذاته ذَوُو الحذلقة والزَّندقة لِيَزِنوا عِلْمَهُ ويَروزوا فضلَه بمقاييسهم العاثرة وموازينِ عقولهم المطفِّفة التي لا تُفرِّق بين وزنِ التِّبرِ والتِّبن، ولا بين قيمة جلاميد الصخر وَفِلذَّات الدُّر.

•

قال ابنُ عباس: «قال رسولُ الله ﷺ: أيُّها الناس، الله الله في عِترتي وأهلِ بيتي، فإن فاطمة بَضعةٌ منِّي، ووَلَدَيها عَضُداي، وأنا وبعلُها كالضوء. اللّهم ارحـمْ مَن رحِمهم، ولا تَغفر لمن ظَلَمهم. ثم دمعتْ عيناه وقال: كأنِّي أنظر في الحالّ!»[1].

أي كأنَّه يرى حالهم وما يحلُّ بهم من الظُّلم الذي لاقَوه حتى أيّامنا هذه!.

وكذلك قال أميرُ المؤمنين عليه السلام فيهم: «إنَّ أهلَ بيتي مطهَّرون، فلا تَسبقوهم فتضِلُّوا، ولا تتخلَّفوا عنهم فتـزِلّـوا، ولا تُخـالفـوهـم فَتَجهلـوا، ولا تعلِّموهم فإنَّهم أعلمُ منكم.. هم أعلمُ الناس كباراً، وأحلمُ الناس صغاراً، فاتَّبِعُوا الحقَّ وأهلَه حيث كان»[2].

فبحثُ علمِ الإمام وفضلِه، كالبحث في عِلْمِ رسول الله ﷺ الذي كان أُمياً وطلَع على العالَم بقرآنٍ تحدَّى الفصاحات والعبقريَّات، وأطلَّ على الإنسانيَّة بشريعةٍ انمسحتْ وانمسختْ أمامَها جميعُ التشريعات، من غير أن يكون له معلِّم، ومن غير أن ينالَ شهادةَ دكتوراه.. بل علَّمه الذي علَّم بالقلم علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلم.

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٣ ص ١٤٣ـ١٤٤ نقلاً عن الروضة ص ١٤٦ـ١٤٧ في حديث طويل.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء ص ١٣٠ نقلاً عن تفسير القميِّ ص ٥ و٦.

فالنظرُ في مَصدر عِلْمهم كالتنكيش بالأصابع في رمضاء النَّار التي يكوي حرُّها اليدَينِ ، ويُعمي رمادُها العينَين، لأن النبيَّ وأهلَ بيته صلَوَاتُ الله عليهم، تَمَّ تخريجُهم من « الكليَّة الإلَهيَّة » الْعُليا . . . والإمامةُ ـ كالنبوَّة ـ رُتبةٌ ربَّانيَّةٌ لا شأنَ فيها لأهل الأرض، ولا يُسأل عن عِلْمِ أحدهما كيف كان، ولا عن فضله كيف صـار ، ولا عن النبوَّة والإمامة كيف جرَتا ، لأنَّ كلاً من النبيِّ ووصيِّه، يكون « خليفةَ » الله في الأرض، و« سفيرَهُ » بين الْعِباد ، وهو الذي عَنَتْهُ الآية الكريمة : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [1] .. أي خليفةً عنه سبحانه على خَلْقه ولا يُمكن أن يكون كلُّ إنسانٍ خليفة له تعالى . .

فالله سبحانه هو المختارُ لخلافته : والاعتراضُ على مشيئته كالاعتراض على خَلْقِ واحدٍ برأسَين، وآخرَ بقلبَين، وثالثٍ أحمق، ورابعٍ فطينٍ فِطنةً نادرة ! .

فهذا كلُّه من « فعلِ » الله عزَّ وجلَّ ؛ وهو لا يُسأل عمَّا يَفعل، ولا تُدْرَكُ حكمتُه ولا اعتراضَ على مشيئته في بريَّته . وقد قال سعد بن عبدالله القمِّي :

« سألتُ القائمَ عليه السلام ـ وهو طفلٌ في حِجْرِ أبيه (ع) ـ فقلت :

أَخبرْني يا مولاي عن العلَّة التي تمنع القومَ من اختيار إمامٍ لأنفسهم ؟ .

قال : مُصلحٌ أو مُفسد ؟ ! .

قلت : مُصلِح .

قال : هل يجوز أن تقعَ خِيرَتُهم على الْمُفسد بعد أن لا يَعلمَ أحدٌ ما يَخطر ببال غيره من صلاحٍ أو فساد ؟ ! ! .

قلت : بلى .

قال : فهي العلَّة ، أيَّدْتُها لك ببُرهان . . يقبل ذلك عقلك ؟ .

قلت : نعم .

قال : أَخبرْني عن الرُّسل الذين اصطفاهم الله، وأنزل عليهم الْكُتُب وأيَّدهم بالوحيِ والعصمة ، إذ هم أعلامُ الأمم وأهدى إلى ثَبْتِ الاختيار ، ومنهم موسى

---

(١) البقرة ـ ٣٠ .

وعيسى عليهما السلام، هل يجوز مع وُفورِ عقلها وكمالِ عِلْمِهما إذا همَّا بالاختيار أن تقعَ خِيرتُها على المنافق وهما يظنَّانِ أنه مؤمن؟!!

قلت: لا.

قال: فهذا موسى، كليمُ الله، مع وُفور عقلِه وكمالِ عِلْمِه ونُزول الوحيِ عليه، اختارَ من أعيانِ قومه ووجوه عسكره لميقات ربِّه، سبعين رجلاً ممَّن لم يشك في إيمانهم وإخلاصهم، فوقعتْ خيرتُه على المنافقين، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا..﴾[1] فلمَّا وَجدْنا اختيارَ مَن قد اصطفاه الله للنُّبوَّة واقعاً على الأفسدِ دونَ الأصلحِ وهو يظنُّ أنه الأصلحُ دون الأفسد، عَلِمْنَا أَنْ لا اختيارَ لمن لا يَعلم ما تُخفي الصدورُ وما تُكِنُّ الضمائر وتنصرف عنه السرائر، وأَنْ لا خطرَ لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خِيرة الأنبياء على ذَوي الفساد لَمَّا أرادوا أهلَ الصلاح»[1].

فتأمَّل كيف أسقطَ ـ عجَّل الله تعالى فَرَجه ـ طريقةَ الاختيار الأرضي بعد أن قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2] أي: تنزيهاً له عن الحاجة إلى مشاركة عبادِه في اختياره!.

فَلِرَدِّ مشيئته، يترتَّب على العباد أن يردُّوا الموتَ عن أنفسِهم إن كانوا يَقدِرون!. أو فَلْيَنصبُّوا أنفسَهم آلهةً ـ شركاءَ له تعالى إن كانوا يستطيعون.. أو فَلْيَخلعوا ربقةَ الإسلام من أعناقهم ليكونوا في صفِّ الْمُلحدين!. ولَن، ولَن تُقاسَ الأمورُ السماويَّة بالأمور الأرضيَّة، لأن مثل هذا القياس هو الذي طردَ إبليس من رحمة الله تعالى، وجعله رجيماً لعيناً بعد أن عمل برأيه في مُقابِل قول الله عزَّ وجلَّ في مُحْكَمِ كتابه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ

---

(١) بحار الأنوار ج٢٣ ص٦٨ـ٦٩ والاحتجاج ج٢ ص٤٦٤ـ٤٦٥ والآية الكريمة في الأعراف ١٥٥.

(٢) القصص ـ ٦٨.

يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ!﴾[1]. وقد قَضَيَا ـ كِلاَهُمَا ـ بشأن «الإمامة» كما قضى سبحانه بشأن «النبوَّة»، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾[1].

وقد كانت تَحدث لأسلافنا الشُّرفاء مثلُ هذه الشُّبهات، ولكنَّهم كانوا موفَّقين بمعاصرة الأئمة، يَعرضون عليهم شُبهاتِهم ويتلقَّون أجوبتَها مفلسَفَةً رأساً، في حين أننا ـ اليومَ ـ ليس لنا إلاَّ الأخذُ بما وردَ علينا منهم، لنصلَ إلى الحقائق التي لا شُبهة فيها.. وقد قال عبد العزيز بن مسلم:

«كُنَّا عند مولانا الرِّضا عليه السلام بِمَرْوَ فاجتمعْنا وأصحابَنا في الجامع يومَ الجمعة في بدءِ مقامنا، فأداروا أَمْرَ الخلافة وذكروا كثرةَ الاختلاف فيها. فدخلتُ على سيِّدي الرِّضا عليه السلام، فأعلمتُه خَوْضَ الناس في ذلك، فتبسَّم عليه السلام ثم قال:

يا عبدَ العزيز، جهلَ القومُ وخُدِعوا عن آرائهم. إن الله تبارك اسمُه لم يَقبض رسولَ الله صلى الله عليه وآله حتى أكملَ الدِّين، فأنزلَ عليه القرآن فيه تفصيلُ كلِّ شيء، بيَّن فيه الحلالَ والحرامَ، والحدودَ والأحكامَ، وجميعَ ما يحتاج إليه النَّاس كَمَلاً، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2] وأنزل عليه في حجة الوداع، وهي آخر عُمره: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[3].. وأمرُ الخلافة من تمام الدِّين.. لم يمضِ صلى الله عليه وآله حتى بيَّن لأُمَّته مَعالِمَ دينهم، وأوضحَ لهم سبيلَهم، وتركَهم على قول الحقِّ، وأقامَ لهم عليّاً عليه السلام عَلَماً وإماماً، وما تركَ شيئاً تحتاج إليه الأمَّة إلاَّ بيَّنه لها.

فَمن زعمَ أنَّ الله لم يُكمل دينَهُ فقد ردَّ كتابَ الله، فهو كافر!.

هل تَعرفون قَدْرَ الإمامة، ومحلَّها من الأمَّة فيجوز فيها الاختيار؟!. ـ إلى أن يقول ـ:

---

(١) الأحزاب ـ ٣٦

(٢) الأنعام ـ ٣٨.

(٣) المائدة ـ ٣.

إنَّ الإمامة خلافةُ الله وخلافةُ رسول الله ﷺ،

الإمامُ يحلِّل حلالَ الله، ويُحرِّم حرامَ الله، ويُقيم حدود الله، ويذبُّ عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة..

فمَن ذا الذي يَبلغ معرفةَ الإمام ويُمكنه اختيارُه؟.

هيهاتَ هيهات.. ضلَّت العقولُ وتاهت الْحُلوم!!.. ثم قال في أواخر كلامه ـ:

..إنَّ العبد إذا اختاره الله عزَّ وجلَّ لأمور عباده، شرح الله صدرَه لذلك، وأودع قلبه ينابيعَ الحكمة، وألْهَمه العلْم إلْهاماً فلم يَعْيَ بجوابٍ ولا يحيد فيه عن الصواب. وهو معصومٌ، مؤيَّدٌ، موفَّقٌ، مسدَّد، قد أَمِنَ مِنَ الخطايا والزَّلل والْعِثار، يَخصُّه الله بذلك ليكونَ حجَّتَه على عباده وشاهِدَه على خَلْقه ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1].

•

..ولكنْ، كما أنَّه لا يُمكن إنزالُ الْبَغلة في الإبريق، ولا جمعُ الكونِ كلِّه في البيضة، فإن معانيَ هذه الأمور لا تَلِجُ القلوبَ الْمُغلقَة دون إزالةِ الرَّيْنِ عنها، ولا تصل إلى بعض الأذهان دون كَسْرِ أقفالٍ بعدَها أقفال!.

ولكنَّها إذا انفتحتْ لها القلوب والأفهام تصير مقبولةً ومعقولةً، كَأَنْ يَجمعَ الله سبحانه وتعالى الكونَ وما احتواه في عَيْنِ الإنسان. بل جعلَه سبحانه ـ بِحَجمه الهائل ـ يَمُرُّ في بُؤْبُؤ الْعَين الذي هو بحجم السُّمْسُمَةِ من غير أَنْ تتأثَّرَ الباصرةُ أو تَنوءَ برؤيته، ودونَ أَنْ تتشنَّج أعصابُ النظر عند احتوائه من أطرافه الضاربة في اللانهاية... فلا بدَّ ـ إذن ـ من تفتُّح القلوب والأذهان لِيَسهلَ أمرُ استيعابِ خلافة الله تعالى على الأرض بشرطها وشروطها.

وإمامُنا ـ القصيرُ العمر، العريضُ العهد ـ أحرى الأئمة بالتفكُّر في «آياته» والتدبُّر في «بيِّناته» لاستيعاب عظيمِ قَدْرِه وجليلِ أَمْرِه.

---

(١) غيبة النعماني ص ١٤٥ ـ ١٤٦ في حديث طويل، وكذلك هو في عيون أخبار الرِّضا ج١ ص ١٦٩ ـ ١٧٥ والآية الكريمة في الجمعة ـ ٤.

١ـ ما لا بُدّ مِن قوله:
حَديثهُم صَعْبٌ!.

●

أَوَدُّ أن لا يدخل معي قارئي الكريم في موضوع كتابي هذا إلاَّ بعد أن يمرَّ بدراسة أمرَينِ هامَّين يتعلَّقان به.

أولُها: أَنَّ حديث أهلِ بيت النبيِّ ﷺ وعليهم صعبٌ مستصعَبٌ ـ كما عبَّروا عنه مكرَّراً ـ. فما معنى ذلك؟

وثانيها: أنَّهم « محدَّثون ـ ملهَمون، ومُوحىً إليهم!. » وسنكشف عن كيفيَّة ذلك.

وسنترافق عَبْرَ بيان هذَين « الأمرَين ».. ونتوافق إن شاء الله تعالى، إلاَّ إذا قصَّر بياني عن الإقناع.

ونبدأ بأوّلها.

قد روى الإمامَ الباقر عليه السلام ـ فيما عن جابر ـ أَنَّ جدَّه رسول الله ﷺ قال:

« إنّ حديث آل محمدٍ صعبٌ مستصعَب، لا يؤمن به إلاَّ ملَكٌ مقرَّب، أو نبيٌّ مرسَل، أو عبدٌ امتحنَ الله قلبَه للإيمان.

فما وردَ عليكم من حديث آل محمد، فلانَتْ له قلوبُكم وعرفتموه فاقْبَلوه.

وما اشمأزَّت منه قلوبكم وأنكرتموه فردُّوه إلى الله، وإلى الرَّسول، وإلى العالِم من آل محمد.

وإنّما الهالكُ أن يُحَدَّثَ أحدُكم بشيءٍ منه لا يحتمله، فيقول: والله ما كان هذا، والله ما كان هذا، والله ما كان هذا!. والإنكارُ هو الْكُفر»[1].

وهذا حقٌّ.. إذ نطق به مَن لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلاَّ الحق. فإنَّ من آفاتنا العامَّة الإنكارَ الْفَوريَّ لجميع ما لا تستوعبه عقولُنا بسهولة، والاستعداءَ لكلِّ ما لا تتصيَّد حقيقتَه أذهانُنا بيُسر؛ ثم لا نقبل الخوضَ فيه بتاتاً.. أو نرفضه بعناد!.

ولَو أنصفْنا الحقَّ والحقيقة، لَوجب أن نتأنَّى، ونَصرف عقولَنا للتفكير، ونَفتح قلوبَنا للوعي، ونُرهفَ أذهانَنا للمحاكمة الرشيدة؛ لأنَّ الْكَفَرة ما بَقُوا على كُفرهم إلاَّ لعنادهم وإنكارهم لآيات الله تبارك وتعالى، ورفضها دون أن يتفهَّموها بروح الجدِّية، أو من غير أن «يَنْوُوا» الاقتناع بها - مسبقاً -، حتى ولَو ثبتَ لهم أنها آياتٌ بيِّنات ليست بسحرٍ ولا كهانة.

والإنسان - بالطبع - عدوٌّ ما جَهِل.. ولكنَّه لا تنبغي له معاداةُ الحقِّ إذا تراءى له حقّاً مئةً بالمئة، ولا يجوز له أن يتنكَّر لِمَا يَسمعه ممَّا يخالف عقائدَه الموروثة، إذا ظهر له فيها ما يصحِّح معتقدَه ويقوِّمه.

ولَو لم نكن ذَوي طموحٍ يرمي إلى المعرفة - بما هي معرفة - ويهدف إلى الأحسن والأكمل، لَقنعنا بكثيرٍ ممَّا كان عليه آباؤنا، ولَرضينا بالحمارة والفرَس والْجَمل والبغل، ولَمَا فكَّرنا بالْعَربة، والسيارة، والطائرة، ولَقنعنا ببساطة العيش الفطري فما وصلنا إلى حضارةٍ ولا مدنيَّة، ولَكان يَجدر بنا أن نسترخيَ ونعيشَ كما تعيش الأنعام التي لا هَمَّ لها إلاَّ امتلاء الكرش والاجترار الوادع.

•

قولُهم عليهم السلام:

---

(١) البرهان م٤ ص٥٤٧ وبصائر الدرجات ص ٢١ مكرَّراً إلى ص٢٨ بعدَّة صِيَغ، وعن عدَّة رُواة عن عدَّةٍ من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهو في الكافي م ٢ ص ٤٠١.

« حديثُنا صعبٌ مستصعَب.. أو أمرُنا سرٌّ مستسرّ... ».

ورد بهذين اللفظَين وغيرهما في عشرات الروايات.

فهو عن النبيِّ صلى الله عليه وآله باللفظ السابق، وببعض التفسير.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام وزاد فيه: « .. خَشِنٌ مُخشوشِنٌ، فانبذوا إلى الناس نَبْذاً؛ فَمن عرف فزيدوه، ومَن أنكرَ فأمسِكوا »[1].

وقال فيه مرةً: « .. أو مؤمنٌ نجيبٌ امتحن الله قلبه للإيمان »[2].

أما عن زين العابدين عليه السلام فورد بلفظ: « إنَّ عِلْمَ العالِم ـ أي الإمام ـ صعبٌ مستصعب »[2]..

وأما ولدُه الباقرُ عليه السلام فزادَ فيه: « ..ألاَ ترَى أنَّهُ اختار لأمرِنا من الملائكة المقرَّبين، ومن النبيِّين المرسَلين، ومن المؤمنين الممتحَنين؟ »[3].

وزاد في مرةٍ ثانية: « ..أمَا واللهِ إنَّ أحَبَّ أصحـابي إليَّ وأورعَهـم وأفقهَهـم، أكْتَمُهم لحديثنا. وإنَّ أسوأَهم عندي حالاً، وأمقتَهم إليَّ، الذي إذا سمع الحديث يُنسب إلينا ويُروى عنَّا فلم يَعقله ولم يَقبله قلبُه، اشمأزَّ منه وجحدَهُ، وكفرَ بمَن دانَ به؛ وهو لا يدري لعلَّ الحديث من عندنا خرجَ، وإلينا سُند؛ فيكون بذلك خارجاً من ولايتنا »[3].

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام مشابهاً لِمَا سبق مع زيادةٍ في التفسير، حيث قال:

« حديثنا لا يحتمله نبيٌّ، ولا مَلَكٌ، ولا مؤمن.

إنَّ الملكَ لا يحتمله حتى يُخرجه إلى ملكٍ غيرِه،

والنبيُّ لا يحتمله حتى يُخرجه إلى نبيٍّ غيرِه،

والمؤمنُ لا يحتمله حتى يُخرجه إلى مؤمنٍ غيره؛

---

(١) البرهان م ٤ ص ٥٤٧ ومعاني الأخبار ص ١٨٨ والكافي م ٢ ص ٤٠١ـ٤٠٢ ورُوي عن الإمام العسكري عليه السلام مع تفصيل، وهو في بصائر الدرجات ص ٢١ والاختصاص ص ٢٦٨.

(٢) بصائر الدرجات ص ٢٥ وص ٢٧ والكافي م ٢ ص ٤٠١.

(٣) بصائر الدرجات ص ٢٥ وص ٥٣٧.

فهذا معنى قول جدّي »[١].

وورد عنه عليه السلام بلفظ: « .. لا يحتمله إلاّ صدورٌ منيرةٌ، أو قلوبُ سليمةٌ، وأخلاقٌ حسنة. إنَّ الله أخذ من شيعتنا الميثاق كما أخذَ على بَـني آدم حيث يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّـكَ مِـنْ بَنِـي آدَمَ، مِـنْ ظُهُـورِهِـمْ، ذُرِّيَّتَهُـمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ.. قَالُوا:[٢] بَلَى.﴾ فمَن وفَى لنا وفَى الله له بالجنَّة، ومَن أبغضَنا ولم يؤدِّ إلينا حقَّنا، ففي النار خالداً مخلَّداً »[٢].

وزاد في موردٍ آخر: « ... نَعم، إنَّ من الملائكة مقرَّبين وغيرَ مقرَّبين، ومن الملائكة مرسَلين وغيرَ مرسَلين، ومن المؤمنين ممتحَنين وغيرَ ممتحَنين.

وإنَّ أمركم هذا عُرض على الملائكة فلم يُقِرَّ به إلاَّ المقرَّبون،

وعُرض على الأنبياء فلم يُقرَّ به إلاَّ المرسَلون،

وعُرض على المؤمنين فلم يُقرَّ به إلاَّ الممتحَنون »[٢].

وفسَّره وأوضحه في مقامٍ آخرَ حيث قال عليه السلام:

« إنَّ أبي نِعْمَ الأب رحمةُ الله عليه كان يقول: لَو أَجد ثلاثةَ رهطٍ أَستودعُهم العِلْمَ وهم أهلٌ لذلك، لَحدَّثتُ بما لا يُحتاج فيه إلى نظرٍ في حلالٍ ولا حرام، وما يكون إلى يوم القيامة!.

إن حديثنا صعبٌ مستصعبٌ لا يؤمن به إلاَّ عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان »[٢].

وفسَّره الإمام الحسن العسكري عليه السلام بقوله:

« إن معناه أنَّ المَلَك لا يحتمله في جوفه حتى يُخرجه إلى ملَكٍ مثله، ولا يحتمله نبيٌّ حتى يُخرجه إلى نبيٍّ مثلِه، ولا يحتمله مؤمنٌ حتى يُخرجه إلى مؤمنٍ مثلِه. إنَّما معناه أنْ لا يحتمله في قلبه من حلاوة ما هو في صدره حتى يُخرجه إلى غيره »[٣].

فصعوبةُ احتمال حديثهم عليهم السلام ـ إذن ـ تكمن في أنَّ حامله قد لا يؤمن

---

(١) البرهان م ٤ ص ٥٤٧ ومعاني الأخبار ص ١٨٨ والكافي م ٢ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ وورد عن الإمام العسكري عليه السلام مع تفصيل، وهو في بصائر الدرجات ص ٢١ والاختصاص ص ٢٦٨.

(٢) بصائر الدرجات ص ٢٥ وص ٢٧ والكافي م ١ ص ٤٠١ والآية في الأعراف ـ ١٧٢.

(٣) بصائر الدرجات ص ٢٥ وص ٥٣٧.

بصدوره عنهم، أو بما هم عليه من العلم أحياناً.

أو قد لا يطيق إسرارَهُ ـ إذا آمنَ به ـ ولا يحتمل كتمانَهُ، لأنه ذو أهميّةٍ بالغةٍ لها مساسٌ كبيرٌ في مصائر الناس ـ معاشاً ومعاداً ـ لاعتباره من صميم العقيدة الإسلاميّة، ومن لُبِّ الحقيقة الإيمانيّة التي نزلت من السماء، والتي تدور عليها رَحَى الإسلام، فينبذه إلى غيره، في أكثر الأحيان.

وإنّي في تعرُّضي لهذا الحديث لَكذلك.

أيْ أنني أدور في فلَك مَن يُخرج حديثهم الصعبَ المستصعَبَ إلى غيره، من دون أن أدّعيَ عبورَ امتحان الإيمان. ولكنني أُحب أن أخرج من عُهدة ما وعيتُه من حديثهم الكريم، وأنبذ ذلك إلى إخوتي وأخواتي في الإيمان المتواضع، ليتذوَّقوا حلاوة أخبارهم حين تلج القلوبَ وتستقرُّ في الصدور.. وليقعوا على جوهر معاني كلامهم، فَيعرفوا حقيقة أمر هذه العترة الطاهرة الفاخرة التي قال فيها رسول الله ﷺ:

« إنّي تاركٌ فيكم الثِّقْلَين: كتابَ الله ـ حبلٌ ممدودٌ بين السماء والأرض ـ وعترتي أهلَ بيتي. وإنَّهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عَليَّ الحوض »[1]. والتي قال فيها أيضاً:

« أهلُ بيتي فيكم كسفينة نوح، مَن ركبها نجا، ومَن تخلّف عنها ضلَّ وهوى »[1].

فما سمع المسلمون قول نبيِّهم ولا ركبوا سفينة النجاة؛ بل كان شأنُ أكثرِهم شأنَ قوم نوحٍ عليه السلام حين نظروا إلى سفينة نبيِّهم واستهزأوا بها وبه وقالوا: أصبح نبيُّنا نجّاراً!.

وقد خسِئوا.. فلم يصبح نبيُّهم نجّاراً!. ولا كان نبيُّنا ﷺ بَحّاراً!. إذ تخلّف عن ركوب سفينة النَّجاة التي امرَنا بركوبها أكثرُ المسلمين، ولم يتمسَّك بحبل الله الذي ذكرَهُ لهمَ إلاّ القليلون، ولم يحفظوا ما خلّفه ﷺ ليضَلّوا مع الثِّقْلَين، بل

---

(١) الحديثان رواهما السنَّة والشيعة في مصادر لا تُحصى، وانظر الأول في بحار الأنوار ج٢٣ ص١٠٦ منقولاً عن الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ومروياً عن أبي سعيد الخدري، ومكرَّراً في عشرات الصفحات. والحديث الثاني في ص ١١٩ وما بعدها في عدة صفحات.

« ضلّوا » عن كِلَيهما معاً، فلم يحفظوا عترتَه، ولم يرفعوا لحبل الله تعالى يداً ولا نظَراً؟!!

والجوُّ الواقعيُّ الذي نَعيشه هو:

أن القرآن ـ كتاب الله ـ صار في أيامنا أغانيَ وترانيمَ وألْحانَ أحزان.. لا كما أراده الرَّحمان!.

وأن عترة محمدٍ ﷺ ـ أهلَ بيته ـ قد صاروا من بعده مُبْعَدين ومُحارَبين بعصبيَّة رفعت رأسَها فَوْرَ لُحوق النبيِّ بالرفيق الأعلى!. فأصبحوا ـ بين المسلمين ـ فروع شجرة النبوَّة المقطوعة الأصل، الموتورة الحقِّ، المظلومة، المجفوَّة التي هُجرت هجراً غير جميل، ودُفعت عن مقامها الإلَهيِّ دفعاً غير رحيم!.

ولكنَّ تلك الفروعَ أبَتْ ـ والحمدُ لله ـ إلاَّ أن تَنبت على عروقها، وتستويَ على سُوقها، حاملةً مشعلَ رسالة الإسلام، ورافعةً عَلَمَ الذَّود عنها من غير أن يضرَّها « قطعُ » مَن قطعَها ولا « إدبارُ » مَن أشاح بوجهه عنها.

لأنها مرصودةٌ لأمر اللهِ، من قِبَل الله جلَّ وعزَّ،
صادعةٌ بأمر نبيِّه ﷺ.

لا تُبالي بالظُّلم ولا بالقطع.. لأنَّ مَن ظلمَها ظلَم نفسَه، ومَن قطعَها قطعَ الحبل بينَهُ وبينَ ربِّه، وقطعَ الصِّلةَ بينَهُ وبينَ نبيِّه.. لأنَّها بابُ رحمةٍ، وعَيبةُ علمٍ ومعرفةٍ، وينابيعُ حكمةٍ وتشريع،

بقيتْ صامدةً في جنب الله فرعاً بعد فرع.. وستبقى كذلك إلى أن تنطفىء شمسُ هذا الكون.

مؤكِّدةً أنَّ استمرارَ « وظيفتها » امتدادٌ للدعوة الإلَهيَّة التي صدَع بها محمدٌ ﷺ،

ومبرهنةً على أنها أحدُ ثِقْلَي النبيِّ ﷺ زماناً بعد زمانٍ إلى منتهى الدَّوَران، وأنَّ التمسُّكَ بها ثقيلٌ في الميزان، مَرْضِيٌّ عند الرَّحمان!.

لأنها هي شجرةُ النبوَّة المتَّصلةُ بإرادةً الله عزَّ وعلا التي قال عنها القرآن الكريم:

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا..﴾[1].

فأصلها ثابتٌ يتجاوز تُخومَ الأرض بانتمائها لصاحب الرسالة صلى الله عليه وآله، وفرعُها ضاربٌ في العلوّ والسموّ، لا يُدْرَك شأوُه، لصدورها عن أمر ربّها، وهي تُؤتي أُكُلاً دائماً، والحمد لله.

•

فالأنبياء وأوصياؤهم عليهم السلام، هم مستودَعُ علمِ الله تعالى في الأرض، ومعدنُ حكمتِه ومهبطُ وحيِه وتنزيلِه، وأمناؤه وحُجَجُه على عباده، ولا همَّ يَشغلهم إلاّ إحقاقُ الحقِّ وإبطالُ الباطل وحمايةُ شريعة الله تعالى في الأرض لإصلاح شأن العباد معاشاً ومعاداً.. وقد قال الإمامُ الصادقُ عليه السلام:

« إنّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء؛ وذلك أن الأنبياءَ لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما ورَّثوا أحاديثَ من أحاديثهم. فمَن أخذ بشيءٍ منها فقد أخذ حظّاً وافراً. فانظروا عِلْمَكم هذا عمَّن تأخذونه، فإنَّ فينا في كلِّ خلَفٍ عدولاً ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحال الْمُبْطِلين، وتأويل الجاهلين »[2].

فأهلُ بيت النبيِّ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، هم أئمَّةُ العدل المنتَجَبين لحماية هذا الدين؛ وقد اصطفاهم ربُّهم عزَّ وجلَّ لهذه الوظيفة، ومنَحهم علماً لَدُنِيّاً ليكونوا ملء المركز الإلَهيّ.

وقد لقي رجلٌ الإمامَ الحسينَ الشهيدَ عليه السلام وهو بطريقه إلى كربلاء، فقال له الإمامُ بعد أن دخل عليه وسلَّم وجلس:

« من أيِّ البلاد أنت؟.

فقال: من أهل الكوفة.

فقال عليه السلام: أمَا واللهِ لَو لقيتُك بالمدينة لأَريتُك أثَرَ جبرائيل من دارنا، ونزوله على جدِّي بالوحي!. يا أخا أهلِ الكوفة: مستقَى العلمِ من عندنا. أَفَعلِموا وجَهِلْنا؟!. هذا ما لا يكون »!.[2].

---

(١) إبراهيم - ٢٤.

(٢) بصائر الدرجات ص ١١ وص ١٢ وعدَّة من مصادر بحثنا.

فهم حَمَلَةُ الرسالة وأهلُها ومحلُّها الذين قال فيهم جدُّهم صلى الله عليه وآله :

« إنَّ أهلَ بيتي الهداةَ بعدي، أعطاهمُ الله فهمي، وعِلْمي؛ وخُلقوا من طينتي. فويلٌ للمُنكِرين حقَّهم من بعدي، القاطعين فيهم صلتي! . لاأنالَهمُ الله شفاعتي »(1).

وقال صلى الله عليه وآله :

« إنَّا، أهلَ البيت، أهلُ بيت الرحمة، وشجرةُ النبوَّة، وموضعُ الرسالة، ومختلَف الملائكة، ومعدنُ العلم »(1).

وقال حفيدُه لباقرُ عليه السلام :

« نحن شجرةُ النبوَّة، وبيتُ الرحمة، ومفاتيحُ الحكمة، ومعدنُ العلم، وموضعُ الرسالة، ومختلَفُ الملائكة، وموضعُ سِرِّ الله. ونحن وديعةُ الله في عباده، ونحن حَرَمُ الله الأكبر، ونحن عهدُ الله.

فَمن وفَى بذمَّتنا فقد وفَى بذمَّة الله، ومَن وفَى بعهدنا فقد وفَى بعهد الله، ومن خَفرَنا فقد خفرَ ذمَّةَ الله وعهدَه »(1).

وهذا قليلٌ من كثيرٍ ممَّا هم عليه من المكانة الْعُلوية. وقد أجاب الإمامُ الصادق عليه السلام رجلاً سأله: ما منزلتكم من ربّكم؟ . ـ قائلاً :

« حجتُه على خلقه، وبابُه الذي يؤتَى منه، وأُمناؤه على سرِّه، وتراجمةُ وحيه »(2).

وإن الملائكة لَتتنزَّل عليهم لتسدِّدهم وتؤيِّدهم كما تتنزَّل على كلِّ مخلوقٍ ليكتب بعضُها حسناتِه وسيِّئاتِه، وليحرسَهُ بعضُها من بينِ يدَيه ومن خلفِه ويحفظه من أمرِ الله، مع فارقِ أنَّهم موظَّفو السماء ولهم على السماء زيادةٌ في العناية والتسديد.. وقد قال الإمامُ الصادقُ عليه السلام لصاحبِه الحسين بن أبي العلا :

« يا حسين، بيوتُنا مهبطُ الملائكة، ومنزل الوحي.

---

(1) المصدر السابق ص ٤٩ وص ٥٦ وص ٥٧.

(2) بصائر الدرجات ص ٦٢.

وضربَ بيده إلى مَساورَ في البيت فقال: يا حسين، مَساورُ واللهِ طالما اتَّكأت عليها الملائكة!. وربما الْتقطْنا من زَغبها»[1].

وكذلك أبوه الباقرُ عليه السلام، فقد قال له حمران بن أعين: «جُعلت فداك، يَبلغُنا أَنَّ الملائكة تنزل عليكم؟.

فقال عليه السلام: إنَّ الملائكة واللهِ لَتنزل علينا تطأُ فُرُشَنا. أمَا تقرأ كتابَ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]؟.

ورُوِيَ قريبٌ منه عن الصادق عليه السلام وزاد قائلاً:

«...وما من يومٍ يأتي علينا ولا ليلٍ، إلاَّ وأخبارُ الأرض عندنا وما يَحدث فيها»[1].

ذاك أَنَّ عِلمهم موهوبٌ لا مكسوبٌ، تَصلهم أخبارُ السماء والأرض كما تصل أيَّ سفيرٍ أو وزيرٍ مفوَّضٍ لأيَّة دولةٍ من دُوَل الأرض أخبارُ دولته.. وقد أقسم الإمامُ الباقر عليه السلام على ذلك قائلاً:

«واللهِ إنَّا لَخُزَّانُ اللهِ في سمائه وأرضه، لا على ذهبٍ ولا فضَّة، إلاَّ على عِلْمِه!.»[2].

وفي خبرٍ آخرَ قال: «نحن خُزانُ الله على علمِ الله، نحن تراجمةُ وحيِ الله، نحن الحجةُ البالغةُ على مَن دون السماء وفوق الأرض»[2]..

وحدَّد ذلك ابنُه الصادقُ عليه السلام وقيَّده بقوله:

«إنَّ لله عِلْمَين:

علمٌ مكنونٌ مخزونٌ لا يَعلمه إلاَّ هو، من ذلك يكون البِداء.

وعلمٌ علَّمه ملائكتَهُ، ورسُلَهُ، وأنبياءَهُ، ونحن نَعْلَمُه»[2].

فعلمُهم مُتَوَارَثٌ، مرصودٌ على أولياء الله في أرضه، نزلَ إلى الأرض من لَدُنه

---

(١) المصدر السابق ص ٩٠ وص ٩١ وص ٩٤ والآية في فصلت ـ ٣٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤ وص ١٠٩ وص ١١٥ وص ١٢٢ وص ١٢٦ تجدها تباعاً.

سبحانه لمصلحة العباد، وما زال تركة كلِّ وليٍّ لخلَفه إلى أن يرث الله تعالى الأرض. وقد قال أبو جعفر الباقر عليه السلام:

« إنَّ العلم الذي لم يزل مع آدم لم يُرفع، والعلمُ يُتوَارَث، وكان عليٌّ عالِمَ هذه الأمَّة. وإنه لن يهلك منَّا عالِمٌ إلاَّ خَلِفَهُ مِنْ أهله مَن يَعلم مثلَ علمِه أو ما شاءَ الله »[1].

وقال ابنُه عليه السلام من بعده: « اللهُ أحكمُ وأكرمُ من أن يفرض طاعةَ عبدٍ يَحجبُ عنه خبرَ السماءِ صباحاً ومساءً »[1].

وهم بذلك لا يدَّعون عِلْمَ غَيب، بل هو عهدٌ محفوظٌ في كتابٍ مرقوم عبَّر عنه الإمام الصادق عليه السلام بقوله المؤكَّد بيمينٍ معظَّمة:

« والله إنِّي لأَعلمُ ما في السماوات وما في الأرض، وما في الجنَّة وما في النار، وما كان وما يكون إلى أن تقومَ الساعة!. أَعلمُهُ من كتابٍ أَنظرُ إليه هكذا ـ ثم بسط كفَّيه ثم قال ـ: إنَّ الله يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[2] ».

وإذا استرسلنا في بيان مورد عِلْمِهم، ومبلغِه وسعتِه وموادِّه، يطول بنا المقالُ كثيراً ونحتاج إلى بحثٍ مستقلٍّ، ولذلك سنقتصر على ما قدَّمناه للقارىء الكريم، مع إضافة شيءٍ آخر يوضح له طريق دراسة سِيَرَ الأئمَّة عليهم السلام، ويبيِّن له أن لهم شأناً خاصّاً يختلف عن شؤون الناس العاديِّين، ويجعله أمام حقيقة هامَّة تتلَّخص في أنه أمام آياتٍ ربَّانيَّة، هو مخيَّرٌ بين الإيمان بها وبين إنكارها؛ ويسلِّيه عرضُها أمام ناظريه لما فيها من عجائب وغرائب وخوارق.. ثم لا يضرُّها أيُّ إنكارٍ أو رفض!.

فقد حدَّد الإمامُ الباقرُ عليه السلام عِلْمَهم لصاحبه أبي بصيرٍ بالتحديد الدقيق التالي:

« قرأ هذه الآية: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[3] ثم قال:

والله ما قال: بين دَفَّتَيِ الْمُصحف.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص١٢٧ والآية في النحل ـ ٨٩.

(٣) العنكبوت ـ ٤٩.

قال أبو بصير: مَنْ هم، جُعلت فداك؟ ـ أي مَن هم الذين أوتوا العلم؟ ـ.
قال عليه السلام: مَن عسى أن يكونوا غيرنا؟! »[1].

هذا وقد وصلَهم الله تعالى بخطٍّ فوقَ ـ إلِكْتْرُونِيٍّ خاصٍّ، هو اسمُه الأعظمُ الذي إذا دُعِيَ به على مَغالِق أبوابِ السماءِ للفتحِ بالرحمةِ انفتحتْ، وإذا دُعِيَ به على مَضائقِ أبوابِ الأرضِ للفرَجِ انفرجتْ، وإذا دُعِيَ به على الْعُسرِ للْيُسرِ تيسَّرتْ، وإذا دُعِيَ به على الأمواتِ للنُّشور انتشرتْ، وإذا دُعِيَ به على كشفِ البأساءِ والضرّاءِ انكشفْ.. فقد كانوا يملكون هذا الاسمَ الكريم الذي تُجاب به دعوةُ المضطرِّ للحال. وقد صرَّحوا بذلك في رواياتٍ كثيرةٍ ومناسباتٍ عديدةٍ، واستعملوه فأَرَوُا الناسَ عجباً!.

قال الإمامُ الباقر عليه السلام لصاحبه جابر:

« إن اسمَ اللهِ الأعظمَ على ثلاثة وسبعين حرفاً. وإنَّما كان عند آصفَ منها حرفٌ واحدٌ، فتكلَّمَ به فخسفَ به الأرضَ ما بينه وبين سرير بلقيس، ثم تناول السرير بيده، ثم عادت الأرض كما كانت أسرعَ من طرفة عين.

وعندنا نحن من الاسمِ اثنانِ وسبعونَ حرفاً، وحرفٌ عند الله استأثر به في عِلْمِ الغيب عنده.

ولا حولَ، ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم »[1].

فآيةُ عِلْمِهم كآية كون النبيِّ ﷺ أُمياً. فقد سأل جعفر بن محمد الصوفي إمامَنا أبا جعفر، محمداً الجوادَ عليه السلام عن ذلك فقال له:

« يا ابن رسول الله، لِمَ سمِّي النبيُّ الأميَّ؟.

قال: ما يقول الناس؟.

قلت له: جُعلتُ فداك، يزعمون أنَّما سُمِّيَ النبيُّ الأميَّ لأنه لم يُحسن أن يكتب.

فقال: كذبوا، عليهم لعنةُ الله!. أَنَّى يكون ذلك والله تعالى يقول في مُحْكَمِ

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٥ وص ٢٠٨ مكرراً إلى ص ٢١١.

كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّنَ رسولاً منهم، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والحكمة..﴾[1] فكيف كان يعلّمهم ما لا يُحسن؟. واللهِ لقد كان رسولُ الله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين ـ أو قال بثلاثة وسبعين ـ لساناً!. وإنّما سُمِّيَ الأميَّ لأنه كان من أهل مَكَّةَ، ومَكَّةُ من أُمَّهات القرى، وذلك قولُ الله تعالى في كتابه: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1]..».

•

والائمةُ عليهم السلام يعرفون الإنسانَ بحقيقة الإيمان، وبحقيقة الكفر، ولا تخفى عليهم مثلُ هذه الأمور لأنهم أهلُ كشفٍ ومعرفةٍ بمخلوقَين معهم. وقد قال أبو جعفر الباقرُ عليه السلام:

«إنَّ الله أخذ ميثاق شيعتنا فينا من صُلب آدم، فنَعرف بذلك حُبَّ المحبِّ وإن أظهر خلافَ ذلك بلسانه، ونَعرف بُغْضَ الْـمُبْغِض وإن أظهر حُبّنا أهلَ البيت»[2].

ثم قال لصاحبه جابر: «إنَّا لَو كُنَّا نحدّثكم برأينا وهَوانا، لَكُنَّا من الهالكين. وَلَكِنَّا نحدّثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله ﷺ، كما يكنز هؤلاء ذَهَبَهم وفضَّتَهم»[2].

وقال لفضيل بن يسار موضحاً أكثرَ فأكثر: «إنَّا على بَيِّنَةٍ من ربِّنا بَيَّنَها لنبيِّهِ، فَبَيَّنَها نبيُّهُ لنا. فلَولا ذلك كُنَّا كهؤلاء الناس»[2].

وزاد في توضيح مصدر عِلْمِهم الإمامُ أبو الحسن عليه السلام، كما عن علي السائي الذي قال:

«سألته عن مبلغ عِلْمِهم؟.

فقال عليه السلام: مبلغُ عِلْمِنا ثلاثة وجوه: ماضٍ، وغابرٌ، وحادِث.

---

(1) المصدر السابق ص٢٢٦ مكرراً في أكثر من صفحة، والاختصاص ص٢٦٣ والآية الأولى في الجمعة ـ ٢ والآية الثانية في الأنعام ـ ٩٢.

(2) المصدر السابق ص٢٨٩ وص٢٩٩ وص٣٠١ تجدها تباعاً.

فأمّا الماضي فمفسَّر، وأمّا الغابر فمزبور ـ أي مذكور مدوَّن ـ وامّا الحادث فقذفٌ في القلوب، ونقرٌ في الأسماع؛ وهو أفضلُ عِلْمِنا، ولا نبيَّ بعد نبيِّنا »[1].
ـ أي لا تظنُّوا أنه يوحَى إلينا بأوامرَ ونواهٍ جديدة ـ.

وكذلك قال أبو جعفر، الباقرُ عليه السلام لأبي بصير:
« يا أبا محمد، إنَّ عالِمَنا لا يَعلم الغَيب. ولَو وَكَلَ الله عالِمَنا إلى نفسه، كان كبعضكم، ولكنْ يُحْدِث إليه ساعةً بعد ساعة »[1]. أي يبلِّغه الحوادث الجديدة.

ولذلك نبَّه الإمامُ الصادق عليه السلام أصحابه بقوله:
« إتَّقُوا الكلامَ، فإنَّا نُؤْتَى به!. »[2].
وكان أبوه عليه السلام قد قال لأصحابه من قبلُ: « قُوموا تَفرَّقوا عنِّي مَثْنَى وثُلاثَ، فإني أراكم من خَلْفي كما أراكم من بين يدَيّ!. فَلْيُسِرَّ عبدٌ في نفسِهِ ما شاء؛ إنَّ الله يُعَرِّفُنيه! »[3].

وهو القائل صراحةً: « الإمامُ منَّا ينظر من خَلْفِهِ كما ينظر من قُدَّامِه »[3].

وما في ذلك أيَّة صعوبةٍ إذا كان أَمَامَ الإمَامِ مرآةٌ إلَهيَّةٌ خَفِيَّةٌ علينا، ينظر فيها فتعكس له صورةَ ما وراءه.

ومثلُ هذه الإشكالات لم يستسغها القُدامَى بسهولة، ولا أَخذوا بها أَخْذَ المسلَّمات ببساطة، بل تقصَّوا حقائقها جداً، وبحثوا ومحَّصوا واستفهموا ليزول ارتيابُهم وليحصلَ لهم التصديق واليقين. وبذلك نبشوا خفايا من الأمور لَو أنها بقيتْ طيَّ الكتمان لَضِعْنا وضاع روَّاد الحقيقة إلى الأبد.

قال أبو بصير للإمام الصادق عليه السلام: « جعلَني الله فداك، العالِمُ منكم يمضي ـ أي يموت ـ في اليوم، أو في الليلة، وفي الساعة يَخْلُفه العالِمُ من بعده في ذلك اليوم، أو في تلك الساعة يَعلم مثلَ عِلْمِه؟!.

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٩ وص ٣٢٥.
(٢) المصدر السابق ص ٣٩٦.
(٣) المصدر السابق ص ٤٢٠ وص ٤٢١.

قال عليه السلام: يا أبا محمد، يُوَرَّثُ كُتباً، ويُزاد في الليل والنهار، ولا يَكِلُهُ الله إلى نفسِه »[1].

وقال الإمام الهادي عليه السلام:

« إنَّ الله جعل قلوب الأئمة مَورداً لإرادته، فإذا شاء الله شيئاً، شاؤوه، وهو قولُ الله: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[2].

وأكتفي بهذا المقدار الجزئيِّ الذي يعطي ملامحَ الصورة وخطوطَها البارزةَ التي يعرف القارئ من خلالها شأنَ أهل البيت عليهم السلام ـ قبل أن يتَّخذ لنفسه رأياً شخصيّاً في مُقابل رأي السماء ـ فينظر في أحوالهم نظرَةً إلى أولياء، أصفياء، مُنتجَبين من لَدُنْ ربِّ العالمين.

ولن أنسى ذكر قول أبي جعفر الباقر عليه السلام ـ كما عن أحمد بن عمر الحلبي:

« لا يَستكمل عبدٌ الإيمانَ حتى يعرفَ أنه يجري لآخرنا ما يجري لأوَّلنا، وهم في الطاعة، والحجة، والحلال، والحرام، سواء. ولمحمدٍ وأميرِ المؤمنين فضلُهما »[3].

فلا ينبغي أن يُدرس نبيُّنا الأعظمُ، وأئمتُنا الكرامُ، صلواتُ الله عليه وعليهم، إلاَّ على حقيقتهم، حتى يُعرف حديثُهم على حقيقته..

ولا يتيسَّر ذلك إلاَّ لمن نال مرتبة الإيمان بالله، ورسوله، وبولاية أهل بيت رسوله، وعَرف أنهم من طينةٍ خاصةٍ مختارةٍ من قِبَلِ العزَّة الإلَهيَّة، قال عنها الإمام الصادق عليه السلام:

« إنَّ الله خلقَنا من طينة عِلِّيِّين، وخلَق قلوبَنا من طينةٍ فوق عِلِّيِّين.

وخلَق شيعتَنا من طينةٍ أسفل من ذلك، وخلقَ قلوبهم من طينة عِلِّيِّين، فصارت قلوبُهم تحنُّ إلينا لأنَّها منَّا.

---

(1) المصدر السابق ص ٤٦٥.

(2) المصدر السابق ص ٥١٧ والآية في الإنسان ـ ١٧ والتكوير ـ ٢٩ وتجده في بحار الأنوار وفي غيره من المصادر المعتبرة التي عرضت لموضوع عِلْمِهم عليهم السلام.

(3) الاختصاص ص ٢٦٨ ـ هو وما سبَقَهُ ـ.

وخلقَ عدوَّنا من طينة سِجِّين، وخلقَ قلوبَهم من أسفل من سِجِّين.
وإنَّ الله رادٌّ كلَّ طينةٍ إلى مَعدنها،
فرَادُّهم إلى عِلِّيِّين،
ورادُّهم إلى سِجِّين»[1].
وزاد في رواية ثانية: «وكلُّ قلبٍ يحنُّ إلى بدَنه»[1].

وهكذا ترى أن الناطقين بالشهادتين بين مصدِّقٍ بما صدَر عن النبيِّ وعنهم، وبين مكذِّبٍ بذلك، لأنَّ الناس مختلفون في القناعات بهم وبما هم عليه، ومتفارقون في اتِّخاذ الآراء والمواقف منهم، بمقدار ما تختلف طينتُهم في الجبلة الأولى، وبمقدار ما تتباين عقولهم في مراتب التفكير، أو ما يكون عليه هوى نفوسهم من مَدٍّ أو جَزْرٍ أو جذبٍ أو دفعٍ، مضافاً إلى أنَّ الأمور العاطفيَّة تتركَّز في القلب والأعصاب والدَّم فلا قوَّة للعقل على تحويلها إلاَّ بالجهد، وأنَّ الأمور العقائديَّة «تصير» أموراً عاطفيَّةً تَحرن أمام براهين العقل وتُمَأْمِىءُ أمام قواعد المنطق، وتنضُر إلى ذلك نظرَها إلى السفسطة وزُخرف القول، وتركِّز جهودها على إنكار فحوى كلِّ جديدٍ عليها، فتضيع عن مبناه ومعناه.

وهذا هو الذي أبقى الجاهليّ على جاهليَّتِه، وخوَّل المعاند أن يقول حين يرى معاجزَ محمدٍ ﷺ: الآنَ عَلِمْتُ أنك ساحر!. مع أنه خالف ضميره، وصرَّح بغير قناعته التي أكَّدت له نبوَّة النبيِّ..

فَالتشيُّع لأهل البيت عليهم السلام ـ مثلاً ـ لا يكون بحبِّهم، ولا بالاعتراف بأنهم أولادُ رسول الله صلَّى الله عليه وعليهم فحسْب، لأنَّ ذلك لا يوصلهم إلى حقِّهم الإلَهيِّ المفروض منه تعالى..

بل هو بحسَب ما حدَّده الإمام الباقر عليه السلام لصاحبه جابرٍ بقولِه لَه:

---

(١) بصائر الدرجات ص ١٤ وص ٢٤-٢٥ عن محمد بن سوقة، وهو كذلك في كتب الأخبار التي عرضت لهذا المعنى.

« يا جابر ، أيكتفي مَن ينتحل التشيّعَ أن يقول بحبّنا أهلَ البيت ؟ ! .

فَوَاللهِ ما شيعتُنا إلاّ مَن اتّقى الله وأطاعه .

وما كانوا يُعرفونَ ـ يا جابر ـ إلاّ بالتواضع ، والتخشُّع ، والأمانة ، وكثرة ذكرِ الله ، والصوم ، والصلاة ، والبرّ بالوالدَين ، والتعهُّد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام ، وصدق الحديث ، وتلاوة القرآن ، وكفِّ الألسن عن الناس إلاّ من خير ، وكانوا أُمناءَ عشائرهم في الأشياء .

قال جابر : فقلت : يا ابن رسول الله ، ما نَعرف اليومَ أحداً بهذه الصفة .

فقال عليه السلام : يا جابر ، لا تذهبنَّ بك المذاهب : حَسْبُ الرجل أن يقول : أُحبُّ علياً وأتولاّه ، ثم لا يكون مع ذلك فَعّالاً ؟ ! .

فلو قال : إنّي أُحبُّ رسولَ الله ﷺ ـ فرسولُ الله ﷺ خيرٌ من عليٍّ عليه السلام ـ ثم لا يتّبع سيرتَه ، ولا يعمل بسنّته ، ما نفعَه حبُّه إياه شيئاً .

فاتّقوا الله واعملوا لِمَا عند الله .

ليس بين الله وبين أحدٍ قرابة ،

أَحَبُّ العباد إلى الله عزَّ وجلَّ ـ وأكرمُهم عليه ـ أتقاهم ، وأعملُهم بطاعته .

يا جابر : فَوَاللهِ ما يُتقرَّبُ إلى الله تبارك وتعالى إلاّ بالطاعة . وما معنا براءةٌ من النار ، ولا على الله لأحدٍ من حُجّة .

مَن كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ ،

ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ .

ولا تُنال شفاعتُنا إلاّ بالعمل والورع »[1] .

•

فلا تمارِ بآلائهم ليقالَ إنك مُحب ، ولا تُلجىءْ نفسَك إلى حُبِّهم إلْجاءً .. ولا تَحملها على تولّيهم حَمْلاً .. بل كُنْ مسلماً .. عاملاً بإسلامك كما نزل من عند الله .. تكن محبّاً .. وموالياً ، لهم ولمن والاهم ، بكل تأكيد .. وتكن ـ من ثَمَّ ـ مسلماً لله ، مسلّماً بقول رسول الله ، مؤمناً بكامل ما جاء به عن ربّه .

---

(١) بحار الأنوار ج ٦٧ ص ٩٧ ـ ٩٨ والكافي م ٢ ص ٧٤

وبهذا يتَّضح جليّاً أن « الحديث » أو « الأمر » الذي صرَّحوا به، هو أمانةٌ ثقيلٌ حَمْلُها، جليلٌ أمرُها، لا تَلج الآذان دون استئذان، ولا تدخل إلى القلوب دون برهان، ولا تستسيغها النفوس دون إيمان.. وهي ـ بحقيقتها ـ ما حملَه أهلُ بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وعليهم إلى الناس من الخير المحض، وما نقلوه من « أمرِ الله » الذي صدع به جدُّهم مستقًى من عينٍ صافيةٍ يتناول بيان رسالة الإسلام وسائرَ رسالات السماء، ليمتحنَ الله تعالى الناسَ بالحقِّ فيقف كلُّ امرئٍ منها موقف « إيمانٍ » أو « لا إيمان ».. ولا أَمْرَ بين الأمرَين.

فبالنسبة إلينا ـ كمسلمين ـ يكون « أمرُهم » ـ أو « حديثُهم » ـ ذاك الذي عناه كتابُ الله الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1].

فقد أبت الكائناتُ حَمْلَ تلك الأمانة.. وحملَها الإنسان. فعرَفها من الناس مَن عرَفها، وضلَّ عنها مَن ضلَّ، فكان « ظَلُوماً » لنفسه « جَهُولاً » بها وبماهيتها، إذا لم يؤمن بجميع ما جاء عن الله تعالى، ولم يُقرَّ بولاية أوليائه إقرارَ تصديق لا يرقى إليه الرِّيب.

فحديثُهم يَحمل هذه الأمانة في طيِّ ألفاظه ومنحنَيات حروفه، وما خلا حديثٌ واحدٌ من أحاديثهم عن أمرٍ من أوامر الله عزَّ وجلَّ لأنهم كانوا مستأمَنين أُمَناء في غاية الأمانة.

ولكنْ، ما أقلَّ الآخذين « بحديثهم » و« بأمرهم » مئةً بالمئة!.

وما أقلَّ الواصلين إلى مرتبة تصديقهم، ومنزلة حَمْلِ « أمانتهم » إلى الغير، ليكونوا مؤدِّين لها « كالنبيِّ المرسَل » و« كالملَك المقرَّب » و« كالمؤمن الممتَحن الذي يرى لزاماً عليه « نَقْلَ » الحقِّ إلى مَن سِواه مِن إخوانه المسلمين!.

فحديثُ الله تبارك وتعالى، هو كتابُه الكريم،

وحديثُ محمدٍ ﷺ، هو « دعوتُه » ورسالتُه بالكامل،

---

(١) الأحزاب ـ ٧٢.

وحديثُ أهل البيت عليهم السلام ـ بالحقيقة ـ هو ما نقلوه عن كتاب الله وسنَّة نبيِّه وجوهر رسالته ممَّا يجسِّد ولايتَهم التي حباهم الله تعالى بها.

فالدعوة إلى الله، والأمرُ بالحقِّ، والنهيُ عن الباطل، من حديثهم ـ ومن أمرهم ـ الذي يَحمله المؤمنُ إلى أخيه المؤمن؛ كما أن «ولايتهم» ـ كذلك ـ من صميم هذا الواجب، لأنَّ المسلم مسؤولٌ عنها، ولا عُذر له في جهلها ولا في تجاهلها.

وعن أبي بصير أن الإمام الصادق عليه السلام قال له:

«يا أبا محمد، إنَّ عندنا واللهِ سرّاً من سرِّ الله، وعلماً من عِلْمِ الله ما يحتمله مَلَكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ، ولا مؤمنٌ امتحن الله قلبه للإيمان.

واللهِ ما كلَّفَ اللهُ ذلك أحداً غيرَنا.

وإنَّ عندنا سرّاً من سرِّ الله وعِلْماً من عِلْمِ الله أمرَنا الله بتبليغه فبلَّغنا عن الله عزَّ وجلَّ ما أمرَنا بتبليغه، فلم نجد له موضعاً، ولا أهلاً، ولا حَمَّالةً يحتملونه، حتى خلق الله أقواماً خُلقوا من طينةٍ خُلق منها محمدٌ وآلُ محمدٍ وذريَّتُه عليهم السلام، من نورٍ خلق الله منه محمداً وذريَّتَه، وصَنَعهم بفضل صُنْعِ رحمتِه التي صَنَع منها محمداً وذريَّتَه. فبلَّغنا عن الله ما أمرَنا بتبليغه فَقَبِلُوهُ واحتملوا ذلك. فبلَغهم ذلك عنَّا فَقَبِلُوهُ واحتملوه. وبلَغهم ذِكْرُنا فمالت قلوبُهم إلى معرفتنا وحديثنا.

فلولا أنهم خُلقوا من هذا لَمَا كانوا كذلك، لا واللهِ ما احتملوه.

ثم قال: إن الله خلق أقواماً لجهنَّم والنار، فأُمرنا أن نبلِّغهم كما بلَّغناهم. واشمأزُّوا من ذلك، ونفرتْ قلوبُهم، وردُّوه علينا، ولم يحتملوه، وكذَّبوا به، وقالوا ساحر كذَّاب!. فطَبع الله على قلوبهم، وأنساهم ذلك، ثم أطلق لسانَهم ببعض الحق فهم ينطقون به وقلوبُهم مُنْكِرَةٌ، ليكون ذلك دفعاً عن أوليائه وأهل طاعته. ولولا ذلك ما عُبِدَ الله في أرضه. فأمرَنا الله بالكفِّ عنهم والستر والكتمان. فاكتموا عمَّن أمرَ الله بالكفِّ عنه، واستروا عمَّن أمرَ الله بالستر والكتمان عنه.

قال: ثم رفع يده وبكى وقال:

اللهم إن هؤلاء لَشرذمةٌ قليلون، فاجعلْ محيانا محياهم، ومَماتَنا مَماتهم، ولا

تسلّط عليهم عدوّاً لك فتفجعنا بهم؛ فإنك إن أفجعتنا بهم لم تُعبد أبداً في أرضك، وصلّى الله على محمدٍ وآله وسلّم تسليماً »[1].

فمَن هم أولئك الذين يعبدون الله حقّاً دون غيرهم من الناس؟

ولماذا كانوا شرذمةً قليلين؟.

ولِمَ دعا الإمام ربّه أن يصونهم؟!.

هذه أسئلةٌ تَطرح نفسَها، وتجري - هي وغيرُها - على أَلْسنة الكثيرين من الناس، ويَضيق بها صدرُ مَن « لا يريد » أن يحمِّل الكلامَ أكثرَ من ظاهره.

ولكنْ، إذا سُمع الجوابُ عليها دون تعقيد، لَرأيناها تَعني أنَّ « الإيمان » بولاية الأئمَّة جزءٌ من الإيمان بأمر الله تعالى، لأنَّ أَمْرَهم من أمره، والتعبُّد له سبحانه بالرُّبوبيَّة، كالتسليم لمحمدٍ ﷺ بالنبوَّة، وكالإقرار لهم بالولاية من غير أن يذهب بأصحاب الصدور الحصِرة أنَّ ذلك الإقرار يجعل الأئمَّة شُركاءَ في أُلوهيَّة الله، وأكفاءَ في نبوَّة النبيّ!.

فمعنى ذلك، أبسطُ من ذلك.. وهو أن أئمَّة أهل البيت عليهم السلام عبادٌ مكرَمون.. قد أسلموا وجوهَهم لله تبارك وتعالى، وصدَّقوا برسوله وبما جاء به تصديقاً لا يُخامره رَيب، فجعلهم الله تعالى عُرفاءَ مقدَّمين على غيرهم بما أفاض عليهم من نعمائه وبما أجزل عليهم من عطائه.

فنصَّبهم سبحانه وتعالى لولاية أمور عباده، وجعلهم حُججاً عليهم،

كما أنعمَ عزَّ اسمُه على جدِّهم ﷺ بالنبوَّة وبإقامة أمره، وجعلَه رسولاً،

وشاءَ ذلك وقضى به، كما شاء هذا وقضى به.

فكان إنكارُ أمرهم إنكاراً لفعله سبحانه، واعتراضاً على مشيئته، ومشارَكةً له في إرادته، لأنه رفضٌ للمنصوص عنه على لسان رسوله!.

والمؤمن بذلك، هو وحدَه المصدِّق بما جاء عن الله كاملاً؛ وهو - بالتالي -

---

(١) البرهان م ٤ ص ٥٤٧ - ٥٤٨ والكافي م ٢ ص ٤٠٢.

المتعبدّ له بالطاعة والإذعان لكلّ ما نزل من عنده؛ لأنه لا يؤمن ببعض ما جاء ويَكفر ببعض.

والمؤمنون بأوامره سبحانه كاملةً وإلى غاية منتهاها، هم شرذمةٌ قليلون.. وكثيراً ما يكونون مرفوضين ـ من أهل الدُّنيا وأهل الباطل ـ وملاحقون، ومحارَبون.. فلا عَجب أن يدعوَ الإمامُ لهم بالصَّون من أَيدي الظَّلَمة في الأرض.. ولا أكثرَ من ذلك في طيِّ ذلك الجواب.

ولزامٌ على مَن كان ـ كذلك ـ مؤمناً ممتحَناً ـ بالتصديق لحديثهم ـ أن ينبذه إلى حمّالةٍ يحتملونه عنه لِيُخرجوه بِدَورهم إلى غيرهم، لأنَّه إذا تُنُوقِلَ على هذا الشكل يبقى سائراً باستمرار، وينجو الناس من الضياع ويأخذون طريق الحقِّ والهدى.

ونحن إنما نفعل ذلك.. رغم بُعدنا عن منزلة الإيمان الممتحَن.

•

ولا يَعجلنَّ قارئي الكريم بتقليب شفتَيه قبل أن يتهضَّم كلامي على وجهه المقصود، لأن العجَلة غيرُ محمودة العاقبة.

فالأرض لا تخلو من حجةٍ للهِ تعالى على عباده ـ منذ آدم عليه السلام ـ إمَّا أن يكون ظاهراً معروفاً مقبولاً، وإمَّا أن يكون غائباً مستوراً عن أعين أهل الباطل.

ولم يكن نبيٌّ بدون وصيٍّ ـ باعتراف سائر الْفِرق الإسلاميَّة، وفي سائر الأديان ـ، كما أنَّ أحداً من الناس لا يموت بلا وصيَّة ينفِّذها «وصيٌّ» يجعله قائماً على أمره من بعده، مع فارقٍ هامٍّ وهو أنَّ أوصياء الموتى يوزِّعون تركاتهم بحسَب القواعد الشرعيَّة وينتهي عملُهم، وأنَّ أوصياء الأنبياء يكونون خلفاء الله على أرضه، ويبقَون وُلاةً للأمر، هداةً أُمناءَ على التراث السماويِّ، متعاقبين على ذلك واحداً بعد واحدٍ، وإلى الأبد.. جارياً لأوّلهم من العلم والفضل ما يجري لآخرهم، يقدِّمون أمر الله على كلِّ أمرٍ، وحُكم الله على أيِّ حُكمٍ، ولا يتعدَّون الصوابَ ولا يخالفون السنَّة ولا الكتاب. ولذلك قال الإمام الصادق عليه السلام:

« إنَّ الحجة لا تقوم لله على خَلْقه إلاَّ بإمامٍ حيٍّ يُعرف »[1].

وقال عليه السلام في حديثٍ طويل:

« .. لَعلَّكم ترَون أن هذا الأمر في الإمامة إلى الرَّجُلِ منَّا يضعُه حيث يشاء!.
واللهِ إنَّه لَعهدٌ من الله نزَل على رسوله ﷺ إلى رجالٍ مسمَّين: رَجُلٍ فَرَجُلٍ حتى تنتهيَ إلى صاحبها »[2].

وممَّا لا مشاحَّة فيه ولا جدال، أنَّه حتى يتمكَّن الرسولُ من القيام بدَوره الرِّساليِّ كاملاً في مجتمعه، لا بدَّ أن يكون مُعَدّاً إعداداً تامّاً يكفل القيام بهدم أوضاعٍ سقيمةٍ وإقامة أوضاعٍ سليمة، ومنزَّهاً عن سائر انحرافات مجتمعه، متأصّلاً على كلِّ ما هو جديرٌ بأن يجعله القدوة الصالحةَ والْمَثَل الأكملَ والنموذج الفردَ، بحُكم كونه خليفةَ الله تعالى في أرضه وحجتَه على خَلْقه، وبحكم كونه « مصنوعاً » من عنده تعالى كما ينبغي أن يكون خليفتُه عزَّ وجل.

ولا جدال ولا مشاحَّة ـ أيضاً ـ في أن الوصيَّ ـ أو الإمامَ ـ الذي يكون عملُه امتداداً لعمل الرسول، يجب أن يكون مُعَدّاً إعدادَ الرسول لحمل رسالته، ليكون جديراً بصَونِ ما أقام الرسول من بناء، وحياطةِ جميع ما سنَّته السماء، وأن يكون قُدوةً في العلم والفضل، ومثلاً أعلى للناس بحكم مركزه الذي انتدبه الله تعالى إليه..

وإذا كان الأمرُ كذلك، كان وصيُّ النبيِّ على تُراثه الربَّانيِّ ـ إذاً ـ ذا صلاحياتٍ تفوق مستوى صلاحيات وصيِّ الميِّت العاديِّ على تركته. ولذلك يُشْرِف الرسولُ ـ بأمر ربِّه ومشيئته ـ على تربية وصيِّه تربيةً لائقةً بحمل الرسالة، وكفيلةً بأن تجعله حُجةً في العِلم، والفضل، والْخُلق، وتعميق المفاهيم، وتثبيت الأحكام، وتصحيح الأخطاء، ليتحقَّق به استمرارُ الأداءِ وامتدادُ أمر السماء من غير حاجةٍ للرجوع إلى مَن هو أفضلُ منه.

---

(١) بحار الأنوار ج٢٣ ص٢ عن الاختصاص ص٢٦٨ نقلاً عن الكافي م ١ ص١٧٧ عن الإمام الرِّضا عليه السلام.

(٢) المصدر السابق نفس الجزء ص٧٥ عن الغيبة للنعماني ص٢٣ عن عمرو بن الأشعث، وكان مع نحوٍ من عشرين رجلاً في المجلس.

فإعدادُ الوصيِّ، هو ـ أيضاً ـ سماويٌّ كإعداد الرسول،

وهو من مهمَّة الله تعالى بالذات، لا مهمة أحدٍ سواه، وإن كان الرسول هو الذي يباشر «تطبيعه» بحسَب الوحي ليتمَّ التطابق بين سلوكيَّة الرسول ووصيِّه.

ذاك أنَّ الإمامة ـ الشبيهة بالنبوَّة ـ سفارةٌ سماويَّةٌ بالمعنى الواسع والضيِّق، تصدر «مراسيمُها» عن السُّدَّة الإلٓهية ومن فوق عرش الله تبارك وتعالى.

وهي ـ كـالنبوَّة ـ ممَّا تفرَّد سبحانه به لنفسه، وأملاه على رسوله إملاءً ـ وحياً من عنده، ولا دَخْلَ لغيره في تعيين سفرائه وتسمية حُججه على أرضه.

وقد قال الإمام الرِّضا عليه السلام:

«نحن حججُ الله في أرضه، وخلفاؤه في عباده، وأمناؤه على سِرِّه.
ونحن كلمةُ التقوى، والعروةُ الوثقى،
ونحن شُهداءُ الله وأعلامُه في بريَّته.

بنا يُمسك اللهُ السماواتِ والأرضَ أن تَزولا، وبنا يُنزل الغيثَ ويَنشر الرحمة.

لا تخلو الأرض من قائمٍ منَّا، ظاهرٍ أو خافٍ؛ ولو خلَتْ يوماً بغير حُجةٍ لَماجَتْ بأهلها كما يموج البحرُ بأهله»[1].

وقال من قبله جدُّه الصادق عليه السلام:
«إنَّ الأرض لا تخلو من أن يكون فيها حُجةٌ عالِم؛
إنَّ الأرض لا يُصلحها إلاَّ ذلك، ولا يُصلح الناس إلاَّ ذلك»[2].

ولم يتجرَّأ ـ ولا تجرَّأ، ولن يتجرَّأ ـ أحدٌ أن يقولها غيرُهم منذ أربعة عشر قرناً وإلى قيام الساعة، لأنهم ـ وحدَهم ـ أهلُها، في محلِّها. ومَن يَقُلْهَا بغير حقٍّ يُنادِ على نفسه بالكذب، أو يُرْمَ بحجارةٍ من السماء، أو يُؤْخَذْ بعذابٍ أليم!.

فلا يُنظر إلى الإمامِ الوصيِّ، إلاَّ من خلال أنَّ حجة الله في الأرض يكون من

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٣ ص ٣٥ عن إكمال الدين ص ١٧٧.

(٢) بحار الأنوار ج ٢٣ ص ٣٥ ـ ٣٦ عن إكمال الدين ص ١٧٧ عن الحسن بن زياد، عنه عليه السلام.

غير طينة الآخَرين، وإن كان بَشَراً من البشَر ـ تماماً كما أنَّ النبيَّ بشرٌ من طينة عِلِّيِّين ـ.

فالأنبياء، وأوصياؤهم، هم حُماةُ الْخَلق من الضلال، وَوُقاةُ رسالة السماء من الانحراف أو الزوال؛ لأنَّهم سدَنَةُ الدِّين الذين لا يفوتهم شيءٌ من حقائقه ودقائقه. كما أنه «لا يغيب» عنهم شيءٌ ممَّا يكون الْخَلق عليه في كلِّ حال وفي كل زمانٍ ومكان. ولهذا قال الإمام الصادق عليه السلام لعبد العزيز الصائغ:

«أتَرى أنَّ الله استرعى راعياً على عباده، واستخلفَ خليفةً عليهم، يَحجب عنه شيئاً من أمرهم؟!!»[1].

والجواب: قطعاً، لا.

فإن الحكومة لا تنتدب سفيراً لها إلاَّ إذا كان من المثقَّفين النابهين، ومن أهل الفكر والرأي الْمُتقِنين لعدَّة لُغات، لِيُعطيَ صورةً جميلةً لوجه دولته. فلا جَرَمَ أن يكون سفيرُ الله على المستوى الأمثل لسفارة الإلَه لِيُعطيَ الصورة المبارَكةَ الْمُثلى لحكومة السماء. وهذا هو معنى قول الإمام الصادق عليه السلام لصاحبه هشام بن الحكَم:

«يا هشام، مَن شَكَّ أنَّ الله يحتجُّ على خَلْقِه بحجةٍ لا يكون عنده كلُّ ما يحتاجون إليه فقد افترى على الله»[1].

وإنَّه لَيفتري عليه سبحانه افتراءً عظيماً، إذ يرميه بالعجز عن «تجهيز» سفيره بما يَلزمه.

فمن المستحيل أن يكون السفير جاهلاً ما هي عليه دولتُه من سياسةٍ وتخطيطٍ ونظام، بل يكون راسخَ العلم فيما يختصُّ بأنظمتها وأهدافها، وبما يوافق تلك الأنظمة والأهداف أو يخالفها.

وعلى هذا الأساس قال الإمام الباقر عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) بصائر الدرجات ص ١٢٢ وص ١٢٣.

يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1]:

«...رسولُ الله أفضلُ الرّاسخين. قد علَّمه الله جميع ما أنزله الله إليه من التنزيل. وما كان لِيُنْزِلَ عليه شيئاً لم يعلِّمه تأويله. وأوصياؤه من بعده يَعلمونه كُلَّه»[1].

فكيف يسلِّم الْمُسْلِمُ بهذا للرسول.. ثم يُنكرُه على وصيِّه؟.

أَفَلاَ يَعلم بأنه حين يحطُّ من شأن الوصيِّ يكون قد حطَّ من شأن الْمُوصي؟!!..

بلَى.. وإنَّ أئمَّةَ أهل البيت لَيعلمون التنزيل والتأويل كما يعرفه الرسولُ ـ معلِّمُهم الأصيل ـ وهو ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ..﴾[2]: و«همُ الأئمَّةُ خاصَّة»[2]. كما قال ذلك الإمام الرِّضا وغيرُه من آبائه وأبنائه عليهم السلام جميعاً.. وكما حفظت هذا القول كتبُ الحديث والتاريخ.

وَ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ..﴾[3] وهـو غير محتاجٍ لمن يَصطفي لولاية أمره وخلافته على خَلْقِه..

ونحن بحاجةٍ إلى وقفة تأمُّلٍ.. قبل اتِّخاذ القرار.. لئلا نقع في الضياع!.

•

وقبل إنهاء الكلام في هذا الموضوع، نُطلع القارىء الكريم على إنذار الإمام الباقر عليه السلام، الذي نقله عنه محمد بن مسلم، حيث قال:

«كلُّ مَن دانَ لله عزَّ وجلَّ بعبادةٍ يُجهد بها نفسهُ ولا إمامَ له من الله، فسعيُهُ غيرُ مقبول، وهو ضالٌّ متحيِّرٌ؛ والله شانيءٌ لأعماله.

ومَثَلُه كَمثل شاةٍ ضلَّت عن راعيها وقطيعها، فهجمت ذاهبةً وجائيةً يومَها. فلمَّا جنَّها الليل بَصُرتْ بقطيع غنمٍ مع راعيها فحنَّت إليها واغترَّت بها، فباتت

(١) آل عمران ـ ٧ والحديث في بصائر الدرجات ص ٢٠٢ عن بريد العجلي.

(٢) العنكبوت ـ ٤٩ والحديث في بصائر الدرجات ص ٢٠٢ وعدة مصادر أخرى.

(٣) الأنعام ـ ١٢٤.

معها في مربضها. فلمّا أن ساق الراعي قطيعَهُ أنكرت راعِيَها وقطيعَها، فهجمت متحيِّرةً تطلب راعِيَها وقطيعَها فَبصُرتْ بغنمٍ مع راعيها، فحنَّت إليها واغترَّت بها، فصاح بها الراعي: الْحَقِي براعيكِ وقطيعكِ فأنتِ تائهةٌ متحيِّرةٌ عن راعيكِ وقطيعك. فهجمت ذَعِرَةً، متحيِّرةً، تائهةً، لا راعيَ لها يُرشدها إلى مرعاها أو يردُّها.

فبينا هي كذلك إذِ اغتنم الذئبُ ضَيعتَها، فأكلَها!.

وكذلك واللهِ يا محمد، مَن أصبح من هذه الأمة لا إمامَ له من الله عزَّ وجلَّ، ظاهر عادل، أصبح ضالاً تائهاً. وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفرٍ ونفاق.

واعلم يا محمد، أن أئمة الْجَور وأتباعَهم لَمعزولون عن دين الله، قد ضلّوا وأضلّوا. فأعمالُهم التي يعملونها ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾[1].

---

(١) الكافي م ١ ص ١٨٣ - ١٨٤ والآية في إبراهيم - ١٨.

٢ـ مَا لا بُدَّ مِن قوله:
هُم محَدَّثُون.. وَمُلهَمُون..

•

الأمرُ الثاني مما لا بُدَّ من قوله قبل الدخول في صُلب موضوعنا، هو أنَّ أولياء الله تعالى محدَّثون.. وملهَمون.. وقد يوحَى إليهم!.

وإنهم لَكذلك ببراهين نَعرضها من غير أن نحكيَ حَكْيَ نِسوانٍ أو تخاليطَ أحلام، ومن غير أن نعتمد رصفَ الْجُمل وتفويفَ الألفاظ.

فأئمتُنا عليهم السلام كانوا «يُعْطُون» حلول ما يَعرض لهم من مسائل ومشاكل في شتَّى مناسبات حياتهم، حتى اشتهر ذلك عنهم وذاعَ وملأَ الأسماع، فغصَّت بطونُ الكتب بتسجيل آياتهم ومعجزاتهم التي حفل بها التاريخ وأثبتَها على صفحاتٍ مشرقة.. ولكنَّ حُبَّ الدُّنيا حرف أنظار الراغبين في الدنيا عنهم وعمَّا سجَّل التاريخ لهم، إذ أُقصوا عن الْحُكم ولُوحِقُوا بشدَّة ـ وخصوصاً في عهدَي السُّفيانيَّة والعباسيَّة ـ بل دُفعوا عن حقِّهم قبل ذَينك العهدَين بشهوة السُّلطة وطمعاً بالْحُكم وبنعيمه وعضارته، فَأُوذُوا، وقُهـروا، واستُضعفـوا، وحيـلَ دون ظهـور عِلْمهـم وفضلهم، ولكنَّه خرجَ من بين ذينٍ وذينٍ ما ملأَ الخافقَين. فإذا فضلُهم بغاية الظُّهور، وإذا صفاتُهم قد أُخذت بالريشة أخذاً دقيقاً وثيقاً، كمراجع للأمة بلا جدال، وكَحَملَة للقرآن والسنَّة لدى كل سؤال، بَلْهَ ما كان وما يكون، وسيبقى فضلُهم ظاهراً إلى أن تنطفئَ شمسُ هذا الكون!.

•

ولكنْ.. هل كان أهلُ البيت عليهم السلام ضُعفاء حتى اعتُبروا مستضعَفين؟.
أم عاشوا «نَكِرَاتٍ» لِيُصبحوا مغمورين.. فَمَنسِيِّين؟.
أم كانوا غيرَ لائقين لولاية أمور الناس فكانوا عنها مُبْعَدين؟!!
أم كـانوا يسكتون ولا يطلبون حقَّهم، فاعتُبروا غيرَ أصحاب حق؟!.

لا ، لا يجوز هذا ولا غيرُه في حقِّهم، لأنهم فوق ما يظنُّ بهم القالون، وإن كانوا دون ما يضعهم فيه الغالون.

فقد كانوا معروفين بذَواتهم، وبصفاتهم، لدى الخاصِّ والعامِّ من مُعاصريهم. ولكنَّهم كانوا « مأمورين » بالصبر على اقتناص « حقِّهم » بعهدٍ معهودٍ لهم من جِّدهم رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فصبروا ، وسكتوا حفظاً لبيضة الدِّين وعملاً لوحدة للمسلمين، وإبقاءً على دَورهم في تفسير الكتاب وبيان السنَّة كيلا يذهبَ بها استنسابُ أذواق الْمُتفيهقين، ورحمةً بالثُّلة المؤمنة التي ائتدبتْ بأدب الإسلام.. لِيَهلك مَن هلك عن بيِّنةٍ، ويحيا مَن حيَّ عن بيِّنة..

فقد سكتوا عن حقِّهم لِيُسْكَتَ عنهم، ولينصرفوا إلى القيام بواجبهم الربَّانيِّ، ويقوموا بربط حلقات وظيفتهم التي انتُدبوا لها ، فَبدَوا « مستضعَفين » كما سمَّاهم جدُّهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله في ما أشار إليه سبطُه الإمام الصادق عليه السلام في حديثه مع المفضَّل بن عمر حيث قال:

« إن رسول الله صلى الله عليه وآله ، نظر إلى عليٍّ والحسن والحسين عليهم السلام فبكى وقال:

أنتم المستضعَفون بعدي.

قال المفضَّل: فقلتْ له: ما معنى ذلك يا ابنَ رسول الله؟.

قال: معناه أنكم الأئمةُ من بَعدي، إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِين اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً، وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(١) فهذه الآيةُ جاريةٌ فينا إلى يوم القيامة »(١).

فهم أصحابُ حقٍّ سكتوا عنه لِمَا ذكرنا.. ولأنَّهم شهداء على الناس.

وهم موعودن بما أجراه الله تعالى عليهم منذ سكوتِ أمير المؤمنين عليه السلام ليتفرَّغ لترسيخ العقيدة، إلى صبرِ الحسن عليه السلام على صُلحٍ فضحَ به عدوَّه، فإلى قول الحسين عليه السلام: شاءَ الله أن يراني قتيلاً.. فإلى آخر « إلى ».. ممّا يفسِّر تصرُّفاتِهم عبر حَيَواتهم الكريمة.

---

(١) معاني الأخبار ص ٧٩ والآية في القصص ـ ٥.

وهم راضون بقضاء الله عزَّ وجلَّ عليهم، ومُسلِمون مسلِّمون له، مؤمنون به سبحانه وبكلٍّ ما جاء من عنده إيماناً عجيباً؛ ولذا قال الإمام الرِّضا عليه السلام:

« لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون فيه ثلاثُ خصال: سنَّةٌ من ربِّه، وسنَّةٌ من نبيِّه، وسنَّةٌ من وليِّه.

فأمَّا السنَّةُ من ربِّه فكتمانُ السِّر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ..﴾[1].

وأمَّا السنَّةُ من نبيِّه فمداراةُ الناس، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ أمَره بمداراة الناس فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

وأمَّا السنَّةُ من وليِّه فالصبرُ على البأساء والضرَّاء، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1] ».

والأئمة عليهم السلام كانوا أولَى بذلك كلِّه. فقد أخذوا بسنَّة ربِّهم « فكتموا السِّر » وبسنَّة نبيِّهم « فدارَوُا الناس » ولم تَخْفَ سنَّتُهم على أحدٍ إذ « صبروا على البأساء والضرَّاء » صبراً غريباً رغم انتهاب حقِّهم، وانتهاك حَرَمهم، واقتناص حرِّيَّتهم.. وما بدَّلوا تبديلاً.

وهُم وحدَهم ـ من بين المسلمين ـ كانوا يعرفون إلى أين يصيرون، ويعيشون أسيادَ أنفسهم بين مسلمين ما سَلِمَ من بطشهم إلاَّ مَن باعهم دِينَهُ بدُنياه!. ومعرفتُهم بذلك كانت مفروغاً منها عند المؤالفين والمخالِفين من مُعاصريهم، حيث نقلَ الْمُؤالِفُ والْمُخالفُ عجائبَ وغرائب صدرتْ عنهم فأدهشت العقول وفلَجت الخصوم، فآمنَ بها وبهم مَن كان بهم كافراً وبربِّه مُلحداً، ولَحِقَ بهم من كان عنهم منحرفاً، واهتدى بحُججهم وبَراهينهم الدامغة مَن كان ضالاً، وتحدَّث بذلك الأفرادُ والجماعاتُ فعجزَ التاريخُ الجائرُ عن طَمْسِه، إذ لم يكن أمْرُهم سرّاً من

(١) معاني الأخبار ص١٨٤ روايةً عن مبارك مولاه. والآية الأولى في الجن ـ ٢١ـ٢٢ والثانية في الأعراف ـ ١٩٩ والثالثة في البقرة ـ ١٧٧.

الأسرار، بل كانوا يعلنونه ولا يخشَون سلطاناً بجنب سلطان الله تعالى.. **فقد قال** الحسن بن الجهم للإمام الرِّضا عليه السلام، في مجلس المـأمون ـ المتربِّع على عرش السُّلطة ـ في حديث:

«يا ابنَ رسول الله، بأيِّ شيء تصحُّ الإمامةُ لمدَّعيها؟

قال عليه السلام: بالنَّص والدليل.

قال: فدلالة الإمامة فيمَ هي؟

قال: في الْعِلْمِ واستجابة الدعاء.

قال: فما وجه إخباركم بما في قلوب الناس وبما يكون؟.

قال عليه السلام: أَمَا بلَغك قولُ رسول الله ﷺ: اتَّقُوا فراسة المؤمنِ فإنَّه ينظر بنور الله؟.

قال: بلى.

قال: ومـا من مؤمنٍ إلاَّ وله فراسة، ينظر بنور الله على قَدَرِ إيمانه ومَبلغِ استبصاره وعِلْمه. وقد جمعَ الله في الأئمَّة منَّا ما فرَّقه في جميع المؤمنين..

فنظر المأمون فقال له: يا أبا الحسن زِدْنا ممَّا جعل الله لكم أهلَ البيت.

فقال الرِّضا عليه السلام: قد أَيَّدَنا بروحٍ منه مقدَّسة مطهَّرةٍ ليست بملَك. لم تكن مع أحدٍ ممَّن مضى، إلاَّ مع رسول الله ﷺ، وهي مع الأئمة منَّا تُسَدِّدهم وتُوَفِّقهم؛ وهو عمودُ نورٍ بيننا وبين الله عزَّ وجلَّ»[1].

فارتضى المأمونُ هذا الكلام ـ بالرغم من أنه لم يشاهد تلفزيوناً ولا ما هو أعجبُ منه ليصدِّق بعمود النور ـ بل هو مَن هو حين يفكِّر ويقدِّر ويَزِنُ الكلام، إذ لم يكن عجوزاً تؤمن بالخرافات، ولا عيّاً في المناقشات، ولا غِرّاً ساذجاً يطأطىءُ رأسه لغير الحقائق، بل كان نقَّاداً ماهراً يُعَدُّ في رأس جهابذة عصره المزدهر بالعلْم والكلام.. لكنَّ قائل هذا القول كان «سيِّد» مجالس ذلك العصر ـ في الخارج وداخلَ القصر ـ بلا منازع. والداخلُ بينه وبين الله يزجَّ به الشيطان في مأزقٍ لا

(١) عيون أخبار الرِّضا ج ٢ ص ٢٠٠ وبحار الأنوار ج ٢٤ ص ١٣١.

هاديَ له فيه ولا دليل، لأنه ـ عليه السلام ـ ممَّن لا ينطقون عن الهوى، رضيَ بذلك عدوُّه أم أَبَى.. فهو مصطفىً مختارٌ من قِبَلِ العزيز الجبَّار!.

فَمُعاصِرُو أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، لَمَسُوا كَوْنَهم مؤيَّدين مسدَّدين إماماً بعد إمامٍ بتسديدٍ وتأييدٍ خَفِيَّين على التفكير والتقدير لدى النظر والتحليل... وقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«كان مع رسول الله ﷺ، مَلَكٌ أعظمُ من جبرائيل وميكائيل، كان يوفِّقُه ويسدِّده، وهو مع الأئمَّة مِنْ بعده»[1].

وقال عليه السلام في مجلسٍ آخر:

«إنَّ الإمامَ مؤيَّدٌ بروح الْقُدس، وبينه وبين الله عزَّ وجلَّ عمودٌ من نورٍ يرى فيه أعمال العباد؛ وكلَّما احتاج لدلالةٍ اطَّلع عليه. ويُبْسَطُ فَيَعلم، ويُقْبَضُ عنه فلا يَعلم»[2].

وها إنيِّ ـ وأنا أكتب هـذا الخبر الشريـف ـ أجلس مُقـابـل التلفـزيـون لسماع الأخبار، فأرى المذيع يقرأها بطلاقة عجيبةٍ دون أن يمسك بيده ورقةَ «نشرةِ الأخبار»، لأنه يقرأها على شريطٍ كَهربا ـ إلِكْتْرُونيٍّ يتحرَّك أمامه لَولَبيّاً فتَظهر عليه الكتابة مُشرقةً بأحرف من نورٍ تتلألأ واضحةً جلية، تُديرها آلةٌ تباعاً من أَلِفِهَا لِيَائِها، ويتراءى للناظرين أَنَّ المذيع يقرأها غيباً وكأنَّه حفظَها عُن ظهر قلب.. فما أَشبهَ أمرهم عليهم السلام «بعمود نورٍ» يتناول نشرة الأخبار دون غيرها!.

وقد صرَّح أكثرُ أئمتنا عليهم السلام بذلك فما كذَّب به أحدٌ إلاَّ ممَّن ناصَبُوهم العداءَ ونَفِسُوا عليهم بمواهب الله تبارك وتعالى التي كانت لهم ـ بمقتضى وظيفتهم الإلَهيَّة ـ دون غيرهم. أو ممَّن كانوا لَحَسَةَ صحون السلاطين فأُتخمت بطونُهم بما قضموا من حلال الدُّنيا وحرامها، وتلبَّس الشيطان عقولَهم وعَشَّش في قلوبهم

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٥ ص ٦١ رواية عن أبي الصباح.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء ص ١١٧ نقلاً عن الخصال ج ٢ ص ١٠٦.

فضلّوا عن الحقِّ ضلالاً بعيداً، وخسرتْ صَفقتُهم خُسراناً مُبياً.

وقد قال الإمام الرّضا عليه السلام: «إنَّ العبد إذا اختاره الله لأمور عبادِه شرحَ صدره لذلك، وأودع قلبَه ينابيع الحكمة، وألْهَمه العلْمَ إلْهاماً، فلم يَعْيَ بجوابٍ، ولا يَحيد فيه عن الصواب. فهو معصومٌ، مؤيَّدٌ، موفَّقٌ، مسدَّدٌ؛ قد أمِنَ الخطايا والزَّلل والْعِثار. يَخصُّه الله بذلك ليكون حجَّته على عباده، وشاهِدَه على خلقه، وَ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1] كما ذكرنا.

ومَن أُعطيَ شيئاً من ذلك كان ذا مرتبةٍ لا تُنال.. فكيف بمَن أُعطيَهُ كلَّه؟!.

•

قال علي بن يقطين:

«قلتُ لأبي الحسن، موسى ـ الكاظم ـ عليه السلام: عِلْمُ عالِمكم سماعٌ أم إلْهام؟.

فقال: قد يكون سماعاً. ويكون إلْهاماً. ويكونانِ معاً»[2].

وكذلك الحارث بن المغيرة قال: «قلت لأبي عبد الله ـ الصادق ـ عليه السلام: ما عِلْمُ عالِمكم؟. أجملةً يُقْذَفُ في قلبه، أو يُنْكَتُ في أُذنِه؟.

فقال: وحيٌ كوحيِ أُمِّ موسى»[2].

وليس عجيباً أن يكون الأئمَّة عليهم السلام أكرمَ على الله تعالى من أُمِّ موسى عليه وعليها السلام، أو من النحل التي أَوْحَى إليها ربُّها كما نَصَّ القرآن الكريم، أو من صاحب موسى، وصاحب سليمان، ومن ذي القرنَين!. فهم مُحَدَّثون ومُلْهَمون إلى جانب أنَّهم زُقُّوا العلْمَ زَقّاً، وليس لهم معلِّمٌ ولا أستاذٌ سوى الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ـ كما سترى في فصلٍ آتٍ ـ وكفى بأستاذيَّة الله تعالى ورسوله أستاذيةً جامعةً مانعة!.

---

(١) المحجة البيضاء ج ٤ ص ١٧٩ والآية في الجمعة ـ ٤.

(٢) الاختصاص ص ٢٨٦ وبصائر الدرجات ص ٣١٧ وبحار الأنوار ج ٧ ص ٢٨٩.

وقال أبو بصيرٍ للإمام الباقر عليه السلام: « بِمَ يَعلم عالِمُكم، جُعلتُ فداك؟.

فقال: يا أبا محمد، إنَّ عالِمَنا لا يَعلم الْغَيب. ولَوْ وَكَلَ الله عالِمَنا إلى نفسه كان كبعضكم. ولكنْ يحدّث إليه ساعةً بعد ساعة »[1]. وقد ذَكَرْنا مثله.

وروَى سماعةُ بنُ مهران أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

« إنَّ الدُّنيا لَتُمَثَّلُ للإمام في مثلِ فِلْقة الْجَوز، فلا يَعْزُب عنه منها شيء. وإنَّه لَيَتناولُها من أطرافها كما يتناول أحدُكم من فوق مائدته ما يشاء »[2].

فسماعُ هذا الخبر وأمثالِهِ يُجفل نفوسَ ضُعفاء الإيمان إجفالاً، ويجعلهم يفكّرون مليّاً قبل أن يعتبروه عُملةً صالحةً للصَّرف « بمخزوناتهم » التي تحسَب الإمامَ رجلاً عاديّاً، عارياً عن « ميزةٍ ربّانيةٍ خاصةٍ » تُفرزه من صفوف « المخلوقين على الفطرة » المحتاجين إلى اكتساب المعرفة الواسعة للوصول إلى أدنَى درجات الكمال.

ولكنَّنا إذا عَلِمْنَا أن الدولة « القادرة » التي تُقيم العلاقاتِ الدبلوماسيةَ مع دولةٍ « قادرةٍ » أُخرى، تُنشيء بينها وبين تلك الدولة خطّاً لاسِلْكيّاً أحمرَ لتتبادلَ معها المعلومات، ثم تستعمل تِلِكْساً، وأسلاكَ برقٍ، وبريداً دبلوماسيّاً، وتزوِّد « سفيرَها » فيها بأكثر من ذلك من مقوِّمات دَعْمِهِ ليكون على المستوى اللائق، كَأَنْ تجعل الهاتفَ معه في دائرته، وفي بيتِهِ، وفي سيَّارته، ثم تَكفل له وسائل الْحَصانة فيكون من الرعايا ذَوي الامتياز على الآخرين، يحقُّ له ما لا يحقُّ لغيره ـ أجَل، إذا عَلِمْنَا ذلك تَنمحي سَوْرَةُ العناد القائمةُ في نفوسنا، وتزول الصُّورةُ القاتمةُ من قلوبنا، لأن الدولة الإلَهيَّة أجدرُ بذلك وأقدرُ عليه، وهي تجهِّز « سفيرها » بما لا تستطيع دولةٌ أرضيَّةٌ مُنافسته..

فليس أَسهلَ ـ إذاً ـ من أن يكون للإمام « عمودٌ تلفزيونيٌّ من نورٍ » ولا من أن يُلازمَهُ المسدِّون والمؤيِّدون، لينقذوه في ساعة الْعُسْرة، وليؤمِّنوا له الحصانة السماويَّة التي لا يرفعها إلاَّ واضعُها.

---

(١) بحار الأنوار ج٢٦ ص٦٦ وبصائر الدرجات ص٣٢٥ عن ضريس، وأمالي الشيخ ص ١٥٤ عن أبي هاشم الجعفري.

(٢) الاختصاص ص٣١٧ وبصائر الدرجات ص٤٠٨.

ولا تَذهبنَّ بقارئي الكريم الظُّنون؛ فإنَّ المحدَّث، والموحَى إليه، غيرُ النبيِّ.. ولا يكون رسولاً أيضاً، ولا تَنزل عليه أوامرُ جديدة.. فقد روى حمران عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله:

«قال رسول الله ﷺ: مِن أهلِ بيتي اثنا عشرَ محدَّثاً.

فقال عبد الله بن زيد: ـ وكان أخا عليٍّ لأُمِّه ـ: سبحان الله، محدَّثاً؟!! (كالمنكِر لذلك).

فأَقبلَ عليه أبو جعفر عليه السلام فقال: أَمَا واللهِ إنَّ ابنَ أُمِّك بعدُ قد كان يَعرف ذلك.

قال: فلما قال ذلك سكتَ الرجل. فقال أبو جعفر عليه السلام:

هي التي هلَك فيها أبو الخطَّاب، لم يَدْرِ تأويلَ المحدَّث والنبيّ»[1].

فلا ينبغي لنا أن نرتدَّ رِدَّةَ أبي الخطَّاب الذي كان من الْمُوالين للأئمَّة، وانتقل إلى صفِّ الْمُغالين، ثم انحدر إلى غوغاء الضالين الْمُضِلِّين. فإن أهل بيت النبيِّ صلواتُ الله عليه وعليهم لم يبخلوا علينا ببيان ما كانوا عليه من قدراتٍ ربَّانيَّةٍ ومواهبَ سماويَّة، لئلاَّ نُنْكِرَ فَنَكفر، أو نُغالي فنضلّ. بل شرحوا ذلك فأوضحوه وجعلونا على بيِّنةٍ من أمرهم وكونهم عباداً مُخْلَصين ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ ـ سبحانه ـ بِالْقَوْلِ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[2]

•

قد حكى أبو هاشم الجعفري عن الإمام الرضا عليه السلام، فقال: «سمعتُه يقول:

لنا أَعينٌ لا تُشبه أعينَ الناس، وفيها نورٌ ليس للشيطان فيها نَصيب»[3].

وَلَكأنَّها أعينٌ ذاتُ إشعاعٍ نفَّاذٍ يخترق الْحُجب ولا تَكسره الكثافات!. ولا

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٦، ص ٦٧ ـ ٦٨ وبصائر الدرجات ص ٩٢.

(٢) الأنبياء ـ ٢٧.

(٣) بحار الأنوار ج ٢٦ ص ٦٦ وأمالي ابن الشيخ ص ١٥٤.

تَعجبْ أنْ يكونَ شأنُها أعظَمَ ممَّا تتصوَّر!.

ولا تَعجبْ أنْ يكونَ شأنُها أعظَمَ من شأن أشعَّة «لاَيْزَر» التي لا تمنعها الحوائل ولا تصدُّها كثافةُ الأجسام عن استشفافِ ما وراءَها واكتشافِه..

ففي الخبر الصحيح الثابت عن أُمِّ سلَمة رضوانُ الله تعالى عليها ـ وعن آخرَين غيرها بالعشرات ـ أنَّهُ: «قد علَّم رسولُ الله ﷺ علياً عليه السلام كلمةً تَفتح ألْفَ كلمة، والألفُ كلمةٍ تَفتح كلُّ كلمةٍ ألفَ كلمة»[1].

«وإن هذا العلْم خاصٌّ بالأئمة»[1] غيرُ متيسِّر لسواهم إذا اطَّلع على رموزه مهما أتعبَ نفسَه وأعملَ فكْره، وكدَّ ذهنَه. فقد روى أبان بن تغلب أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«كان في ذُؤابة سيف عليٍّ عليه السلام صحيفة، دعا إليه الحسَن فرفعَها ودفع إليه سكِّيناً وقال له: افتحْها.

فلم يستطع أن يفتحها. ففتَحها له ثم قال له:

إقرأْ.

فقرا الحسَنُ عليه السلام الألِفَ، والباء، والسِّين، واللام، والحرفَ بعد الحرف.

ثم طواها فدفعَها إلى أخيه الحسين، فلم يقدر أن يفتحها.

ففتحَها له، ثم قال له:

إقرأْ.

فقرأها كما قرأ الحسَن.

ثم طواها فدفعَها إلى محمد بن الحنفيَّة، فلم يقدر على أن يفتحها.

ففتحَها له عليٌّ عليه السلام، فقال له:

إقرأْ.

فلم يستخرج منها شيئاً.

---

(١) الاختصاص ص ٢٨٤ وص ٢٨٥ مكرَّراً بعدة أسانيد، وهو في بحار الأنوار ج ٧ ص ٢٨٢ وفي الكافي م ١ ص ٢٩٦ مكرراً بنصوص مختلفة وكذلك في بصائر الدرجات ص ٣٠٢ وفي مصادر لا تُحصى بهذا اللفظ وبغيره. ومثلُه في فرائد السِّمطَين ج١ ص ١٠٣.

فأخذَها وطواها، ثم علَّقها في ذؤّابة السيف.

فقلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيُّ شيءٍ كان في تلك الصحيفة؟.

فقال: هي الأحرُف التي يَفتح كلُّ حرفٍ أَلْفَ حرف»[١].

وهذه هي التي قال عنها أبو بصير:

«قال أبو عبدالله عليه السلام: فما خرجَ منها إلى النَّاس حرفان إلى الساعة»[٢].

لأن ذلك خاصٌّ بالأئمة عليهم السلام.

وهذا يدل على أن مصدر علومهم موجودٌ في أيديهم، وأن الناس يجهلون حلَّ رموزه، ويعجزون عنه عَجْزَ ابن الحنفيَّة رضوانُ الله تعالى عليه عن ذلك، مع أنه ابنُ عليٍّ، وَصِنْوُ الْحسَنَين، عليهم السلام جميعاً.

•

ولتقريب مفهوم «المحدَّث» إلى ذهن القارىء الكريم، نذكر له ما رواه حمرانُ بن أعين حين قال:

«قلت لأبي جعفر ـ الباقر ـ عليه السلام: أَلستَ حدَّثتني أن عليّاً عليه السلام كان محدَّثاً؟.

قال: بلى.

قلت: مَن يحدِّثه؟.

قال: مَلَكٌ يحدِّثه.

قلت: فأقول إنَّه نبيٌّ أو رسول؟!.

قال: لا. بل مثلُه مثلُ صاحب سليمان، ومثلُ صاحب موسى، ومثلُ ذي القرنَين.

أَمَا بلغَك أن عليّاً سُئل عن ذي القرنَين، فقالوا: كان نبيّاً؟.

قال: لا، بل كان عبداً أَحبَّ اللهَ فأَحبَّهُ، وناصَحَ اللهَ فناصَحه.

فهذا مِثْلُه.»[٢] ـ يعني بذلك عليّاً عليه السلام ـ.

---

(١) الاختصاص ص ٢٨٤ وبحار الأنوار ج ٧ ص ٢٨٨ وبصائر الدرجات ص ٣٠٧.

(٢) بحار الأنوار ج ٢٦ ص ٧٣ وبصائر الدرجات ص ١٠٨.

ثم نذكر ما رواه إسماعيل بن مهران، من أن الحسن بن عباس المعروفي كتب إلى الإمام الرضا عليه السلام:

« جُعلت فداك، أخبِرْني ما الفرقُ بين الرَّسول، والنبيِّ، والإمام؟.

فكتبَ: الفرقُ بين الرَّسول والإمام هو أن الرسول الذي ينزل عليه جبرائيل، فيراه ويَسمع كلامَه.

والنبيُّ ينزل عليه جبرائيل، وربَّما نُبِّىءَ في منامه، نحو رؤيا إبراهيم. والنبيُّ ربَّما يسمع الكلام، وربَّما يرى الشخص ولم يسمع كلامه.

والإمام هو الذي يَسمع الكلام، ولا يرى الشخص »[1].

وقال زرارة بن أعين: « سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نبيّاً﴾ ما الرسولُ، وما النبيُّ؟.

قال: النبيُّ الذي يرى في منامه، ويسمع الصوت، ولا يُعايِن المَلَك.

والرسولُ الذي يسمع الصوتَ، ويرى في المنام، ويُعايِن المَلَك.

قلت: الإمام، ما منزلتُه؟.

قال: يسمع الصوت، ولا يرى ولا يُعاين المَلَك »[2].

وفي حديث آخرَ بيَّن الإمامُ عليه السلام، أن المحدَّث لا يأتيه شيءٌ في المنام.

ثم نذكر ما قاله الصادق عليه السلام - كما عن الحسين بن أبي العلا -:

« إنَّما الوقوفُ علينا في الحلال والحرام، فأمَّا النبوَّة فلا »[3]. لأنهم لا تَنزل عليهم شرائع جديدة تنسخ ما قبلها لِتُحِلَّ حراماً أو تُحَرِّمَ حلالاً..

و« صانع » النبوَّة والإمامة واحدٌ، هو الله تبارك وتعالى، والْعَجبُ كلُّ الْعجَبِ ممَّن يستغرب فِعْلَه عزَّ اسمُه ويُنكِر اصطفاءه واختياره!.

---

(١) المصدر السابق نفس الجزء ص ٧٥ وبصائر الدرجات نفس الصفحة.

(٢) الكافي م ١ ص ١٧٦ وهو مكرَّر كثيراً في الصفحة وما يليها عن الإمامين الصادق والرِّضا عليهما السلام.

(٣) المصدر السابق نفس الجزء ص٨٣ والكافي ج ١ ص ٢٦٨.

ففي نفس الموضوع قال بريد بن معاوية العجلي: « سألتُ أبا جعفر ـ الباقر ـ عليه السلام، عن الرّسول، والنبيّ، والمحدَّث، فقال:

الرسولُ الذي تأتيه الملائكة ويُعاينُهم، وتبلّغه عن الله تعالى.

والنبيُّ الذي يرى في منامه ـ أي في حال غَيبوبته ـ فما رأى فهو كما رأى.

والمحدَّثُ الذي يسمع الكلام ـ كلام الملائكة ـ ويُنْقَرُ في أُذنه، ويُنْكَتُ في قلبه »[1].

وكذلك قال الحارث النضريُّ للإمام الصادق عليه السلام: « الذي يُسأل الإمامُ عنه، وليس عنده فيه شيء، من أين يَعْلَمُه؟.

قال: يُنكت في القلب نَكْتاً، أو يُنْقَرُ في الأذن نَقْراً »[2].

وما فتِئَ أصحاب الأئمة، رضوانُ الله عليهم، يبحثون ويدقّقون بمسائلهم المتنوّعة، لِيَقفُوا على حَلِّ هذا الإشكال أو غيره، حتى نقلوا لنا بصائرَ عن كلِّ شيءٍ، وتأويلاً لكلِّ مُعجز..

ومن ذلك ما قاله محمد بن مسلم رحمه الله، إذ قال: « ذكرتُ المحدَّثَ عند أبي عبد الله عليه السلام،

فقال، إنَّه يَسمع الصوت، ولا يرى.

فقلتُ: أَصلَحك الله، كيف يَعلم أنَّه كلامُ الملَك؟.

قال: إنَّه يُعْطَى السكينةَ والوقارَ حتى يَعلم أنه ملَك »[3].

وبهذا لا يُخامر ذهنَه الشكُّ فيه، رغم أن الشياطين مُبْعَدون عن أن تصل وسوستَهم إلى مَسامع الأئمة، ومحجوبون عن مخاطبة بَني البشَر..

---

(١) بحار الأنوار ج٧ ص٣٢٨ مكرَّراً في الصفحات التالية بعدة نُصوص وبأسانيد مختلفة، وهو في الكافي م١ ص١٧٧ وفي بصائر الدرجات من ص٣١٦ إلى ص٣١٨ مكرراً بعدة روايات.

(٢) المصدر السابق ج٢٦ ص١٨ وص١٩ مكرَّراً بألفاظ متقاربة، في روايات متعدِّدة. وانظر الإرشاد ص٢٥٧ والاحتجاج ص٢٠٣ وأمالي ابن الشيخ ص٢٦٠.

(٣) بحار الأنوار ج٢٦ ص٦٨ وبصائر الدرجات ص٩٣ ومن ص٣١٩ إلى ص٣٢١ مكرراً في عدة روايات.

ولا تنسَ أنَّ هذا النوع من «الوحي - الإلْهاميّ» لم يبخل به عزَّ اسمُه على أحقر المخلوقات وأصغر الحشرات إذ ﴿أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[1] كما نَصَّ القرآن الكريم!.

والأئمة عليهم السلام لم يتركوا هذا الأمر دون تبيينٍ لأصحابهم - كما رأيت وترى -، ولا تركوه إبهاماً لا حَلَّ له؛ بل أوضحوه وجلّوا حقيقةَ أمره وضربوا على ذلك الأمثال التي لا تُعد، ومن ذلك قولُ عمّار الساباطي: «سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن الإمام هل يَعلم الْغَيب؟.

قال: لا، ولكنْ إذا أَرادَ أن يَعلم الشيءَ أَعْلَمه الله ذلك»[2].

أي أنه «لا» يَعلم الْغَيب، وإنّما يَعلم «الشيءَ» الذي تَعرِض البلوى فيه، ويقتضي الأمرُ إزالةَ الحرَج منه، لِيَظهرَ فَلَجُ حجَّة الإمام وقوةُ برهانه.. وهذا معنى تسديده وتأييده من ربِّه جلَّت قدرتُه.

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام مرةً: «أُعطينا عِلْمَ الأوّلين والآخِرين.

فقال له رجلٌ من أصحابه: جُعلت فداك، أَعندكم علمُ الْغَيب»؟.

فقال له: وَيْحَك، إنّي أَعلم ما في أصلاب الرِّجال وأرحام النساء!. وَيْحكمْ، وسِّعوا صدورَكم، ولْتُبصرْ أعينُكم، وَلْتَعِ قلوبُكم!. فنحن حجَّةُ الله تعالى في أرضه، ولن يسَع ذلك إلاَّ صدرُ مؤمنٍ قويٍّ قوَّتُه كجبل تهامة، إلاَّ بإذن الله»[3].

وعلمُ ما في الأصلاب وما في الأرحام لا يبقى غيباً ولا شيئاً من الْغَيب حين يُطْلِعهم الله تعالى عليه.

والموضوع مفروغٌ منه «كمقدورٍ» لهم، وإن كان محجوباً عنَّا فهمُه وفلسفتُه لاستيعابه، بسبب أنَّ إيمانَنا من «وَزْنِ الرِّيشة» لا من «وَزْنِ جبل تهامة»!. وقد تسنَّى حصولُ هذا المقدور لمن هم دونهم - **كالخضر عليه السلام، وكَبَرخيا** صاحب سليمان، وكذي القرنَين، وكأضعف الحشرات التي هي النحلة. ولكن ليس معنى

---

(١) النحل - ٦٨.

(٢) الاختصاص ص ٢٨٦ وبحار الأنوار ج ٧ ص ٢٨٨ نقلاً عن بصائر الدرجات.

(٣) بحار الأنوار ج ٢٦ ص ٢٨ نقلاً عن مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٣٧٤.

ذلك أنه ليس بعجيب؛ فقد تعجَّب منه أسلافُنا، وأنكرَه كثيرون ولم يَقتنعوا به حتى رأَوه رأيَ العينِ ولَمَسُوه لَمْسَ اليد..

•

ولقد تعجبَّتْ من «أمر الله» سارةُ امرأةُ النبيِّ إبراهيم عليه وعليها السلام حين بُشِّرت بأنها ستلد إسحاق وهي عقيمٌ ـ وفوق الثمانين من عُمرها ـ فقال لها الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ، رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1].

كما تعجَّبت من ذلك مريمُ العذراءُ عليها السلام حين بشَّرها الملَكُ بِحَمْلِ عيسى عليه السلام ـ من غير أبٍ ـ فَـ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً!.

قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً..﴾[2].

وهكذا كان «أمرُ الله» تبارك وتعالى بشأن الأئمة شغْلَ أصحابهم الشاغلَ؛ وحاروا فيه وبحثوه مليّاً ليتفهَّموه.. فمن ذلك ـ أيضاً ـ أن حمران بن أعين قال:

«قال أبو جعفر عليه السلام: إنَّ عليّاً كان محدَّثاً..

فخرجتُ إلى أصحابي فقلت: جئتُكم بعجيبة!.

قالوا: ما هي؟.

قلت: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: كان عليٌّ محدَّثاً.

فقالوا: ما صنعتَ شيئاً، ألاَ سألتَه مَنْ يحدِّثهُ؟.

فقال: قال: يحدِّثه ملَك.

قلتُ: فتقول: نبيّ؟!!

فحرَّك يده هكذا ـ أي نفياً ـ فقال: أو كصاحب سليمان، أو كصاحب موسى، أو كذي القرنَين.. أوَ ما بلَغكم أنه ـ صلى الله عليه وآله ـ قال: وفيكم مثلُه؟.»[3].

---

(١) هود ـ ٧٣.

(٢) مريم ـ ١٨ و١٩.

(٣) الاختصاص ص٢٨٧ وبحار الأنوار ج٧ ص٢٩٢ نقلاً عن بصائر الدرجات، وج٢٦ ص٦٩ عن بصائر الدرجات أيضاً.

فلم يكن قُدامانا ـ رحمهم الله ـ في بساطة العجائز، ولا أخذوا شيئاً أَخْذَ المسلَّمات، بل توقَّفوا كثيراً حتى وقفوا على الحقِّ فأَذعنوا له..

قد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ: إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾[1].

فكيف «قال الله» ذلك لقائد جيشٍ قويٍّ فتح المشرق والمغرب، ولم يكن نبيّاً ولا رسولاً؟!!

وهل سمع هذا القائد «صوتاً»؟!.

أَمْ سمع صوتاً ولم يرَ شخصاً؟.

أَمْ عايَنَ مَلَكاً وشافَهَه؟.

أَمْ أُلْهِمَ ذلك إلهاماً؟!! لأَنَّهُ سبحانه يتكلَّم بلا صوتٍ، ويَرى ويَسمع بلا آلة بَصَرٍ أو سَمْع..

إِنَّ شيئاً من ذلك قد كان: «فقال» الله تعالى لذي القرنَين ما قاله، بالواسطة أو بالإلهام والإلْقاء في القلب.

وليس كثيراً عليه سبحانه أن تكون له عنايةٌ خاصَّةٌ، مرصودةٌ لأصفيائه يَقيهم بها العثرات، ويُجنِّبهم الزَّلات، ويُنقذهم عند الضِّيق، لتتوفَّر فيهم الكفاءةُ التامَّةُ لحمل «أمره» والوقوف به أمام أصحاب ذَلاقة اللسان، ودهاقنة تزويق الكلام، والتصدِّي لأهل الْكُفر والنِّفاق.

فمن أجل ذلك حَباهم سبحانه بسعة الآفاق، وبُعد النظر، وسلامة الْمَنطق، وفصاحة اللسان والبيان التي عبَّر عنها إمامُنا الصادقُ عليه السلام بقوله لصاحبه محمد بن مسلم: «إنَّا لَنتكلَّم بالكلمة التي لها سبعون وجهاً، ليَ مِنْ كُلِّها الْمَخرج»[2].

وحين قال لصاحبه أبي بصير في مناسبة ثانية: «إنِّي لأَتكلَّم بالكلمة الواحدة لها سبعون وجهاً، إن شئتَ أخذت كذا، وإن شئت أخذت كذا»[3].

---

(١) الكهف ـ ٨٦.

(٢) الاختصاص ص ٢٨٨ وبحار الأنوار ج ١ ص ١٣٢ نقلاً عن بصائر الدرجات وغيره.

(٣) المصدر الساق ذاته.

وحين قال عليه سلامُ الله وتحيّاتُه، لصاحبه محمد بن النعمان: «أنتم أفقهُ الناس ما عَرفتم معانيَ كلامنا. إنَّ كلامنا ينصرف على سبعين وجهاً»[1].

فلا جَرَمَ أن تكون أحاديثهم كذلك، وأن لا يتصيَّد معانيَها إلاَّ أَفْقَهُ الناس وأعلمُهم، لأنها من القرآن ومن كلام سيِّد البيان - صلى الله عليه وآله - الذي هو أفصحُ مَن نطق بالضاد. ولكلامهم ظواهرُ وبواطنُ، وتفسيرٌ وتأويلٌ، لأنه ترجمةٌ لكتاب الله وسنَّة نبيِّه، موادُّه من موادِّهما فلم يَعْدُهما في كلمةٍ فاهوا بها ولا في حُكمٍ نطقوا به.

ولا غروَ أن يَتوهم في تفسير كلام الله تعالى - أو كلام رسوله وأوصيائه صلوات الله عليهم - مَن كان مثلي عبداً ربيئاً، حين يريد أن يستجليَ ما كان خبيئاً في كلامهم الذي يحتمل وجوهاً ووجوهاً..

•

عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليهما السلام، قال:

«قلتُ له: ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد أُعطيَهُ أمير المؤمنين عليه السلام، ثم الحسن عليه السلام بعد أمير المؤمنين، ثم الحسين عليه السلام بعدَه، ثم كلُّ إمامٍ إلى أن تقومَ الساعةُ مع الزيادة التي تَحدث في كلِّ سنةٍ وفي كلِّ شهر؟!.

فقال: إيْ واللهِ، وفي كلِّ ساعة»[2].

•

وتأكيدُه، ويمينُه يُشيرانِ في أقلِّ الافتراضات إلى المَلَك المحدِّث و«عمودِ النُّور» أو غيره من وسائل إطلاعهم على ما يَلزم في ساعة الحاجة لتظهرَ ميزةُ انتجابهم واختيارهم مِمَّن سواهم.

•

وقال الفيضُ بنَ المختار: «سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول:

إنَّ سليمان بن داود عليهما السلام قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقد واللهِ عُلِّمنا منطقَ الطير وأُوتينا «كلَّ» شيء!»[3].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الاختصاص ص ٣١٤ وبحار الأنوار ج ٧ ص ٣١٢ نقلاً عن البصائر ج ٨ باب ١١.

(٣) بحار الأنوار ج ٧ ص ٢٩٣ والبصائر ج ٧ باب ١٤ والاختصاص ص ٢٩٣. والآية في النمل - ١٦.

وهذا تأكيدٌ آخرُ مشفوعٌ بيمين، يَليها إجمالُ ما أُوتُوا بلفظة « كُلّ ».

فإن سليمان عليه السلام قال: أُوتينا « من كلِّ شيء ».

في حين أن الإمام الصادق عليه السلام قال: أُوتينا « كلَّ شيءٍ » ولم يستعمل لفظة « من » التي تدلُّ على التَّبعيض، لأنهم - سلامُ الله عليهم - لم يُؤْتَوا شيئاً دون شيءٍ، بل أُوتوا كلَّ شيءٍ، فضلاً من الله عليهم، واختصاصاً لهم بذلك منه عزَّ وعلا.

فَلِمَ يريد أحدُنا جَعْلَ الاعتراف بفضلهم مَنوطاً بمشيئته ومزاجه، فإذا شاءَ أن يُقرَّ به أقرَّ، وإذا شاء نُكران فضلهم وإزاحته عنهم رفضَه وزَواه؟!.

فالله جلَّ وعزَّ، هو الذي استخلصهم لنفسه ولمصلحة عباده، أفلا يَحْسُنُ بالْمُنصف من أولئك العباد أن يترك لله تعالى حقَّه، وأن يقف عند الحدِّ الذي يَفصل بين « عبد » و« رَبّ »؟!!

يقول النحويُّون: إنَّ « أيْ » هكذا خُلقت، بعد أنْ كَثُرت فيها جولاتُ أفكارهم وصولاتها. ونحن نقول: إنهم هكذا خُلقوا، ولم يَستشرْ خالقُهم أحداً من عباده حين خلَقهم، ولا الاعتراضُ على خَلْقهم « هكذا » يغيِّر شيئاً من الواقع الذي هم عليه.

فَلِمَ نقنع بالمولود حين يولَد صبيّاً أو بنتاً ونسلِّم بأن اعتراضنا على تكوينه لا يجدي، ثم نثور ونغضب إذا كانوا قد اخْتِيروا فَوُلِدُوا أئمة؟.

ولِمَ نصفِّق للعالِم والزَّعيم إذا كانا مصلحَين يريدانِ خيرَنا وسعادتَنا، ونصعِّر الخدودَ ونَثني الْعِطْف إذا كان الله تعالى قدمَنَّ علينا بِمصلِحين لِمَا فسد من أمور ديننا ودنيانا، وبِبَانِينَ لسعادتَينا: الزائلة والأبديَّة؟!!

منتهىَ البخل أن نَضنَّ بما جاد به غيرُنا.

ومنتهَى لؤمِ العنصر أن نبخلَ بما تفضَّل الله تعالى به على خُلَصائه ونُجَبائه!.

وثق أنه لَو استطاع عُشّاقُ الباطل أن ينزعوا عنهم عطاء ربِّهم لا نتزَعوه واجتذُّوه!.

فقد ابتُلِيَ أئمتُنا عليهم السلام بشيءٍ من هذا، ونُوزِعُوا في حقِّهم.. ومرُّوا بامتحاناتٍ عسيرةٍ كثيرةٍ من قِبَلِ السلاطين وعَبدَةِ الدُّنيا... ولم يكن ابتلاؤهم عجباً لأنهم حَمَلَةُ قضيَّة وحَفَظَةُ رسالة.. ولكنَّ العجب أن يتسوَّر إلى محراب قُدسهم مَن «يريد» أن ينزع عنهم سربال ربِّهم عزَّ وجلَّ بشهوة «اللاشيء»!.

وهل العداءُ لهم غيرُ «ردٍّ» على الله تعالى؟!!

لا، بل هو ذاك.

وما كنتُ لأُحبَّ الخوض في هذا الموضوع - وكان قلمي يَحرن، وفكري يتبلَّد فأزهد بالكتابة فيه حتى أكاد أُقلع عنها - لَولا أنني رغبتُ في أن يَعلم قارئي الكريم - حقَّ العلْم - أنَّهم هكذا خُلقوا لمصلحة العباد، وأنَّهم أكرمُ على الله من النَّحل، ومن أم موسى، ووزير سليمان، وصاحب موسى، ومن ذي القرنَين وغيرهم ممَّن عَبَرَ وغَبَرَ في عُمر الدُّنيا..

فما ضَرَّ أن يكونوا ملهَمين؟.

وما هَمَّ أن يكونوا محدَّثين، وموحًى إليهم؟!.

وما الذي يدعو إلى إنكار هذا الحقِّ عليهم، وبأي عنوانٍ يُخاصَمون فيه إذا كان الله تعالى قد شاءه لهم؟!!

قال رسول الله ﷺ: «إنَّا، أهلَ البيت، طَهَّرَنا الله من كلِّ نجس. فنحن الصادقون إذا نطقوا، والعالِمون إذا سُئلوا، والحافظون لِمَا استُودِعُوا»[1].

فكيف نَنقم أن جعل الله تعالى رسولَه وأهلَ بيته صلوات الله عليه وعليهم، مطهَّرين، صادقين، عالِمين، حافظين؟!!

العكسُ هو المرجوُّ منَّا..

وقد مرَّ بك قولُ الإمام الصادق عليه السلام: «أفَتَرى أنَّ الله يمنُّ بعبدٍ في بلاده، ويَحتجُّ على عباده، ثم يُخفي عنه شيئاً من أمره؟»[2].

---

(١) بحار الأنوار ج١٦ ص٣٧٦ في حديث طويل رواه ابن عباس رضوان الله عليه.

(٢) المصدر السابق ج٢٦ ص١١٠ نقلاً عن بصائر الدرجات ص٣٥ رواه سعد بن الأصبغ الأزرق.

ومن أبسط الفروض أن الجنديَّ إذا زجَّ به قائدهُ في أتون المعركة على غير استعدادٍ ولا تدريبٍ وبغير سلاح، نرمي قائدَهُ بالهوَس وعدم الرُّشد، لأنه قذف بكُتلةٍ من اللحم إلى القتال بلا دِربَةٍ ولا عُدَّةٍ ولا تخطيط. فأَحرِ بُجنديِّ الله - من أوليائه وحُججه في أرضه - أن لا تنتدبه الحكمةُ الإلَهيَّة للقيام بأمر العباد إلاَّ « مسلَّحاً » بجميع لوازِم القيادة والرِّيادة ممَّا اختصَّه الله تعالى به من الْمِنَحِ، ليكون في المستوى اللائق بولايته وخلافته. وأحرِ بالإمام الْحُجة « المرصود » لهذه الوظيفة أن يكون « مخلوقاً » على طرازٍ خاصٍّ « مجبولاً » عليه منذ برأ الله تعالى نسمتَه، و« مصنوعاً » على عَين خالقه دون أخذ رأيِ العباد. وقد صرَّح النبيُّ والأئمة صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم بذلك، وعدَّدوا نِعَمَ الله تعالى التي ميَّزهم بها عن غيرهم - لا فخراً بها ولا عُجباً - بل بياناً لنا ودفعاً عن الغلوِّ فيهم كيلا نصلَ إلى الشِّرك، ومنعاً عن الْقِلَى والإنكار لفضلهم كيلا نصيرَ إلى الضلال والكفر..

فاستمعْ إلى عبد الغفار الجازي الذي روَى أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

« إنَّ الحسن بن عليٍّ عليه السلام كان عنده رجلان.

فقال لأحدهما: إنَّك حدَّثتَ البارحةَ فلاناً بكذا وكذا.

فقال الرجل: إنَّه لَيَعْلَمُ ما كان! - وعجبَ من ذلك -.

فقال عليه السلام: إنَّا لَنعلم ما يجري في الليل والنهار.

ثم قال: إنَّ الله تبارك وتعالى، علَّم رسولَه ﷺ الحلالَ والحرامَ، والتنزيلَ والتأويلَ، فعلَّم رسولُ الله ﷺ علياً عِلْمَهُ كلَّه »[1].

ثم أَصغِ إلى الإمام الصادق عليه السلام حيث نقل رأياً للخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) في بَني هاشم، أطلقَهُ لرجلٍ حدَّثه عن عِلْمِ الحسن والحسين عليهما السلام وكرَمهما وكرم عبد الله بن جعفر رضوان الله عليه، فقال الخليفة:

« ومَن لك بمثل هؤلاء الفتية؟!. أولئك قَطَموا العلْمَ قطماً، وحازوا الخيرَ كلَّه »[2].

---

(١) بحار الأنوار ج٤٣ ص ٣٣٠.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء ص ٣٣٣.

بل تأمّل بما حكاه ضريس الكناسيُّ الذي قال:

« كُنّا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعةً من أصحابنا، إذ دخل عليه رجلٌ أعرفه.

فذكرَ رجلاً من أصحابنا ولَمزَه عند أبي عبد الله عليه السلام، فلم يُجبه بشيء.

فظنَّ الرجل أن أبا عبد الله عليه السلام لم يسمع، فأعاد عليه أيضاً، فلم يلتفت إليه.

فظنَّ الرجل أنه لم يسمع، فأعاد الثالثة.

فمدَّ أبو عبد الله يدَه إلى لحية الرجل فقبضَها فهزَّها ثلاثاً حتى أن لحيته قد صارت في يده ـ أي: نَتَـفَ شعْرَها ـ ثم قال ـ عليه السلام ـ:

إنْ كنتُ لا أعرف الرجالَ إلاَّ بما أُبلَّغ عنهم، فبئستِ الشَّيبةُ شيبتي!.

ثم أرسلَ لحيته من يده، ونفخ ما بقيَ من الشَّعر في كَفِّه »[1].

وإنَّها لَغضبةٌ هاشميةٌ من الإمام عليه السلام! لم تكن منه إلاَّ لتربية أصحابه على معرفة ما هم عليه من التمكُّن والقدرة الفكريَّة النفَّاذة التي تُعجز ألف كمبيوتَرٍ وكمبيوتر!. فلا يُرعبنَّنا كونُ الأئمة محدَّثين، ملهَمين، ملقىً في أسماعهم وقلوبهم، وذَوي توسُّم ينفذ إلى أعماق نفوس الآخَرين ويكشف عن سرائرهم المكنونة في ضمائرهم؛ ويتعدَّى مقدورَ سائر المخلوقين.. ولا يَهُولَنَّنا الحديث عن هذه المِنن الإلَهية التي ميَّزهم خالقُهم تعالى بها..

وإنَّنا لم نَعرض لهذا ـ كما قلنا سابقاً ـ إلاَّ بقصد الكشف عن مواهبهم السماويَّة، وبُغيةَ إعداد قارئنا الكريم لِمَا هو من هذا القبيل في سيرة إمامنا ـ المعجزة الجواد عليه السلام الذي جاء بالعَجب الْعُجاب في عهد طفولته، وبهرَ عقول الناس في أيام صباه وفُتوَّته، وكان سيِّدَ الكلام ومصدرَ الأحكام رغم أنه لم يصل إلى عنفوان شبابه، فكان مُعجزةَ عصره الربَّانيَّة التي أدهشتْ أهلِ « عصرِ الازدهار الذهبيِّ » في الفقه والعلوم والفلسفة والكلام، وفتنتْ أَلْبابهم!.

---

(١) الاختصاص ص٣٠٧ وبحار الأنوار ج١ ص١٣٦ وج٧ ص٣٠٧ وبصائر الدرجات ص ٣٦١ و٣٦٢ مكرَّراً بروايات.

ولا ينبغي أن نضيع ـ إذ نُطيل ـ في تحديد المحدَّث، والملهَم، والمتوسِّم، فـإنَّ المؤمن ينظر بنور الله ويكون ملهَماً، ومتوسِّماً، وذا فطنةٍ عجيبة. وقد سهَّل الإمامُ الرِّضا عليه السلام فَهْمَ هذه المعاني فيما رواه عنه عبيد بن هلال الذي قال:

«سمعتُ أبا الحسن الرِّضا عليه السلام يقول: إنِّي أُحبُّ أن يكون المؤمنُ محدَّثاً.

قلت: وأيُّ شيءٍ يكون المحدَّث؟.

قال: المفهَّم»(١).

فما أسهل الأمر يا أخلاَّئي، طالما أنَّ الإمام يُحِبُّ أن يكون «المؤمن» محدَّثاً، وطالما أننا نرى الإنسانَ العاديَّ يُلْهَم وجهَ الصواب في كثير من المسائل العويصة، ويحكي بوحي الحاسة السادسة ما يُدهش، ويـأتي بـآيـاتٍ مـن التـوسُّـم نتلقَّـاهـا باستغراب!.

فما رأيُكم بأُمناء الله على وحيه وعزائم أمره، الموكَّلين من لَدُنه تعالى بحفظ ما شرع للناس من أمر دنياهم وآخرتهم؟. وعلى أيِّ حالٍ لا يمكن أن يكونوا على مستوى وظيفتهم إذا لم يجعلهم الله تعالى يَعلمون ما لا نَعلم، ويَفهمون من شؤوننا ما نُعلن وما نكتم؟!.

قال الإمام الباقر عليه السلام مرةً لأصحابه: «إنَّ رسولَ الله ﷺ أنالَ في الناس وأنال، وإنَّا أهلُ بيتٍ عندنـا مَعـاقـلُ العلْـم، وأبـوابُ الحكمـة، وضيـاءُ الأمر»(٢).

أجلْ، قد أَنالنا نبيُّنا ﷺ الكثير ـ كمسلمين أَخرَجنا من رِبْقة الشِّرك والنِّفاق ـ وأعطانا الوفير من أبواب العلْم والحكمة، فحفظنا عنه شيئاً وغاب عنَّا شيءٌ، وغيَّبنا ـ نحن بتزوير التاريخ ـ أشياء وأشياء..

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الاختصاص ص ٣٠٧ وبحار الأنوار ج ١ ص ٣٣٦ وبصائر الدرجات ص ٣٦٣ وص ٣٦٤ مكرراً بعدة روايات.

لكن الأئمة عليهم السلام لم يَفُتْهُمْ شيءٌ ممّا أعطى؛ فصدروا عن قوله، وصدعوا بأمر ربِّه وأمره، وبقيتْ قلوبُهم أوعيةً للعلم، وخزائنَ لمذخورات النبوّة والرسالة، فتفجرتْ ينابيعُ الحكمة من صدورهم، وجرتْ كلمةُ الحقِّ على ألْسنتهم، فعرفوا ما نَزيد في الدِّين حين نَزيد، وما نُنقص منه حين نُنقص، وكانوا ظِلاًّ لكلمة الله تعالى في الأرض، ومعدناً للرسالة، ولسانَ صدقٍ في مهبط الوحي والتنزيل، واحداً بعد واحدٍ إلى ما شاء الله تعالى من عُمر الدهر. فنسأل الله تعالى أن لا يجعلَنا ممَّن يتقدَّمهم فيَمْرُق، ولا ممَّن يتأخَّر عنهم فيُمْحَق.. لنكون النمرقة الوسطى الثابتة على تولِّيهم المسلِّمة لأمرهم، فهم بابُ خلاص الأمَّة وسفينةُ نجاتها، وحبلُ الله الممدودُ من السماء إلى الأرض.. ومَن وَاقَعَ البحرَ الهائجَ بغير سفينة غرق، ومَن قطع الحبل بينه وبين ربه واتَّبع الباطل وعاند الحقَّ زهق..

وقد روَى عمر بن خالد أن الإمام الباقر عليه السلام قال: «يا معشر الشيعة، شيعةِ آل محمد، كونوا النمرقة الوسطى: يرجع اليكم الغالي، ويلحق بكم التالي.

فقال له رجل من الأنصار - يقال له سعد -: جُعلت فداك، ما الغالي؟.

قال: قوم يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، فليس أولئك منَّا ولسنا منهم.

قال: وما التالي:

قال: الْمُرتادُ، يريد الخيرَ، يبلِّغه الخيرَ، يؤجَر عليه»[1].

وقال إمامُنَا الجوادُ عليه السلام - الذي نحن بصدد التشرُّف بمعرفته -:

إن أمير المؤمنين عليه السلام قال لابن عباس في حديث: «..ولذلك الأمر وُلاةٌ بعد رسول الله ﷺ:

فقال ابنُ عباس: مَن هم؟.

قال: أنا وأَحَدَ عَشَرَ من صُلبي، أئمَّةٌ محدَّثون»[2].

وكان أبوه الإمام الرِّضا عليه السلام قد كتب لعبد الله بن جندب:

---

(١) بحار الأنوار ج ٦٧ ص ١٠١

(٢) الخصال ص ٤٧٩ - ٤٨٠ رواه الحسن بن العباس بن الحريش الرازي.

«أمّا بعد: فإن محمداً كان أمين الله في أرضه؛ فلمّا قُبض كُنَّا أهلَ البيت ورثته. فنحنُ أُمناءُ الله في أرضه، عندنا عِلْمُ المنايا والبلايا، وأنسابُ العرب، ومولدُ الإسلام. وإنَّا لَنَعرف الرجلَ إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النِّفاق. وإنَّ شيعتنا لَمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم؛ أخذ الله علينا وعليهم الميثاق. يَرِدُون مَوْرِدَنا، ويَدخلون مدخلَنا»[1].

ولم نجد أحداً ادَّعى ذلك غيرَهم من خليفةٍ ولا أميرٍ، ولا فقيهٍ خطيرٍ، ولا عالِمٍ ولا وليٍّ ولا مَولى!. ولا ردَّ ذلك عليهم إلاَّ ضالٌّ عن الحقِّ، مفترٍ على ربِّه الذي اختارهم عَيبةً لعلْمه، واصطفاهم سفراء في بلاده، أُمناء على عباده.

●

وقبل أن نَثِبَ من هذا الموضوع إلى ما يليه، نُحب أن نُنهيَ طَرَفه الأخير بأمثلةٍ - من آلاف الأمثلة - تُظهر بعضَ ما كان عليه أهلُ البيت عليهم السلام من علمٍ ومعرفة.

قال ابن سنان: «دخلتُ على أبي الحسن موسى - الكاظم - عليه السلام، من قبل أن يَقدم العراق بِسَنةٍ، وعليٌّ - الرِّضا - ابنُه جالسٌ بين يدَيه.

فنظرَ إليَّ وقال: يا محمد، ستكون في هذه السنة حركةٌ، فلا تَجزع لذلك.

قلت: وما يكون جعلني الله فداك، فقد أقلقتَني؟.

قال: أصير إلى هذا الطاغية - أي المهدي العباسي - أمَا إنه لا يبدأني منه سوء، ولا من الذي يكون بعدَه. - أي موسى بن المهدي -.

قلتُ: وما يكون، جعلني الله فداك؟.

قال: يُضِلُّ الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء.

قلت: وما ذلك، جعلني الله فداك؟.

قال: مَن ظلمَ ابني حقَّه وجحدَه إمامتَهُ من بعدي، كان كمن ظلَم عليَّ بنَ أبي طالبٍ عليه السلام إمامتَهُ وجحده حقَّه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) بصائر الدرجات ص ١٢٠.

قلت: واللهِ لَئن مدَّ الله في العُمر لأُسلِّمن له حقَّه، ولأُقِرَّنَّ بإمامته.

قال: صدقتَ يا محمد. يمدُّ الله في عُمرك، وتسلِّم له حقَّه، وتُقِرُّ له بإمامته، وإمامةِ مَن يكون بعدَه.

قلت: ومَن ذاك؟.

قال: ابنُه محمد.

قلت: له الرِّضا والتسليم»[1].

فبالله أُقْسِمُ عليكم أيُّها الأحبةُ من القرّاء، دُلُّوني على الذي أَطلعَ الإمامَ الكاظم عليه السلام، على جملة أمورٍ غيبيَّةٍ في هذا الحديث، منها:

أولاً: أنها تكون حركةٌ في تلك السنة قد عَلِمَ بها قبل وقوعها، وعرف أنه لا ينبغي لصاحبه أن يجزع منها، ولا يخاف على إمامِه من الاغتيال!.

وثانياً: أنَّه عليه السلام يُسَيَّر للمهدي العباسي، ولكنه لا يُصيبه منه سوء مع أنه «مطلوبٌ رأسُه» وغيرُ مرغوبٍ فيه، ومَن كان مثلَه لا يَسلم من سيف الحاكم الظالم!.

وثالثاً: مَن الذي أَمَّنه على سلامته حتى يعيش طيلة خلافة المهدي وإلى عهد خليفةٍ ثانٍ، وأَنَّ الخليفة الحاليَّ يموت قبله، وأن الخليفة الثانيَ لا يؤذيه أيضاً؟!.

ورابعاً: كيف عَلِمَ أنه يموت قبل ابنه الرِّضا وأن الرِّضا عليه السلام سيكون الإمامَ من بعدِه حتماً جزماً؟!.

ومن هو الذي أعطاه عهداً بذلك، وعهداً بأن صاحبه ـ محمد بن سنان ـ أيضاً، يبقى حيّاً إلى أن يبايع ابنَه الرِّضا، ثم يبايع ابنَ ابنِهِ الجواد عليهما السلام؟!.

وخامساً: كيف عَلِمَ أن ابنه الرِّضا سيولد له صبيٌّ ـ ذكرٌ تعييناً ـ وأنه سيسمَّى محمداً؟!!

وسادساً: كيف كَفِلَ استمرار صاحبه على الولاء له، ولابنه، ولحفيده وكَفِلَ له البقاء إلى ذلك الوقت؟.

---

(١) بحار الأنوار ج٥٠ ص١٩ وغيبه الطوسي ص٢٦-٢٧ ورجال الكشي ص٤٢٩ وهو في إثبات الهداة كما أشرنا إليه في غير هذا المكان.

ولو شئنا أن نمضيَ في التساؤل والتعجُّب والتفريع، لَطال بنا المقام، إذ لا تزال أسئلةٌ تتوالد حول هذه الحادثة التي تُشبهها ـ إلى حدٍّ ـ حادثةُ ابنهِ الإمام الرِّضا عليه السلام، الذي قال لصاحبه جعفر بن محمد النوفلي يوم ذهب إلى «مرو» في خراسان وعَلِمَ بأنه لا يعود من سفره:

«عليك بابني محمدٍ من بعدي. وأمّا أنا فإني ذاهبٌ في وجهٍ لا أرجع»[1].

فمن أين للكاظم وابنهِ عليهما السلام هذا العلم بالغَيب؟!.

إنَّ لدَيهما «شيئاً خاصّاً» ليس موجوداً مع غير الأئمَّة بلا أدنى ريب.

وهما لا يشاركان الله تعالى في عِلْمِه، ولكنَّهما ممَّن شملَهم قولُه عزَّ مِن قائل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[2].. فكان عندهما عِلْمٌ كثيرٌ منه، إذ ارتضاهما أعلاماً في خَلْقه وموضعاً لسرِّه وأمره. وهما يحملان عهد النبيِّ ﷺ المعهودَ إليهما وإلى آبائهما وأبنائهما موحًى به إليه من الله تبارك اسمُه. كما أنهما مصدِّقانِ ومؤمنانِ بالأمر السماويِّ بكامله، ولا يعبدانِ الله على حرف!.

ومثلُهما ابنُهما الإمام الجواد عليه السلام الذي قال لصاحبِهِ ابن بزيعٍ العطَّار وغيره:

«ألفَرَجُ بعد «المأمون» بثلاثين شهراً»[3].

فقال ابن بزيع: «فنظرْنا، فمات عليه السلام بعد «المأمون» بثلاثين شهراً»[3].

فمَن دلَّه على هذا الرقم الذي لم يزد شهراً ولا نقص شهراً ولا يوماً؟!.

إنَّ مَن، وكيف، ولماذا، كلماتٌ تَتعب إذا ثابَرْنا على استعمالها في كلِّ مناسبةٍ نَعْرِضُ فيها لآياتِ الأئمَّة عليهم السلام ومعاجزهم؛ وتَكِلُّ فلا تستطيع الأداء بجانب تفسير ذلك وتأويله.

فاستمعْ للحادثة التالية التي حصلت لإمامنا الجواد عليه السلام ـ وهو في صِغَره ـ

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٨ وعيون أخبار الرِّضا ج ٢ ص ٢١٦.

(٢) الجن ـ ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٦٤ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٩٠ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٥.

يرويها أُميَّة بن علي ويقول:

« كنتُ مع أبي الحسن ـ الرِّضا عليه السلام بمكة في السنة التي حجَّ فيها ثم سار إلى خراسان ـ ومعه أبو جعفر، وأبو الحسن يودِّع البيت. فلما قضى طوافه عدَل إلى المقام فصلَّى عنده.

فصار أبو جعفر على عُنق « موفَّق » ـ خادمِه ـ يطوف به.

ثم صار أبو جعفر إلى الْحِجْرِ ـ حِجْر إسماعيل ـ فجلس فيه فأطال.

فقال موفَّق: قُم جُعلت فداك.

فقال: ما أُريد أن أَبرحَ من مكاني هذا إلاَّ أن يشاء الله؛ واستبانَ في وجهه الْغَمّ. وَأتى « موفَّقُ » أبا الحسن عليه السلام فقال له: جُعلت فداك، قد جلس أبو جعفر عليه السلام في الْحِجْرِ وهو يأْبَى أن يقوم.

فقام أبو الحسن عليه السلام، فأتَى أبا جعفر عليه السلام، فقال له: قُم يا حَبيبي.

قال: كيف أَقوم وقد ودَّعْتَ « البيتَ » وداعاً لا ترجع اليه؟!.

فقال: قُم يا حبيبي، فقام معه »[1].

ونعود فنضطرُّ إلى استعمال مَنْ، ولِمَ، ولماذا، وكيف؟!. فمن أَعلم هذا الولدَ ـ الحدَث بأن أباه ودَّع « البيت » وداعاً أخيراً؟.

وكيف جزم بأنَّ أباه لن يعود من سفره إلى بغداد فخراسان؟!.

وما هذه البادرة من ولدٍ لا يزال خادمُه يحمله على عُنقه ليطوف؛ لأنه لا يستطيع طواف سبعة أشواط حول « البيت » وحدَهُ مَشْياً على قَدَمَيه؟.

وعلى كل حال هذه واحدة ندعُ الكلام حولَها..

والثانية رواها أُميَّةُ بنُ عليٍّ نفسُه فقال:

« كنت بالمدينة، وكنتُ أَختلف إلى أبي جعفر عليه السلام، وأبو الحسن

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٦٣ - ٦٤ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٥٢ - ١٥٣ وص ١٥٩ وص ٢١٥ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٩٠ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

ـ والدُه ـ عليه السلام بخراسان. وكان أهلُ بيته وعمومةُ أبيه يأتون ويسلِّمون عليه ـ وهو لمّا يبلغ الثامنة من عُمرِه ـ.

فدعا يوماً الجارية فقال: قولي لهم يتهيَّأون للمأتم.

فلمَّا تَفرَّقُوا قالوا: ألاَ سألناه: مأتمُ مَنْ؟.

فلمَّا كان الغدُ فعلَ مثلَ ذلك فقالوا: مأتمُ مَن؟.

قال: مأتمُ خيرِ مَن على ظهرها ـ يعني والدَه ـ.

فأتانا خبرُ أبي الحسن عليه السلام بعد ذلك بأيّام، فإذا هو قد مات في ذلك اليوم»[1].

فما شأنُ هذا اليافع ـ المقيم في المدينة المنوَّرة، وأبوه على بُعد الآف الأميال في خراسان ـ يُعلن وفاتَه ساعة موته؟!.

وبأيِّ لسانٍ تجرَّأ على دعوتهم للتهيُّؤ إلى المأتم بجزمٍ وتأكيد، إذا لم يكن مُسْنِداً ظهره إلى ركن ركين من العلْم الذي ألهمه الله تعالى إيّاه؟.

وما بالُ أهلِ بيته وعمومتِه لا يُنْكِرون قولَ «ولدٍ» لم يكد يضع قدَمه على عتبة الْيَفاع، ولا «يظنُّــون» ـ ظنّاً ـ أنه يَرْجُم بالْغَيْب؟!!

وأنا أقولُها لأُريح بالَ قارئي: إنَّ عُمومتَهُ وزُوَّارَهُ «يَعلمون» أنَّ عِلْم أهل هذا البيت من عِلْمِ الله، ولا يبحثون عن سبب وراءَ ذلك.

●

أمَّا الثالثة والأعجبُ ـ من هذا النوع، فقد رواها محمد بن قُتيبة عن مؤدِّبٍ كان لأبي جعفر عليه السلام، قال:

«كان بين يَديَّ يوماً يقرأ في اللَّوح، إذ رمى اللَّوح من يده وقام فَزِعاً وهو يقول:

إنّا للهِ وإنّا إليه راجعون، مضى ـ واللهِ ـ أبي عليه السلام. ـ أي مات ـ.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥ ص ٦٣ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٩ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٨٢ وص ١٨٣ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٦٠ وإعلام الورى ص ٣٣٤ - ٣٣٥ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٨.

فقلت: من أين علمت؟.

قال: دخلني من إجلال الله وعظَمته شيءٌ لم أعهدْه.

فقلت: وقد مضى؟. ـ أي هل مات مؤكَّداً ـ؟.

فقال: دَعْ عنك ذا. إئذنْ لي أن أَدخلَ إلى البيت وأَخرجَ إليك، واستعرضْني أيَّ القرآنِ شئتَ أَفِ لك بحفظه.. ـ وفي هذه أكبر دليلٍ على أن عِلْمَ الإمام ينتقل الى خَلَفه ساعة موته ـ.

فدخل البيت، فقمتُ ودخلتُ في طلبه إشفاقاً منِّي عليه، فسألتُ عنه فقيل: دخل البيت وردَّ البابَ دونه وقال: لا تُؤذِنوا عَلَيَّ أحداً حتى أَخرجَ إليكم.

فخرج مغبرّاً وهو يقول: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون، مضى ـ واللهِ ـ أبي!..

فقلت: جُعلت فداك، وقد مضى؟!!

فقال، نعم، ووَلِيتُ غُسلَه وتكفينه، وما كان لِيَلِيَ ذلك منه غيري. ـ وسنرى آيةَ ذلك وكيفيَّته في الآتي ـ.

ثم قال: دَعْ عنك هذا، استعرضْني أيّ القرآنِ شئتَ أفِ لك بحفظِه.

فقلت: الاعراف.

فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾:

﴿وإذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كأَنَّهُ ظُلَّةٌ، وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ[1]﴾!.

فقلت: ﴿المٓصٓ﴾؟.

فقال: هذا أول السورة... وهذا ناسخٌ، وهذا منسوخ، وهذا مُحْكَمٌ، وهذا مُتَشابِهٌ، وهذا خاصٌ، وهذا عامٌ، وهذا ما غلطَ به الكُتَّابُ، وهذا ما اشتَبَه على الناس[2]».

وفي هذا الحادثة جهاتٌ هامَّةٌ لن نَمُرَّبها مروراً عابراً.

ففيها ـ أولاً ـ أنه هل كلُّ مَنْ دخلَه شيءٌ من إجْلال الله وعظمته، يجب أن

---

(١) الأعراف ـ ١٧١.

(٢) الإمامة والتبصرة من الخيرة ص ٨٥ ـ ٨٦ وأكثر المصادر السابقة.

يكون أبوه قد مات في تلك اللحظة ويعرف ذلك حتى ولو كان يبعد عن أبيه الآف الأميال!.

ومتى كانت الذلَّة التي تتداخل الإنسانَ دليلاً على موت الأب؟

وإذا كانت كذلك، فكيف ميَّز هذا الغلام اليافع تلك الذلَة عن غيرها؟

ألاَ إنَّ الأمر ليس حيثُ نحنُ من قِصَرِ التفكير .

وأنا أَرى: أن «الذلَّة» التي دخلتْ على نفس الإمام عليه السلام لحظةَ موتِ أبيه، هي حالةُ إنسانٍ كان إنساناً عادياً مثلي ومثل سائر العالمين، ولكنَّه ـ لحظتئذٍ ـ خلعَ الله تعالى عليه جلباب ولايته وسربلَه بسربال خلافته في الأرض واصطفاه لإعلاء كلمته، وبوَّأه منزلةَ المنتجَبين من عباده، فشعر بِرَوح السماء يَدخلُ رئتَيهِ، وبنور الحقِّ يشعُّ في قلبه، وبدفقةٍ عُلويَّةٍ من الإيمان عَمَرت صدرَه لم يَعهدها من قبلُ ـ ولا تَدخل على قلوب الناس العاديِّين ـ فأحسَّ بأَنْعُمِ الله عزَّ وجلَّ تغمرهُ وتنقلُه إلى أجواء نَوْرانَّيةٍ ربَّانيَّةٍ خشع لها قلبُه، وذلَّت ـ لربِّهِ ـ نفسُه بعد «اصطفائه لأمره».. فتواضَعَ لخالقه تواضُعَ إمامٍ لِديَّان.

مضافاً إلى أنَّ تفسير هذه الظاهرة ورد على لسان أبيه عليه السلام في حديث صفوان بن يحي الذي قال:

«قلت لأبي الحسن الرِّضا عليه السلام: أخبرني عن الإمام متى يعرف أنه إمام حين يَبلغه أن صاحبه قد مضى ـ أو حين يمضي؟. مثل أبي الحسن عليه السلام ـ أي الإمام الكاظم ـ قُبض ببغداد وأنت ها هنا!.

قال: يَعلم ذلك حين يمضي صاحبه.

قلت: بأيِّ شيء يَعلم.

قال: يُلهمه الله ذلك [1]».

وبهذا يتَّضح الإشكال، وينكشف هذا السِّر.. ويزول العجَب.

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٧ ص ٢٩١.

وفي الحادثة ـ ثانياً ـ أنه قال **لمؤدِّبه**: «وأخرج إليك، واستعرضْني أيَّ القرآنِ شئت أَفِ لك بحفظه».

فقَولتُه هذه تستدعي منّا ـ أولاً وبالذات ـ أن نؤمن بالله تعالى وبقُدرته، وأن نصدِّق بما يجيء من عنده، ونُوقنَ بما يفيض عنه ويَصدر عن مشيئته حين يقول للشيء: كُنْ، فيكون.

وحينئذٍ نؤمن بأن ذلك الفتى كان «عاديّاً» يقبع مع أترابه بين يَدي مؤدِّبه، فألبسَهُ الله تعالى جلباب خلافته، **فنبَّه** مؤدِّبَهُ ـ إذذاك ـ بأنه الآن أصبح حاضراً لاستعراض القرآن ليبيِّن له إعجازَه وما هو مُحْكَمٌ أو متشابَهٌ، وما هو خاصٌ وما هو عامٌ، وما هو ناسخٌ وما هو منسوخ..إلخ. أي أنه: سيدخل البيت ليخبر أهله بموت أبيه ثم يخرج إلى مؤدبِّه إماماً وليّاً من أولياء ربِّه قد أُودِعَ قلبُه ينابيع الحكمة فلن يعيا بجواب ولا يحيد عن صواب، إذ «أهَّلَهُ» ربُّه ـ ساعتئذٍ بالذات ـ تأهيلَ خلافة له في أرضه كما لو قال سبحانه للشيء: كُنْ، فيكون.. كيف لا، وهو سبحانه القائل: ﴿إنَّمَا قَوْلُنَا لِشيءٍ إذَا أَرَدْنَاهُ، أَنْ نَقول لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ﴾[1].

كما أن فيها ـ ثالثاً ـ أنَّ الإمام عليه السلام إذ دخَل البيتَ وأغلق البابَ ومنع الإذن... قد ذهب فقام بواجب تغسيل أبيه وتكفينه ودفنه في خراسان كما سترى!.. ثم عاد، وطُويتْ له الأرض كما هو المعروف عن أولياء الله تعالى وخُلصائه. ـ وستمرّ بذلك تفصيلاً ـ.

فلا تحاولْ معرفة أئمّة أهل البيت عليهم السلام إذا لم تنفتح على الحقِّ الذي يَنزل من السماء، ودون أن تتلقّى ما يمكن أن يصدرَ عن الله تعالى بقلبٍ موقنٍ تمامَ الإيقان.. وإلاّ، فإنَّ الأفهامَ تعجز عن تفسير أمورهم وتاويلها، والقلوبَ تَنغلق عن أن يلج إليها خبرٌ من أخبار أُسرة مملكة السماء بسهولة ودون إيمانٍ راسخ... وقد قال إمامنا الجواد عليه السلام ـ هو ذاتُه ـ لمولاه «عسكر» الذي كان يقوم على خدمته ورأى منه معجزةً أدهشته:

---

(١) النحل ـ ٤٠.

« ... والله لا وَصَلَ إلى حقيقة معرفتنا، إلاَّ مَنْ مَنَّ الله عليه وارتضاه لنا وليّاً [1] ».

فهنيئاً لَمَن فاز بتَولِّيهم.. وابتعد عن عصبيَّة إبليس وأنـانيَّتـه حين تكبَّر عن السـجود لآدم عليه السلام!.

وسنرى في موضوع تالٍ خاصٍّ ببعضِ «آياته» ما يدهش ويثير التعجُّب من جهة، ويعطي صورةً واضحةً عن عظمةِ الأئمَّة المستمدَّة من عظَمة الله تعالى وقُدرته من جهة ثانية.

●

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٨.



سَيكُون لي وَلَد !.
.. وكانَ وَلَدٌ مُعجِزَة !.

●

« واللهِ لا تمضي الأيام والليالي حتى يولَد لي ذكَرٌ من صُلبي [1] ! » .

قولٌ للإمام الرضا عليه السلام كرَّره في عدة مجالس له . وهو إخبارٌ عن غَيبٍ ، مسبوقٌ بقسَمٍ عظيمٍ .

ولكنه قولٌ فصلٌ .. ما هو بالْهَزْلِ ،

صدَر عن إمام ! .

ولو كان القولُ ، واليمينُ ، من غير الإمام ، لكانا جرأةً عظيمةً على الله ! . وتحدِّياً للطبيعة التي يقول بها الدهريُّون .

ومثلُ هذا القول من غير الإمام تخمين .. ومن الإمامِ يقين .

بل هو منه حتمٌ جَزْم .. لأنه ناشيءٌ عن مشيئة الله تعالى الذي آمنَ به إيماناً يختلف عن إيماننا الساذَج . وليس في الأمر تنجيمٌ ولا سحرٌ ، ولا كهانة ولا ضربٌ بالرَّمل .. بل هو « نَقْلٌ » عن الغيب ، صرَّح به وليٌّ من أولياء الله المنتجَبين ، يدلُّ على تصديقه بما جاء من عند ربِّه عزَّ وعلا من غير أن تقف في وجهه الشُّكوك .

وهذا يشبه نصَّ الإمامِ الكاظمِ عليه السلام على ابنه الرضا ، وعلى ابنِ ابْنِهِ الجواد عليهما السلام قبل ولادة حفيده بِسِنين طِوال ، حيثُ قال لصاحبه محمد بن سنان الذي سأله عن الرضا عليه السلام :

---

(١) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٢ وكفاية الأثر ص ٣٢٤ وبحار الأنوار ج ٢٣ ص ٤٢ وج ٥٠ ص ٣٥ وإكمال الدين ص ١٣٣ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٥٦ .

« يَمدُّ الله في عُمرك وتسلِّم له حقَّه، وتُقِرُّ له بإمامتِه، وإمامةِ مَن سيكون بعده[1] » كما مرَّ معنا سابقاً.

فقد نصَّ على ابنه الرِّضا، وعلى حفيده الجواد عليهما السلام، قبل أن يولَد الجوادُ وقبل أن تَحمل به أمُّه.

فكيف تكفَّل الكاظم عليه السلام بالْمَدِّ في عُمر صاحبه؟.

وكيف ضمنَ وفاءَه معه والإقرارَ بإمامة ابنه؟.

وكيف أكَّدَ اعترافَه بإمامة حفيدٍ له لم يولَد بعد؟.

ومن أين له بهذه « العهود » والوعود يوزعها يَمنةً ويَسرة؟.

آية ذلك ستنجلي لك تباعاً كلَّما ما شَيْتَني في الموضوع.

•

وإليك الثالثةَ.. حيثُ قال عقبة بن جعفر:

« قلتُ للرِّضا عليه السلام: قد بَلغْتَ ما بلغتَ وليس لك ولد!.

فقال: يا عقبة، إنَّ صاحب « هذا الأمر » لا يموت حتى يَرى خَلَفَه من بعده[2] ».

وهذه قولةٌ تدعو إلى التأمّل..

فمن أين قبض بيده على هذا الصَّك بإطالة عمره إلى أنْ يُرزق ولداً؟

وكيف قرَّر أن ولدَه الْمـُقبِل ذكَر؟.

وما هذا الضَّمانُ بأنَّ ابنَه سيكون إماماً من بعده؟!!

ألست ترى معي أنها جرأة؟.

بلى. ولكنَّها جرأةٌ على قول الحقِّ، من فمِ صادقٍ، مصدّقٍ بجميع ما جاء من عند الله. فهو ينظر في كفِّه وفي العهد الذي بيده.. ثم يترجم لنا قول جدّه، صلّى الله عليه وآله عن ربِّه.. فلا يزيدُ ولا يُنقص ولا يخترع ولا يجترح.

---

(١) إثبات الهداة ص ١٥٦.

(٢) انظر المصادر السابقة بذاتها.

هذا، وإن عَصْرَ الرِّضا عليه السلام، كان عصر نهضةٍ فكريَّة وعلميَّةٍ جعلت أهلَها لا يرتضون بالميسور من القول، ولا يؤمنون إيمان عجائز، ولا يُلقى القول عليهم على عواهنه. لأنهم كانوا يؤوِّلون المعاجز ويفلسفونها ويخرجون من عُهدةِ الالتزام بها بألف بابٍ من الحذلقة، والفذلكة، والزندقة، والسفسطة، والاستدلالات القياسية والفلسفية. فهم أهْلُ أفهام وأهْل كلام، إذ في القرن الثاني للهجرة ـ الذي عاش فيه الإمام ـ ازدهرت الحركةُ العلميَّة، ونشط البحثُ الفلسفيُّ، وكثر التأليف في مختلف العلوم التي أتقنوا نقلها وترجمتها عن لُغاتٍ متعدِّدة، وشاع التصنيفُ فيما ابتدعوه من معارف، وفيما أنتجته قرائحُهم من فلسفاتٍ وكلام.. ويومَها ازدحمت المدارسُ، واكتظَّت حلقاتُ الطُّلاب حولَ الجهابذة من الأساتذة ـ في حين كانت تلمع أنجمُ الأئمة (ع) أيّامَ «المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم» من خلفاء العباسيين، وفي فترةٍ كانت من أغنى فترات الفكر والثقافة الإسلامية التي عاش فيها مؤسِّسو المذاهب الفقهية كالشافعيِّ، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وكأبي يوسف القاضي، وسفيان الثوري، وزفر، والشيباني، وشريك القاضي، وابن المبارك، ويحي بن أكثم، والفراهيدي، والأصمعي، وككثيرٍ من المعتزلة والمتصوِّفة، والأطبَّاء، والفلكيِّين، وبعض الزنادقة وأهل الْغُلوِّ وغيرهم، وغيرهم.. وكان أمثال هؤلاء يستقصون أمر «الإمامة» والولاية بدقَّة بالغةٍ وبرهافة حسٍّ شديدة، ويلاحقون قصَّتها بعنايةٍ، فنشأ ـ من ثَمَّ ـ طرَفان: أحدهما يهتمُّ بالْجَرح والقدح، والفضح.. وثانيهما يسعى للإثباتِ، فالإبهاتِ، فالإسكات.. فأدَّى ذلك إلى كثرة السؤال عن انقطاع «الولاية» حين لم يُرزق الإمام الرِّضا عليه السلام ولداً ذكراً رغم أنه في سنِّ الكهولة.. ولكن الأئمة عليهم السلام كانوا يقولون كلمتَهم ـ في هذه الأجواء ـ بثقةٍ وجرأةٍ تفتن ألباب ذلك الرعيل من العلماء والفقهاء والفلاسفة، غير هيَّابين، لأنهم ينقلون عن ربِّ العالَمين.

فمن ذلك «أنَّ ابنَ النجاشِي قال لأبي نصر البيزنطيِّ مرة:
«مَن الإمامُ بعد صاحبكم؟. فأُحبُّ أن تسألَه حتى أعلم.

فدخل أبو نصر على أبي الحسن الرِّضا عليه السلام، فأخبره.

فقال: الإمامُ بعدي ابني.

ثم قال عليه السلام: هل يتجرَّأ أحدٌ أن يقول: ابني، وليس له ولدٌ؟!![1]».

لا، يا سيِّدي، لا يتجرْأ على مثل هذا القول إلاَّ أنتم.

وكأني بك تتحدَّى الأفهام.. وفقهاء الأنام.. وسائر الأعلام في عصرك الذي سمّوه العصرَ الذهبي.. وتبتسم من «عِلْمِهِم» ابتسامةً صفراء، فيها هزءٌ وسُخرية.. منهم، ومن عِلْمِهم!.

فليصدِّقْ قولَك من شاء.. ولْيرفضْهُ من أراد.. فقد لفتَّ نظر الكلِّ إلى المعجزة السماويَّة.. وعَداك ـ في الأنام ـ ذَم!. لأن باقي المخلوقات ـ مِن حولك ـ ناسٌ من الناس، وإن كانت بينهم طائفةٌ من المصدِّقين، وطائفة ـ أكبرُ ـ من الذين ﴿أهمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ!﴾[2]. **ويبغون غير حُكمه سبحانه وغير مشيئته وتقديره.**

فقد قال الإمامُ بجزمٍ: سيكون لي وَلَدٌ، ذَكَرٌ، اسمُه محمد!..

وتحدَّى أن يقولها أحدٌ غيره،

وحكى عن «غيبٍ» يراه حقّاً رأيَ العين.. لأنه «ميثاقٌ» يقبض عليه بيده.

ومن أجل أن يرى أحدُنا قوله هذا ـ وأقوالَ الأئمة جميعهم ـ حقّاً وصدقاً لا تشوبه شائبة، يتوجَّب عليه أن يدخل في موضوع فهمِ أخبارهم ـ بعد الاطِّلاع على مصدر إخبارهم ـ دخولَ المصوِّر في هيكل آلات التصوير بشريطٍ نقيٍّ من أيَّة شائبة ارتسمتْ عليه، ليكون في مقدور آلتِه أن ترسم على ذلك الشريط صورةً نقيَّةً ظاهرةَ المعالم بارزةَ الظِّلال والأنوار.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٢٠ و ٣٢ والغيبة للطوسي ص ٢ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٣٦ والكافي م ١ ص ٣٢٠ وص ٣٢١ والإرشاد ص ٢٩٨ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٦٢ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢٩ وص ٤٣٤ قريبٌ منه، وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٢ وإعلام الورى ص ٣٣١.

(٢) آل عمران ـ ١٥٤.

أما في حال استعمال شريط تراكَمَ عليه غبارُ العوائق، أو ارتسمتْ عليه صورٌ سابقةٌ، أو كان « عاطلاً » فاسداً، فإن النور الذي يدخل إلى الآلة لا يستطيع مَحْوَ « الفساد » وَوَضْعَ الصورة المرادَة مكانَه.

ولذا، كان علينا أن نتلقَّى أخبارهم بقلبٍ نقيٍّ لا أثر فيه لرواسب العصبيَّة، وبنفسٍ منفتحةٍ على استقبال أمرٍ ذي بال ينبغي إعمالُ الفكر فيه، وإلاَّ، فنحن مُبْعَدون عن فهمهم لأن قلوبنا غُلْفٌ عامرةٌ بالنُّكت السوداء فلا يَلِجُها معناهم القُدسيُّ، ولا يَنفذ إليها « أمرُهم » الربَّاني، لأن صدأ العقول وزنجار النفوس يحَولان دون نصاعة الحقائق، ويجعلان مَعَالِـمَها شَوهاء غَبشاء.

●

قال محمد بن إسماعيل بن بزيع:

« سُئل الإمامُ الرِّضا عليه السلام: أَتكون الإمامةُ في عمٍّ أو خال؟..

قال: لا.

فقيل: في أَخ؟.

قال: لا.

قيل: ففي مَن؟.

قال: في ولدي.

وهو يومئذٍ لا ولدَ له[1] ».

وقالها ولم يخامر قلبه رَيب.. ولا خاف أن يبدوَ لله تعالى شيءٌ من تغيير قضاء أو تبديل مشيئة، لأنه يعلم أن أمر « الإمامة والإمام » من المحتوم، ويوقنُ أن ربَّه سبحانه قال: ﴿مَا يُبدَّلُ الْقَولُ لَدَيَّ﴾[2] فـيما قُضي وحُتم.

وقالها لأنه يَعلمها.. وبُغيةَ تثبيت مَوَاليهِ على « الأمر » وحملِهم على عدم الشك به

---

(١) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٢ وبحار الأنوار ج ٥٠ ص ٣٥ وكفاية الأثر ص ٣٢٤ وفي إثبات الهداة ج ٦ ص ١٥٥ رُوي عن سعيد بن بزيع، وعن محمد بن عيسى، والإمامة والتبصرة ص ٥٩.

(٢) قۤ - ٢٩.

مهما اعتورَ فَهْمَ القضية من عوائق.

قالها سلامُ الله عليه، وقال للبيزنطيِّ باطمئنانٍ تام:

«إنَّ اللهَ تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ، حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ (١). فَطِبْ نفساً، وطيِّبْ بأنفس أصحابك. فإن الأمر يجيء على غير ما يحذرون إن شاء الله» (٢).

أي أنه «لن» يمضيَ من هذه الدُّنيا قبل أن يكون له ولدٌ يكون الإمامَ من بعده.

وأنه ـ كسائر آبائه وأبنائه عليهم السلام ـ منتجَبٌ من لَدُنْ ربِّه.. سامعٌ، مطيعٌ، يَصدر عن أمره في قوله وفعله.

ومن جَهْلِنا بهذا الانتجاب، كانت أحكامُنا على الأئمة جائرةً، متأثّرةً بالفارق الإيمانيِّ بيننا وبينهم، ومتأتِّيةً من شكِّنا ـ بادىء ذي بدءٍ ـ بكلِّ ما يُروى عن المغيّبات، فإن القائم في أذهان «ضعفاء الناس» أن «ولاية» عليٍّ عليه السلام، التي نصَّبه لها النبيُّ صلّى اللهُ عليه وآله، اختصَّ بها عليٌّ سِبْطَيِ الرَّسول من بعده لأنهما ولداه، وأن كلَّ إمامٍ ـ بعدهما ـ ورَّثها لابنهِ تِباعاً وفْقَ توريثٍ دبَّروه بليل!!! مع أن الأمر ليس كما يستقرُّ في تلك الأذهان التي تراكمت عليها الرَّواسب.

قال الإمام الصادق عليه السلام لعمرو بنِ الأشعث:

«إنَّ الموصي منَّا يوصي إلى مَن يريد؟!.

لا واللهِ. ولكنَّه عهدٌ من رسول الله صلّى الله عليه وآله: رجلٌ فرجلٌ حتى ينتهيَ الأمر إلى صاحبه (٣)».

ففي أيديهم مَوْثِقٌ من الله تبارك وتعالى لا يَعْدونه قيد شعرة، وهم ينفِّذونه بأمانةٍ، عملاً بقوله عزَّ من قائل: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤولاً﴾ (٤).

---

(١) التوبة ـ ١١٥.

(٢) بحار الأنوار ج ٢٣ ص ٦٧ ـ ٦٨ وقرب الإسناد ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣) بصائر الدرجات ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٤) الإسراء ـ ٣٤.

فانظرْ بعين بصيرتك، وتأمّل بثاقب فكرك، الحوار التالي - أيضاً - ليتّضح لك ما هم عليه من الوفاء بعهد الله جلّت قدرتُه:

قال الحسين بن يسار:

« استأذنتُ أنا والحسين بن قياما - الذي هو واقفيٌّ لا يقول بإمامة عصره - على الإمام الرّضا عليه السلام في (صريا) فأذن لنا، فقال:

افْرغوا من حاجتكم.

فقال له ابن قياما: تخلو الأرضُ من أن يكون فيها إمام؟.

فقال: لا.

قال: فيكون فيها اثنان؟.

قال: لا، إلاَّ وأحَدُهما صامتٌ لا يتكلّم. (وورد: لا، إلاَّ واحدٌ صامتٌ، وواحدٌ ناطق).

قال: فقد علمتُ أنك لستَ بإمام.

قال: ومن أين علمت؟.

قال: إنه ليس لك ولدٌ، وإنّما هي في الْعَقِب.

قال: فقال له: فواللهِ لا تمضي الأيام والليالي، حتى يولدَ لي ذكرٌ، من صلبي، يقوم مثلَ مقامي، يُحقُّ الحقَّ، ويَمحق الباطل[1] ».

ورواه صفوان بن يحي بالنّص التالي:

« حدّثنا الحسينُ بن قياما، وكان من رؤساء الواقفة، فسألنا أن نستأذن له على الرضا عليه السلام ففعلْنا.

فلمّا صار بين يديه قال له: أنتَ إمام؟.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٣٢ وص ٣٤ ورجال الكشي رقم ٤٢٧ والإرشاد ص ٢٩٨ وتجده في الكافي م ١ ص ٣٢٠ وص ٣٢١ بعدّة نصوص، وهو في حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢٩ وص ٤٣٢ - ٤٣٣ مرويٌّ عن صفوان بن يحي - عن محمد بن نجران، عن محمد بن عيسى، وانظر إثبات الهداة ج ٦ ص ١٥٨ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٢ وإعلام الورى ص ٣٣١.

قال: نعم.

قال: فإني أَشْهد أنك لستَ بإمام.

فمكث ـ الإمامُ ـ في الأرض طويلاً منكِّس الرأس، ثم رفع رأسَهُ فقال له: ما علمُك أني لستُ بإمام؟!.

قال: إنَّا روَينا عن أبي عبدالله عليه السلام، أنَّ الإمام لا يكون عقيماً، وأنت بلغت هذا السنَّ وليس لك ولد.

فنكَّس ـ الإمام ـ رأسه أطولَ من المرَّة الأولى، ثم رفع رأسه فقال:

إنّي أُشهد الله أنه لا يمضي الأيام والليالي. حتى يرزقَني الله تعالى ولداً منِّي [١] ».

« قال عبد الرحمان ابن أبي نجران: فعدَدْنا الشهورَ من الوقت الذي قال، فوهب الله له أبا جعفر عليه السلام في أقلَّ من سنة [١] ».

ويلفت النظر في هذا الحوار أمور:

أولها: أن الإمام قال لزائريه: افْرَغوا من حاجتكم، لأنه « عَلِم » سلفاً أن ابن قياما جاء بهذا الصَّدد، فأراد أن يلقي شكَّه في نحره، فابنُ قياما ـ هذا ـ لم يقل بإمامة الرِّضا عليه السلام وكان متوقفاً عند إمامة أبيه الكاظم عليه السلام الذي دعا عليه أثناء الطواف في الحج حين رآه يقف حائراً فَعَلِمَ ما في نفسه فقال له: مالَكَ حيَّرك الله؟! [١]. فبقيَ متحيراً إلى أن فتح الله تعالى عليه أبواب الفهم كما سترى لاحقاً.

وثانيها: موقفُ الإمام الجدِّي مع مُحاوره، فقد كان يُجيبه بتأنٍّ وجَزْم، ليجتثَّ الحيرة من صدره.

وثالثها: حلفُه اليمين القـاطعة على أمرٍ في طيِّ الْغَيب! وإشهادُ الله تعالى..

ورابعها: ذكرُ الأيام والليالي ـ دون السنوات ـ !. فهل وضع هذا الابنَ المرصودَ بيده وهو يتناوله متى شاء؟!.

---

(١) المصادر السابقة نفسها.

وخامسها: قولُ إمامٍ تخطَّى الأربعين من عُمره: سيكون لي ولد .. «كاشفاً» عن «علمٍ خاصٍّ» به أقدرَهُ الله تعالى عليه.

أفمَا يدور في خَلد ابنِ الأربعين الْعُقمُ.. وانقطاعُ النَّسل؟!!!

لا، وكلاَّ.. فهو وابنُه على ميعاد.. وَ ﴿إنَّ اللهُ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [1].

ولم يَخَفْ أن تسْقِطَ زوجُه.. ولا خَشِيَ أن يُعطى بنتاً.. بل تحدَّى «العادةَ والمألوف» وقال:

سيكون لي ولدٌ.. ذكرٌ.. ثم لَقَّبه بالجواد!.

وأنَّهُ إمامٌ، ابن إمامٍ، أبو أئمَّة.

ولاتَخَـرُّصَ في ذلك ولا تخريف.. ولا عِلْمَ غيبٍ أيضاً.. ولا أمْلَى الإمام على القضاء والقدر، ولا كان بيده الإعطاءُ والامساك.

وقال ذلك وما خاف غيلة مغتال.. ولا أن يبدِّلَ الله من حالٍ إلى حال..

لأنه مؤمنٌ إيماناً فريداً.. يراه عادياً ونراه جديداً مدهشاً جريئاً..

والإمام الرِّضا عليه السلام هو مَنْ هو في مركزه الدينيِّ والاجتماعيِّ والسياسيِّ، ومع ذلك ما هاب اخترامَ قضاء، ولا بُدُوَّ بِداء، بالرَّغم من أنه يبدو وكأنَّهُ يقضي ويُمضي من عند نفسه، وكأنَّه لا دَخْلَ لمواريث السماء التي بيده!.

فليس في العالَمين أحدٌ يملك جرأة إمامِنا الرِّضا عليه السلام فَيُقسم على أنه يعطى ولداً، ذكَراً، يُسمِّيه، ويلقِّبه، والأربعون من سنيِّ الكهولة تلفُّ أثقال الْعُمر عليه.

ولكنَّ أبا الحسن عليه السلام، أطلقها صريحةً فصيحةً.. وأنَّ ابنَه يؤتَى الحكمة وفصل الخطاب صبيّاً!.

وهذا تحدٍّ قاهرٌ لكلِّ عقل قاصر! وإن كان ـ بحقيقته ـ إعلاناً عن «امرٍ» سبقَ في عِلْمِ الله تعالى أنَّه سيكون، وكشفاً عن واقعةٍ ليس لوقعتها كاذبة.

---

(١) آل عمران ـ ٩ والرعد ـ ٣١.

فقولُه ـ واستغفر اللهُ من فلسفتي له ـ قولٌ صادرٌ عنه، عن أبيه، عن جدّه.. عن جدّه النبيِّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلم، عن جبرائيل، عن اللوح، عن القلم، عن الله عزَّ وعلا.. ومَن كان لبيباً يَرْشد فَيَسعد، ومَن انجرَّ بشعرة إبليس أضلَّه الهوى وأطغاه.

فقد جاء في حديثٍ «لوح فاطمة» عليها السلام الذي صدَر عن العزَّة الإلّهية، ما نذكر الشاهدَ منه فقط:

«.. وعليٌّ ـ أي الرِّضا عليه السلام ـ وليِّي وناصري. لأُقِرَّنَّ عينَه بمحمدٍ ابنهِ وخليفتِه من بعده. فهو وارثٌ عِلْمي، ومعدنُ حكمتي، وموضعُ سِرِّي، وحجَّتي على خلقي.. إلخ..[1]».

●

ونتابع توضيحَ خطوط هذه الحادثة الخارقة. لتبدوَ جليَّةً لسائر الأنظار.

قال كليم بن عمران:

«قلتُ للرِّضا عليه السلام: ادْعُ الله أن يرزقك ولداً.

فقال: إنَّما أُرزقُ ولداً واحداً، وهو يرثني ويرث آلَ داود..

فلمَّا وُلد أبو جعفر عليه السلام، قال الرِّضا عليه السلام لأصحابه:

قد وُلد لي شبيهُ موسى بن عمران فالقِ البحار، وشبيهُ عيسى بن مريم قُدِّست أُمٌّ ولدتْهُ، قد خُلقت طاهرةً مطهَّرة.

ثم قال: يُقتل غصباً فيبكي له وعليه أهل السماء، ويغضب الله على عدوِّه وظالمه فلا يلبث إلاَّ يسيراً حتى يعجِّل الله به إلى عذابه الأليم وعقابه الشديد.

وكان طول ليلته يناغيه في مهده»[2].

نعم، كان يناغيه بِجِدِّ الأنبياء، لا بلهوِ السفهاء من الآباء.

---

(١) عيون أخبار الرضا ج١ ٣٦ وبحار الأنوار ج ٥١ ص ٧٧ وج ٥٢ ص ٢٧٧ والغيبة للطوسي ص ٩٥ وهو في مصادر إسلامية كثيرة.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٥ وهو في ص ١٨ عن ابن قياما بلفظ آخَر، وانظر الصحاح ص ٢٥١٣ وبصائر الدرجات ص ١٣٨ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٣٨٩.

ولكنَّ في الخبر عبارتين قد تزيدان بلّةً في الطّين الذي ران على قلوب المكابرين:

إحداهما: أن ابنه يُقتل غصبا!. فمَن قال له ذلك؟.

والثانية: أن قاتلَه الظالمَ له لا يلبث بعده إلاَّ قليلاً!. فمَن أنبأه؟!!

ولو سُئل الإمام عليه السلام عن ذلك لَـ ﴿قَالَ: نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾[1]

فليس عند أئمَّتنا نبوءاتٌ تتلوها نبوءات، وإنّما أنجز الله تعالى لهم وَعْدَه، ولا تخليط في الأمر ولا أضغاثَ أحلام.. ولا عِلْمَ غيب.. بل علّمهم الله سبحانه من علمِه.. ووقع أمرُ الله بقتل «ابنِه» غصباً، وبهلاك ظالمِه «المعتصم» بعده بقليل.. قولاً من عند الله ورثوه عن جدِّهم صلى الله عليه وآله.. وَ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ، مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[2].. إلاَّ عند المستكبرين عن سماع كلمة الله تعالى.

●

ثم.. كان الولد،

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾[3].

وقال يحيى الصنعاني:

«دخلتُ على أبي الحسن الرِّضا عليه السلام وهو بمكة، وهو يقشِّر موزاً ويُطعم أبا جعفر عليه السلام. فقلتُ: جُعلت فداك، هو المولود المبارك؟.

قال: نعم، يا يحيى. هذا المولود الذي لم يولد في الإسلام مثلَه مولودٌ أعظمُ بركةً على شيعتنا منه»[4].

وكان ابنُ عبَّاد، وابنُ أسباط، قد رأياه عليه السلام بُعَيد ميلاده، وقالا:

«إنَّا لَعِند الرِّضا عليه السلام بمنى، إذ جيءَ بأبي جعفر عليه السلام، فقلنا: هذا المولود المبارك؟.

---

(١) التحريم - ٣.

(٢) التكوير - ١٩ - ٢١.

(٣) الأحزاب - ٣٨.

(٤) **بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٣٥ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٠ والكافي م ١ ص ٣٢١ وص ٣٢٢** وفي ص ٣٦٠ حديث يشبهه، وانظر إثبات الهداة ج ٦ ص ١٥٩ وإعلام الورى ص ٣٣٢ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٢ - ١٤٣ والإرشاد ص ٢٩٩.

قال: نعم، هذا المولودُ الذي لم يولَد في الإسلام أعظم برَكةً منه »[1].

فها هوذا حدَثٌ ـ لا كالأحداث ـ وصبيٌّ ـ لا كالصبيان ـ!. لا يلهو، ولا خُلق للّعب.

أخذ أبوه ينوِّه به بعد ولادته، كما نوَّه قبلَها.. لأنه إمامٌ موعودٌ لا ينبغي الضلالُ عنه، إذ مَن مات ولم يعرف إمام زمانه، مات ميتةً جاهلية.

قال عبد الله بن جعفر: « دخلتُ أنا وصفوان بن يحيى، وأبو جعفر عليه السلام قائمٌ قد أتى له ثلاثُ سنين ـ وهو بين يدَي أبيه ـ فقلنا له: جعلَنا الله فداك، إنْ ـ وأعوذ بالله ـ حدثَ حدثٌ فمَن يكون بعدك؟.

قال: ابني هذا ـ وأومأ إليه ـ.

فقلنا: وهو في هذا السِّن؟!!

قال: نعم، وهو في هذا السِّن، إنَّ الله تبارك وتعالى احتجَّ بعيسى وهو ابنُ سنتَين »[2].

نعم، قد كلّم عيسى عليه السلام الناسَ وهو في المهد.. وسترى من أبي جعفر صلواتُ الله عليه آياتٍ بيِّناتٍ في سنواته الأولى كذلك.

وقد قال معمر بن خلاَّد: « سمعتُ الرِّضا عليه السلام ـ وذكر شيئاً ـ فقال:

ما حاجتُكم إلى ذلك؟. هذا أبو جعفر قد أَجلستُه مجلسي، وصيَّرتُه مكاني. إنَّا أهلُ بيتٍ يتوارثُ أصاغرُنا أكابرَنا الْقُذَّةَ بالقُذة »[2].

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٢٠ وص ٢١ وص ٣٥ وكفاية الأثر ص ٣٢٤ والكافي م ١ ص ٣٢٠ وص ٣٢١ والإرشاد ص ٢٩٧ وص ٢٩٨ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢٩ وص ٤٣٠ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٥٣ وص ١٥٨ وهو في الصفحتَين ١٦٣ و١٦٦ عن محمد بن أبي نصر مع زيادة أن الإمامة تجري مجرى النبوّة.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٢١ والكافي م ١ ص ٣٢٠ وص ٣٢١ عن صفوان بن يحيى بلفظ: فلا أرانا الله يومك، فإن كان كَوْنٌ.. وهو في كشف الغمة ج ٣ ص ١٤١ وفي ص ١٤٣ رُوي عن الخيزراني بلفظ قريب، وهو في الإرشاد ص ٢٩٧ و٢٩٨ وفي ص ٢٩٩ عن الخيزراني قريب منه، وهو في إعلام الورى ص ٣٣١.

ثم بدأ المولود المبارك يظهر على الجمهور بنفسه مع صغر سنّه. وقد قال محمد بن عيسى: «دخلتُ على أبي جعفر عليه السلام، فناظرني في أشياء، ثم قال:

ارتفعَ الشَّك؟. ما لأبي غيري»[1].

فقد وكَلَ أبوه أمر الإجابة على أسئلة أصحابه إليه، ليزولَ الشكُّ من نفوسهم، ومارسَ طريقة انتدابه للرَّد، لِصَرْفِ أصحابه إليه، وصار يقول ـ وهو حدَثٌ بين يدَيه ـ: هذا أبو جعفر أجلستُه مجلسي وأقمتُه مقامي، حرصاً على عقيدة الثُّلة المؤمنة التي لم يجرفها زخرفُ الدنيا وبَهرجُها.

وقد قال الحسنُ بنُ الجهم:

«كنتُ مع أبي الحسن عليه السلام جالساً، فدعا بابنهِ وهو صغيرٌ، فأجلسه في حجري وقال لي:

جرِّده، وانزعْ قميصَه. فنزعتُه.

فقال لي: انظرْ بين كتفَيه.

فنظرتُ فإذا في أحد كتفَيه شبهُ الخاتم داخلَ اللَّحم.

ثم قال لي: أترى هذا؟. مثلُه في هذا الموضع كان من أبي عليه السلام»[2].

وهذا الخاتم ـ كخاتم النبوَّة ـ من علامات الإمامة، وهو يُزيل ريب المرتابين لأنه مخلوقٌ مع صاحبه.

وحدَّث إبراهيم ابن أبي محمود، فقال:

«كنت واقفاً عند أبي الحسن، عليٍّ بن موسى، الرِّضا عليه السلام، بطوس.

فقال بعضُ مَن كان عنده: إن حدَثَ حدثٌ، فإلى مَن؟.

قال: إلى ابني محمد.

وكأنَّ السائل استصغر سنَّ أبي جعفر عليه السلام،

---

(١) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢٩.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٣٣ والإرشاد ص ٢٩٨ وفي ص ٢٩٩ قريبٌ منه عن الخيزراني، وكذلك في إعلام الورى ص ٣٣١ وص ٣٣٢ والكافي م ١ ص ٣٢١ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٠ وص ٤٣١ وص ٤٣٢، وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٢.

فقال له أبو الحسن الرِّضا عليه السلام: إنَّ الله بعث عيسى بن مريم عليه السلام نبيّاً [ثابتاً] بإقامة شريعةٍ في دون السنِّ الذي أُقيم فيه أبو جعفر ثابتاً على شريعته »[1].

وجاء بلفظ: إنَّ الله بعث عيسى رسولاً نبيّاً، صاحبَ شريعةٍ مبتدَأة في أصغر من السنِّ الذي فيه أبو جعفر عليه السلام »[1].

فدلَّ بهذه الحجَّة القاطعة على إمكان أن يكون الطفلُ إماماً، ما زال يمكن أن يكون نبيّاً، فرفع بذلك الاستهجان وأزال الوهم الذي يجيء من ناحية صِغَرِ السنِّ، لأن النبيَّ يقوم بابتداء شريعة، بينما يسهر الإمام على تطبيق الشريعة الموجودة.. فإذا جاز أن يكون الصغيرُ نبيّاً فَلِمَ لا يجوز أن يكون مَن هو في مثل سنِّه إماماً ووصيّاً؟!!

•

وممَّا حصل له عليه السلام في صِغَرِه، أن علي بن أسباط تشرَّف بزيارته وروَى ما حَدث له، قائلاً:

« رأيتُ أبا جعفر قد خرج عليَّ، فأحددتُ النظرَ إليه، وإلى رأسه، وإلى رجلِه، لأصفَ قامتَهُ لأصحابنا بمصر، فخرَّ ساجداً.

ولَمَّا جلس قال: يا عليّ، إنَّ الله احتجَّ في الإمامة بمثل ما احتجَّ في النبوَّة. قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[2] وقال الله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[2]..

فقد يجوز أن يؤتَى الحكمة وهو صبيّ، ويجوز أن يؤتَى وهو ابنُ أربعين »[2].

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٣٣ وص ٣٤-٣٥ وكفاية الأثر ص ٣٢٤ ورُوي مثلُه عن الخيزراني عن أبيه في حلية الأبرار ج ٢ ص ٣٩٧ وص ٤٣١ وص ٤٣٢ والكافي م ١ ص ٣٢٢ والإرشاد ص ٢٩٩، وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٦٠، وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٣ وإعلام الورى ص ٣٣١.

(٢) الآية الأولى في مريم - ١١ والثانية في الأحقاف - ١٥ وانظر بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٢٠ وص ٣٧ وبصائر الدرجات ص ٢٣٨ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٩ والإرشاد ص ٣٠٦ وص ٣٤٠ والكافي م ١ ص ٤٩٤ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٦٧-١٦٨ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٣ وإعلام الورى ص ٣٣٤.

ونترك ابنَ أسباط يتأمَّل قامتَهُ الشريفة لنتأمَّل نحن في أشياء أُخرى:

فكيف عرف هذا الصبيُّ ـ ابنُ السنتَين ـ ما دار في خلَد صاحبه؟ فسجد!.

وكيف تسنَّى لهذا الصغير أن يَفجأه بحُجةٍ من القرآن ليستدلَّ على صحة إمامة الصغير؟.

ومَن أعلَمه بنبوَّة يحيى وعيسى عليهما السلام في سِنِّ الصباوة؟.

ومَن لقَّنه الحجةَ بِطَرفَيها حيث يجوز تكليف الصبيِّ، وتكليف ابنِ الأربعين بالنبوَّة والإمامة للقيام بأمر الله عزَّ وجلّ؟.

وما هذه البلاغةُ، والفصاحةُ، تدوران على لسان صبيٍّ لا يزال في حضن أُمِّه ـ بعيداً عن أبيه ـ مترعرعاً بين جواريه السود، ونائياً عن حلقات الدرس ومجالس العلْم؟!!

إنَّ كيف، ومَن، وما، ولماذا، ولِمَ، كلماتٌ جوفاءُ فارغةٌ بحقِّ أهل هذا البيت الذين حملوا العملَ الرائدَ من السماء وحُمِّلوا ـ بذلك ـ أمراً عظيماً و«قولاً ثقيلاً» فكان القرآنُ يدور على ألْسنتهم بيُسرٍ، وتتفجَّرُ ينابيعُ الحكمة من قلوبهم ببساطة تُذهل العقول وتستلب الألباب.

فلا تستفهمْ عن حالهم إذا كنت رائد حقٍّ، ولا تُضعْ وقتَك ولا نفسَك في همزات الشياطين، وتأمَّلْ بهذا الصبيِّ الحدَث الذي لم يجلس إلى زائره لِيَلوك الكلامَ ويـنمِّقَ اللفظَ، ولا أَعملَ فكرَه ليتصيَّدَ المعانيَ بحذلقةِ لسانٍ واصطناعِ بيانٍ لِيَخرج من عُهدة الاستشكال في صِغَرِ سِنِّه، بل «انكشفَ» له ما في نِيَّةِ صاحبه، فسجد شكراً لله على ما وهبَهُ وأزال الإشكـال مـن ذهـن الزائـر بلا تعمُّـلٍ ولا تكلُّف؛ ذلك أن الأئمة عليهم السلام علمُهم من علمِ رسول الله ﷺ ـ من علمِ الله تعالى ـ كباراً كانوا أم صغاراً؛ كما أنَّ طينتهم من طينته، وأنَّ الذي «قرَّر» نبوَّتَـهُ «قرَّر» ولايتَهم حين رسم خطة النبوَّة والإمامة كِلَيهما..

•

وقال سنان بن نافع:

« سألتُ عليَّ بن موسى الرِّضا عليه السلام، فقلت: جُعلت فداك، مَن صاحبُ الأمر بعدَك؟.

فقال لي: يا ابن نافع، يدخل عليك من هذا الباب مَن ورثَ ما ورثتُه ممَّن هو قبلي، وهو حُجة الله تعالى من بعدي..

فبينا أنا كذلك إذ دخل علينا محمد بن عليٍّ عليهما السلام، فلمَّا بَصُرَ بي قال لي: يا ابن نافع، أَلاَ أُحدِّثك بحديث؟. إنَّا معاشر الأئمَّة إذا حملته أُمُّه يسمع الصوتَ في بطن أُمِّه أربعين يوماً.

فإذا أتى له في بطن أُمِّه أربعةُ أشهر، رفع الله تعالى له أعلام الأرض فقرَّب له ما بَعُدَ عنه حتى لا يَعزب عنه حلولُ قطرة غيثٍ نافعةٍ ولا ضارَّة. وإنَّ قولك لأبي الحسن: مَن حُجة الدهر والزمان من بعده، فالَّذي حدَّثك أبو الحسن ما سألَت عنه، هو الْحُجة عليك.

فقلتُ: أنا أوّلُ العابدين.

ثم دخل علينا أبو الحسن فقال لي: يا ابن نافع، سلِّم وأَذْعِنْ له بالطاعة، فروحُه روحي، وروحي روحُ رسول الله ﷺ »(١).

ونقل يحي بن حبيب الزيَّات عمَّن حضر في مجلس الإمام الرضا عليه السلام حديثاً قال له في آخره:

« .. فلمَّا نهض القوم قال لهم أبو الحسن الرضا عليه السلام: الْقَوْا أبا جعفر فسلِّموا عليه وأَحْدِثُوا به عهداً.

فلمَّا نهض القوم التفتَ إليَّ وقال:

يرحم الله المفضَّل، إنَّه كان لَيَقنع بدون ذلك »(٢).

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٧-٣٨٨ وبحار الأنوار ج ٥٠ ص ٥٦ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٦٥.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٣٤ والإرشاد ص ٢٩٩ والكافي م ١ ص ٣٢٠ وص ٣٢٢ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢٩ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٦٠ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٣ وإعلام الورى ص ٣٣٢.

يعني أن المفضَّل ـ صاحبَه وصاحبَ آبائه عليهم السلام ـ كان يقنع بالنَّص على خلَف الإمام نصّاً شفهيّاً بدون أن يبحث ويحقّق ويدقّق لشدة إيمانه ويقينه، وأنه لو كان حيّاً لَنهض حالاً لِيُحْدِثَ عهداً بالإمام الجديد، ممتثلاً امتثالاً فوريّاً، لأنه يسمع ويُطيع وينفّذ من غير أن يطلب دلالةً على قول إمامه.

وقال جعفر بن محمد النوفلي:

« لقيت الرِّضا عليه السلام بقنطرة أريق، فسلَّمت عليه ثم جلست فقلت:

جُعلت فداك، إنَّ أُناساً يزعمون أنَّ أباك حيّ!.

فقال: كذبوا، لَعنهم الله.

قلت: فما تأمرني؟.

قال: اقتدِ بابني محمدٍ من بعدي »[1].

●

وكما يدخل الطبيب إلى عيادته معلّماً مفهّماً متخصّصاً بما جعله حرفةً له، يخرج الإمام عليه السلام إلى هذه الحياة الدُّنيا وقد « أنهى تخصّصه بوظيفته الإلّهية » وكان معلّماً مفهّماً لا يُعييه أمرٌ من أمور الدنيا والدين. فلا هو بحاجة إلى تدريب، ولا يرضخ لِدَور تأديب.. ولا يحتاج لِمراس، ولا لتمرينٍ على العمل كسائر الناس.

وها نحن أولاء في عيادة الإمام ـ الطفل ـ الطبيب، حيث قال معمر بن خلَّاد:

« سمعتُ إسماعيل بن إبراهيم يقول للرِّضا عليه السلام: إنَّ ابني في لسانه ثقل، فأنا أبعثُ به إليك غداً تمسح على رأسه وتدعو له، فإنه مولاك.

فقال عليه السلام: هو مَوْلَى أبي جعفر، فابعثْ به غداً إليه »[2].

وحُمل الذي في لسانه ثقلٌ إليه.. فَشُفيَ بإذن الله تعالى وبمجرَّد دعوة الإمام التي تمتمَ بها وهو رافعٌ نظره إلى السماء!.

---

(١) إثبات الهداة ج٦ ص ١٦١.

(٢) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٠ وبحار الأنوار ج ٥٠ ص٣٦ والكافي م ١ ص ٣٢١.

ولكن يجب أن ينكشف لك السرُّ كما انكشف لمعاصريه، فإن أباه عليه السلام كان يوجِّه أنظار أصحابه إليه كي يلفت نظرهم إلى سرِّ الله الذي يحمله ابنُه ليرسِّخَ إيمانهم في قلوبهم ويحافظَ على جمعهم حول كلمةِ أهلِ الحقِّ وكلمةِ الله التي ألْقاها إليهم.

أفرأيته كيف يدعوهم إلى أن لا يَحوروا ولا يَدوروا حين يَرون المعجزة تجري على يَدي ابنه وهو لَـمَّا يزَل طفلاً؟.

ورأيت - ثَمَّ - إلى ابنهِ كيف يوضح علاقته بالسماء، وكيف يثبت تفرُّعه من الشجرة المباركة المطهَّرة من الرِّجس، وكيف تكون «**الإمامةُ**» «للصغير» من هذا «البيت الكبير» بمشيئة الله!.

هذا الطفل - الذي يرفع طرْفه نحو السماء ويتحرَّك لسانُه بالثناء، كما يفعل المتنسِّكون الخاشعون من الأولياء، ويجأر إلى الله سبحانه بالدُّعاء فيستجيب له لمحاً بالبصر - هو طفلٌ يُدهش حقّاً!.

إنه لَمّا يزل يُحمل من يدٍ إلى يدٍ، ومن حضنٍ إلى حضنٍ بدافع عاطفة الكبير على الصغير، ثم يَصدر عنه مثلُ هذا العمل الجليل الخطير!.

قالت مرضعتُه التي كانت من سعد بن بكير حين رأت آياتهِ العجيبةَ وهو - بعدُ - رضيعاً:

أنَّـى أُشَبِّـهُـكَ يـا مـولايَ ذَا لَبَـةٍ ... شَثْـنَ البراثـنِ، أو صمَّـاءَ حيَّـاتِ
ولسـتَ تُشبـهُ وَرْدَ اللَّـون، ذا لُبَـدٍ ... ولا ضئيلاً مـن الـرُّقْشِ الضئيلاتِ
ولا خَسَـأْتَ سِبَـاعَ الأرض أَسْكَتَهـا ... إشجاءُ صوتِكَ حتفـاً، أيَّ إسكـاتِ
ولا عزمـتَ على الحيَّـاتِ تـأمـرُهـا ... بِألكَفِّ، ما جاوزتْ تلك الْعـزيماتِ[1]

فقد أنِفَتْ أن تشبِّهه بذي اللِّبْوءة - أي الأسد القاسي الأظفار - أو بـورد اللّـون - الأسد الشجاع - حين تكون اللبوءة بجانبه فيغار عليها ويحميها، أو بالحيَّة الصَّماء ذات السم الناقع، أو بالأفعى الرَّقشاء، فإنه أجلُّ من ذلك وأرفع، لأنه بصوته

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٣.

الناعم الرهيف يَخْسَأ ـ يَطرد ويُبعد ـ سِبَاعَ الأرض المفترسة أو يُمِيتُها هلعاً ورُعباً، وبصوته هذا يعزِم على الأفاعي فتقف عند عزيمته وتفعل ما يأمرها به.

وهذا أقوى وأخطر ما تتصوَّره مرضعتُه في الطبيعة، قد رفعتْه إلى ما فوقه بمعاجزه الربَّانيَّة التي تراها منه!. وهو ـ بالحقيقة ـ من البلاغة بمكان...

وكيفَ لا تقول فيه مرضعتُه هذا القولَ وهي ترى منه عجباً؟. فقد روى أحمدُ بنُ محمد بن أبي نصر، ومحمد بن سنان، جميعاً، قالا:

« كُنَّا بمكة، وأبو الحسن الرِّضا عليه السلام بها.

فقلنا له: جعلَنا الله فداك، نحن خارجون وأنت مقيم. فإن رأيت أن تكتب لنا إلى أبي جعفر كتاباً نُلِمُّ به!. ـ أي تجعل لنا بذلك سبباً للتشرف بزيارته لأنه كان في السنة الأولى من عمره ـ.

فكتبَ إليه.

فقدمْنا، فقلنا لموفَّق ـ الخادم ـ: أَخْرِجْهُ إلينا.

فأخرجَه إلينا وهو في صدر موفق ـ أي في خضنه ـ.

فأقبلَ يقرأه ويطويه، وينظر فيه ويتبسَّم، حتى أتى على آخره كذلك يطويه وينشره من أسفله »[1].

أفلا يدهشك هذا الذي يفعله طفلٌ لم يقف على قدمَيه بعد؟!.

قال أحمد بن محمد بن أبي نصر، نفسُه: « لَـمَّا كان ابن ثمانية عشر شهراً دفعتُ إليه كتاباً، فَفضَّهُ وقرأه »[2].

واستمعْ إلى أعجب، فقد قال محمد بن ميمون:

« كنتُ عند الرِّضا عليه السلام بمكة قبل خروجه إلى خراسان.

فقلت له: إنِّي أُريد المدينة، فاكتبْ معي كتاباً إلى أبي جعفر عليه السلام.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٦٧.

(٢) إثبات الهداة ج ٦ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

فتبسَّم، وكَتب.

فصرت إلى المدينة، وقد كان ذهب بصري.

فأخرج الخادمُ أبا جعفر عليه السلام إلينا، يحمله من الْمَهد، فناولتُه الكتاب.

فقال لموفَّق الخادم: فُضَّهُ وانشُرْه.

ففضَّه ونشَره بين يديه.

فنظر فيه، ثم قال لي: يا محمدُ، ما حالُ بصرِك؟.

قلت: يا ابنَ رسول الله، اعتلَّت عيناي فذهب بصري كما ترى.

قال: ادْنُ منِّي.

ودنَوتُ منه، فمدَّ يدَه فمسح بها على عينَيَّ، فعادَ إليَّ بصري كأَصَح ما كان.

فقبَّلتُ يدَه ورجلَه، وانصرفتُ من عنده وأنا بصير»[1].

هذا فعلُ ربِّك ـ يا أخي القارىء ـ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ، وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[2]!.

وهكذا كان الله تعالى يُلهم الناس ليقصدوا الإمام الرِّضا عليه السلام، فيوجِّههم نحو ابنه ـ إمامِ المستقبل ـ كيلا يضيعوا عن أمر الله.

وكذلك قال محمد بن سنان:

«شكوتُ إلى الرِّضا عليه السلام وجعَ الْعَين. فأخذ قرطاساً فكتب إلى أبي جعفر عليه السلام وهو أقلُّ من يدي ـ أي صغيرٌ جدًّا ـ ودفع الكتاب إلى الخادم وأمرَني أن أذهب معه وقال: اكْتُمْ.

فأتيناه وخادمٌ قد حملَه!.

ففتح الخادمُ الكتابَ بين يدَي أبي جعفر عليه السلام.

---

(١) حلية الأبرار ج٢ ص٣٩٦ وإثبات الهداة ج٦ ص١٨٤ وفي ص ٢٠٠ قصة صبيٍّ مكفوف أعاد إليه بصره، وانظر الأنوار البهية ص٢١٤ والمحجة البيضاء ج ٤ ص٣٠٦ وكشف الغمة ج٣ ص١٥٥.

(٢) الأنفال ـ ١٧.

فجعل أبو جعفر ينظر في الكتاب ويرفع رأسه إلى السماء ويقول: ناجٍ.

ففعل ذلك مراراً، فذهبَ كلُّ وجعٍ في عيني، وأبصرتُ بصراً لا يُبصره أحد!.

قال: فقلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلك الله شيخاً على هذه الأمَّة كما جعل عيسى بن مريم شيخاً على بَني إسرائيل»[1]..

والحديث طويل، جرى وهو طفل رضيعٌ يُقيم في المدينة المنوَّرة، وأبوه في مكة يؤدِّي فريضة الحج لينصرف بعدها إلى خراسان.

لكنْ.. لِمَ لَمْ يعالج الإمام الرِّضا عليه السلام هؤلاء المرضى بقدرة الله تعالى، وحوَّلهم إلى ابنه في المدينة وهو في سِنِّ الرضاعة لا يكاد يقوى على المشي؟!.

سؤالٌ لا يُتَجاوَز دون جواب.

وجوابُه القريبُ الْمَنال، هو أولُ جواب يخطر في البال. ذاك أن أباه منصرفٌ إلى خراسان «عالماً» أنه لن يعيش طويلاً، وأن ابنه «مدعوٌّ» لإشغال مركز «الإمامة» في سِنٍّ مبكِّرةٍ، فلا بُدَّ من «نشر» آياتِه ومعجزاتِه والدلائلِ على إمامته في المدينة المنوَّرة أولاً وبالذات، لأنها مثوى جدِّه الأعظمِ ﷺ، إلى جانب أنها مقرُّ الهاشميِّين من أعمامه وبَني أعمامه، كما أنها ملتقى القاصي والداني من كُوَرِ الإسلام، مضافاً إلى وجود أهل الإفك فيها، فلا ينبغي إظهارُ «أمر الله» تعالى إلاَّ منها، لِلَفْتِ أنظار جميع قواعده إليه من مختلَف الأقطار والأمصار.

ففترة الْعُمر قصيرة.. وأمرُ إبراز مواهب الله تعالى للإمامِ ـ الابنِ يقتضي «الإذاعة» والنشر.. قبل انتهاء فترة العمر.

•

فإمامُنا هذا ـ الصغيرُ سِنّاً، الكبيرُ قَدْراً ونُهىً ـ كان والدُه ـ الذي هو ملاذُ العلماء والفقهاء والحُكماء ـ يحترمُه ويفدِّيه بنفسه ويُعطيه حقَّه من التَّجِلَّةِ لأنه أهلُها ومحلُّها.. منذ صِغَره.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٦٦ ورجال الكشي ص ٤٨٧.

فهو طفلٌ تخرس أمام معناه، ونُهاه، وفطنتِه وحضورِ ذهنه، عباقرةُ الأفهام والكلام، وتنبهر من آياته ومعجزاته، وصولاته في الفقه وجولاته في الفتاوى والتفسير والتأويل، حَفَظَةُ الفتاوى والأحكام!.

لا يقول هُجراً.. ولا يَعبث لهواً كأترابه وأولاد جيله،
ولا تلفت نظرَهُ مسلّيات الصّغار وأُلهيّات الأطفال،
لأنه مخلوقٌ لمهمّةٍ كبرى، في عهدٍ خطير.. وهو ـ بعدُ ـ صغير!.
فتأمّل تصرّفاته عليه السلام، مع عليٍّ بن حسان الواسطي الذي قال:
«حملتُ معي من الآلة للصّبيان بعضاً من فضّةٍ وقلت: أُتحف مولاي أبا جعفر عليه السلام بها.
فلمّا تفرّق الناس عن جوابٍ لجميعهم قام فمضى إلى (صريا).
واتّبعتُه فلقيت موفّقاً ـ الخادم ـ فقلتُ: استأذنْ لي على أبي جعفر عليه السلام.
فدخلتُ، فسلّمت. فردّ عَليّ السلام وفي وجهه الكراهة، ولم يأمرْني بالجلوس.
فدنَوت منه، وفرّغتُ ما كان في كُمّي بين يدَيه.
فنظرَ إليّ نظرَ مغضَب، ثم رمى ـ الآلةَ ـ يميناً وشمالاً، ثم قال:
ما لهذا خلقني الله!. ما أنا واللّعب؟!!
فاستعفيتُه، فعفاعنّي، فخرجْت»[1].

إيْ والله، ما لهذا خَلَقه الله.. ولا لذلك خُلق آباؤه وأجدادُه جميعاً.

وعليٌّ بنُ حسان، وأمثالُه من الأبدال والأفذاذ، إنما كانوا يصنعون مثلَ هذا الصنيع بحثاً عن حقيقة «إمامةِ ولدٍ» لم يكَد يدبُّ ويدرج. فهم يبحثون، ويستقْصون الدّقة في موازين «التولّي والتبرُّؤ» لأنهم مراجعُ الشيعة الاثني عشريّة، وحَمَلَة أوامر الإمام للناس عن طريق كونهم مفاتيحَ أبواب قواعده.

لا، لم يُخلق إمامُنا لِلّهو ولا لِلّعب، لأنه «مرصود» للأمر العظيم في القيادة والرّيادة.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٥٧.

وهو كبيرٌ في صِغَرِه.. وإمامٌ في كلِّ حال.. والسنُّ ليست عند الله ذاتَ بال..

وطفولتُه لا تلهو ولا تعبث.. لأنَّ الأئمَّةُ يولَدون كذلك، وتتدخَّل يدُ الله تبارك وتعالى في جبلتهم.. وتمضي مشيئتُه في تكوين شخصياتهم.

والإمامُ الرِّضا عليه السلام ـ وحدَه ـ كان يعرف ابنَه كبيراً في صِغَرِه، وعظيماً في حداثته.

وكان يتكلَّم معه كإمامٍ مفترَض الطاعة، لأنه يعرفه كذلك قبل أن يكون حَمْلاً، وقبل أن يولد.

كما أنَّه كان يعرف اسمَه وكُنيتَه وعُمرَه وما يجري عليه في حياته، لأنَّ ذلك مكتوبٌ عنده محفوظٌ في صدره.

وقد حدَّث أبو الحسين بن محمد بن أبي عيَّاد، الذي كان يكتب للرِّضا عليه السلام ـ بعد أن ضمَّه إليه الفضلُ بن سهلٍ بعد ولاية العهد ـ فقال:

« ما كان عليه السلام يذكر محمداً ابنَه إلاَّ بكُنيته،

يقول: كتبَ إليَّ أبو جعفر عليه السلام،

وكنتُ أكتب إلى أبي جعفر عليه السلام، وهو صبيٌّ في المدينة، فيخاطبُه بالتعظيم، وتَرِدُ كُتب أبي جعفر عليه السلام في نهاية البلاغة والْحُسن، فسمعتُه يقول:

أبو جعفر وصيِّي وخليفتي في أهلي من بعدي »[1].

هذا، ولم يغب عن بال الإمام الرضا عليه السلام أنه مُفارقُ الدنيا عن قريب ـ وفي حال صِغَرِ ابنه ـ وأنه في مرحلة تأهيله لمركز ولاية أمر الناس والدِّين، فدأب على إظهار أمره لئلا يضيع الضعفاء من أوليائه، ثم لم يَسْهُ عن تدريبه على ما ينبغي فعلُه، لأنه كان بعيداً عنه غاية البُعد.

---

(١) عيون أخبار الرِّضا ج٢ ص٢٤٢ وبحار الأنوار ج٥٠ ص١٨ وحلية الأبرار ج٢ ص٢٣١ وإثبات الهداة ج٦ ص١٦١.

فقد حدّث البيزنطي أنه قرأ كتاباً للإمام الفتى من أبيه سلام الله عليهما يقول فيه:

«يا أبا جعفر: بلَغني أن الْمَوالي إذا ركبتَ أخرجوك من الباب الصغير، وإنّما ذلك من بخلٍ بهم لئلاّ ينالَ منك أحدٌ خيراً. فأسألك بحقّي عليك، لا يكنْ مدخلُك ومخرجُك إلاّ من الباب الكبير. وإذا ركبتَ فليكنْ معك ذهبٌ وفضّة، ثم لا يسألك أحدٌ إلاّ أعطيتَه. ومَن سألك من عُمومتك أن تبرّه فلا تُعطيه أقلَّ من خمسين ديناراً والكثيرُ إليك، ومَن سألك من عمّاتك فلا تُعطيها أقلَّ من خمسة وعشرين ديناراً والكثيرُ إليك.

إني أُريد أن يرفعَك الله، فأنفقْ ولا تخشَ من ذي العرش إقتاراً»[1].

فالأبُ يفتحُ عينَي ابنه على حقيقةٍ هامّةٍ تتلخّص في ضرورة احتكاكه بالناس، إلى جانب توسيع آفاق تفكيره ليدرك أنّهُ بطريق تسلُّم المسؤوليات الكبرى والقيام بالأعباء الْجِسَام عمّا قريب، وأنه ستنعقد عليه خناصر الأولياء وسيقوم بمهمّات أجداده وآبائه النّجباء ذَوي الحلوم والعلوم والسخاء، ولا ينبغي له أن يبقى طفلاً في حضانة النساء وتصرُّف الدهماء، بل عليه أن يظهر على مسرح الحياة منذ نعومة **أظفاره** لتبدوَ للناس مواهبُ الله تعالى لخُلَصائه من أوليائه المميَّزين عن الناس بفضله وعطائه..

•

نعم، إن أئمة أهل البيت عليهم السلام، هم من «صناعته» سبحانه وتعالى التي تعلو صناعة صنَاعِ اليدَين.

قد سموا على الناس في الإيمان، وتفرَّدوا بِحَمْلِ أمر الرحمان، ومجانبة الطُّغيان، وبقطع دابِر معاذير البهتان ببيانٍ ساطعٍ وحجّةٍ قاطعة.

يُخْلَقون وأمرُ الله ملءُ سمعهم وبصرهم.

ويُزَقُّون العلْم زقّاً، فتنهلُّ به أَلْسنتُهم التي تُخرس الألسنةَ اللاهثةَ وراء نفثِ

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠٢ وعيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٨ والأنوار البهية ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

الشيطان، ولا يبالون بالمخالف إذا وافقَ، ولا يحفلون بالخاذل إذا وازَر، ولا يكترثون بمَن ازْوَرَّ وقطَّب وتقبَّض وتعبَّس، وإن كانوا يفرحون بمَن هدَى الله قلبَه للإيمان..

وهم كأبيهم أمير المؤمنين عليه وعليهم السلام، الذي لو كفر الْخَلْقُ كلُّهم لَقام الدِّينُ به بمفرَده، ولو عاداه الناس جميعاً في الله لَبرزَ وحدَه في وجههم أجمعين.

وقليلون همُ الذين كانوا يعرفون ما تحمله لفظة «إمامٍ» مفتَرضِ الطاعة ويُدركون معناها الذي يدلّ عليه مبناها فيفهمون «محتواها» سواءً أكان القائمُ بأعباء الإمامة صغيراً أم كبيراً.

ولذلك كانوا يتلكَّأون عن أخذِ النَّص من غير فم إمام العصر مرةً،
ويمتـحنون ويستقْصون مرةً ثانيةً،
ويُلقون الأسئلة مرةً ومرةً ومرةً.. حتى تستقيمَ عندهم الموازين، وينزلَ «أمرُ الله» من نفوسهم مَنْزِلَ القبول.

أمَّا إنكار أهل العناد لأمر الله، فإنه لا يمنع إشراق الشمس، ولا يُطفىءُ نورها، ولا يَحرم الإمامَ فضيلةً من الفضائل التي حَباه الله تعالى بها.

فهل يضير الشمسَ أن لا يراها رُمْدُ العيون؟!.

•

وهذا أحدُ نماذج كُتب أبيه إليه عليهما السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

أبقاك الله طويلاً، وأعاذك من عدوِّك يا ولدي، فداك أبوك.

قد فوَّضتُ لك مالي وأنا حيٌّ سَوِيٌّ، رجاءَ أن يُنميك الله بالصِّلة لقرابتك ولِـمَوَالي موسى وجعفر رضيَ الله عنهما.

قال الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[1].

---

(١) البقرة - ٢٤٥.

وقال: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾[1].

وقد أوسعَ الله عليك كثيراً يا بُنَيّ، فداك أبوك.

لا تَسْتُرْ دونيَ الأمورَ فَتُخطىءَ حظَّك، والسلام»[2].

فأبوه لا يُدار معه حديثٌ ـ أيُّ حديثٍ ـ إلا في إطار كون ابنه «إماماً» من عند «مكوِّنه» عزّ وجلّ، تَسقط تحت قدميه احتمالاتُنا التافهةُ ومقاييسُنا المرجحنَّة ومفاهيمنا الموجَّهة بنفوسٍ أمَّارةٍ بالسوء، إذ حين يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمنَاهُ﴾[3] تَقطع جهيزةُ قولَ كلِّ خطيبٍ مِدْرَهٍ، ولا تستقيم الموازين الأرضيَّةُ، ويُذعن مَن كان ذا رُشدٍ للآية البيِّنة والحجَّة القاطعة، إذعانَ عليِّ بن جعفر، الذي حدَّث عنه ابن أخيه الحسين بين موسى بن جعفر ـ عمِّ إمامنا الجواد عليه السلام ـ الذي سمعَ فوعَى، إذ قال:

«كنتُ عند أبي جعفر عليه السلام بالمدينة، وعنده عمِّي عليٌّ بن جعفر ـ الذي مرَّ ذكرُه سابقاً ـ فَدنا الطبيبُ ليقطع له الْعِرْق، فقام عليٌّ بن جعفر فقال له:

يا سيِّدي، يبدأُ بي، لتكون حِدَّةُ الحديد فِيَّ قبلَك.

فقلتُ أنا: يُهنيك هذا يا عمَّ أبيه!. فقطع العرْق.

ثم أراد أبو جعفر عليه السلام النهوضَ، فقام عمُّ أبيه، الشيخُ الكبيرُ الجليل، فسوَّى له نعلَيه حتى يَلبسَها»[4].

أَفَمَنْ كان خادماً ـ بل عبداً رِقّاً ـ مملوكاً للإنسان، يقوم فيسوِّي نعلَي سيِّده الطِّفل كلَّما قام من مجلسه؟!.

وإذا افترضنا أنه يقوم فيسوِّيها، ولا يتثاقل برغم سنِّه وهَرَمه، فلا عجَب في

---

(١) الطلاق ـ ٧.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠٣ وتفسير العياشي ج ١ ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٣) يوسف ـ ٦٨.

(٤) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠٤ ورجال الكشي ص ٣٦٥.

ذلك لأنه مستأجَرٌ ـ أو مشترًى ـ لمثل هـذه الأعمال. أمـا الشيـخُ الجليـلُ ـ ابـنُ الثمانين وسليلُ بيت النبوّة والفقيهُ الكبيرُ ـ فإنه لا يسوّي نعلَي ابن ِ ابن ِ أخيه إلاَّ بباعثٍ دينيٍّ محض ٍ أَيْقَنَ بصدوره عن ربِّ العالمين فأَذعنَ لوليِّ الله ـ الصغيرِ ـ المفترَض ِ الطاعة، بتمام الطاعة!.

فما أَبعدنا عن التسليم لأمر الله تعالى بمثل هذه العفوية وهذا اليقين!.

بل ما أبعدنا عن مثل ِ مرتبة هذا السيد النبيل!.

لأنَّ بيننا وبين تلك المنزلة مسافاتٍ لا تتخطّاها قوةُ دفع ِ الصاروخ الذي يَحمل مراكبنا الفضائية التي تغزو الكواكب والنجوم!.

وإذا لم يَنبع الإيمان من ذَواتنا، فبينَنا وبين ذلك... «المستحيل»!.

ولكن... حين نُذعن لما يجيءَ عن الله تبارك وتعالى، تَثِبُ منازلُنا إلى ما فوقَ السماء بأقلَّ من طرفة العَين،

وتسبق مراتبُنا سرعةَ نظرِنا.

•

فالإيمان ـ بالحقيقة ـ جزءٌ لا يتجزّأ.

ولا ينبغي أن يُعبد الله على حَرْف.

﴿.. فَمَنْ أَسْلَمَ ـ لأمر الله ـ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوا رَشَداً،

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ ـ المائلون عن الحقِّ ـ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[1].

---

(١) الجن ـ ١٤ و١٥.



أمُّ الوَلَد
.. مَملوكةٌ فذَّة !.

•

رَوى يزيدُ بنُ سليط أَنَّ الإمام الكاظم عليه السلام قال له:

« يا يزيد، إنِّي أُوخَذُ في هذه السَّنة، والأمرُ إلى ابني عليّ.

وإذا مررتَ بهذا الموضع ولَقيتَه ـ وستلقاه ـ فبشِّرْهُ أنه سيولَد له غلامٌ أمينٌ مأمونٌ مبارك.

وسيُعْلِمُكَ أنَّك رأيَتني، فأَخبرْهُ عند ذلك أن الجارية التي يكون منها الغلام، جاريةٌ من أهل بيت ماريةَ جاريةِ رسول الله ﷺ، أُمِّ إبراهيم.

فإن قدرتَ أن تُبلِّغها منِّي السلام فافعلْ »[1].

ولن نمرَّ عابرين بهذا القول، ومعتبِرين أنه مجرَّد رسالةٍ شفهيةٍ من أبٍ لابنه، تصلُه عَبْرَ صاحبٍ له.

فإن فيه دلائلَ على إمامة ثلاثةٍ من أهل البيت عليهم السلام:

إمامةِ الكاظم عليه السلام، بدليلِ أَنَّهُ يعرف ما سيكون:

فلم يوصِ إلاَّ رجلاً يعرف أنه يعيش بعده،

ويمرُّ بنفس الموضع الذي عيَّنه،

ويرى ابنه فيه.

وأنه يَعلم كونَ ابنه إماماً، وأباً لإمام،

بعلامةِ أَنَّ ابْنَهُ سَيُعْلِمُ الرسولَ برؤيته لأبيه قبل أن يبلِّغه رسالته.

---

(١) حلية الأبرار ج ٢ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠ في حديث طويل، نقلاً عن الكافي م ١ ص ٣١٥.

كما أنه يَعلم كونَ ابنِه يُرزق مولوداً، من مملوكةٍ من أهل بيت مارية زوج رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويَعلم كذلك أن رسوله سيدرك أُمَّ حفيده ويبلّغها السلامَ إذا تشرَّف برؤيتها..

وفي القول ـ أيضاً ـ دليل على إمامةِ الرِّضا عليه السلام الذي نصَّ عليه أبوه بعهد جدِّه صلى الله عليه وآله إليه، وبدليل معرفته لرسول أبيه وإعلامِه بما قاله له أبوه ـ سابقاً ـ قبل أن يتفوَّه بكلام.

وفيه دليلٌ على إمامةِ الجواد عليه السلام الذي دلَّ جدُّه على أبيه، وعليه ـ كإمامَين ـ كما دلَّ على أُمِّهِ أيضاً مع العناية بها والتسليم عليها، نصّاً بذلك صريحاً فصيحاً، بعد أن تناول هويَّة الأُمِّ بدقَّة عجيبةٍ تستدعي وقفة تفكيرٍ وتأمُّل كبير..

أَوَلَيس ذلك من علمِ الله المكنون في طيِّ الْغَيب؟.

أَوَ لا تَرَى أنه إلهامٌ أو شيءٌ مقدَّرٌ مكتوب؟!

احتملْ ما شئت.. فالحقُّ لا يخفى، لأنه كالصُّبح إذا أَسفر..

•

فَأُمُّ الإمام الجواد عليه السلام ـ التي عيَّنها جدُّه من غير أن يراها ـ هي «أُمُّ ولدٍ» كانت من أفضل نساء زمانها. قد أشار إليها النبيُّ صلى الله عليه وآله بقوله:

«بأبي ابنُ خيرة الإماء، النُّوبيَّةِ الطيِّبة!»[1].

وهي تُدعى «رَيحانة»[2] ـ نوبيَّةٌ، مريسيَّة، من أهل بيت «مارية» أم «إبراهيم» ابن رسول الله صلى الله عليه وآله كما قال الإمام الكاظم عليه السلام[1]. وقولُه مُنْزَلٌ من الْمُنْزَل كقول جدِّه محمدٍ صلى الله عليه وآله.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ من ص ١ إلى ص ١٣ مكرَّراً، والكافي م ١ ص ٤٩٢ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٧٩ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٣٥ إلى ص ١٨٧ وص ٢١٧ مكرَّراً عدَّة مرَّات، والإرشاد ص ٢٩٧ وتذكرة الخواص ص ٣١٨ وص ٣٢١ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢٣ والأنوار البهية ص ٢٠٧.

(٢) وقيل: سبيكة، أو درَّة، أو سكينة، أو حريان، أو خيزران. وانظر جميع المصادر السابقة.

ولكنْ.. أنَّ أُمَّهُ «أُمُّ ولد»!.

تعبيرٌ يُجفل بعض النفوسَ المريضة،

ولَكأنَّ «أُمَّ الولد» ليست بنتَ سلطان، ولا سليلةَ مَلِك زمان.. ولا رَبيبةَ مجدٍ وقُصور وأبراجٍ عاجيَّة!.

ومِن هنا جاء الوهم.. وكان الغلَط الذي يهزُّ أعصابَ الجهَلة بموضوع الإماء وأمَّهات الأولاد.

فكم وكم ذا تجد في الأسقاط ما لا تجده في الأسفاط.

لأنَّ بين ربيبات الْقُصور ساقطاتٍ، وفاجرات.. كثيرات.

وبين أُمَّهات الأولاد أميراتٌ، خطيراتٌ شريفاتٌ، ذَواتُ حَصانة.. يكنَّ من كرائم بنات الأُسَر.. ولَسْنَ ذوات صَون مزوَّرٍ، ولا ربَّات خِدْرٍ مهتَّك من اللائي تغرُّهنَّ أهواؤهنَّ، وتَغُشُّهنَّ أجواؤهنَّ، وتجعلهنَّ حضارتُهن ونضارتهنَّ تافهاتٍ.. رخيصات!.

•

أمُّ الإمام ـ عليه وعليها السلام ـ من الشريفات ذَوات الْحَصانة.. ومن كرائم بنات العائلات.

وهي نوبيَّةٌ.. من السَّمراوات اللواتي تُزري سُمرتُهنَّ المحبَّبة ببياض فتيَات الْحُسن المصطنَع المجلوب، ويطغَى نَجَلُ أعينهنَّ، ولَعَسُ شفاههنَّ، وشَمَمُ أُنوفهنَّ، وسموُّ أَنَفَتِهِنَّ، على كل منمَّقٍ مزوَّرٍ مزوَّقٍ مكذوب!.

وصدَق مَن قال:

حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وفي الْبَداوةِ حُسْنٌ غيرُ مَجلوبِ

هذا من ناحية الجمال الصادق، إذا كان الجمال يدور في فلَكِ اختيار الزَّوجات أولاً وبالذات.

أما الْحَصانة والشرفُ والصَّونُ والْعَفاف، فما أبعدَ عنها المتحضِّرات اللَّواتي

هَمُّهن أَنْ يكنَّ «سيِّدات مجتمع» أو بنات «سهرات وحفلات» بعد أن كُنَّ آنساتِ شواطىء سبَّاحات، وطالبات جامعاتٍ متحـرِّرات، وفتيـاتٍ مـدلَّعـات، وراكباتِ جِيَادٍ فارسات.. مركوبات!!!

فهل تكون الزهرة الصِّناعيَّةُ ذاتَ طراوة؟.

وهل ينبعث منها أريج، ولو سُكب عليها من الطِّيب صهريج؟!!

أَم تدبُّ فيها الحياة إذا وُضعت مع الماء في الزهريَّات؟!.

لا إخالُ المفاضَلَةَ تصحُّ بين هؤلاء وأولئك من النِّسوة، للبَون الشاسع بينهما في حُسن السِّيرة وصفاء السَّريرة، وعَراقة الأصل، وطهارة النسل.

ومن الْمُماحكة التافهة إثارةُ نقاشٍ حول مثل هذا الموضوع الذي يُعرف بالبديهة وتَفرضه الفطرة، ويُدركه العقل ببساطة.. فإننا لا نجد التعقيد في الطبع ـ والتصنُّع في السلوك، والحذلقة والطيشَ ـ إلاَّ عند الأجيال المتحضِّرة التي رضعت المجفَّف من حليب البقر،

فجاءت الأجيالُ كدجاج الْمَزارع سِمَناً وخَواءً، فلا لَذَّةَ تستطعُمها فيه، ولا غِذاءَ تُقيم به أَوَدَك!.

وكالأنعام السوام التي تنفر من كلِّ قيد، وتأبَى كلَّ نظام.

أضف إلى ذلك عنادَ هذه الأجيال وقساوة قلوبها، وغِلْظَتَها وعنفوانَها، ولَقلقَة أَلْسنتها.. فإذا حاولتَ أن تعرف فحواها وتستوعب محتواها، تجدها زَبَداً يذهـب جفاءً، ولا يمكث منه عند الاختبار في الإناء، ما يساوي التعبَ والعناء!.

•

فأُمُّ الإمام الجواد عليه وعليها السلام أُمُّ ولد، نوبيَّةٌ، قُبطيةُ الأصل.

وأُمُّ النبيِّ إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، أُمُّ ولدٍ، مصريَّة.

وأُمُّ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، أُمُّ ولد، قُبطية، مصريَّة.

وكذلك أُمَّهاتُ سبعةٍ من أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، أُمَّهاتُ أولادٍ، فَذَّات،

كما أنَّ والداتِ الكثيرين من الملوك، والسلاطين، والعظماء، والشرفاء، والعصاميّين، أُمّهاتُ أولاد!.

وأُمّهاتُ أئمّتنا عليهم السلام - بالخصوص - أميراتٌ شريفاتٌ، مُنيفاتٌ في الأصل وطِيبِ الفرع:

فأمُّ الإمام عليٍّ بن الحسين عليه السلام، هي شاه زنان - أي سيِّدة النساء - الأسيرةُ المملوكةُ التي هي بنت كسرى يزدجرد ملك الْفُرس. وقد تطاولت لها الأعناقُ فلم تَختَرْ سوى الحسين عليه السلام.

وأمُّ الإمام موسى بن جعفر، الكاظم عليه السلام، مملوكةٌ بربريَّة شريفةُ الأصل، سامِقةُ الفرع، كانت في منتهى الكمال والفضل، تسمَّى حميدة.

وأُمُّ الإمام عليٍّ بن موسى، الرِّضا عليه السلام، مملوكةٌ مرِّيسيَّة اسمُها الخيزران.. نَسلتْها كرائمُ الأُسَر النُّوبيَّة الشريفة.

ومثلُهنَّ أُمُّ إمامِنا محمدٍ بن عليٍّ، الجوادِ عليه السلام، الذي نحن بصدد ترجمته وترجمتها.

وكذلك أُمُّ الإمام عليٍّ بن محمدٍ، الهادي عليه السلام، فهي مَغربيَّةٌ اسمُها سُمانة.. وهي من شريفات زمانها وممَّن اختارهنَّ الله تعالى لِحَمْلِ تلك النُّطَف المبارَكة الميمونة.

وأُمُّ الإمامِ الحسنِ بن عليٍّ، العسكري عليه السلام، أمُّ ولدٍ شريفةٌ تُدعى سوسن. وقد اختارها له سيِّدُ سادات زمانه دُرَّةً مكنونةً من عقائل زمانها.

وأخيراً..

فإنَّ أُمَّ الإمامِ المهديِّ المنتظَر عجَّل الله تعالى فرَجه، هي مملوكةٌ من نسل شمعون الصَّفا وصيِّ عيسى عليهما السلام.. وكفاها هذا الشرف في النسب العريق.

ولقد قال رسولُ الله ﷺ، وهو لا ينطق عن الهوى:

«عليكم بأُمَّهاتِ الأولاد، فإنَّ في أرحامهنَّ البرَكة»(١).

---

(١) الوسائل م١٤ ص٤٩٧ وهو مكررٌ بلفظ قريب، وانظر الفروع ج٢ ص٥٠ وعدَّة مصادر معتبرة.

ثم قال صلى الله عليه وآله في خطبةٍ له:

« .. إنّ الله أحلَّ لكم الْفُروجَ على ثلاثة مَعانٍ: فرجٌ موروث وهو الْبَتات، وفرجٌ غير موروث وهو المتعة، ومُلْكُ أَيمانكم ـ أي الإماء ـ »[1].

وقال الإمامان: الصادقُ وولدُه الكاظم عليهما السلام:

« ثلاثةٌ مَن عرَفهنّ لم يَدَعهنّ: جزُّ الشَّعر، وتشمير الثوب، ونكاحُ الإماء »[2].

وهذه من أشرف مبادىء الإسلام الذي لم يفرِّق بين إنسانٍ وإنسان إلاّ بالتقوى.

ورَوى أبو ربيع الشامي أن الإمام الصادق عليه السلام قال له بالنسبة إلى الإماء:

« لا تشترِ من السودان أحداً، فإن كان لا بدّ، فمن النُّوبة فإنهم من الذين قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[3]

أمَا إنهم سيذكرون ذلك الحظ، وسيخرج مع القائم منّا، عصابةٌ منهم »[3]..

•

فما أعظمَ بَرَكة هذه النوبيّة الفذّة التي حبّذ النبيُّ صلى الله عليه وآله التزوّج بأمثالها!.

مع أنه قال صلى الله عليه وآله:

« اختاروا لِنُطَفِكُم فإنَّ الخالَ أحدُ الضَّجيعَين »[4].

وأنَّ الصادق عليه السلام قال: « الشجاعةُ في أهل خراسان، والباهُ في أهل البربر، والسَّخاء والحسد في العرب، فتخيَّروا لِنُطَفِكُم »[4].

أمّا الإمام الكاظم عليه السلام فإنه فلسفَ ذلك وعلّله بما لا مَزيد عليه من

---

(١) المصدر السابق نفس الجزء ص٥٨ وتهذيب الأحكام ج ٢ ص١٨٣ ومَن لا يحضره الفقيه ج ٢ ص ١٥١ وقد ورد قريبٌ منه عن الأئمة عليهم السلام في روايات كثيرة.

(٢) الوسائل م ١٤ ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) المصدر السابق م ١٤ ص ٥٦ والآية في المائدة ـ ١٤.

(٤) المصدر السابق م ١٤ ص ١٩ وص ٢٩ وهو في الفروع ج ٢ ص ٥ وتهذيب الأحكام ج ٢ ص ٢٧٧ ومن لا يحضره الفقيه ج ٢ ص ١٢٦ وص ١٥٣ وهو في ج ١ ص ١٤٦.

البيان فقال ـ كما في رواية عبد الله بن مصعب الزّبيري الذي كان يتذاكر أمر النِّساء مع أصحابه ـ:

« .. أما الحرائر فلا تَذَاكَرُهُنَّ. ـ أي أنَّ أمرهن مفروغٌ منه لِلَياقتهن بالزواج إذا كنَّ صالحات ـ ولكن خير الجواري ما كان لك فيها هوًى وكان لها عقلٌ، وأدب، فلست تحتاج إلى أن تأمر وتنهى.

ودون ذلك ما كان لك فيها هوًى وليس لها أدبٌ فأنت تحتاج إلى الأمر والنهي.

ودونها ما كان لك فيها هوًى وليس لها عقلٌ ولا أدب فتصبر عليها لمكان هواك فيها.

وجاريةٌ ليس لك فيها هوًى وليس لها عقلٌ ولا أدب فتجعل فيما بينك وبينها البحرَ الأخضر!.»[1].

على أن الإسلام ساوى بين العربيِّ والأعجمي والأبيض والأسود، فقال رسول الله ﷺ في حديث:

« ... إنَّ الله قد وضع بالإسلام مَن كان في الجاهلية شريفاً،

وشرَّف بالإسلام مَن كان في الجاهلية وضيعاً،

وأعَزَّ بالإسلام مَن كان في الجاهلية ذليلاً،

وأذهبَ بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتَفاخُرِها بعشائرها وبَاسِقِ أنسابِها.. إلخ...»[2].

وقال ﷺ أيضاً:

« المؤمنون بعضهم أَكْفَاءُ بعض»[2].

فَمِنَ الفهم العالي لروح الإسلام الصحيح أن الإمام زين العابدين عليه السلام أنكحَ مولاه حليلةَ أبيه الحسين عليه السلام، وتزوَّج هو بمولاته.. ولكنَّ الأعداء الجاهليّين ـ الجاهلين ثاروا لذلك، وقالوا زوَّج أُمَّه لمولاه، وتزوَّج بمولاته!. ـ مع

---

(١) المصدر السابق م ١٤ ص ١٣ والفروع ج ٢ ص ٣.

(٢) المصدر السابق م ١٤ ص ٤٤ والفروع ج ٢ ص ٨ والحديث طويل.

أن تلك الأُمَّ هي بالحقيقة بعضُ « مملوكات » أبيه ومن أمَّهات أولاده، وقد مرَّ بك - منذ قليل أن أم زين العابدين عليه السلام هي شاه زِنان بنت كسرى الْفُرس، وأنَّ المملوكة التي تزوَّجها، هي مَولاتُه الشَّيبانيَّةُ التي كانت من كرائم النساء. - أقول ثار الْجَهَلَةُ بالدِّين فكتب إليه عبدُ الملك بنُ مروان يلومُه على ذلك ويقول فيما يقول في ساعة تجريحٍ وحمَق:

« قد وضعتَ شرفَك وحَسَبك »[1].

فألْقَمه الإمامُ عليه السلام حجراً إذ كتبَ إليه في الجواب:

« إنَّ الله رفع بالإسلام كلَّ خسيسة، وأَتَمَّ به الناقصة، وأذهبَ به اللؤم. فلا لؤمَ على مسلمٍ، وإنَّما اللؤمُ لؤمُ الجاهليَّة.

وأمَّا تزويج أُمِّي - والأمُّ هنا زوجُ الأب - فإنِّي أردتُ بذلك بِرَّها. ولنا برسول الله ﷺ أُسوة: زَوَّجَ زينب بنت عمِّه، زيداً مولاه، وتزوَّج مَولاتَه صفيَّة بنت حُيَيٍّ بن أَخطب »[1]

فلمَّا انتهى الكتابُ إلى عبد الملك - خليفة المتأسلمين - قال:

« **لقد صنع عليُّ بنُ الحسين أمرَينِ ما كان يصنعهما إلاَّ عليُّ بن الحسين!.**

فإنه بذلك زاد شرفاً.

وإنَّ عليَّ بن الحسين يضع نفسَه، وإنَّ الله يرفعُه!. »[1].

•

لقد وعَى قولَ رسول الله ﷺ - أولَ ما وعَى - أبناؤه الأئمَّةُ عليهم السلام، فاختاروا لِنُطفهم كرائمَ النساءِ الفذَّات. وانتقَوهنَّ من الْفُرسِ، ومصرَ، والْمَغرب، وإيطاليا، ومن أطراف المعمورة، لأنهنَّ كُنَّ يَجمعن صفاتِ جمال الْخُلق، وكمالِ السيرة، وعراقةِ الأصل، ويَقْرِنَّ سُمُوَّ المعنى بِسُمُوِّ الذات.

فقدْ تجد في سوق النخاسة، ما لا تجده في سُدَّة الرئاسة، من فاضلات كاملات.

---

(١) الوسائل م ١٤ ص ٤٨ وص ٤٩ وص ٥٠ والفروع ج ٢ ص ١٥ وقرب الإسناد م ٣ ص ٢٢ وتهذيب الأحكام ج ٢ ص ٢٢٦.

وكم ذا تجد في البيوتات نَبتاتِ سُوء، لا إذا الْتَذَّ الرجالُ بمنظرهنَّ ارتاحوا إلى مَخبرهنَّ، ولا إذا ركنوا لِمَظْهرهنَّ الخلاَّب اطمأنّوا لِمَخبرهنَّ الكذَّاب، المحاط بالارتياب.

قال الله تبارك وتعالى:

﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ..﴾ وأكملَ الآية الشريفة بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1]..

فلا أطيبَ ولا أزكى مِمّا أحلَّه الله تعالى، وأباحه، وأمر به!.

ومن أبناء أُمَّهات الأولاد المملوكات ـ كما قلنا ـ عظماء كثيرون، وفقهاء، وخُلَفاء، ووزراء، وفلاسفةٌ، وعباقرة، ونوابغ مرموقون ما بين كُبراء المسلمين ومشاهيرهم، منذ صدر الإسلام وإلى ما بعد انهيار الدولة العبَّاسية؛ ومَن شاء فليراجع.. إذ لا يُؤْسَرُ إلاَّ بناتُ الملوك، والأمراء، والكبَراء.. ولا يسوق الغازي المنتصر سَبْياً من نساء الرُّعاة وأبناء الأزقَّة، ويترك الشريفات اللّواتي بأسرهنَّ يُذِلُّ الشُّرَفاء من آبائهنَّ وأزواجهن وإخوتهنَّ!.

وقد أفصح التاريخ عن هذه الجهة، وإن كان في أكثر جهاته تاريخاً مكذوباً موضوعاً.

ونحن إذا استنطقناه يحكي قصص الْحُكَّام والظُّلاَّم الذين أَسَرُوا السادةَ والْعُظَماء وباعوا نساءَهم وذَراريهم عبيداً وإماء في سوق النخاسة، وأقاموا عروش حُكمهم الغاشم على جماجم الشُّرفاء والْعُظَماء ولو كان أولئك الحكَّام من السُّوقة والأقزام.

فلا يَذهبنَّ «اللفظُ» بالفكر السليم كيلا نلهوَ بالقشر عن الجوهر واللُّب، فإنَّ أكثرَ أُمَّهات الأولاد شريفاتٌ ومن أُسَرٍ كريمة.

وَدَعْ عنك ذِكْرَ الكاملاتِ الأربعِ من النساء: فاطمةَ الزهراء، ومريمَ ابنة عمران، وآسيةَ بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجةَ بنت خويلد زوج رسول الله

---

(١) النساء ـ ٣.

ﷺ، وعليهنَّ سلامُ الله وتحيَّاتُه ورضوانه... وأعطني مـن قصـور العظماء، ودُورِ الشَّرفاء، وذَوات الصَّون والخدور، أمثالَ أُمَّهات هؤلاء الأئمَّة وغيرهم من عظماء التاريخ.. حال كَونهنَّ إماء.. وأُمَّهات أولاد.

ولن تستطيع أن تذكر في هذا المجال إلاَّ بنتَ نبيٍّ، أو بنت وصيٍّ، أو بنت بيتٍ تعي كرامة بيتها وأُسرتها!. وما عدا ذلك فإن في القصور وسامقاتِ الدُّور نساءً فاجراتٍ.. لا يتورَّعنَ عن قتلِ أزواجهنَّ بالسمِّ مرةً، وبالغيلة مرةً، وبواسطة العشيق مرةً أُخرى.

ففتِّشْ عن الأمِّ، ولا تَلُمّ.. كما يقول المثَل.

لأن الأُمَّ هي السعادة الفائقة.. أو الشقاوة الماحقة!.

وهي المدرسة المؤدِّبةُ المهذِّبة.. أو العدوَّةُ المدمِّرةُ المخرِّبة!.

وهي - فعلاً - نعيمُ الأُسرة.. أو جحيمُها،

وهي في البيت عَمارُه.. أو دَمارُه.

ولقد اختار أئمَّتُنا فأَحسنوا الاختيار.. وأَستغفر الله تعالى والحقَّ والصدقَ إذِ اختار لهم الله تبارك وتعالى ذلك، في عـهده الذي عَهدَهُ لرسوله ﷺ.

فسلامٌ على تلك الأمِّ الشريفة التي أَنجبت إمَامَنا الأسمر الذي كسفتْ هالةُ نورِ وجهه ضوءَ الشمس الأَنْوَر..

وتحيَّاتٌ زاكياتٌ على أمثالها من أُمَّهات الأولاد اللواتي قُمْنَ عن: أنبياء، وأوصياء، وأولياء، وصُلَحاء، وعباقرة!.

.. وَكَانَ وَعدًا مَفْعُولاً

•

.. وتحقّقت المعجزة!.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾[1].

فقد عَلِقَت الأمُّ الطيِّبة.. وزفَّت السيدةُ الجليلةُ (حكيمةُ) الخبر السارَّ لأخيها الإمام الرِّضا عليه السلام، فكتبتْ إليه:

« خادمتُك عَلِقَت.

فكتب - إليها -:

عَلِقَت يومَ كذا، من شهر كذا. فإذا هي ولَدت فالْزَميها سبعةَ أيام »[2].

وبانتهاء حَمْلِ امرأة بزغ[3] نورُ الطلعة الساطعة من هالة ضياء،

وأشرق وجهُ مولودٍ باركته السماء.

---

(١) الأحزاب - ٣٨.

(٢) الأنوار البهية ص ٢٠٩ وأكثر المصادر التي عرضت لولادته.

(٣) في كشف الغمة ج ٣ ص ١٣٣ وص ١٤٠ - ١٤١ وُلد ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان سنة ١٩٥ هجريَّة وفي ص ١٥٩ منه وُلد لسبع عشرة ليلةً من رمضان، وقيل في ١٥ منه، وفي رواية ابن عياش: وُلد يوم الجمعة لعشرٍ خلَون من رجب، وانظر ص ١١٥ وص ١١٧ وص ١٨٦ وص ١٨٧ وفي الارشاد ص ٢٩٧ وُلد في رمضان بالمدينة، وقد اختلفت المصادر في تعيين اليوم والشهر ولكنها اتَّفقت على سنة ١٩٥ هجريَّة. وانظر بحار الأنوار ج ٥٠ من ص ١ إلى ص ١٤ والكافي م ١ ص ٤٩٢ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٧٩ وتذكرة الخواص ص ٣٢١ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢٣.

فانتشت لمولده الحضرة النبويّة في مدينة طَيْبَة، مهبط وحي الله عزَّ وجلَّ،
وذاع الخبرُ في السماء قبل الأرض، وشاع فملأ الأسماعَ،
وزغردت الْحُور، وترنَّحت أغصان شجرة طوبى فنثرت صِكاك المغفرة لأوليائه مع عبق الأريج يتضوّع في سدرة المنتهى ولا نهايات السماوات!.

وذلك حين بزع الفجر لِيُنير المعمورَ مع صِياح ديك العرش ودِيَكَةِ الأرض فَاصطفقت الأجنحة بالبشارة.

ورقصت الجنان، وازدهى ـ بلآلئها وجواهرها ـ ما فيها من وِلدانٍ وحِسّان..
وذلك حين سقطَ المولود، فخرَّ ساجداً لله تبارك اسمُه.
وقُضي الأمرُ المحتوم الذي كشفَه الإمام حين اتُّهم بانقطاع النَّسل،
و ﴿جَاءَ الْحَقُّ، وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [1].

ففرح المؤمنون بنصر الله.. ورُغمت أُنوفُ الْمُرجِفين.. ﴿وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [2] أبداً..
﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ، وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [3].

إذ ذاك رَفَلَتْ «يثربُ» بثوب غبطةٍ وسربال عزٍّ، تحسدها عليه عواصمُ المعمور، وخيامُ المقصوراتِ من الْحُور!.
إذ أقام المولود فيها، مع أمِّه دون أبيه،
وكان ـ منذ طفولته ـ مرجعاً يتهافت عليه كبارُ العلماء والفقهاء،
ولا يجدون بُلغتَهم إلاّ عندَه.. وهو ما بين سَنته الأولى وسنته السابعة من عُمره الشريف!.

وها هي ذي أفواجُ الملائكة مَراويدُ فيما بين السماء والأرض، خَوَافِقُ كالرياح في الجوِّ، تهبط وتصعد للتبريك والتبرُّك..

---

(١) الإسراء ـ ٨١.
(٢) التوبة ـ ٤٠.
(٣) الزمر ـ ٧٥.

وهي ذي مواكبُ الْحُور على مراكب النُّور تزدهي ما بين الْجِنَان ومهبط وحيِ الرَّحمان، لتضمِّخ المكان بزعفران «عَدْنٍ» ورَوح جنَّة الْخُلد ورَيحانها وطِيبها.. منطلقةً حناجرُها بأغاريد السرور والحبور في يوم الْتِقَاء فرحِ «البيت الحرام» بفرح «البيت المعمور» وهزَج السماء بهزَج الأرض..

وعندها.. تهاوتْ أوثانُ «الرَّيب» القائمةُ في صدور أهل الْعَيب،

وانمحى الشكُّ من قلوب عَبدَةِ الله على حرف، ومن نفوس حَمَلَةِ الْبَهت والقذف..

أمامَ تراجيع التسبيحِ والتكبير في الأجواء.. حين وُلد الإمام.. كما قال الإمام.

فباءَ أهلِ البغيِ بالفشَل.. وهدأ طوفان الاعتراض على الله.. وعلى أهل الله!!!

وتنفَّس صبحٌ، نَديٌّ، شَذِيٌّ، حين «استوتْ سفينةُ الحقِّ» على عرش قلوب الْمُوالين.. واندكَّ - من ثَمَّ - جبلُ المكابِرين..

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ... وَخَسِرَ هُنَا لِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1].

بعد أن تلألأَ صبحٌ لا أَضوأَ ولا أهنأَ ولا أَعظَمَ برَكةً منه،

﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِم، لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾[2].

بعد أن امتحنَ قلوبَ المؤمنين، وكشفَ نوايا المكذِّبين ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[3]..

فهدأتْ زَوبعةُ «فنجان الفتنة» بعد أن ذَرَّتِ الغبارَ في العيون،

وركدَ إعصارُ التَّهويس والتَّهويش المصطَنع حول الوقوف على إمام بعد إمام..

وَ ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[4]!.

فلا جَرَمَ أَنْ تطير قلوبُ المؤمنين من مَحاجرها فرحاً،

---

(١) المؤمن - ٧٨.

(٢) الأحزاب - ٢٥.

(٣) الأنفال - ٣٧.

(٤) الرعد - ١٧.

وأنْ تُستطارَ أَلْبابُ المكذِّبين بأمر الله، وتَضيقَ صدورُهم حَرَجاً وهلَعاً..

فقد «كان» ما شاء الله.. لا ما شاءت الناس،

ورُزِقَ ابنُ الحادية والأربعين ولداً.. ذَكَراً.. أسماهُ محمداً..

وكان ما كان، كما قال،

وفي الوقت الذي حدَّده،

وبعد عُمره الوالج في باب الكهولة، مع أنه متزوِّجٌ ـ من قبلُ ـ بأميراتٍ وسُرِّياتٍ، ومملوكات..

•

والأمرُ غيرُ عاديٍّ إن كُنَّا مُنْصِفين،

بل هو خارقةٌ من الخوارق من أَلِفِهِ لِيَائه.

ولكنْ.. من المعلوم أن الخوارق لا تخضع لمقاييس «المعقول» والمألوف، لأنها تَضرب ـ أولَ ما تَضرب ـ «العقلَ» في مفاهيمه القاصرة عن الإحاطة بكل شيء، وتَمسح ـ أولَ ما تمسح ـ «المألوفَ» وتمحوه من الفكر، بما فيها من إبداع ما يكون على غير مِثَال..

فلا مجال ثَمَّتَ للعقل، في أمور الْغَيب.. ولا مَورد للمألوف، في أفعال الله عزَّ وسَما،

ولا معنى لكيف، وماذا، ولماذا!.

قد جزمَ الإمامْ ـ الوالدُ ـ بوقوع أمرِ الله،

فوقع كما عيَّن، وكما جزم.

لأن أهلَ البيت عليهم السلام، هم أهلُ ثَمِّهِ ورَمِّه.. ولا يقولون من عند أنفسهم.. ولا يتخرَّصون، بل عن أمرِ الله يُنْبِئون.. ولا بدَّ أن يَقطع قولُهم حَبْلَ نفاقِ المنافقين.

•

أجلْ، أطلَّت الْغُرَّةُ السنيَّة لِتُظهر سرّاً من أسرار الله المكتومة،

ولا ينفع الشاكّين اختباؤهم في ظِلِّ أصابعهم.. فإن الأصابع لا تَستر إلاَّ الْمَعاطسَ الْمُرغَمة!.

ذاك أنَّ «إنسانَ عينِ» البصير يتَّسع للكون بحجمه الهائل وأبعاده الشاسعة فتحتجزه هذه الآلة الصغيرة الحقيرة: حاسَّة البصر..

فتغشُّه قدرةُ عينهِ على احتواء الكون فيقول: لا أصدِّق إلاَّ بما أرى..

ولكن أنَّى له ذلـك وهو قاصرٌ عن أن يدرك جميع أسرار الكون، وعاجزٌ عن أن يكشف سائرَ ما ورائيَّاته!.

رغم أن الكون دخلَ في «إنسان عينِه» الضيِّق الذي هو بحجم خُرْتِ الإبرة!.

إنه ـ إن رامَ ذلك ـ لَيَتَّخذنَّ مركزاً في صفوف الخفافيش التي تَعْشَى في النُّور.. أو مع صُفوف الخنافس التي تتقوقعُ في الدِّمَنِ والْجِيَف..

وينخرط مع عُميان البصر، وعُمْيِ البصيرة الذين يُنكرون «ما لا يرَون».. ويُنكرون «ما يُرَوْن».. مع أن الحقَّ يَصفع مَن لم يَقنع.

فعلى اللِّسان الذَّرِب أن ينحبس خَلْفَ قُفْلَي الشَّفَتَين والأسنان، إن لم يُلجمه قُفْلَ العقل فبقيَ يتلعثمُ في النُّطق بكلمة الحق.. وذلك أَحرى به وأَجدر.

فإنَّ حكاية هذا المولود لم تكن حكاية جَدَّةٍ لحفَدتها وأسباطها حين تهويم النُّعاس في مُقَلِهم..

بل هي ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ الذي لا تَخليط فيه ولا ضَغث.. لأنها وحيٌ من الوحي، محفوظٌ في الصُّدور عند الأَمَنَةِ من أهله.. ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾[1].

وولادة إمَامِنا ابنِ الرِّضا عليه وعلى أبيه السلام، حكايةُ فعلِ ربٍّ قادر..

وهي من بنود عهد الله المكنون في سفَط مواريث النبوَّة، قد نشرَه الإمامُ ـ الأبُ بين يدَيه يوماً ما.. وأذاع ما أَوصى به جده ﷺ، عن ربِّه.. فأعلنَ سرّاً

---

(١) هود ـ ١٧.

مَصوناً.. لم يَخْشَ أن لا يكون.. بل قال بملءِ فيه وبتمام الثقة:

سيكون لي ولد!.

فكان الولد،

وحصحص الحقُّ.. ولاحَ الصبحُ لذي عيَنين.. ولم يَعْمَ عنه إلاَّ من كسف نظرَه غبارُ جاهليَّته.

ثم كان الولد صبيّاً.. سريعاً ما تكلّم في المهد: مسبِّحاً، حامداً، مهلِّلاً، مُكَبِّراً..

وحكى، فأصاب،

ونطق بالصواب،

وسُئِلَ.. فأجاب.. وفَتَنَ الألباب،

وفضحَ النيَّات.. وأظهر الآياتِ الباهرات..

فكان معجزةً في المعجزات الربَّانية التي «يصنعها» الله تبارك وتعالى على عَينِه!.

●

قالت عَمَّتُه السيدة حكيمة ـ بنت الإمام الكاظم عليه وعليها السلام ـ كما ذكرنا منذ قليل ـ:

«كتبتُ لمَّا عَلِقت أُمُّ أبي جعفر عليه السلام به: خادمتُك قد عَلِقَت.

فكتب إليَّ: عَلِقَتْ يومَ كذا، من شهر كذا. فإذا وَلَدت فالْزَميها سبعة أيام.

ولَمّا حضرتْ ولادتُها دعاني الرِّضا عليه السلام، فقال: احضري ولادتها.

وأدخلني وإيَّاها والقابلة بيتاً، ووضعَ لنا مصباحاً، وأغلق علينا الباب.

فلمَّا أخذها الطَّلْقُ طُفِيءَ المصباح، وبين يدَيها طستٌ، فاغتممتُ لِطُفُوءِ المصباح. فما كان أسرع مِنْ أنْ بدرَ أبو جعفر عليه السلام وعليه شيءٌ رقيقٌ كهيئة الثوب يَسطع نورُه حتى أضاءَتْ فأبْصَرْناه، وخرَّ ساجداً وقال:

أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله!.

فأخذتُه، ووضعتُه في حِجْري، ونزعتُ عنه ذلك الغشاء.

فجاء الرِّضا عليه السلام، وفتح الباب ـ وقد فَرَغْنا من أمرِه ـ فأخذه ووضعه في

المهد، وقال لي: يا حكيمةُ الْزَمي مهدَه.

...فلمَّا كان اليومُ الثالث، عطسَ فقال: الحمدُلله وصلَّى الله على محمَّد وعلى الأئمة الراشدين. ورفع بصرَه إلى السماء ثم لمحَ يميناً وشمالاً وقال: أَشهد أَنْ لا إلَه إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأَنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

فقمتُ ذَعِرَةً فَزِعَةً، وأتيتُ الرِّضا عليه السلام فقلت له: سمعتُ من هذا الصبيِّ عَجَباً!.

فقال: وما هو الذي رأيتِ؟.

فقلت: هذا الصبيُّ فعلَ الساعةَ كذا وكذا.

قالت: فتبسَّم الرِّضا عليه السلام وقال: يا حكيمة، ما تَرَون من عجائبه أكثر»[1].

•

.. وهذه عجيبةٌ فعلاً، من ابنِ ثلاثة أيام.

ولكنْ، ما هي العجائب التي وعدَ بها الإمامُ ـ أبوه ـ عليه السلام؟!.

وهل يستطيع أحدٌ ـ إلاَّ الإمام ـ أن يقول عن ابنه ـ المولود جديداً ـ ستَرون منه العجائب؟!.

وهل يكفل الأب بقاء ابنه على قيد الحياة حتى يَبلغ الرُّشد ويأتي بالعجائب؟!.

لا، ولكنَّ الإمام يُنْبِىءُ عن «مقدور» مكتوب، محفوظٍ في القلوب.

فهؤلاء قومٌ نُخطىءُ الحقَّ حين نحاسبُهم كما نحاسب أنفسَنا، ونَضِلُّ عن معرفتهم ضلالاً بعيداً، حين نظنُّهم مخلوقين عاديِّين كأَمثالنا.

وهذا هو سبيلُ الشيطان الذي ﴿أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[2]؟!.

---

(١) حلية الأبرار ج٢ من ص٣٨٨ إلى ص٣٩١ وفيه تفصيل، وانظر بحار الأنوار ج٥٠ ص١٠ ومناقب آل أبي طالب ج٤ ص٣٩٤ وإثبات الهداة ج٦ ص١٩٧ والأنوار البهية ص٢٠٨ـ٢٠٩.

(٢) يس ـ ٦٢.

فعجائب الأئمة عليهم السلام فتنتِ الألبابَ، وجلَتْ عن أكثر القلوب الشكَّ والارتياب.

وعجائب أبي جعفر عليه السلام تغطّي سائرَ مضامين هذا الكتاب، ولا يخلو موضوعٌ فيه منها..

•

لقد خلق الله تعالى الذكيَّ والأحمقَ، والبصيرَ والأصمَّ.. وكان سبحانه قادراً على ذلك كما نرى ونلمس.

ثم كان قادراً على أن «يجعل» من البشَر، النبيَّ المسلَّحَ بالمعجزة السماويَّة التي تُنازِلُ الكفرَ فتَبهتُه كما نلاحظ عبرَ تاريخ وجود بَني آدم على الأرض:

فجعل من الرُّسل مَن ينجو بسفينته مع المؤمنين به من طوفان غمر الأرض بالطول والعرض.

ومَن تكون النارُ عليه بَرْداً وسلاماً،

ومَن تَلقفُ عصاهُ إفْكَ الآفكين، وتدقُّ عُنق المستكبرين،

ثم جعلَ منهم مَن يُبرىءُ الأكْمهَ والأبرصَ، ويُحيي الموتَى بإذن الله،

وختمَهم بمَنْ يُسَبِّح الحصى بين يَديه، ويَنبع الماء من بين أصابعه، ويكلِّمه الطيرُ والحيوانُ، ويحطِّم الأصنامَ والأوثان!.

ورأتِ البشريَّةُ ذلك كلَّه.. وسلَّمت به وبحُدوثه.

إلاَّ الإمامَ ـ أيها الإخوة الكرام ـ فإننا حين نَسمع أنه مسلَّحٌ بقوَّةٍ ربَّانيَّةٍ نعتبر ذلك شيئاً إمْراً!

وحين نقول إنه مهيَّأٌ لِحَمْلِ أثقال إرثِ رسالة السماء وحمايتها وترسيخها وإقامة أحكامها وحدودها بين الناس، يُقام النَّكير ويُدعى بالويل والثُّبور!.

فلماذا هذا؟.

وما الداعي لإنكارِ أَنْ يكون الله تعالى «قادراً» على خَلْقِ إمامٍ ذي قوًى ومَدارك تفوق قوانا ومداركنا؟!!

التعجُّبُ هنا، كالتعجُّبِ من أَنْ يكون سبحانه «قادراً» على خَلْقي وخَلْقِك و.. وخَلْقِ النبيِّ خَلْقاً مميَّزاً يجعله أهلاً للنبوَّة.

وإنكارُ خَلْقِ أيِّ واحدٍ منهما هكذا، افتئاتٌ على الله تعالى، وافتراءٌ على مشيئته، وانتقاصٌ من قُدرته.. ووقوفٌ بوجه كلِّ ما ينزل من السماء.

والنبوَّةُ، والإمامةُ، لو لم تكونا من السماء،

لَمَا نجا نوحٌ عليه السلام ومَن آمنَ معه من طوفان غضبِ الله،

ولَـمَا سَلِمَ من الْحَرْق بالنار أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي لَـمَّا قال له جبرائيلُ عليه السلام وهو يُقْذَفُ في النار: هل لك حاجة؟. أجاب: **أمَّا إليك فلا.. إذ سلَّم الأمر لله!.**

ولَمَا كانت عصا موسى عليه السلام تَلقف الحبالَ والْعِصيَّ ـ وهي أكوام ـ ثم لا يُرى لها أثَر.. **فأين ذهبت العصا بالحبال والْعِصِيّ؟!!**

ولَمَا استطاع عيسى عليه السلام أن يشفيَ الأمراض المستعصية، ويُحيِيَ الموتى.. **بإذن ربِّه!.**

ولَمَا كانت معاجزُ محمد صلى الله عليه وآله التي لا يحصيها قلم!.

ولَمَا تصدَّر ـ أخيراً ـ إمامُنا الجوادُ عليه السلام مجلس الإفتاء في الدِّين لأكابر فقهاء عصره منذ نعومة أظفاره بين مشيخة الفقهاء والعلماء والفلاسفة والكبراء.

﴿.. صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ!.﴾[1].

فالنبيُّ والإمامُ من البشَر.. ولكنَّ طينتهما فوق طينة البشَر،

وهما مخلوقانِ يتمتَّعان بعطاءٍ ربَّانيٍّ:

فيه سِرُّ الطوفان الذي لا يُغرِق المؤمنين في طوفان غَضَب،

وسِرُّ النار التي لا تُحرق النبيَّ إبراهيم عليه السلام، مهما كدَّسوا فيها من خَشَبٍ وحَطَب.

وسرٌّ عصاً تفعل العَجَب وتَبتلع مكر عبدٍ متربِّبٍ على الناس،

---

(١) النمل ـ ٨٨.

وسرُّ كلمة الله التي بها يَشفي ويُحيي،

وأخيراً ـ لا آخِراً ـ فيها سرُّ محمدٍ صلى الله عليه وآله، وسرُّ أهل بيته الطاهرين عليهم السلام الذي لا تنقضي عجائبُه حتى ينتهيَ عُمر الدُّنيا!.

●

.. وكانت ولادة الإمام ـ المعجزة، سنةَ اختلاف الأمين والمأمون، وقبل خلعِ الأمين ومبايعته أخيه بسنةٍ واحدة.

أي في عهد فوضى ونزاعٍ قال فيه أحد شعراء بغداد:

أضـاع الخلافـةَ غِـشُّ الوزيـر، وفسـقُ الأميرِ، وجهـلُ الْمُشيرْ

فَفَضْـلٌ وزيـرٌ، وبكـرٌ مُشيـرٌ، يريـدانِ مـا فيـه حتـفُ الأميرْ

ومـا ذاك إلاَّ طـريـقُ غُـرورٍ، وشرُّ المسالكِ طُرْقُ الْغُـرورْ[1].

وكان المولدُ المبارك بعيداً بعيداً عن روائح دُور بغداد وقُصورها.

وسُمِّيَ المولودُ محمداً،

وكُنِّيَ بأبي جعفر، وأبي جعفر الثاني، وأبي عبد الله.. وكُنيتُه الخاصَّةُ: أبو علي.

ولُقِّبَ بالجواد، والتقيِّ، والرضيِّ، والمرضيِّ، والعالِمِ، والقانعِ، والمختارِ، والمنتَجبِ، والمرتضى، والمتوكِّلِ، والزكيِّ[2].

ووَرث الشرف ـ إلى منتهاه ـ من جدِّه المصطفى صلى الله عليه وآله، إلى جدِّه عليٍّ وجدَّته الزهراء عليها السلام.. فإلى أبيه عبر أجداده الأقـربين **صلَواتُ الله عليهم جميعاً.**

ووشجتْ عروقُه على رَوح النبوَّة، واستقتْ من منبع الوصيَّة، وارتضع من ثدي الرسالة فنبت فرعاً غضّاً ميّاداً على الشجرة التي باركَها القرآنُ، وطهرَّها الرحمان..

فضاقت بمناقبه الْعُظمى حَلَباتُ كلِّ مجال بالرغم ممَّا قضتْ به الأقدار من قلَّة

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) أنظر بحار الأنوار ج ٥٠ من ص ١١ إلى ص ١٦ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٧٩ ومعاني الأخبار ص ٦٥ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٣٣ وص ١٥١ وص ١٥٢ وص ١٨٦ وتذكرة الخواص ص ٣٢١ والإرشاد ص ٣٠٧.

بقائه على الأرض.

وقد قال ابنُ حجر في صواعقه المحرقة ـ في معرض كلامه عن أبيه عليه السلام ـ:

« أجلُّ أولاده محمدٌ الجواد، لكنَّه لم تَطُلْ حياتُه »[1].

وقال ابنُ الصبَّاغ في الفصول المهمة:

« إنَّ صِفَتَهُ أبيض، معتدل، نقشُ خاتمه: نِعْمَ القادرُ الله »[2].

وجاء في تذكرة الخواص أنه عليه السلام:

« كان على منهاج أبيه في العلم، والتُّقى، والزُّهد، والْجُود »[3].

فسلامٌ عليه: جواداً، عَالِماً، زاهداً، تَقِيّاً،

﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ، وَيَوْمَ يَمُوتُ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً »[4].

●

(١) الصواعق المحرقة ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) أنظر بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٥ وص ١٠٤.

(٣) تذكرة الخواص ص ٣٢١.

(٤) مريم ـ ١٥.



يَا مُحَمَّدُ أُصِمْتَ !.
.. وَسَقَطَ الإِفْكُ

•

وجاءَ أهلُ الإفك بطامَّةٍ.. ظنُّوا أَنْ ليس لها لاَمَّة.
وأَتَوا بِفِرْيَةٍ.. بهتَها الحقُّ.. وأثارَ عِثْيَراً أَعمى عيونَ المفترين،
وبقي شجاً يجرح لَهوَاتِهم.. ويُشرقُهم بِغُصصٍ مدةَ حياتهم،
ثم رافقَهم إثمُ فِريتهم وإِفكهم إلى قبورهم.. وإلى ما بعدَ نُشورهم!.

قد أُتِيَ بمثلها قبلَ انقطاع الوحي.. فرمَى القرآن أهلَها بعارِها وشَنارِها.. وأخزاهم خزياً خالداً.

ثم جيءَ بهذه يومَ مولد إمامِنا عليه السلام.. فباءَ الآفكون بخزيٍ كخزيِ الإفك الذي غَبر.. ولبسوا إثمَ مَن افترى واستكبر.. بعد أن عانت ضمائرُهم عذاباً بئيساً.. لو كان لهم ضمائرُ تَنبضُ فيها الحياة!.

ذلك أن الإمامَ الجوادَ عليه السلام وُلد وعلى سحنائه الناعمة مسحةٌ من السُّمرة الأصيلة المحبَّبة، جعل منها «مُعاوياتُ الزمان» قميصاً ثانياً «لسيِّدنا عثمان».. فقالوا كقول آبائهم الأوَّلين حين رَمَوْا بالإفك زوجَ سيِّد المرسلين صلى الله عليه وآله.

نعم، مُذ خُلق الإمامُ عليه السلام وعلى مخايل وجهه تلك السُّمرة الجذَّابة المَهيبة التي جعلته آيةً فتَّانةً في الحسن والجمال، نفذ الشيطانُ إلى قلوب بعض أهل الأهواء فادَّعَوا أمراً عظيماً دبَّروه في ليلة طَخياء!. فقالوا فيه كما قيل من قبلُ في إبراهيم عليه السلام: إنَّهُ ليس من رسول الله!!؟ بل هو من جريح خادم «مارية» القبطية الشريفة!.

ولكنَّ الإفك في هذه المرة جاء من مَوتورين، ومُرتابين، ليسوا من الأباعد، وإنّما هم من الأعمام وبَني الأعمام وبقيَّة الحسَدة من الأقارب..

قالوا قولاً وقيحاً، وهجروا هُجراً قبيحاً حين قالوا:

« ما كان فينا إمامٌ ـ قَطُّ ـ حائلَ اللّون!. ».

وأعلنوا ذلك لأبيه.. بَغياً عليه وعلى زوجِه وابنِه!.

فما زاد الرِّضا عليه السلام على أنْ قال: « هو ابني ».

فاستمعْ لِمَا رواه الشيخ الجليل علي بن جعفر ـ عن هذه الْفِرْيَة ـ وهو عمُّ الإمام الرِّضا عليه السلام ـ إذ قال لعمَّه الحسنَ بن الحسين بن عليِّ بن الحسين:

« واللهِ لقد نصرَ الله أبا الحسن الرضا عليه السلام.

فقال له الحسن: إيْ والله، جُعلت فداك، لقد بَغى عليه إخوتُه.

فقال علي بن جعفر: إيْ والله، ونحن عمومته بغَينا عليه.

فقال له الحسن: جُعلت فداك، كيف صنعتم، فإني لم أحضركم؟.

قال: قال له إخوتُه، ونحن أيضاً: ما كان فينا إمامٌ قطُّ حائلَ اللّون!.

فقال لهم الرِّضا عليه السلام: هو ابني.

قالوا: فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قضى بالقافة ـ أي بالذين يعرفون الآثار والسيماء ويَحكمون بالنسَب ـ فبينَنا وبينَك القافة.

قال: ابعثوا أنتم إليهم. أمَّا أنا فلا. ولا تُعلموهم لِمَا دعَوتموهم، ولْتكونوا في بيوتكم.

فلمَّا جاء القافةُ أقعدونا في البستان، واصطفَّت عمومتُه، وإخوتُه وأخواتُه.

وأخذوا الرِّضا عليه السلام وألبسوه جُبَّةَ صوفٍ وقَلَنْسَوةً منها، ووضعوا على عُنقه مسحاةً وقالوا له: ادخلِ البستانَ كأنَّك تعمل فيه.

ثم جاؤوا بأبي جعفر عليه السلام ـ وهو طفلٌ ـ فقالوا للقافة: ألْحِقُوا هذا الغلام بأبيه.

فنظَر إليه القافة وزرقوه بأعينهم فانبهروا!.

ثم قالوا: يا ويحكم، أمثل هذا الكوكب الدرِّي والنُّور الزاهر يُعْرَضُ على مثلنا؟!!

هذا واللهِ الحسَبُ الزكيُّ والنسَبُ المهذَّب الطاهر، ولدتْه النجُّوم الزَّواهر والأرحام الطواهر.

واللهِ ما هو إلاَّ من ذريَّة النبيِّ ﷺ وأمير المؤمنين.

وهو يومئذٍ ابنُ خمسةٍ وعشرين شهراً، فقط.

رمقَه القافةُ مليًّا وقالوا ليس له ها هنا أبٌ.

ولكنْ هذا عمُّ أبيه،

وهذا عمُّه،

وهذه عمتُه.

وإن يكن له ها هنا أب فهو صاحبُ البستان فإن قدمَيه وقدمَه واحدة.

فلمَّا رجع أبو الحسن عليه السلام، قالوا: هذا أبوه.

فنطق الطفل بلسانٍ فصِحٍ أرهف من السيف وقال:

الحمدُ لله الذي خلَقنا من نوره، واصطفانا من بريَّته، وجعَلنا أُمناءَ على خَلْقِهِ ووَحْيِه.

أيُّها الناس: أنا محمدُ بنُ عليٍّ الرِّضا، بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن عليٍّ سيد العابدين، بن الحسين الشهيد، بن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب، بسنُ فاطمةَ الزهراءِ بنت محمدٍ المصطفى، عليهم السلام أجمعين.

أَفِي مثْلي يُشَكّ؟.

وعلى الله تبارك وتعالى، وعلى جدِّي وأبَوَيَّ يُفْتَرى؟!.

وأُعْرَضُ على القافة؟!!

أنا العالِمُ بأنساب الناس في الأصلاب،

وإنِّي واللهِ لأعلمُ ما في سرائرهم وخواطرهم.

وإنِّي واللهِ لأُعْلِمُ الناس أجمعين بما هم إليه صائرون!.

أقول حقًّا، وأُظهر صدقاً، عِلْماً قد نبَّأه الله تبارك وتعالى قبل الْخَلق أجمعين،

وقبلَ بناء السماوات والأرضين.

وأيم اللهِ لولا تَظاهُرُ الباطل علينا، ودولة أهل الضلال وغواية ذُريَّة الكُفر، وَتَوثُّبُ أهل الشِّرك والشكِّ والشِّقاق علينا، لَقُلْتُ قولاً يَعجب منه الأوَّلون والآخِرون.

ثم وضع يده على فيه ثم قال:

يا محمدُ اصْمُتْ كما صمتَ آباؤك.

﴿فَاصبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، بَلاَغٌ، فَهَلْ يُهْلَكُ إلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ؟﴾[1].

قال علي بن جعفر: فقمتُ فَمَضَضْتُ ريق أبي جعفر عليه السلام ثم قلت:

أَشهد أنَّك إمامي عند الله!.

فبكى الرِّضا عليه السلام ثم قال: يا عم ألم تسمع أبي وهو يقول:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

بأبي ابْنُ خيرة الإماء، ابنُ النوبيَّة الطيِّبة الفم المنتجَبة الرَّحم!.

أَفيكون هذا يا عمُّ إلاَّ منِّي؟.

فقلتُ: صدقتَ، جُعلت فداك.

ثم أتى أبو جعفر عليه السلام إلى رجلٍ بجانبه فقبض على يده، فما زال يمشي يتخطَّى رقاب الناس وهم يُفرجون له..

فرأيتُ مَشْيَخَةَ أجلاَّئهم ينظرون إليه ويقولون: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2]. وهم من بَني هاشم، من أولاد عبد المطَّلب.

فعندها قال الإمام الرِّضا عليه السلام ـ وقد ذكر ما قُذفت به ماريةُ القبطية

---

(١) الأحقاف ـ ٣٥.

(٢) الأنعام ـ ١٢٤.

زوجُ رسول الله ﷺ -:

الحمد لله الذي جعل في ابني محمدٍ أُسوةً برسول الله ﷺ، وابنِه إبراهيم عليه السلام. فإن ماريةَ القبطيَّة لَمَّا أُهديتْ إلى جدِّي رسول ﷺ، أُهديتْ مع جوارٍ قَسمهنَّ على أصحابه وضنَّ بماريةَ من دونهنّ، وكان معها خادم يقال له جريح يؤدِّبها بآداب الملوك. وقد أَسلمتْ على يد رسول الله ﷺ وأسلمَ جريح معها، وحَسُنَ إيمانها وإسلامها فملكتْ قلب رسول الله، فحسدها بعضُ نسائه ورُميتْ بالإفك وأنَّ حَمْلَها كان من جريح، فتبيَّن أن جريح أمسحُ أجبُّ وليس له ما للرجال.. فافتضح الإفكُ المفترَى..»[1].

فياليت أهل الإفك كانوا يحملون عقل «عسكر» - مولى الإمام أبي جعفر عليه السلام - الذي كان يقوم على خدمته ويرى سُمرتَه وسائر صفاته أكثرَ من أي شخصٍ آخر، فإنه قال في حديث له:

«دخلتُ عليه فقلتُ في نفسي: يا سبحان الله ما أَشدَّ سُمرةَ مولايَ وأضوأ جسده؟!!

فواللهِ ما استتممتُ الكلام في نفسي، حتى رأيت لونه قد أظلَمَ حتى صار كالليل المظلم، ثم ابيضَّ حتى صار كأبيض ما يكون من الثلج، ثم احمرَّ حتى صار كالعلَق المحمرّ... فسقطتُ على وجهي مِمَّا رأيتُ، فصاحَ بي:

يا عسكر، تَشُكُّون فَنُنَبِّئُكُمْ، وتَضعفون فَنُقَوِّيكم. واللهِ ما وصلَ إلى حقيقة معرفتنا إلاَّ مَنْ مَنَّ الله عليه بنا وارتضاه لنا وليًّا[2].

●

---

(١) أنظر بحار الأنوار ج ٥٠ من ص ٨ إلى ٢١ وص ١٠٨ باختصار ورجال الكشي رقم ٢٧ وإعلام الورى ص ٣٣٠ والإرشاد ص ٢٩٧ والكافي م ١ ص ٣٢٣ والأنوار البهية ص ٢٠٧ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٧ وتجد في حلية الأبرار ج ٢ من ص ٣٩١ إلى ٣٩٥ جملة تفصيلات في الموضوع. وهو في مصادر كثيرة ذكرت هذا الإفك المفترى.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٥٥ مع زيادة، وهو في إثبات الهداة ج ٦ ص ٢٠١ وفي أكثر المصادر السابقة لهذا الرقم.

وسقط الإفك . . . ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ، وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[2].

ولكنْ . . . يلاحظ في هذا الحادث أمران:

أولُهما: هذا الحسَد للأئمة عليهم السلام الذي يوقع الحاسدين فيما لا يجوز من البُهتان . . بل في ما قد يؤدّي إلى الكُفر والعصيان.

فهم المحسودون الذين عَناهم الله تعالى بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[3].

إذ قال الإمامانِ الصادقان عليهما السلام في تفسير هذه الآية الكريمة:

« نحنُ المحسودون ».

ودائماً يسقط الحسدُ . . وبعيون الحاسدين الرمل، ولأبصارهم العمى الذي أصاب بصائرَهم!.

وثانيهما: هو ما يَبرز من خلال هذا التحرُّك الذي نتجَ عنه ظهورُ مُعجزة إلّهيّة ظهوراً لا يحتاج إلى تفسير،

فقد قال الإمام ـ الطفلُ: يا محمدُ اصْمُت . .

أي افعلْ ما أُمرت بفعله فترةَ اختيارِ الله تعالى لك . . مهما كانت ظروفك . . ومهما استحكم ظُلْمُ ظالميك . .

فلا جرَمَ أن تصمتَ كما صمتَ آباؤك من قبلك . .

•

. . ولكنْ . . كيف صمت آباؤه عليهم السلام؟.

وعن أيِّ شيءٍ سكتوا؟.

وهل صمتوا عن النُّطق بكلمة الحق؟. أم سكتوا أمام جولة الباطل؟.

---

(١) الأعراف ـ ١١٨.

(٢) التوبة ـ ٤٨.

(٣) النساء ـ ٥٤.

والجوابُ أن الصَّمتَ كان مفروضاً عليهم من بارئهم عزَّ وجلَّ.. فهم ماضون في القيام بأمره كما قرَّر وقدَّر، وكما تتحدَّد أعباءُ وظيفة الموظَّف في الدولـة وفـق مرسوم عمله فيها.. فلا تعدِّيَ على حدود ما أَنزل الله عليهم، وإليهم، مئةً بالمئة.

ولذا كان جوابُ الإمام الباقر عليه السلام لحمران بن أعين حين سأله قائلاً:

« يا ابن رسول الله، أرأيتَ ما كان من قيام أمير المؤمنين والحسن والحسين وخروجهم وقيامِهم بدين الله، وما أُصيبوا به من قِبَلِ الطواغيت والظَّفر بهم حتى قُتلوا وغُلبوا؟.

قال عليه السلام: يا حمران، إن الله تبارك وتعالى قد كان قدَّر ذلك عليهم، وقضاه وأَمضاه وحتَمه على سبيل الاختيار، ثم أَجراه عليهم.

فبِتَقَدُّمِ علمٍ إليهم من رسول الله ﷺ، قام عليٌّ، والحسنُ، والحسينُ، عليهم السلام؛

وبعلمٍ صمتَ مَنْ صمتَ منَّا.

ولو أنهم يا حمران ـ حيث نزل بهم ما نزل من ذلك ـ سألوا الله أن يَدفع عنهم وأَلَحُّوا عليه في إزالة مُلك الطواغيت وذهاب مُلكهم لَزالَ أَسرعَ من سِلْكٍ منظومٍ انقطعَ فتبدَّد.

وما كان الذي أصابهم لذنبٍ اقترفوه، ولا لعقوبةِ معصيةٍ خالفوا الله فيها،
ولكنْ لِمَنازلَ وكرامةٍ من الله أراد أن يُبلغهم إيَّاها.
فلا تذهبنَّ بك المذاهبُ فيهم »[1].

فتأمَّل..

أمَّا ولدُه الإمامُ الصادق عليه السلام فقال لجليسٍ له ذكَر هذا المعنى ـ في حديث ـ:

« .. ولكنْ، كيف؟. إنَّا إذاً نريد غيرَ ما أرادَ الله!. »[2].

---

(١) بحار الأنوا رج ٢٦ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ عن ضريس الكناسي، وهو في الخرائج والجرائح ص ٢٥٥.
(٢) بحار الأنوار ج ٢٦ ص ١٥٢ عن صالح بن عقبة الأسدي، عن أبيه.

فقد صمتوا ـ إذاً ـ مأمورين.. وإن كانوا مقهورين!.

وسكتوا حال كونهم مظلومين.. مُضَحِّين «بالأَنا» عندهم، في سبيل إعلاء كلمة التوحيد..

•

وإذ كان لا بدَّ من إجمال التفسير، نقول:

سكت أميرُ المؤمنين عليه السلام عن «حقِّه» المهضوم وظُلمِه المعلوم ـ لَـمَّا زُحزح عن مُقامه الذي أقامه الله تعالى فيه ـ إبقاءً على كلمة: لا إلّه إلاَّ الله، التي مَضغَها بأسنان الحليب وعاشها مع الحبيب، فخشيَ أن يقضيَ عليها عهدُ الجاهليَّة القريب.

فكان سكوتُه ـ مع قلَّة الناصر ـ أَدْعَى إلى سلامتها، وعافيتها، وتعميمها، وترسيخها.. وأَحْجَى من تجريد سيفٍ وتحريك عصبيَّاتٍ مكبوتةٍ لَو ثارت ثائرتُها لاَخْتَلَطَ الحابلُ بالنابل، ولاَخْتَبَطَ فيها المسلمون والكافرون.. ولَضاع ما أَثَّله نبيُّنـا محمدٌ ﷺ وأرسى أُسُسَهُ وأَقام بناءه..

فالوصيُّ ـ إذاً ـ موصىً بالصَّمت، من ربِّه، ومن مربِّيه.

وكذلك صمت ولدُه السِّبط الزكيُّ المجتبى، أبو محمد، الحسنُ عليه السلام ـ بعد أن قام ـ لأن الذهب الوهَّاج الذي طرحه معاوية أعمى قلوب الناس عن الحق الصريح؛ فقدَّر الإمامُ أن مُضيَّه في الحرب يَضرب المسلمين بعضهم ببعض فيَفسح المجالَ لبروز «الوثنية الأمويَّة» التي أَقسمَ بها أبو سفيان أَنْ لاَجنَّةَ ولا نار!. ورأى أنَّه إذا حارب قضى على الثُّلة المسلمة المؤمنة ـ وعلى رأسها هو وأخوه عليهما السلام ـ بسيف دعيٍّ يُعلن الإسلام ويبطن الكفر!. ومِنْ حوله عَبَدَةُ المال والبطون والفروج وزُخرف الدُّنيا..

فرأى أَنْ لا مناص من المهادنة لِيَصدق فيه قولُ جدِّه ﷺ: «ابني هذا سيِّد، وسيُصلح الله به بين فئتَين متنازعتين من المسلمين».. وفضحَ «بصُلحه» مُلكاً عَضوضاً لم يَلج الإسلامُ إلى ما وراء شفتَي القائم عليه، بدليل أن ميثاق الصُّلح شَهَرَ

كُفر خصمه الناكث.. فكان الصلحُ المسمارَ الأولَ في نعش الدولة الأموية التي غيرت مسارَ الإسلام تغييراً خطيراً..

وسكت أخوه أبو عبدالله، الحسينُ الشهيد عليه السلام مِن بعده.. سكوتَ «شهادةٍ مقرّرةٍ» من السماء، هي لَفظَتْ كلمتَها الخرساءَ يوم كربلاء.. وما زالت تَطُنُّ في أذن كلّ حُرٍّ، وتحكي كيف يكون كلامُ وسكوتُ الإمامِ إذا أراد حمايةَ الإسلام..

فشهادةُ الحسين عليه السلام ـ التي كانت سكوتاً أبديّاً ـ خطبةٌ بليغةٌ تجسِّد التضحية السخيّة في سبيل الله، وتطوّق عُنق كلّ مسلمٍ ينطق بالشهادتَين إلى يوم الدين، ولَو لم تكنْ لَكان القضاءُ التامُّ على كلمة التوحيد، في عهد «يزيد» العربيد.

وإنْ تَعجبْ من تسمية شهادته الثائرة صمتاً، فعَجبٌ زعمُك أنَّ الحسين عليه السلام ثار ليكون «خليفةً» على المسلمين بسبعين من أنصاره واجَهُوا ثلاثين ألفاً من أعدائه في أقلّ تقدير!.

فثورتُه المبارَكةُ، وشهادتُه الزكيَّةُ، كانتا ـ بالحقيقة ـ أبلغَ جواب على اعتراض المعترضين على سكوت كلِّ إمامٍ مِنَ القائلين بأنه لو كان إماماً لَقام، إلى جانب أنها أعطت «حياةً جديدةً» لكلمة الحق، وكشفتْ فسق «الحاكمين» باسم الإسلام، وبيَّنت أنَّ كلَّ واحدٍ منهم لا يتورَّع عن قتل النبيِّ وابنِ النبيِّ ولا يعفُّ عن قتل أيِّ إمامٍ نَبس بكلامٍ ضدَّ «نظام» دولته الجائرة!. وقد فعلوا ذلك معه ومع أخيه وأبيه.. وفعلوه ـ سرّاً ـ مع سائر بَنيه.

فقد حارت الكلمةُ في تفسير موقف الحسين عليه السلام، يومَ سكتَ وأعطى الكلامَ لسيفه الذي ما زال يتكلم إلى اليوم، وما فتِئَ يُستوحَى منه فلا يعبِّر عن قيمته وحقيقته إلى قيام الساعة!.

ثم تلا سكوتَهُ الرهيبَ سكوتُ ابنِه زين العابدين عليه السلام، بعد أن أصمتْ حشاه الصَّدمةُ العنيفةُ بأبيه وإخوته وبأهل بيت النبيِّ ﷺ في وقعة كربلاء الْمُشجية، فعلَّم المسلمين كيف يستسلمون لمشيئة الله تعالى، وكيف يتلبَّسون العبوديَّة

الحقَّة للخالق، وكيف يكون الإيمانُ الراسخُ الشامخ، والخدمةُ في محراب الدِّين واليقين!.

وبسكوته في «طَيبة» علَّم الناس اللَّجأ إلى الله حين يتهافت الناسُ على السلطان ـ الشيطان!.

فسكت.. وتكلَّمتْ «صحيفتُه السجَّاديَّةُ» التي تَرفع المخلوق من صعيد التراب، إلى ما فوق طُهر الملائكة في هيكل ربِّ الأرباب.

وسكت.. ليعلِّم المسلمين قولَ: لا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله، حين تموتُ الضمائر ويصيرُ هَمُّ الناس البطونَ والْفُروج!.

وسكت من بعده الباقرانِ ـ الصادقان في فترة انكفاء السيف عن رقاب الهاشميين، فشرحا القرآنَ، وبيَّنا السنَّة.. وقاما بوظيفتهما الربَّانية وقوفاً بوجه الضَّياع عن الأحكام في عصر أمويَّةٍ كسرويَّةٍ قيصريَّةٍ تسير بالناس بعيداً عن الدِّين والديَّان.. فرسَّخا حلالَ محمدٍ وحرامَهُ، وأوضحا حدودَ الدِّين وأحكامَهُ، وهَجرا كلَّ ما يعارض وظيفتهما الإلَهيَّة..

أمَّا الإمام الكاظم عليه السلام ـ الساكتُ إلاَّ عن كلمة الحق ينشرها، وإلاَّ عن الباطل يدحضه ـ فقد سُجن.. وقُيِّد.. ولكنَّه «حملَ» دعوةَ جدِّه وأدَّاها لأصحابه ـ كاملةً ـ من وراء قُضبان الحبس ومِن خلفِ غياهبه..

وبقي هكذا، حبيساً مقيَّداً مدةَ أربع عشرة سنة، فأبقى على شيئين هامَّين حقَّقهما بصمت.. وهما:

الصَّفوة الكريمة من أصحابه،

والدَّعوة الكريمة يحملونها ـ في صدورهم ـ إلى الأجيال.

فهل رأيت ـ يا قارئي العزيز ـ سجناً منبراً لبثِّ الدعوة من جهة، وهيكلاً للعبادة من جهة ثانية، كهذا السِّجن؟!!

وسكت الإمامُ الرِّضا عليه السلام بعد كاظمهم.. وصمت.

ولكنه اقتيد إلى عاصمة «سلطان الزمان».

وَوُضع في الإقامة الجبريَّة.. فلم يَخْفَ فضلُه على أحدٍ بل شاعَ وذاعَ وملأَ

الأسماع، وفتنَ الألباب وجاءَ بالعَجب الْعُجاب..

كما أنه لم يَخْفَ زهدُه « بالأمر والحُكم »..

ولكنه حُمِلَ على قبول « ولاية العهد » لتطويقه ولاستيعاب قواعده الشعبية التي أرعبت « الحُكم » ولفتح باب الكلام أمامه وانتحال الْعُذر للإيقاع به.. فلم يكن منه ما أراده له « السلطان ».

ومع ذلك ما سُكت عنه.. لأنه كاد أن يُقيم كلمة الحق حين خرج لأداء صلاة العيد. فأُقصيَ، ونُفِيَ.. ولُوحِقَ إلى « مرو » في خراسان.

والْمُلاحقُ كان « خليفة المسلمين » الذي حمل إلى الإمام جنوداً من العنب المسموم!.

•

هكذا - يا أخي القارىء - صمت آباءُ إمامنا الجواد عليه وعليهم السلام، مِن قبله.

واستغفر الحقَّ والحقيقةَ لأنني لم أُحط بمعاني صمتِهم ولا بِسِرِّ سكوتهم، بل **أَلْمَمْتُ بذلك إلْماماً.. ولو كنتُ بصدده - وحدَه - لاقتضى منِّي كتباً مستقلَّةً قائمةً بذاتها.**

أمَّا عن أي شيءٍ سكتوا؟.

ولماذا صمتوا؟.

فسؤالان لا يُتَخَطَّيان دون جواب.. وأنا أَختصر وأعتصر موضوعها لأُريح البال:

أولاً: إنهم لم يسكتوا - قَط - عن قول « كلمة الحق » ولا عن إنكار المنكَر و« الباطل ».

ولكنَّهم سكتوا عن « حقِّهم » سكوتَ أبيهم أمير المؤمنين عليه السلام.

وحرصوا على إبقاء الدِّين سليماً معافًى، حِرْصَهُ على ذلك، ولم يحفلوا بسلامتهم إذا سَلِمَتْ بهذه « المقايضة » كلمةُ: لا إله إلاَّ الله.

فَقُتِلوا شهداءَ مظلومين، مدفوعين عن مراتبهم التي رتَّبهم الله تعالى فيها!.

وثانياً: جوابُ صَمْتِهم كامنٌ فيه، مأخوذٌ منه:

فَلولا صمتُهم لكان كلُّ «خليفة للمسلمين» مِن ظَلَمَتِهم كيزيد بن معاوية بالذات،

ولَماتوا قتلاً.. ونكالاً.. ومات معهم الإسلامُ حَتْفَ أنفه، وخنقاً في المهد!.

فإنَّ معاوية «المحنَّكَ» من ظَلَمَتِهم ـ القريبَ من عهد الرسالة، المعاصرَ لصاحب الدَّعوة ﷺ ـ قال وهو يعالج سكرات الموت:

كيف يهدأ لي بالٌ، وهذا ابنُ أبي كَبشة يُصاح به خَمْسَ مرَّاتٍ في اليوم: أَشهد أَنْ لا إلَه إلاَّ الله، وأَشهد أَنَّ محمداً رسولَ الله؟!!

«مُعَرِّضاً» برسول الله ﷺ،

ومِنتقصاً إيَّاهُ بوقاحة وثنيٍّ!. لأنَّ معاوية رمزُ «وثنيَّةٍ جديدةٍ» في الإسلام!.

•

فأئمة أهل البيت عليهم السلام ما خُلقوا ليهتمُّوا بِذَواتهم،

ولا اخْتِيرُوا لإشغال مناصب حُكمٍ دُنيويٍّ.. ولا لِمُلْكٍ وأُبَّهةٍ هرقليَّة،

بل هم أُمناءُ على رسالة السماء،

وذلك ظاهرٌ بوضوح في حياة كلِّ واحدٍ منهم إذا استثنينا حكومة السنوات الأربع في الكوفة، يومَ حَمَلَ المسلمون لها أميرَ المؤمنين مدفوعاً إليها دفعاً.. فرضيَ بِحَمْلِه إليها ليضرب أعظَمَ مثَلٍ لحكومة العدل على الأرض.

وسترى الكثير من معاني الصَّمت الذي نتحدَّث عنه في حياة إمامِنا الجواد عليه السلام.. ذلك الإمام الفتيُّ الذي ظهر فضلُه في مجالس الانتقام اللَّيئمة وفي امتحانات عصرِه الزَّنيمة.

هذا، وإن وظائفهم الربَّانيَّة، لا تفتقر لتأشيرات أرضيَّةٍ، ولا لتزكياتٍ تخضع في الميزان لِرضى الراضين، ورفضِ الرافضين.

قد أدَّوا قسط الحقِّ بحسَب ما شاء لهم ربُّهم،

وكان صمتُ إمامنا الفتى عليه السلام - كصمتِ آبائه -:
إجهاراً بباطل أعدائه،
وبروزَ عملاقٍ بين أقزام الحكّام وفقهاء الإسلام،
وفرزاً جليّاً لطرفَي الحقِّ والباطل في ميزان العدل.

●



إنّه أوتيَ الحكمَ صبيًّا..
..وعلِمَه من علم الله!.

•

نَصَّ الإمامُ الرِّضا على إمامة ابنه الجواد عليهما السلام، وسمع النصَّ من فمه الشريف كلٌّ من:

علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر عليهما السلام، وصفوان بن يحيى، ومعمر بن خلاَّد، والحسين بن بشار، وابن أبي نصر البيزنطي، وابن قياما الواسطي، والحسن بن الجهم، وأبو يحيى الصنعاني، والخيراني، ويحيى بن حبيب الزيَّات، وجماعةٌ كثيرون يطول بذكرهم الموضوع[1].

والنصُّ على إمامة غلام ـ أو قبل أن يولد صاحبُها ـ أمرٌ لا يدخل القلوب بِيُسرٍ، ولا يَلج الآذانَ دون رُخصة!.

فإنَّ من طبائع البشَر أن يتنكَّروا للمسألة التي تَعرض لهم ولا تستطيع أفهامُهم احتواءَها بسهولة. بل قد يرفضونها ـ قبل التفكُّر والتدبُّر ـ غير مبالين بما يترتَّب على رفضهم لها، وناسين أن قصورهم عن فهمها لا يُبطل حقيقتَها ولا يجعلها غيرَ باقيةٍ وغير ثابتة.

فإذا قيل إن النبيَّ يوحَى إليه ـ من الله تعالى ـ بواسطة مَلكٍ أمين، فكَّروا وقدَّروا، وعَبسوا وبَسروا.. ثم قالوا للنبيِّ: أَرِنا الله، وأَرِنا الْمَلَك، وأَرِنا كيف يتمّ نزول الوحي، لنصدِّق. ـ جاهلين أن الله عزَّ وعلا، لو كان يُمكن أن يُرى لَنَزلَ عن

---

(١) راجع الإرشاد ص ٢٩٧ وغيره من مصادر الكتاب.

مرتبة الألوهيَّة اللامحدودة العظَمة، ولَكان «شيئاً» محدوداً يحتاج إلى حيِّزٍ يَشغله، ويفتقر إلى شهادة «مختارٍ» يراه ويعترف بوجوده؛ وغيرَ مُلتفتين إلى أن المَلَك لو رُوْي - كما يشاؤون - لَبطلَ العملُ السماويُّ، ولأصبح «لعبةً أرضية» أشبه ما تكون بالأنظمة الوضعية للممالك والسَّلطنات والإمارات - ولا نقول الأمبراطوريات لأنها تحجب عن المحكومين كثيراً من أمورها - وإذنْ، لَذهبتْ هالةُ القدسيَّة عمَّا ينزل من السماء، ولَفقدَ قيمتَه كلُّ ما يصدر عن الأرض إليها، لأن عمل العبد لا يكون ذا قيمةٍ واعتبار، إلاَّ في حال الإيمان بالألوهيَّة والوحدانيَّة والقدرة، وبجميع صفات الله تعالى؛ اختياراً، وإذا كان العكسُ فإن الإيمانَ قد يُصبح نتيجة إجبارٍ لا إقرارٍ واختيار.. فيبطل - عندها - الثوابُ والعقاب.

أجلْ، إذا قلنا إن النبيَّ يوحى إليه ازورَّ عنَّا كثيرون وقلبوا الشِّفاه سُخريةً وهُزءاً..

وإذا قلنا إن الإمام يُلْهَم، قامت قيامةُ المتعجِّبين والمنكِرين.

فكيف إذا قلنا إن ذاك وهذا، ربما عَلِمَا بما كان، وبما سيكون؟!! وأنهما إذا أرادا عَلِمَا؟!.

•

لا ينبغي لنا - عقلاً - أن نُنكِرَ كلَّ ما نجهل حقيقتَه.

ولا يجوز - منطقياً - أن نرفض كلَّ ما لا يروق لنا.

فقد جبلَ الله تعالى الْخَلق مختلفين في الجسم، وفي اللون، ومُتَمايزين في درجات الفهم ومراتب الإدراك اختلافاً كثيراً.. فكيف كان هذا؟.

كان هذا هكذا.. وكما نرى بالمحسوس الملموس، وقد أعطى سبحانه هذا طولاً، وذاك قصراً، والآخر توسُّطاً؛ وسلَّحهم بمدارك متفاوتةٍ، وحمَّلهم مسؤولياتٍ مختلفةً، كما تُحَمِّلُ الدولة هذا مسؤولية القضاء، وذاك أعمالَ الإدارة، وكما تسلِّح هذا بالمسدَّس، وذاك بالمدفع، والآخر براجمة الصواريخ.. وتزوي الجبان في المطبخ.

أفكانَ عَجباً أن يعطيَ الله تعالى عبداً من عباده، ما لا يعطيه لغيره من مواهبه الربّانيّة ؟ .

أم كان عجباً ـ للناس ـ أن « يؤهّل » واحداً للنبوّة ـ التي هي أعلى مراتب الاصطفاء ـ ثم لا يؤهّل غيره لها ؟ .

أم أنَّ من الغريب ـ العجيب أنْ يعلّم عبدَه المختارَ لأمره ما لا يعلّمه لِسِواه ؟ ! !

طبعاً، لا .. فإنه المعلّمُ الأولُ ﴿الّذِي عَلّمَ بِالْقَلَم، عَلّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١] .

وهو سبحانه الذي ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ، عَلّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٢] ، ﴿وَعَلّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلّهَا﴾[٣] فأطلعه على حقائق المسمَّيات التي جَهِلَها الملائكة لمّا سُئلوا عنها وَ﴿قَالُوا : سُبْحَانَكَ لاَعِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلّمْتَنَا ، إنّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[٣] .

وهو الذي فعل ذلك مع أبينا آدم عليه السلام بعد أن خَلَقه وأقدرَه على الحركة والنُّطق، ثم وهبه العقل المفكّر، وجهَّزه بمئات الأجهزة التي تجعله حرياً بأن يكون « خليفة » الله في الأرض وسيِّداً للمخلوقات.. كما أنه تعالى هو الذي يعلّم الناس جميعاً ـ بمواهبه وبواسطة رُسله ـ ليرشدَهم إلى ما فيه صلاحُهم في الدارَين؛ ولذا قال سبحانه لنا : ﴿ .. وَيُعَلّمُكُمُ اللهُ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ...﴾[٤] .

وعلى هذا الأساس قال يعقوبُ لابنه يوسف عليهما السلام، حين تفسير رؤياه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ، وَيُعَلّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾[٥] ..

فأتَمّها سبحانه عليه وأشار إلى ذلك بقوله عزّ شأنه: ﴿وَإنّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلّمْنَاهُ﴾[٦] فاعترف يوسفُ عليه السلام بفضل الله عليه لرفيقَيه في حبس فرعون مصر وَ﴿قَالَ: لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلاَّ نَبّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا،

---

(١) العلق ـ ٤ و٥.
(٢) الرحمن ـ ٣ و٤.
(٣) البقرة ـ ٣١ و٣٢.
(٤) البقرة ـ ٢٨٢.
(٥) يوسف ـ ٥.
(٦) يوسف ـ ٦٨.

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾(١). والمعنى أنه سبحانه يُطلعه على ما غاب عنه دون أن يراه!. ولذا شكرَ يوسفُ ربَّه على هذه النِّعمة بعد أن خرج من السِّجن وصار وزيراً للدولة، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ..﴾(٢).

وكذلك قال تعالى عن نبيِّه داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ ـ أي أَلهمناه أن يعملَ ـ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ـ أيها الناس ـ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾(٣) ـ وهي الدرع الحديدية التي يلبسها المحارب فتدفع عنه ـ .

ثم قال سبحانه في معرض كلامه عن داود وقتله لجالوتَ الجبَّار: ﴿وآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾(٤).

وقال عزَّ وجلَّ متحدِّثاً عن نِعَمِه عليه وعلى ابنه سليمان عليهما السلام: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾(٥)..

فهو تعالى المعلِّم.. والْمُلِهم، والمفهِّم.

فَلِمَ نَنْفَسُ عليه سبحانه أن يكون كذلك؟.

وهل يَعجز عنه وهو القادر الذي حملَ الأرض في الفضاء، وأمدَّها بالضياء، ورفع فوقها السماء بلا عَمَدٍ، وبثَّ في هذا الكون ما لا يُحصى من الكواكب الهائلة السائرة وفق نظامٍ أبديٍّ.. طائعةً لأمره، مذعنةً لإرادته، ماضيةً بحسَب مشيئته؟!!

هذا الذي نظَّم الكون بموجوداته كلِّها لا يُعجزه التعليم!..

وقد حكى عزَّ اسمُه لنا قصة نبيِّه موسى عليه السلام حين أمرَه باتِّباع الخضر عليه السلام ليستفيد من حكمته، فقصده هو ورفيقٌ له: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) يوسف ـ ٣٧.

(٢) يوسف ـ ١٠١.

(٣) الأنبياء ـ ٨٠.

(٤) البقرة ـ ٢٥١.

(٥) الأنبياء ـ ٧٩.

آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[1].

وقال جبرائيل عليه السلام ـ كما علّمه ربُّه ـ لمريم عليها السلام حين استغربت أن تَلِدَ عيسى عليه السلام، ولم يَمْسَسْهَا بشَر: ﴿قَالَ: كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَـهُ: كُـنْ، فَيَكُـونُ. وَيُعَلِّمُـهُ الْكِتَـابَ، وَالْحِكْمَـةَ، وَالتَّوْرَاةَ، وَالإِنْجِيلَ، وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2].. وذلك بأن يخلقه معلّماً مفهّماً ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾[3] حيث ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ، آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾[4]..

فقد امتنَّ سبحانه على عيسى بن مريم عليهما السلام بذلك، ثم قال في معرض تعداد نِعَمِهِ عليه: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ، إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَهْلاً، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ، وَالْحِكْمَةَ، وَالتَّوْرَاةَ، وَالإِنْجِيلَ﴾[5]..

.. وهكذا يعلّم الله تبارك وتعالى أنبياءَه ورُسلَه وعبادَه الصالحين. وقد ختم ذلك بأنْ علّم نبيّنا محمداً ﷺ، وعلّم أهلَ بيته عليهم السلام، وقال عزَّ شأنُه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الإِنْسَانَ ـ محمداً (ص) ـ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[6] وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ـ أي القرآن ـ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[7].

•

فيا أيُّها المسلمون:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[8].. بدءاً بنعمة الوجود، وانتهاءً بآخر نَفَسٍ نتمتّع به من لَذائذ الحياة، إلى ما بين هذَين الحدّين من أفضاله التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى..

---

(١) الكهف ـ ٦٦.
(٢) آل عمران ـ ٤٧ و٤٨.
(٣) آل عمران ـ ٤٦.
(٤) مريم ـ ٢٠.
(٥) المائدة ـ ١١٠.
(٦) الرحمن ـ ١ و٢ و٣.
(٧) النساء ـ ١١٣.
(٨) النحل ـ ٥٣.

ولماذا نعترف ببعض نِعَمِة، ونُنكِر بعضَها؟.

وَلِمَ نُقِرُّ بأفضاله على رُسله وأنبيائه وسائر أوليائه، ثم نَنْفَسُ بها إذا كانت تخصُّ أهلَ بيتِ نبِّينا ﷺ ؟!.

ومالَنا كلّما ذُكر واحدٌ منهم بفضيلةٍ، وَرِمت الأنوف وأشاحت الوجوهُ استنكاراً؟!!

إنَّهم أهلُ بيت نبيِّنا، لا نبيِّ غيرِنا.. وقد قال ربُّنا سبحانه فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ، أَهْلَ الْبَيْتِ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1].

وَلِمَ نَجْفوهم وقد أمرَ الله تعالى رسولَه أن يقول لنا: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[2]؟!!

أهلُ بيت النبيِّ صلواتُ الله عليه وعليهم، ليسوا أبناء عَلَّة!.

ويكفيهم شرفُ الانتماء إلى رسول الله ﷺ، فلا يستجدون ـ مع هذا الشرف ـ اعترافَ أحدٍ منَّا بفضلهم ولا يستعطونه، ولا يستدرُّون عطف أحدٍ لأنهم أولى بأن ترتفع إليهم الأكُفُّ بالطلبِ، ويقفَ الأشخاص بين أيديهم بالاستعطاف..

وبُخل الناس عليهم بفضائلهم لا يَصرف تلك الفضائل عنهم بحالٍ من الأحوال.. وقد قال جدُّهم ﷺ لابن عباس:

«إنَّا ـ أهل البيت ـ طهَّرَنا الله من كلِّ نجس.

فنحن الصادقون إذا نطقوا، والعالِمُون إذا سُئلوا، والحافظون لِمَا استُودِعُوا.

جمعَ الله لنا عشر خصالٍ لم يجتمعن لأحدٍ قبلَنا، ولا يكون ـ يكنَّ ـ لأحدٍ غيرنا: العلم، والحلم، والحُكم، واللُّب، والنبوَّة، والشجاعة، والصدق، والصبر، والطهارة، والعفاف.

فنحن كلمةُ التقوى، وسبيلُ الهدى، والْمَثلُ الأعلى، والحجةُ العظمى، والعروةُ الوثقى.

---

(١) الأحزاب ـ ٣٣.

(٢) الشورى ـ ٢٣.

فماذا بعد الحقِّ؟. فأنّى تُصْرَفون؟! »[1].

ولا يشكُّ مسلمٌ في أنَّ الله تعالى قد جمع لهم هذه الصفات.. ﴿فَمَنِ اهْتَدَى ـ إلى الاعتراف بحقِّهم ـ فَلِنَفْسِهِ ـ أحسنَ باهتدائه ـ وَمَنْ ضَلَّ ـ عن ذلك ـ فَإِنَّمَا يَضِلُّ ـ يضيع ويجني ـ عَلَيْهَا﴾[2].. وليس بعد الحقِّ إلاَّ الضلال!.

ونحن لا نَزِيدُ « النبوَّةَ » فضلاً من عندنا حين نعترف بها ولا نُضفي عليها صفةً قدسيَّةً كانت خاليةً منها،

ولا نُنقص من شأن « الإمامة » شيئاً حين نُنكِرها، ولا يُسقطها إنكارُنا لها، ولا يحطُّ من قدرها لأن لسان حال الإمام كلسان حال النبيِّ الذي قال ـ كما ذكرنا سابقاً ـ :

« لا أُبالي بمن خالفَني إذا وافقَني، ولا أَحفل بمن خذلَني إذا وازرني، ولا أكترث بمن ازورَّ عني إذا ساعدَني »[3].

فلا مجالَ للرأي، ولا ميدانَ للخيال، ولا حلبةَ للاجتهاد ولا القياس،

لأن رُتْبَتِي النبوَّة والإمامة إلّهيَّتان ـ متوازيتان، وعلمُ الإمام من علمِ النبيِّ.. من علمِ الله عزَّ وجل.

ولذا قال الإمام الصادق عليه السلام لسيف التمّار:

« لو كنتُ بين موسى والخضر لأخبرتُهما أنّي أعلمُ منهما، ولأنبأتُهما بما ليس في أيديهما، لأن موسى والخضر عليهما السلام أُعطيا عِلْمَ ما كان، ولم يُعْطَيَا عِلْمَ ما يكون وما هو كائنٌ حتى تقوم الساعة، وقد وَرِثْنَاهُ من رسول الله صلى الله عليه وآله وراثة »[4].

فقد أورثهم الله تعالى عِلْمَ نبيِّه، كما يورِّث أهلُ الثراء لِذَوِيهم.. وقد قال حمران بن أعين ـ كما أشرنا سابقاً ـ :

---

(١) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٣٧٦.

(٢) الزمر ـ ٤١.

(٣) بحار الأنوار ج ١٧ ص ٣٢٤.

(٤) الكافي م ١ ص ٢٦١.

« قلتُ لأبي جعفر ـ الباقر ـ عليه السلام: ما مَوضع العلماء ؟. ـ يعني الأئمة عليهم السلام ـ.

قال: مثل ذي القرنَين، وصاحبِ سليمان، وصاحب موسى عليهما السلام »(١).

وصاحباهما هما: آصفُ بنُ برخيا، ويوشع بن نون. ـ وهما وصيّاهما ووارثا عِلْمِهما ـ.

وذكر بريد بن معاوية ما سأل عنه الإمامَين الصادقَين عليهما السلام ـ وكان الجوابُ واحداً ـ فقال:

« قلْتُ له: ما منزلتُكم ؟. ومَن **تُشْبِهُون** ممّن مضى ؟.

قال: صاحب موسى، وذو القرنين، كانا عالِمَينِ، ولم يكونا نبيَّين »(٢).

وهم ـ عليهم السلام ـ علماءُ المسلمين ـ كما كان غيرهم من ورثة الأنبياء علماءَ أُمَمِهم ـ وليسوا أنبياء، بل أُمناء على تراث النبوَّة.. وإن الحسين بن العلاء قال:

« سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول:

إنَّ عندي الجفر الأبيض.

قال: قلنا له: وأيُّ شيءٍ فيه ؟.

قال: فقال: زَبورُ داود، وتوراةُ موسى، وإنجيلُ عيسى، وصُحفُ إبراهيم، والحلال والحرام، ومُصحفُ فاطمة، ما أَزعم أنَّ فيه قرآناً.

وفيه ما يحتاج الناس إلينا، ولا نحتاج إلى أحدٍ، حتى أن فيه الْجَلدة، ونصف الْجَلدة، وثُلث الْجَلدة، وربُع الْجَلدة، وأَرش الخدش ـ أي أحقر الكفارات لمن يَغمز الجسم ويخدشه بظُفره ـ!.

فقال له عبد الله بن يعفور: أصلحَك الله، فيَعرف هذا بنو الحسَن ؟. ـ أي يعرفون أن عندكم ذلك ـ.

قال: إيْ والله كما يُعرف الليلُ أنه ليلٌ، والنهارُ أنه نهار. ولكنْ يَحملهم الحسدُ وطلبُ الدُّنيا. ولو طلبوا الخيرَ لَكان خيراً لهم »(٢).

---

(١) المصدر السابق نفس الجزء ص ٢٦٨ وص ٢٦٩.

(٢) بحار الأنوار ج ٢٦ ص ٣٧ ـ ٣٨.

والجفرُ ـ هذا ـ كتابٌ بإملاء رسولُ ﷺ، وخطِّ أمير المؤمنين عليه السلام، قال عنه الإمام الباقر عليه السلام في حديث ـ:

فيه «ما يحتاج إليه وُلْدُ آدم منذ كانت الدُّنيا حتى تفنى»[1].

وهذا علمٌ وافرٌ.. وبحر زاخرٌ لا تلتقي أطرافه..

فعلمُ الإمام إذاً ليس بعلم غيب ـ وإن كان من الغيب ـ لأنه ممَّا عناه سبحانه بقوله: ﴿.. فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[2].. ومما قصدَه عزَّ وجلَّ بقوله أيضاً: ﴿..وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ، وَلَكِنَّ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[3]..

فقد أظهر الله على غَيبه رسولَه الذي ارتضاه واجتباه، وورث ذلك عنه أهلُ بيته واحداً عن واحد.

وأنا في كتابي هذا أشبه بمن يَعرض عملياتٍ حسابيةٍ لا تتغيَّر محاصليُها ولو اختلفت الحلول، إذ لا دَخْلَ للعقل والصنعة في تحوير جوابٍ في الرياضيَّات مهما جالا وصالا وافتنَّا.

فلستُ مُفَوِّفَ لفظٍ، ولا منمِّقَ كلامٍ وراصفَ جُمل.

ولا أنا وصَّافٌ يستعمل حُسن الديباجة وجمال التعبير ليأخذ بمشاعر قارئه ويستهويه بلطيف عبارته، وأنيق جملته؛

ولا أنا رَسَّامٌ مزوِّقٌ يَبْرَع في رسم الخطوط والظِّلال وإبراز الْمَعالم.

كما أنني لست معلِّقاً صحفيّاً، ولا صاحب بيان فتَّانٍ يأخذ بمجامع القلوب حين يتلاعب بسحر الألفاظ، ويَغوص على أبكار المعاني.

ولكنني ناقلُ حقائقَ إنْ وقف معها القارىء موقف جدٍّ وتدبُّرٍ واقتناعٍ فَنِعِمَّا ذلك، وإن هو أشاح عنها ببصره وأَغلقَ دونها أبواب بصيرية ومنافذ قلبه فلا يَغْير قيمتَها إعراضُه عنها ولا قلبُ شفتَيه، ولا يَعزلُها عن مكان الاعتبار اعترافُ مَن

(١) المصدر السابق نفس الجزء ص ٥٠ وص ٥٤ مكرَّراً بألفاظ متقاربة.

(٢) الجن ـ ٢٦ و٢٧.

(٣) آل عمران ـ ١٧٩.

مَأْمَأً، ولا إنكارُ مَن تَأْتَأَ، شأنُها شأنُ كلِّ موجود خفيَ على الطالبين لأيِّ سببٍ كان، فإن خفاءه لا ينفي وجوده.

وفي النبوّة والإمامة لا يُنظر ـ أيضاً ـ إلى السنِّ.. كما أنه لا يُنظر في المعاجز ـ والآيات السماوية ـ إلى المألوف والمعروف.

فهاتان ـ وهذه كلُّها ـ من خوارق العادة والمألوف.. والخوارقُ من صُنع الله.. وصنعُ الله لا يُسأل كيف كان، ولا كيف حدَث.. لأنَّ صُنعه حكمةٌ، عينُ الحكمة..

وقد قال ـ محمد بن إسماعيل بن بزيع: سألتُه ـ يعني أبا جعفر عليه السلام ـ عن شيءٍ من أمر الإمام، فقلت: يكون الإمام ابن أقل من سبع سنين؟.

فقال: نعم، وأقل من خمس سنين»[1].

وقد مَرَرْنا ونَمُرُّ بشيءٍ من هذا أثناء مواضيع مختلفة من بحثنا.

وقال عبد الأعلى: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «المتوثِّبُ على هذا الأمر، المدَّعي له، ما الحجة عليه؟.

قال: يُسأل عن الحلال والحرام.

ـ قال: ثم أقبلَ عَلَيَّ فقال ـ:

ثلاثةٌ من الحجة لم تجتمع في أحدٍ إلاَّ كان صاحبَ هذا الأمر:

ـ **أن يكون أولَى الناس بمن كان قبلَه ـ أي بالإمام الذي سَبَقَه ـ،**

ـ ويكون عنده السلاح،

ـ ويكون صاحبَ الوصيَّة الظاهرة التي إذا قَدِمتَ المدينة سألتَ عنها العامَّة والصبيان: إلى مَن أوصى فلان؟. فيقولون: إلى فلان بن فلان»[1].

ورَوَى أحمد بن عمر قريباً منه عن الإمام الرِّضا عليه السلام، فقال:

«سألتُه عن الدلالة على صاحب هذا الأمر، فقال:

إذا قَدِمَ الرَّكْب المدينة فقالوا: إلى مَن أوصى فلان؟. قيل: فلان بن فلان. ودُوروا مع السلاح أينما دار. فأما المسائل فليس فيها حجة»[2].

والسلاح الذي يَرِدُ في الأحاديث الشريفة، هو سلاح رسول الله ﷺ، ومواريث النبوَّة والسماء. وهو لا يَعني القوَّةَ ولا نهوضَ الإمام بالسيف كما تشترط

---

(١) الكافي م ١ ص ٣٨٣ وص ٣٨٤.

(٢) المصدر السابق م ١ ص ٢٨٤ وص ٢٨٥.

بعض الطوائف الإسلامية.

وقد توسَّع الإمام الرِّضا عليه السلام في ذكر الأدلة المميِّزة للإمام، بقوله:

«إنَّ الإمام مؤيدٌ بروح الْقُدس، وبينه وبين الله عمودٌ من نورٍ يرى فيه أعمال العباد. وكل ما احتاج إليه لدلالةٍ، اطّلع عليها. ويَبسطه فَيَعلم، ويُقبض عنه فلا يَعلم.

والإمام يولَد ويَلِدُ، ويصحُّ ويمرض، ويأكل ويشرب، ويبول ويَتغوَّط، وينكح وينام، ولا ينسى ولا يسهو، ويفرح ويحزن، ويضحك ويبكي، ويحيا ويموت ويُقبر ويُزار، ويُحْشَر ويُوقَف، ويُعرض ويُسأل، ويُثاب ويُكْرَم ويُشَفَّع.

ودلالتُه في خصلتَين: في العلم، وفي استجابة الدعوة.

وكلُّ ما أَخبرَ به من الحوادث التي تَحدث قبل كَونها، فذلك بعهدٍ إليه من رسول الله ﷺ، تَوارَثه عن آبائه، عنه، عليهم السلام. ويكون ذلك بما عَهِدَ إليه جبرائيل عليه السلام من علاَّم الغيوب عزَّ وجلّ.

وجميعُ الأئمة الأحد عشر ـ بعد النبيِّ ﷺ ـ قُتلوا: منهم بالسيف، وهو أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام، والباقون قُتلوا بالسمِّ، قَتَلَ كلَّ واحدٍ منهم طاغيةُ زمانه، وجرى ذلك عليهم على الحقيقة والصحَّة»[1]

---

(١) عيون أخبار الرِّضا ص١٦٩ ـ ١٧٠ وص ٣٦٣ وانظر ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام بهذا المعنى في مناقب آل أبي طالب وفي بحار الأنوار ج٢٧ ص٢٠٩ وص٢١٣ وص٢١٥ وص٢١٦.

وقد جاء في اعتقادات الصدوق: «اعتقادنا أن النبيَّ ﷺ سُمَّ في غزوة خيبر على يد يهوديةٍ قدَّمت له كتف شاةٍ مسمومةٍ أكل منها وما زالت تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أبْهرَهُ ـ وريد عُنقه ـ فمات منها. وأن أمير المؤمنين عليه السلام قتله عبد الرحمان بن ملجم لعنه الله، والحسن عليه السلام سمَّته زوجتُه جعدة بنت الأشعث الكندي بإيعازٍ من معاوية، والحسين عليه السلام قتله بنو أمية في كربلاء، وعليّ بن الحسين عليه السلام سمَّهُ الوليد بن عبد الملك، ومحمد الباقر عليه السلام سمَّه إبراهيم بن الوليد، وجعفر الصادق عليه السلام سمَّه أبو جعفر المنصور، وموسى الكاظم عليه السلام سمَّه هارون الرشيد، وعليّ الرِّضا عليه السلام سمَّه المأمون، ومحمد الجواد عليه السلام سمَّه المعتصم، وعليّ الهادي عليه السلام سمَّه المتوكِّل، والحسن العسكريّ عليه السلام سمَّه المعتضد».

أنظر بحار الأنوار ج ٢٧ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ نقلاً عن اعتقادات الصدوق ص ١٠٩ ـ ١١٠.

فهل نُريد من مَزيدٍ على ذلك الوصفِ للإمام، والوصفُ مأخوذٌ من فَمِهِ الشريف؟!.

إنَّ الإمام ـ بحسب قوله عليه السلام ـ إنسانٌ من الناس. ولكنه يمتاز عنهم بما ذكرَه من مواهب الله، وبما وصلَه عن طريق العهد المعهود، وهو مجتبًى لذلك منذ سقوطه من بطن أمِّه معلِناً بلا إله إلاَّ الله،

فإن كان مكلَّفاً بالقيام في صِغَرِهِ قام، وإن كان مكلَّفاً في كِبَرِهِ انتظر أمر الله ولم يتكلَّم قبل الأوان، ويصمت مدةَ بقاء أبيه.

وإذا قال، أو أجاب على سؤال قبل ذلك، فإنما يفعل ذلك كفقيهٍ في الدِّين من ذرِّية سيِّد المرسلين المطهَّرة، زُقَّ العلم زقًّا كما هو المعروف عنهم جميعاً.

•

« أمَّا لَمَّا قُبض الإمامُ الرِّضا عليه السلام، فكان عُمر ابنه الجواد عليه السلام نحو سبع سنين وشهور، فاختلفت كلمة الناس في بغداد وفي مختلف الأمصار. فاجتمع أكابر المتشيِّعين والْـمُوالين ـ كالريَّان بن الصَّلت، وصفوان بن يحيى، ومحمد بن حكيم، وعبد الرَّحمان بن الحجاج، ويونس بن عبد الرَّحمان، وكثيرين من الوجوه والثقات اجتمعوا في دار عبد الرَّحمان بن الحجاج في بركة زلول ـ وبكَوا كثيراً وتوجَّعوا لوقع الْمُصاب..

فقال يونس بن عبد الرحمان: دَعوا البكاء!. مَن لهذا الأمر؟. وإلى مَن نقصد بالمسائل إلى أن يَكْبُرَ أبو جعفر؟!!

فقام إليه الريَّان بن الصَّلت، ووضع يدَه في حَلْقِه، ولم يزل يلطمُه ويقول: أنت تُظْهِرُ الإيمان لنا وتُبْطِنُ الشكَّ والشِّرك.. إنْ كان أمرُه من الله جلَّ وعلا، فلَو أنَّه كان ابنَ يومٍ لَكان فوق منزلة الشيخ العالِم، وإنْ لم يكن من عند الله فلَو عُمِّرَ أَلْفَ سنةٍ فهو واحدٌ من النَّاس؛ هذا ممَّا ينبغي أن يفكَّر فيه.. ولذا أَقبلتِ العصابةُ المجتمعةُ كلُّها تَعذله وتلومه وتوبِّخه »[1]

•

---

(١) أنظر بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٩٩ ـ ١٠٠ والأنوار البهية ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

فبين طَرَفَي هذا النزاع بين الأصحاب، كان يدور البحث عن «الإمام» بعد موت أبيه.

أعني بين موقف واحدٍ شاكٍّ متحيِّرٍ كيونس بن عبد الرَّحمان، وبين آخر مؤمنٍ موقنٍ كالريَّان بن الصَّلت.

وكان البحثُ يتردَّد بين واحدٍ يكون إماماً ولو كان ابنَ يوم،

وواحدٍ لَو عُمِّرَ أَلْفَ سنةٍ لَبقي واحداً عادِيّاً من الناس إذا لم «يكن» بأمر الله تعالى.

فهل يُعقل أن يكون الإمام صغيراً إلى هذا الحد؟. ولم تَجْرِ عادةُ السماء أن تُقيم «مجلسَ وصاية» على الإمام حتى يبلغ سنَّ الرُّشد كما في الممالك الأرضية!.

نَعم يُعْقَل.. ولا ينتزع هذه الأفكارَ الْخَبيئةَ من الرؤوس الْخَبيثة إلاَّ سيرةُ السماء في اصطفاء الصِّغار كيحيي وعيسى عليهما السلام، ليكون ذلك أبلغَ في الإعجاز وأَدْعَى إلى ربح المعركة مع أبالسة الأرض الذين يرفضون الحقَّ وكلَّ ما يَنزل من فوق..

ولذا كان إمامنا عليه السلام، مرصوداً لهذا العهد.. ومعهوداً بهذا القصد..

ولا بدَّ من مثل هذا الاختلاف ـ والغربلة بين الأصحاب، ليتَّضح وجهُ الصواب.

فإمامتُه في هذه السنِّ كانت ـ بالحقيقة والواقع ـ أخطر مشكلةٍ وقع فيها الشيعة يومئذ..

وكان الخيار والاعتراف بها من أصعب الصعب.. ولا يؤدِّي إلى ذلك إلاَّ الإيمان الراسخ والتسليم لأمر الله مئةً بالمئة، والعودةُ بالفكر إلى النَّص عليه من أبيه.. فالكثيرون قد سمعوا نَقْلَ ذلك النص من أَلْسنة مَن سمعوه من فيه.

وعلى هذا الأساس ـ وبعد النزاع ـ بدأت الحقيقة تنجلي، وراحت الأفكار

تتبلوَر، وتمّ اجتياز مَخاض هذه العاصفة رغم التحدّيات الشيطانية داخليةً كانت أم خارجية. فَانْمَحَى كلُّ شكٍّ ـ أولاً ـ عند من يؤمن بالنَّص، وزال الإشكال ـ تِبَاعاً ـ عند مَن يطلبون الحقَّ ويسعَون وراء تحصيل العلْم واليقين.. وظهرَ أمرُ الله الذي لا بدَّ أن يظهر.. إذ قال بإمامته ـ عبر عُمره القصير ـ فرقةٌ بذَّت الْفِرَقَ الإسلاميَّة، عدداً رغم ذلك النزاع العقائديِّ الشديد المستفحل.

•

فحين يَلحق الإمامُ بالرفيق الأعلى، يَفتح ابنُه ـ الإمامُ من بعده ـ الْمَوثق الذي تسلَّمه منه، ويباشر مهمَّته سواءً مات أبوه عنه وهو صغير، أم مات عنه وهو كهلٌ كبير ـ لا فَرْقَ في ذلك ـ لأنه «مُعَدٌّ» من لَدُن حكومة السماء، ومجهَّزٌ بكلِّ متطلبات وظيفته كسفيرٍ لله تعالى في أرضه، وكحجةٍ له على عباده، وكأمينٍ له على وَحْيِهِ وعزائم أمره.

فقد قتلَ المأمونُ الإمامَ الرِّضا عليه السلام، يوم كان ابنُه الجواد عليه السلام فتًى يافعاً،

فاعترف بإمامته مَن عَلِمَ بالأمر منه أو من أبيه،

وتحيَّر بعضُ الْمُوالين الذين استصغروا سِنَّهُ،

ووقف آخرون من المعذورين الذين لم يسمعوا «النَّص من أبيه، ولا سمعوه مِنْ فيه، ولا سمعوه ينهلُّ بلاغةً وفصاحةً حين قال ـ وهو ابنُ نَيِّفٍ وعشرين شهراً ـ:

«أنا محمد بنُ عليٍّ الرِّضا، أنا الجوادُ، أنا العالِمُ بأنساب الناس في الأصلاب!.

أنا أَعلمُ بسرائركم وظواهركم وما أنتم صائرون إليه!. علمٌ مُنِحْنا به من قبل خَلْق الأوَّلين والآخرين... ـ إلى آخر قوله هذا، الذي ذكرناه في موضوع الإفك المفترى ـ[1].

هذا، وقد كان الناسُ ـ وأصحابُ أبيه أيضاً ـ يصارحونه باستصغار سِنِّه

---

(١) حلية الأبرار ج ٢ ص ٣٩٦ وبحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠٨ ورجال الكشي تحت رقم ٢٧ نقلاً عن مشارق الأنوار، وانظر المصادر في مكان إيراد الخبر بتمامه.

وكونه إماماً بعد أبيه. ومن ذلك قولُ علي بن سيف الذي رواه عن بعض أصحابنا من شيعته، حيث قال:

«قلتُ له: إنَّهم يقولون في حداثة سِنِّك!. - أي يتعجَّبون من إمامة الصغير -.

فقال عليه السلام: إنَّ الله أوحى إلى داود أن يستخلف سليمان عليهما السلام وهو صبيٌّ يرعى الغنم، فأنكر ذلك عُبَّادُ بني إسرائيل وعلماؤهم. فأوحى الله إلى داود أنْ خُذْ عصا المتكلِّمين وعصا سليمان، واجعلها في بيتٍ واختم عليها بخواتيم القوم. فإذا كان من الغد فمَن كان عصاه قد أورقتْ وأثمرتْ فهو الخليفة.

فأخبرَهم داود عليه السلام، فقالوا: رضينا وسلَّمْنَا»[1].

وكان ذلك.. وتمّت المعجزةُ، وكان الله غالباً على أمره..

ولن نقولَ لمن يَعجب من «إمامة الصغير» إلاَّ ما قاله هو نفسُه عليه السلام لعليٍّ بن حسان حين قال له:

«يا سيِّدي، إن الناس يُنكِرون عليك حداثةَ سِنِّك!.

فقال عليه السلام: وما يُنكِرون من ذلك؟. فواللهِ لقد قال لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي: أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[2]. فواللهِ ما تَبِعَهُ إلاَّ عليٌّ عليه السلام وله تسعُ سنين.. وأنا ابنُ تسع سنين»[1].

أيْ أنه لن يقول للمنكِرين إلاَّ: مَن شاء فليصدِّق بمشيئة الله، ولْيسلُكْ سبيلَه، ومن شاء فَلْيُكذِّب.. وسبيلُ الشيطان مُشْرَعة!.

وأنه - ولَو لم يعلِّمه أبوه، ولا رآه إلاَّ يوم حُمل إليه إلى خراسان وهو في الرابعة من عمره، ثم تُوفِّيَ عنه وهو في السابعة وأشهرٍ - علمُه وراثيٌّ، إلهاميٌّ، ورُؤْياً صادقةٌ، ونَكْتٌ في القلب.. وقراءةٌ على كومبيوترٍ وإلكْترونٍ من السماء.. من لَدُنْ مَن اصطفاه لكلمتِه!.

•

وسأدخل وإيَّاك يا قارئي العزيز، إلى مجلس قضاءٍ في الدِّين، من مجالسِ ابن

---

(١) حلية الأبرار ج ٢ ص ٣٩٨.

(٢) سورة يوسف - ١٠٨.

التِّسع من السنين، مع أحد الأجلاَّء، ـ عليٍّ بن إبراهيم ـ ليكون لنا شرفُ الْقَبـول في مجلسه الكريم، فنستمعَ إلى ما جرى فيه. فقد روَى هذا الرجلُ الثِّقةُ أنَّ أباه قال:

«لَمّا مات أبو الحسن، الرِّضا عليه السلام، حَجَجْنَا، فدخلْنا على أبي جعفر عليه السلام ـ وكان في التاسعة من عمره، يُقيم في دار الإمام الصادق عليه السلام في موسم الحج، لأنها كانت داراً فارغةً فارهة ـ وقد حضر خلقٌ من الشيعة من كلِّ بلدٍ لينظروا إلى أبي جعفر عليه السلام ـ قيل إنهم كانوا ثمانين رجلاً من العلماء والفقهاء والوجهاء، جلسوا على بساطٍ كبير متحلِّقين في ردهة الدار ينتظرون التشرُّف بمشاهدة الطَّلعة الميمونة ـ ودخل فيمن دخل عَمُّهُ عبد الله بن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وكان شيخاً كبيراً نبيلاً، عليه ثيابٌ خشِنةٌ، وبين عينَيه سجَّادةٌ ـ علامة كثرة سجوده ـ فجلس في صدر المجلس وقام واحدٌ على رأسه فقال: هذا ابنُ رسول الله، فمَن أراد السؤالَ فَلْيسأل.

فَسُئل عن أشياء أجاب عنها بغير الواجب.

فاغتمَّ الشيعةُ واضطرب الفقهاء وهمُّوا بالانصراف، وقالوا في أنفسهم: لو كان أبو جعفر يَكْمُلُ لجواب المسائل لَمَا كان من عمِّه عبد الله ما كان!.

فَفُتح عليهم بابٌ من صدر المجلس ودخل موفَّقُ الخادمُ وقال: هذا أبو جعفر عليه السلام.

فقاموا بأجمعهم، واستقبلوه وسلَّموا عليه. فقام عبد الله واستقبلَه وقبَّل بين عينَيه؛ وقامت الشيعةُ، وقعد أبو جعفر عليه السلام على كرسيٍّ؛ وكان يلبس قميصَين من قصَبٍ، وعمامةً بذؤابتَين، وفي رجلَيه نعلان.. وجلس عمُّه بين يدَيه..

فنظر الناسُ بعضُهم إلى بعض تحيُّراً لصغَر سِنِّه.

فانتُدب رجلٌ من القوم قال لعمِّه عبد الله بن موسى:

أَصلحَكَ الله، ما تقول في رجلٍ أَتَى بَهيمة؟. ـ أي نَكَحَها ـ.

فقال: تُقطع يمينُه، ويُضرب الحدَّ، ويُنفى من الأرض سَنة.

وقام رجلٌ آخر فقال: ما تقول، آجرَك الله، في رجلٍ طلَّق امرأته بعدد نجوم السماء؟.

فقال عبد الله: بانتْ منه بصدر الجوزاء، والنَّسر الطائر، والنَّسر الواقع.

فتحيَّرنا في جرأته على الخطأ.

فغضب أبو جعفر ـ الجواد ـ عليه السلام، ثم نظر إليه فقال:

يا عمِّ اتَّقِ الله!.

إنه لَعظيمٌ أن تقف يوم القيامة بين يدَي الله عزَّ وجلَّ فيقول لك: لِمَ أفتيتَ الناسَ بما لا تَعلم وفي الأمَّة مَن هو أعلمُ منك!.

فقال له عمُّه: يا سيِّدي، أليس قال هذا أبوك صلواتُ الله عليه؟.

فقال أبو جعفر: إنما سُئل أبي عن رجلٍ نبشَ قبر امرأةٍ فنكحَها، فقال أبي: تُقطع يَدُهُ للنَّبش، ويُضرب حدَّ الزِّنى ـ فإنَّ حرمة الميِّتة كحرمة الحيَّة ـ ويُنفى إذا كان عزباً، فلو كان محصناً لَوجبَ عليه القتلُ والرَّجم.

فقال: صدَقتَ يا سيِّدي، وأنا استغفر الله»[1].

وطار حكمُ عمِّه مع النَّسر الطائر.. إلى صدر الجوزاء!. وطواه الفناء.

وتعجَّب الناس من ذلك، واستأذنوه فسألوه عن أسئلةٍ كثيرةٍ أجاب عليها في مجلسه ذاك. حتى أن علي بن إبراهيم قال:

«استأذن على أبي جعفر عليه السلام من أهل النواحي، فأذِنَ لهم. فدخلوا فسألوه في مجلسٍ واحدٍ عن ثلاثين مسألةً، فأجاب وله عَشْرُ سنين»[2].

فمَن علَّم ابنَ السنين التِّسع؟.

وكيف عرف خطأ عمِّه؟.

ومن أَطلعه على فتوى أبيه؟. وكيف وثبَ فكرُه إليها موضوعاً وحُكماً؟.

وبأيَّة جرأة يتربَّع ابن الأعوام التسعة على سُدَّة الإفتاء ويصحِّح أخطاءَ مشايخ الفقهاء الذين تولَّوا القضاء بين الناس قبل مولده بعشرات السنين؟.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٨٨-٨٩ وفي ص ٩١ تفصيلٌ وافٍ، وهو في مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٢-٣٨٣ إلى ص ٣٨٤ والأنوار البهية ص ٢١٦-٢١٧ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٣٩٩ وص ٤٠١ والاختصاص ص ١٠٢.

(٢) المحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٦ وقد ذُكر هذا الخبر في كشف الغمة وأنَّه سُئل عن ثلاثين ألف مسألة، ووقع في هذا الوهم كلُّ من نقل عنه، والخطأ غالباً من كثرة النَّسخ والنَّقل.

ومن لقّنه الأحكـامَ في الحلال والحرام، والأمـوال، والأعـراض، والمواريـث وغيرها وهو في نعومة الأظفار؟.

وكيف استوعب القرآن ـ تنزيلاً وتأويلاً ـ وعقلَ السنَّة وتَصدَّر الحُكم في الملّة وهو ـ بعدُ ـ كزرِّ الورد إذ يتفتَّح؟!!

استفهاماتٌ واستشكالاتٌ تَرِد.. وتدَع الناسَ مشدوهين.. قاصرين عن إدراك سِرِّ محمدٍ وأهل بيته صلواتُ الله عليه وعليهم.

ولكنْ.. لن نغادر المجلس قبل أن نستمع إلى فتوى الإمام الفتى بشأن مَن أتى البهيمة، فقد قال عليه السلام حين طُلب منه البيان:

« يُضرب دون الحدِّ، ويَغرم ثَمنها، ويَحرم ظهرُها ونتاجها. وتُخرج إلى البرِّية حتى تأتيَ عليها منيَّتُها، سبعٌ أكلَها، ذئبٌ أكلَها »[1].

فما أجملَ هذا المنطق البليغ الذي يتجلَّى في صدر حُكِمه وختامه!.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[2]! . لا يضاهيها أحد من العالمين.

وبعدُ: فأصغِ معي إلى جوابه عليه السلام بشأن المطلّقة التي أبانَها حُكم عمِّه وطيرَّها عن زوجها في الهواء.

فقد قال عليه السـلام للسائل: تقرأ القرآن؟.

قال: نعم.

قال: اقرأْ قولَه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ﴾[3]..

يا هذا، لا طلاقَ إلاَّ بخمس: شهادةِ عدلَينِ، في طُهرٍ، من غير جماع، بإرادةٍ، وعزم.

يا هذا، هل ترى في القرآن عددَ نجوم السماء؟!.

قال: لا »[3].

فَبِأَبي وأُمِّي الفتى الْهُمامُ الذي يَنهل من نبع القرآن، فتتفجَّرُ ينابيعُ الحقِّ

---

(١) أنظر المصادر السابقة لهذا الرقم.

(٢) آل عمران ـ ٣٤.

(٣) الآية الكريمة في الطلاق ـ ٢ وانظر المصادر السابقة.

والحكمة من قلبه.. ويحكم فلا معقّب لحُكمه، لأنه حكمُ الله تعالى من فوق سبع سماوات!.

وسترى من آياته وبيّناته في مجالس المأمون والمعتصم وفقهائهما ما يُدهش العلماءَ، والفقهاءَ، والأمراء.

•

الإمامُ ـ الجوادُ ـ عليه السلام معجزةٌ في المعاجز..

ومهما مَرَّ بك ـ ويمرُّ ـ من إعجازه ودلائل إمامته يسيرٌ يسيرٌ بالنِّسبة لسفارة الله تعالى في عباده وخلافته في أرضه، إذا كنَّا ندرك معنى هذه الخلافة، وتلك السفارة.

فمَن يكنْ في مثل عُمره من الطفولة، مهاباً لدى مشيخة بني هاشم وأكابر علماء المسلمين ـ من أصحاب آبائه وأعدائهم ـ وموئلاً لعظماء الفقهاء، ومرجعاً يفيءُ إلى ظلّه الوارفِ شطرٌ كبيرٌ من الأمّة الإسلاميّة، ومفدًّى من الجميع بأنفسهم كلّما خاطبوه، ومحلاًّ لخشية السلطتَين: الدينيّة، والدُّنْيَويَّةِ، يقضُّ مضجعَ كلٍّ منهما ـ أقول: إنَّ مَن كان كذلك، لَيلفت النظرَ ويستدعي التأمُّل في حالٍ واحدة قد تظهر نابيةً حين نجهل ـ أو نتجاهل ـ مركز «إمامة» الناس التي افترضها الله سبحانه كما افترض مختلَف طاعاته.. أمّا عندما نعترف بقدرة الله في ملكوته، وبحكمته وحُسن تدبيره، فإنّنا نُذعن لكلِّ ما نزل من عنده.

وإنَ إنكار مواهبه سبحانه لِحُججه في أرضه، كإنكار مواهبه لرُسله..

وهو كإنكار أنه تعالى قادرٌ أن يفعل ما يشاء كما يشاء..

هذا، وقد خَلَقنا سبحانه أحراراً، أفلا تكون له تعالى حريَّة الاختيار والاصطفاء ممَّن خَلَق؟!.

أم أنَّه خَلَقنا أحراراً لتقودَنا الحريَّةُ إلى الاشتراط عليه تعالى أن يفعل ما يوافق أهواءَنا؟!.

قد جاء في الخبر القُدسيِّ المأثور: «يا عبدي، أطعني تكنْ مثلي، تقولُ للشيء: كُنْ، فيكون».

وعندنا، أن «كُنْ» هي لله تعالى وحدَه، دون سائر مَن كان.

فكيف يتسنَّى للعبد المطيع ـ مهما بلغت إطاعتُه وإيمانُه ـ أن يَشْرَك الله تعالى فيها؟.

هذا إشكالٌ واردٌ حقّاً.. ولكنه لا يشمل آياتِ الأنبياء، ومعاجزَ الأولياء، وخوارق عُمَّال الله حين يكشِّرُ الكفرُ عن وجهه وينازلُ الخالقَ سبحانه، ويتحدَّى أولياءه.. فيظهر على أيديهم فعلُ «كُنْ» التي هي لله عزَّ اسمُه خاصةً حيث يُجريها ـ باسْمِهِ الأعظم ـ وفقَ إرادتهم فيبتدعون العجائب، ويأتون بالآيات البيِّنات ـ إذا تحدَّاهم الكفر والنفاق ـ فيُحيون الموتى، ويشفون المرضى، ويكلِّمهم الحصى، وتشقُّ عصاهم البحرَ، ويسخرِّون الرِّياح والعوامل الطبيعية ويُنزلون العذاب على مَن كفرَ ونافقَ، بإذن الله . ذلك أنه سبحانه منَحهم استجابة الدُّعاء، وتحقيق الرجاء، في أزماتٍ لا بدَّ فيها من تدخُّل السماء التي تأذن لهم باستعمال «كن» التي تَصفعُ العناد وتُصلح العباد!.

على أنه لا يكون شيءٌ من هذا إلاَّ لإلقاء الحجة البالغة على الأمَّة الضالَّة، لتدمَغَها وتصرعها، كجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وكقلب مدائن لوطٍ المؤتفكة، وكتمخُّض الصخرة عن ناقة صالح عليه السلام.. فهذه خوارقُ تَرتَّب عليها إيمانُ أمَّةٍ صالحةٍ، أو إحلال عذاب على أمَّة طالحةٍ كافرة.

فالله سبحانه وتعالى، يكون سَمْعَ عبده من هؤلاء المصطفَين وبصرَه، ويكون لسانَه الذي إذا لفظَ «كُنْ».. كان ما يشاء، بمشيئة ربِّه..

وهو لا يتخلَّى عن حجَّتِه والدليلِ عليه، ولا يتركه دون حَصانةِ «كُنْ» التي هي من شأنه وحدَه، والتي لا تفعل فعلَها على يد عبده إلاَّ بإرادته.. وإلاَّ، فإن آلَ الله يصيرون عاديِّين، عاجزين عن إثبات دعوتهم التي تحتاج ـ دائماً ـ إلى برهان ـ معجزٍ يكون من آيات «كُن»..

إنَّ لموظَّف الدولة حَصانتَه الخاصَّة، وللعامل في المؤسَّسة كرامته التي هي من

كرامتها، بل للحاجب على باب الوزير احترامٌ ينبع من احترام الوزارة ويمنع الآخرين عن التعدِّي عليه... ثم لا يكون سفيرُ الله ذا حَصانة؟!. ولا يكون محلَّ عنايته ورعايته.. لئلا يَبطل أمرُه؟!!

وهل من المعقول أن لا يجعله سبحانه بمرصدٍ منه في كل مقامٍ ومَقعد؟!!

بلَى، ولا جَرَمَ أن يكون عينَ الله الساهرةَ في خَلْقه، ولسانَه الناطقَ بأمره، ويدَه الباطشةَ حين غضبه، وإرادتَه المطلقةَ التي تستطيع أن تقول للشيء: «كُنْ» - فيكون بأمره عزَّ وعلا.

ومن غير المعقول أن يَخذل الله تعالى عبدَه إذا هجم عليه الكفرُ والمكرُ ليردَّا كلمةَ الله ويُطفئا نورَه، كما أن الدولة لا تسكت عن مجرم اعتدى على موظَّفٍ عندها أثناء القيام بوظيفته لخدمتها..

فَمِنْ عجائب انتداب السماء فَتًى سفيراً لها، أنَّه:

كان يحيى بن أكثم قاضيَ القصر، وفي منصب شيخِ فقهاء العصر، يوم كان إمامُنا عليه السلام في التاسعة من عُمره. وكانت له معه مناظرات فقهيَّة ظهر فيها أمرُ الله وهم كارهون، ونصرّ عبدَه وخسرَ عندها الْمُبطِلون، وأخزى الله أعداء أهل البيت النبويِّ في مجالس الخليفة والعلماء والوزراء والأمراء والأعيان.. فعرف الخليفةُ الحقَّ كما عرفه قاضيه والأعوانُ قبل غيرهم - كما سترى ذلك في موضوع تالٍ - فشرِقوا بريقهم واجترضوا غُصصاً بقيتْ في لَهَواتهم.. وظلُّوا ضائعين في حُبِ الدُّنيا، وضلُّوا ضلالاً مُبيناً..

•

وفي الحديث الشريف أنَّ «مَن أطاع الله أربعين يوماً، تفجرَّت ينابيع الحكمة من قلبه». فكيف بمَن فطَره الله سبحانه على الطاعة، فخُلق مطيعاً، ونشأ ونما مطيعاً، ثم دَبَّ ودرج وكبر طاهراً مطهَّراً بنَص القرآن الذي هو من كلام الرحمان؟!.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ - أَهْلَ الْبَيْتِ - وَيُطَهِّرَكُمْ

نَطْهِيراً﴾[1] فبرز في الآية الكريمة معنى المشيئة السابقة بلفظة «يُرِيدُ» وتأكَّدت إرادتُه سبحانه بلفظة «إنَّ».. فكان أهلُ البيت عليهم السلام مطهَّرين من عند ربِّهم، بإرادته المؤكدة في كتابه الكريم..

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الكريمة: ﴿..يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ..﴾[2]:

«يكاد العلْم يَخرج من فم العالِم من آل محمدٍ قبلَ أنْ يَنطق به.
وقال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ..﴾[2] معناه: الإمامُ على إثر الإمام»[3].

فلا عَجب أن يكون الإمامُ الجواد عليه السلام قد أُوتيَ العلم صبيّاً.. وأنه إمامٌ مفترَضُ الطاعة، «مكلّفٌ» ـ منذ صغَره ـ بأن ينفيَ عن هذا الدِّين تحريفَ الضالِّين، وقولَ المبطِلين، كيلا تَضعفَ نبتةُ الإسلام الوارفة، ولئلاَّ يَجفَّ نُسْغُها، وليهزَّ أغصانَها فيتناثر الورقُ الضعيفُ، وليرويَ جذورها بما يثبِّت أركانَ الإسلام وأصولَه، ليستمرَّ اخضرارُ دَوحة الدِّين كما شاء ربُّ العالَمين.

وهو كآبائه عليهم السلام، المرصودين لإصلاح ما فسد، وتقويمِ ما اعوجَّ؛ يراقبون الحقِّ ولا يُمارون في الدِّين، ولا يمالئون الحاكمين، ولا يسايرون السلاطين الظالمين، ولا يخشَون إلاَّ الله.. فيُنكرون الباطلَ ـ باللسان وباليد ـ فلا يَثبت أمامَ حُججهم قول مُتَفَيْهِقٍ، ولا فأفأةُ متفلسفٍ مُتَعَيْلِمٍ، لأنهم يَنطقون بحُكم الله من فوق سبع سماوات..

•

فانظر إلى أحد مجالس حُكمه عليه السلام:

قد «قُطع الطريق بجلولاء على السابلة ـ أي المارّين ـ من الْحُجاج وغيرهم، وانقطع حبلُ الأمن في المنطقة. فبلغ الخبرُ «المعتصم» أيام خلافته، فكتب إلى

(١) الأحزاب ـ ٢٣.
(٢) النور ـ ٣٥.
(٣) بحار الأنوار ج١٦ ص٣٥٦ ومعاني الأخبار: التوحيد: ٩ :١٤٨ وتوحيد الصدوق ص١٥٨.

العامل الذي كان له بها: تَأمن الطريق بأمر أمير المؤمنين. وإن أنت ظفرت بالْقُطَّاع ـ اللصوص ـ فابعث بهم إلينا، وإلاَّ تُضرب ألف سوطٍ، ثم تُصلب بحيث قُطع الطريق.

وطلبَهم العاملُ بجدٍّ فظفر بهم. فكتب إلى المعتصم الذي جمع الفقهاء وسأل ابن أبي دؤاد، ثم سأل الآخَرين عن الحُكم فيهم ـ والإمامُ أبو جعفر، محمد بن عليٍّ الرِّضا عليه السلام حاضر ـ:

فقالوا: قد سبق حُكم الله فيهم في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً، أَنْ يُقَتَّلوا، أَوْ يُصَلَّبُوا، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾[1] ـ ولأمير المؤمنين أن يحكم بأيِّ ذلك شاء.

فالتفت المعتصم إلى الإمام عليه السلام، فقال: ما تقول فيما أجابوا؟.

فقال عليه السلام: قد تكلَّم هؤلاء الفقهاء والقاضي، بما سمعَ أميرُ المؤمنين.

قال المعتصم: وأخبرْني بما عندك.

فقال عليه السلام: إنَّهم قد أضلُّوا فيما أفتَوا به. والذي يجب:

أن ينظر أمير المؤمنين في هؤلاء الذين قطعوا الطريق، فإن كانوا أخافوا السبيلَ فقط، ولم يقتلوا أحداً، ولم يأخذوا مالاً، بإيداعهم الحبس، فإنَّ ذلك معنى نَفْيِهم من الأرض بإخافتهم السبيل.

وإن كانوا أخافوا السبيلَ، وقتلوا النفسَ، وأخذوا المالَ، أمرَ بقطع أيديهم وأرجلهم من خِلافٍ، وصلَبهم بعد ذلك.

فكتب المعتصم إلى عامله بأن يمثِّل ذلك فيهم»[2].

ونحن نتساءل: لِمَ كان الخليفة ـ كلُّ خليفةٍ ـ لا يَحكم بُحكم قضاة قصره وفقهائه، قبلَ أن يَسمع رأيَ إمام زمانه؟!

---

(١) المائدة ـ ٣٣.

(٢) حلية الأبرار ج ٢ ص٤١٧-٤١٨.

ولِمَ كان لا يَعمل إلاَّ بحُكم الإمام دون أحكام قُضاة قصره وفقهائه، ودون أن يَعبأ برأي أحدٍ من الناس؟!.

ومع ذلك، فما من خليفةٍ إلا احتبس إمام زمانه في مكان إقامةٍ جبريَّةٍ، وربَّما حملَه إلى عاصمة مُلكه متى شاء!. ثم قتلَهُ متى أراد!.

فهل كان يحترمه ويُجِلُّه، أم كان يخافه فيُقصيه مرةً ويُقَرِّبُه مـرةً أخـرى.. أم كان يحسب حساباً لبقية الناس؟!!.

لا هذا، ولا ذاك، يصحُّ أن يكون جواباً.

وإنما الجوابُ: أنه كان لا يحكم بغير حُكم الإمام لأنه ـ وحدَه ـ يعرف الحُكمَ الحقّ، باعتراف وليّه وعدوّه.. وأَنَّ الخليفة الحاكم كان يخشاه أكثر ما يخشى من الناس، فيُطلقه مرةً خوفاً من الله، ويحتبسه ـ أو يقتله ـ مرةً أخرى خوفاً على مُلكه.

فلا تُمارِ بحاكمٍ مراءً حَسناً..
ولا تَنْفَس على الإمام بما هو فيه!.
لأنك تُخطئ في الحالَين..

•

هُوَ حُجَّةُ اللّه..
.. مُنْذُ الصِّغَر

•

قد ثبتَ نَصُّ أبيه عليه بقول الأعلام الثقات الكثيرين الذين منهم: عمَّه عليُّ بنُ جعفر الصادق، وصفوانُ بنُ يحي، ومعمر بنُ خلاَّد، وابنُ أبي نصر البيزنطي، والحسينُ بنُ يسار، والحسنُ بنُ الجهم، وأبـو يحي الصنعـاني، ويحي بـنُ حبيـب الزيات، وغيرهم[1]..

وكان إمامُنا هذا عليه السلام، أقصرَ حُجج الله في أرضه عُمْراً.. إذ عاش خمساً وعشرين سنةً فقط!.

وقام بأعباء الإمامة حوالَي سبع عشرة سنةً.

فحياتُه ـ سلامُ الله عليه ـ تُقاس عرضاً وسَعَةً.. لا طولاً وامتدادَ عُمر.. حتى أنه لو قِيسَ عمرُه بمدة إمامته، لَجاءت النسبةُ عكساً لا طرداً.

فما الحكمةُ في أن يكون ـ مع قِصَرِ حياته ـ طويلَ عهدِ الإمامة؟!!

•

لا يَستولينَّ عليك التفكير.. ولا يأخذنَّ بك العَجب.. ولا تذهبنَّ بك المذاهبُ في البحث عن الجواب، فهو قريبُ الْمَنال.

فالإمامُ الجوادُ عليه السلام جاء معدّاً لأن يكون في «عصرٍ ذهبيٍّ» كان بِكْراً في العصور الإسلاميَّة،

---

(١) أنظر مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٠ وأكثر مصادر كتابنا.

فرصدَه الله تبارك وتعالى لأن يكون بِكْراً في الأئمة،

لتظهرَ «الإمامةُ» في خصبها الربَّانيِّ المبكِّر الذي لا يخضع لسنَّة العلم، والتجارب، والمكتسبات..

فقدَّمه الله سبحانه لذلك العصر المتقدِّم المدارك.. إماماً معطاءً، «متقدمةً» مَخايلُ إمامته على السنِّ المعقول.. متفوقاً على أرباب العلم والفهم في عصره، قبل أن يَطرَّ شارباه.

ليكون «صبيّاً» عجيباً.. يقف «الشيوخ» بين يدَيه مؤدَّبين، باخعين لغزير عِلْمِه،

و«غلاماً» زكيّاً.. يطأطئُ العلماءُ، والفقهاء، وأربابُ المعرفة، رؤوسَهم خضوعاً لقوله.. سواء في ذلك المؤمن به منهم، والجاحدُ به، بل المسلمُ والملحِد، والأميرُ الخطيرُ، والسُّوقةُ والوزير.. إذ تعنو وجوهُ الكلِّ.. لمعجزة السماء تنثالُ على لسان غلامٍ آتاه الله تعالى الحكمةَ من غير أن يرتادَ معهدَ تدريسٍ، أو جامعةَ تفقيهٍ، أو مجلسَ بحثٍ ونقاش وعلم.

فيرى أهلُ عصره إمامةً «ذهبيَّة» الشكل والإخراج.. كعصرهم «الذهبيِّ».. قد فجأتْهم لتتربَّعَ على عرش بُرجها العاجي... فصعُبت فلسفتُها على أرباب العرش الأرضيِّ وأصحاب الْعَنعنةِ والشَّنشنة.. وورَمتْ منها أنوف الحاكمين، لأنها «إمامةٌ» تحدٍّ لأنوف المستكبرين من المتسلِّطين!.

فكانت إمامتُه كعصره سواءً بسواء ازدهاراً سماوياً، زيَّف ازدهاراً أرضيّاً متزندقاً.. وكلمةَ حقٍّ تُرِي كيف تكفخ كلمةُ السماء العليا، كلامَ المتفيهقين والمتزندقين!.

•

لقد عاش الإمامُ الصادق عليه السلام حوالَي ستٍّ وستِّين سنةً ـ وجعله الله تعالى أَمَدَّ أئمة أهل البيت عليهم السلام عُمراً ـ لغاية ربَّانية اقتضتها حكمتُه سبحانه، فأكمل تأثيل العقدة وبيَّن الأحكام، وعُدَّ هو وأبوه عليهما السلام مُؤَسِّسَيِ المذهب، وصاحبَي أول مدرسةٍ إسلاميةٍ بمعنى المدرسة الجامعيَّة العليا.

وكذلك عاش أبوه ـ الباقر عليه السلام ـ سبعاً وخمسين سنةً، فمهَّد لتلك المدرسة في فترة «السكوت السياسيِّ الجزئي» تمهيداً عمليّاً حيث وضع الأساس، ورفع القواعد، وأَرسى البناء وأقام مجلساً علميّاً حافلاً استقطب روّاد العلم.. ثم تربَّع على دَسته ـ من بعده ـ ابنُه الذي ملأ علمُه ـ وعلمُ أبيه ـ ما بين الخافقَين، حتى أنك لا تجد بين فقهاء عصرَيهما إلاَّ مَن يقول: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول، أو: قال أبو عبدالله عليه السلام!.

ومع ذلك فإن ولاية الإمام الباقر عليه السلام، كانت تسعَ عشرةَ سنة، رغمَ كونه مقيَّضاً لمثل عمله التأسيسيِّ الجبَّار.. ولم تبلغ مدة ولايته إلاَّ أقلَّ من ثُلث عُمره الشريف.

ثم كانت ولايةُ ابنه الإمام الصادق عليه السلام أربعاً وثلاثين سنةً، لأنه كان مُعَدّاً لأمر عظيمٍ، وعملٍ جليلٍ طويلٍ.. ولم تتجاوز مدةُ ولايته نصفَ عُمره الكريم.

فَلِمَ كانت ولايةُ الإمام الجواد ـ الشاب ـ عليه السلام، سبعَ عشرةَ سنةً.. وبلَغت ثُلَثَي عُمره بالضَّبط، مع تكليفه المبكِّر الذي حمّلَه للمسؤولية الكبرى طريَّ العود، في مُزْدَهَرِ العهود؟!!

وما هي حكمةُ السماء في ذلك؟!!

•

إمامُنا الجواد عليه السلام كان ـ منذ كان في علم الله عزَّ وجلَّ ـ تحدّياً صارخاً في وجه الْمُلحدين، ووصمةً في جبين المتأَسلِمين.

وصفعةً شديدةً لجهل فقهاء الدِّين،

وإنذاراً صريحاً فصيحاً للمتسلِّطين الحاكمين باسم الدين!.

وكان ـ إلى جانب ذلك ـ أُعجوبةً ـ معجزةً، لسائر العارفين.. وآيةً للعالَمين.

بدليلِ أنه وعدَ به أبوهُ قبل أن يكون،

فكان،

وكان كما وعد!.

وبدليلِ أنه لمّا جعله الله سبحانه إماماً منذ طفولته،

بَرهنَ على أنه إمامٌ.. ذو آياتٍ بيِّنات!.

وبدليلِ أنه تكلَّم في المهد،

وقرأ رسائلَ أبيه وهو في عامه الأول ـ في الْقِماط!. ـ ومَن كان في مثل ذلك الْعُمر لا يُحسن الجلوس ولا المشيَ، بَلْهَ الكلامِ، والقراءة، والكتابة.

وعمل بما كان يأمره به أبوه[1] من أعمال الكبار، فبهر الأنظارَ طفلاً بمعنى الطِّفل!.

وكان سَيِّدَ مشيخة بَني هاشم بلا منازع.. والإمامَ ـ المعجزة، والآيةَ البيِّنة المدهشة!.

ومع ذلك نبقى نقول:

نعم، ولكن لماذا جعله الله سبحانه موضع هذه التساؤلات.. ثم حُمِّل أعباء الإمامة مبكِّراً؟!..

ولِمَ كانت له هذه المدةُ الطويلةُ من الولاية، مع هذا الْعُمر المحدود؟!!

وماذا عملَ أثناءَها؟.

وماذا أعطى؟.

وما الغاية الجوهرية من ولايةٍ بدأت من عهد الطفوليَّة.. وانتهت في بُدُوِّ الشباب؟!!

•

إنه ـ أولاً بالذات ـ قد سربلَه الله عزَّ وجلَّ بسربالها منذ الصِّغَر، لأنه سبقَ في عِلْمِه تعالى أن «سلطان الزمان» سيغتال أباه في عصرٍ سمَّاه أهلُه «عصر الازدهار» العلميِّ والفلسفيِّ والكلاميّ، فبعثه سبحانه يومَها لتأتيَ «وظيفتُه» وفِاقاً مع مستوى

---

(١) أنظر إثبات الهداة ج ٦ ص ١٨٤ وغيره من المصادر، وقد أثبتنا حوادث له عليه السلام في كتابنا هذا، تُثبت ذلك.

أهل ذلك العصر، بل متفوّقةً عليهم بتحدٍّ وإعجاز!.

فاشتدَّت بذلك قلوبُ آل الله من المؤمنين من جهة،

ووقف إعجازُه الباهرُ في وجه التيّار الظالم الهادرِ.. من جهةٍ ثانية،

وكان نَيْقَدَ «ذَهَبِهم العصريِّ» وفضَّاحَ عُملتهم الزائفة.. من جهةٍ ثالثة،

واشتقَّ أمامه طريقَ العطاء.. فبيَّن المتشابه، وأوضح المبهَم، وقرَّر الحلالَ والحرام..

وأظهر بُطلان أمرِ حُكَّام الإسلام، في تلك الأيام.. من جهة أخيرة!.

إلى جانب أنه بَهَتَ فقهاءَ السوء، والمُفتين بغير ما أنزل الله، منذ كان حليبُ الرضاعة منعقِداً على شفتَيه الكريمتين.. وفي فترةٍ كَثُرَ فيها الكلام والتعليل، وضاع الأنام في التحليل، وخاضت عقول الْفُحول فيما كان يُبعدها عن الإيمان، بسفسطائيَّة مضلِّلة.

وثبتَ لتيّارات الضلال، والانحراف، والإلحاد - كما ترى في سيرته طيَّ هذه الفصول - يتحدّاها تحدِّيَ الرُّسل وحَمَلَة الدعوات.

فألجمَ الْمُهَمْلِجين وأشرقَهم بِريقهم،

وكَمَّ أفواه الذين رَكبوا رؤوسهم عناداً،

وألْقَمَ خصوم الدِّين حجراً، في سائر مجالسه وأمكنة وجوده،

وكان مباهِلاً فذّاً.. يضرب بسيف الحقِّ.. وينطق بالصواب، ويحكم بالسنَّة والكتاب،

فظهر إمامَ حقٍّ.. مع الحقِّ.. والحقّ معه.. تماماً كجدِّه أمير المؤمنين وكآبائه الطاهرين صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين..

وكان «حجةً» على الناس، يطالَبون بها يومَ الدِّين..

كما كان «كلمةَ عدلٍ» في مجالس الظالمين.. من مبدأ عُمرِه إلى منتهى أمرِه.

•

وكلمةُ العدل عند الحاكم الجائر جهاد.

بل إنها أصعبُ الجهاد، وأعظمُ الجهاد..

وإعلان الرأي ـ المخالِف للحُكم الغاشم ـ في قَصْرِ خليفة الزمان، ومِن على عرش الأمة.. هو خيرُ برهانٍ على ذلك.

وممّا لا شك فيه أن أولَ واجبات النبيِّ، والوصيِّ، الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكَر، والدعوةُ إلى الله تعالى، وجهادُ أعدائه.. بدءاً برؤوس الضلال، كما فعل إبراهيم مع النمرود، وموسى مع فرعون، وعيسى مع باطس.. وكما فعل محمدٌ صلّى الله عليه وعليهم جميعاً، مع جبابرة قريش، وعُتاة الجاهلية، وملوك العالَم.

فعلى هذا الأساس:

لِننظرْ فيما فرضه الله عزَّ وجلَّ على إمامنا الجواد عليه السلام من الجهاد، لنعرفَ أنه هل وَلِيَ خلافة رسول الله ﷺ على تركته الضخمة الفخمة، وقام بالعبء، أم لا؟. ولْننظر كيف تصرّف غلاماً، فيافعاً، ففتًى فشابّاً، وماذا فعل؟.

وما هي حصيلة عهد ولايةٍ طويلٍ، مع عُمرٍ قصيرٍ، وفي وقتٍ كان فيه قتلُ الهاشميِّ ـ على الهويّة! ـ أمراً مستساغاً لدى الحكّام.. لا يثور له أهل الإسلام.. بل كان قتلُ الواحد منهم أقربَ إليه من لمح البصر.. وبفتوى بعض فقهاء سلاطين الإسلام الحاكمين باسم خُلفاء جدِّ بني هاشم: ـ رسول الله ﷺ ـ؟!.

•

إن وظيفة الإمام ـ كلِّ إمام ـ تتلخّص ـ مبدئيًّا ـ في كشف «باطل» أهل عصره بكلمة «الحق» التي يحملها، وبيان «ظلمهم» وتعدّياتهم على حدود ما أنزل الله، بالحكم الحق الذي يلفظه، لئلاَّ يكونَ لهم حجةٌ في باطلهم وظلمهم وجهلهم.

والدعوةُ إلى الله ليس سهلاً أمرُها..

ولا هي كلمةٌ تُقال، وللسامع أن يقنع أو أن يرفض.. ثم لا بأس على قائلها بعد أن أمرَ بالمعروف ونهى عن المنكَر، وبلّغ للناس ما يحملُه لهم من نُصح.

لا، بل هي ثقيلٌ حَمْلُها.. لأنها يجب أن تواكبَها حجةٌ قاطعةٌ، وبراهينُ ساطعة..

وعلى حاملها أن يَثبتَ أمامَ طواغيت زمانه.. وأن يَبدههم بالحقّ، ولا «يفرَّ فرارَ العبيد، ولا يعطيَ يدَه إعطاءَ الذليل» لأن النبيَّ حين «شرّع» والوصيَّ حين «يرسّخ ويبيّن» يكثُر من حولها المنافقون.. بل يردُّ على الله الرادُّون.. ولا يجوز لها إخلاءُ الساحِ قبل إلقاء الحجة الدامغة التي تهدي قلوب المؤمنين، ويفرُّ من دربها الكافر بيوم الدين.. ثم ـ بعدها ـ ﴿لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ، إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1].

وهذا كلُّه من الجهاد بكلمة الحق..

أمَّا الجهاد ـ بالسيف ـ فلا يكون إلاَّ وفق موازينَ شرعيةٍ سماويَّة.. إذ ليس كلُّ قتالٍ للعدوِّ جهاداً.

بَلْ مِنَ الجهاد ما يكون دون قتال.

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبةٍ له يصف بها النبيَّ ﷺ، حين ذكرَ الإمام:

«... إنه ليس على الإمام إلاَّ ما حُمِّلَ من أمر ربِّه، إلاَّ البلاغ في الموعظة، والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسنَّة، وإقامة الحدود على مستحقيها وإصدار السُّهمان على أهلها..»[1].

وقد قال الإمامُ الصادقُ عليه السلام لعبد الملك بن عمرو:

«يا عبد الملك، مالي لا أراك تخرج إلى هذه المواضع التي يخرج إليها أهلُ بلادكُ.

قال: وأين؟.

قال عليه السلام: جدَّة، وعبادان، والْمُصَّيصة، وقزوين. ـ أي إلى الأمكنة التي فيها مرابطون مسلمون..

فقال: انتظاراً لأمركم والاقتداءِ بكم.

فقال عليه السلام: إيْ والله ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[2].

قال: إنَّهم يقولون: ليس بيننا وبين جعفر خلافٌ إلاَّ أنه لا يرى الجهاد.

---

(١) المائدة ـ ١٠٥. وانظر المصادر اللاحقة.

(٢) الأحقاف ـ ١١.

فقال عليه السلام: أنا لا أراه؟. بَلَى واللهِ لأَراه. ولكنّي أكرهُ أن أَدَعَ عِلْمِي إلى جَهلهم»[1].

فهو عليه السلام يعرف مَواطن الجهاد.. ولا يرى وجوبَه إلاَّ في مَواطنِه.

وقد قال النبيُّ ﷺ لعليٍّ عليه السلام في وصيَّةٍ له:

«يا عليُّ، إنَّ إزالةَ الجبال الرَّواسي، أهونُ من إزالة مُلْكٍ لم تنقضِ أيامُه»[2].

فالتصدِّي للمُلك الظالم لا يُجدي فتيلاً، إذا لم يقدِّر الله تعالى انقضاءَه.. ولا شأن للعباد بتغيير ما سبق القضاءُ فيه.. وما عليهم إلا انتظار مشيئته سبحانه بتغيير الحال من غير أن يُعينوا ظالماً في ظُلمه.

وعن أبي الحسن العبيديِّ أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ما كان عبدٌ ليحبس نفسه على الله، إلاَّ أدخلَه الله الجنَّة»[2].

وحبسُ النفس عليه تعالى يكون بالمرابطة في الثغور، أو بنصر أولياء الله المنتظرين لأمر الله.

وأمرُ الله هو الأحرَى بأن يُطاع.. وقَدَرُه هو الأجدرُ بأن يمضي.

وبذلك يسقط جهادُ أهل البغي مع قلة الأعوان، لأن مَن يُشْهِرْ سيفه وحيداً بوجههم، يكن كمن ألقى بنفسه إلى التهلكة.

قال الهيثم بن عبد الله الرماني: «سألتُ عليَّ بنَ موسى الرِّضا عليه السلام، فقلتُ له:

يا ابن رسول الله، أَخبِرْني عن عليٍّ بنِ أبي طالب عليه السلام، لِمَ لَمْ يجاهد أعداءَه خمساً وعشرين سنةً بعد رسول الله ﷺ، ثم جاهدَ في أيام ولايته؟.

فقال: لأنه اقتدَى برسول الله ﷺ، في تركِ جهاد المشركين بمكة ـ بعد النبوَّة ـ ثلاثَ عشرةَ سنة، وبالمدينة تسعةَ عشرَ شهراً، وذلك لقلَّة أعوانه عليهم.

وكذلك عليٌّ عليه السلام تركَ مجاهدة أعدائه لقلَّة أعوانه عليهم.

---

(١) الوسائل م ١١ ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق، نفس المجلد ص ٣٨.

فلمّا لم تَبْطُلْ نبوَّةُ رسول الله ﷺ مع تركه الجهادَ ثلاثَ عشرةَ سنـةً، وتسعـةَ عشرَ شهراً، فكذلك لم تَبْطُلْ إمامةُ عليٍّ عليه السلام مع تركه للجهاد خمساً وعشرين سنةً إذ كانت العلَّة المانعة لهما واحدة»[1].

أما الإمام الصادق عليه السلام فقد أجاب أصحابه على مثل هذا السؤال بقوله:

«لِلَّذي سبقَ في علمِ الله أن يكون. وما كان له أن يقاتلهم وليس معه إلاَّ ثلاثةُ رهطٍ من المؤمنين»[2].

فتأمَّلْ سموَّ مرتبة الإيمان، حين ترى أن علياً عليه السلام لم يكن معه إلاَّ ثلاثة أشخاصٍ يومَ وفاة الرَّسول ﷺ بلَغوا مرتبة الإيمان!. وحينئذٍ تَعلم أن إيمانَنا فَطير.

ورُوي مثلُ هذا الجواب بعَينه عن إمامنا أبي جعفر عليه السلام، في تفسير العياشي.

وقال الإمامُ الكاظم عليه السلام لصاحبٍ له ـ في حديثٍ ـ:

«.. فعليٌّ لم يجدْ فئةً، ولو وجدَ فئةً لَقَاتَل»[2].

أضف إلى كلِّ ذلك أن أهلَ الحقِّ لا يبدأون بقتالٍ قبل الإعذار والإنذار، وقبل أن يقاتلَهم أهلُ البغي. فما قولك بمن يرفع سيفاً في وجه موحِّدٍ يُقِرُّ بالشهادتَين؟!.

وممَّا أوصى به أميرُ المؤمنين عليه السلام أصحابَه، قولُه:

«لا تُقاتِلوا القومَ حتى يبدأوكم، فإنكم بحمد الله على حجَّة. وتركُكُمْ إيَّاهم حتى يبدأوكم حجةٌ أُخرى لكم»[2].

فهذه هي الخطَّة التي وضعهاَ للنبيُّ ﷺ ـ ومَن تأخَّر عنه من أهل بيته عليهم السلام ـ لكيفية جهاد الأعداء، ولحلول وقت وجوب الجهاد وعدمِ المناص منه. وهؤلاء هم صفوةُ الْخَلق الذين اختارهم الله من بريَّته لِيُقيموا أمرَه، وليدورَ عملُهم ـ دائماً ـ في فَلَكِ إرادته ومرضاته.

---

(١) المصدر السابق، نفس المجلد ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق، نفس المجلد ص ٦٧ وص ٦٩.

فهل كان على إمامنا الجواد عليه السلام، أن يجاهد حاكماً يراه ظالماً، والناسُ يَرون ذلك الظالـمَ « محسناً » للإمام: يحترمُه، ويُجلّه، ويتفدّاه، ويجلس بين يدَيه بخضوع واحتشام، بل يقرِّبُه ويُدْنِيه.. حتى يزوِّجه ببنته ـ الأميرة ـ كما جرى لإمامنا هذا، ولأبيه، عليهما السلام؟!!

قد قُرِّب الإمام الرِّضا عليه السلام ـ على أعين الناس ـ فَرُفع إلى « تقليد » ولاية العهد، بعد المصاهرة ـ الغادرة!.

وصار ابنُه ـ الجوادُ عليه السلام ـ المقرَّبَ، الأثير، الْمُحاطَ بِحَفاوة« الأمير ».. حتى أنه زُوِّجَ قبل البلوغ!. ونُثرتْ في عُرسه بِدَرُ الجواهر الثمينة، وكان عُرْسُه فرحةَ « القصر » الكبرى!. وسترى تفصيل ذلك.

ورأيُ الناس أن أيَّ إنسانٍ لا يُسيءُ إلى مَن أحسنَ إليه.. ولو كان إحسانُه « ظاهراً ».

فكيف بالإمام الذي يرى ما الناسُ عليه من رأيٍ بتوقير الخليفة له، وبتقريبه والإحسان إليه؟.

هذا وإن الوقت لم يكن ليسمح بإعلان كلمةٍ، فضلاً عن إعلان ثورة... فالسيوفُ مُشْرَعةٌ، والأمرُ مستوثـقٌ للحُكم، وطلاَّبُ الدُّنيا حاضرون لتفشيل كـلِّ حقٍّ وتخسير كلِّ مُطالِبٍ به، لأنهم يتمرَّغون في لذائذها، ويتقلَّبون في نعيمها، وهم يبذلون أقصى ما عندهم للاستمساك بها ولو أدَّى ذلك إلى قتل نبيٍّ مرسَل!.

فمَن تحرَّك يومئذ أُصيبت دعوتُه في الصميم.. والأمثلة الشاهدة كثيرةٌ من حول الإمام عليه السلام وحوالَيه.. وهو وشيعتُه كانوا يواجهون شرّاً مستحكماً وظلماً متحكِّماً، وسيوفاً مُسْلَطةً.. وقلوباً لم يَلِجْ شِغَافَها الإيمان!.

وهل يصدِّق الإمامَ أحدٌ، إذا أَطلَعه على ما في « دَخيلة » ذلك « الْمُحسن » إليه؟!.

وهل ينصره أكثر من ثلاثة رهطٍ.. ويكون القتلُ مصيرَهم المحتَّم؟!.

والإحسان الذي كان « يظهر » للناس كان إحساناً كبيراً.. بل كان مبالغةً في

الإحسان.. في حين أنه لا يَعلم خلفيَّاتهِ سوى الإمامِ عليه السلام.. أو مَن دلَّه الإمام على تلك الخلفيَّات.

•

هذا، وإن عهد الجواد عليه السلام، الذي امتدَّ خمساً وعشرين سنةً، قد حَفِلَ بأحداثٍ سياسيةٍ هامَّةٍ كانت كَسِلك الْخرَز الذي انقطعَ خيطُه فانفرطتْ حبَّاته يَتْبع بعضُها بعضاً.

فقد أبصر النور في جوٍّ مكفهرٍّ بِسُحبٍ من الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون انجلتْ عن البيعة للمأمون بعد هِناتٍ وهنات.

وتلا ذلك سلسلةٌ من الأحداث والفتن: كخروج أبي السرايا، وابنِ طباطبا، وقومٍ من العلويِّين.

ووقع قتلُ الفضل بن سهلٍ وما تلاه من أزمات.

وتُوفِّي الإمام الرِّضا عليه السلام في غموضٍ فتحَ باب التُّهم، وأحدثَ غلياناً.

وخرجَ إبراهيم بن المهدي، وغزا المأمونُ الرومَ، وتُوفِّي، وتولَّى المعتصم، وحُبس أحمدُ بنُ حنبل وجُلد بأمر المعتصم ذاته، وهربَ محمد بن القاسم العلويُّ... وضَعُفَ - إلى ذلك - الوازعُ الدينيُّ فطغت الخلافاتُ الجاهلية القديمة وعملتْ على تفريق الأمَّة إلى سُنَّةٍ وشيعةٍ وأشاعرة، وخوارجَ، وأمويِّين، وزيديِّين، وعباسيِّين، ومتوقِّفةٍ، ومعتزلةٍ ومرجئة.. فتمادَى الخلافُ وتعمَّق بين تلك الْفِرَق، وانحسرَ الْمَدُّ الإسلاميُّ بعد أن كان قد امتدَّ وسيطر على العالم الشاسع المعروف آنذاك.. ثم غاب عن ذهن المسلمين - عامةً - أمرُ الله تعالى الذي لو اتَّبعوه ورجَعوا في الأمور ﴿إِلَى الرَّسُولِ، وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ، لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[1] وَلأَرشدَهم أُولو الأمر إلى كتاب الله الذي الْتهَوْا عنه بالقشور ولَهوا عن اللُّب، فاختلفوا في «قِدَمِ» القرآن و«خَلْقِهِ» ومَضوا في نزاعاتٍ جانبيَّةٍ حادتْ بهم عن روح الدِّين القويم، فجرَّ الشيطانُ أكثرَهم بشعرة معاوية التي ربطَهم بها، ولو أنَّهم

---

(١) النساء - ٨٣.

قطعوها ـ يومئذ ـ لا نقطع النزاع واجتمعت الكلمة على الخير.

ولم نذكر هذه الأمور إلاَّ لنبيِّن أن إمامنا عليه السلام فتح عينَيه على أُمَّةِ جدِّه تتذابح فيما بينها، وتتنازعُ السلطانَ، والمناصب، والشُّهرة الفارغة.. بغضبٍ كغضبِ الخيلِ على اللُّجم!. «فانتصب» ـ سلامُ الله عليه ـ طريَّ العود.. حافظَ العهود في بيان الأحكام وترجمة الوحيِ من السنَّة والقرآن.. تماماً كما «انتصب» جدُّه أميرُ المؤمنين عليه السلام حين نفض يدَيه من دفن النبيِّ ﷺ، وجلسَ للفُتيا في الدِّين ليُقيم شِرْعَةَ سيِّد المرسَلين، ولم يرفع سيفاً لاسترجاع حقِّه المستباح، لأن السيف ـ يومئذٍ ـ كان يمكن أن يذهب بالدِّين بِرُمَّته، فيفجع النبيَّ في أُمَّته.. ثم لا يكون أميرُ المؤمنين ـ ساعتئذٍ ـ وليَّ الله، ولا وصيَّ رسول الله الذي ربَّاه وجعلَه كِفَاءَ نفسه ـ إلاَّ أن هذا نبيٌّ، وهذا وصيٌّ ـ ليحفظ بيضة الإسلام وليرسِّخ العقيـدة في نفوسٍ قريبةِ العهد بالوثنيَّة والجاهلية.. ولذا، وضعَ عليه السلامُ الدِّين الجديدَ على الناس في كفَّة الميزان، والدُّنيا وما فيها من بهارج ومُغريات في الكفَّة الأخرى، فشالت كفَّةُ الدُّنيا، ورجحت كفَّة الدِّين الذي هو عليه «أمينٌ».. فتربَّع في المسجد الجامع، وفي مجالس «الخلفاء» يفتي المسلمين في حَلال دينهم وحَرامِـه، ويبيِّـن لهم حدود الله وأحكامَه.. وإن هو لم يفعل ذلك فما حفظ «الأمانة» ولا رعى «الوصاية» ولا أعطى لربِّه سبحانه حَقَّهُ حين مَنَحَهُ «الولاية» على العباد.

•

روَى جابرُ، عن أبي جعفر ـ الباقر ـ عليه السلام، أنه قال:

«أنْكِرُوا بقلوبكم، والْفُظوا بِأَلْسنتكم، وصُكُّوا بها جباهَهم، ولا تخافوا في الله لَومةَ لائم. فإنِ اتَّعظوا وإلى الحقِّ رجعوا فلا سبيل عليهم ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيرِ الْحَقِّ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.. هنالك فجاهدْهم»[1].

فهذا هو خط الأئمة الإلٓهيُّ الذي لا يتعدَّونه.

(١) الوسائل م ١١ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ والآية الكريمة في الشورى ـ ٤٢.

وقد أنكرَ إمامُنا بقلبه كثيراً،

وأنكرَ بلسانه أكثر،

وصكَّ بها جباههم أكثرَ وأكثر.. ولم يخفْ في الله لومة لائم.. وما عليه إنْ هم لم يتَّعظوا!.

وأنت ـ أيها القارىء ـ تتكامل في ذهنك صورةُ مواقفه في كلِّ المناسبات، وستتمُّ ـ عندك ـ واضحةً عندما تُلِمُّ بسائر خطوطها ومعالمها المبثوثة في مختلَف فصول هذا الكتاب، لترى أن هذا الامام الشابَّ قد أدَّى ما عليه كاملاً غير منقوص.

فإنه ـ عليه السلام ـ لم يَقم في محفل إلاَّ وكان سَيِّدَ المحفل الذي تتَّجه إليه الأنظارُ والأفكار.. يرَون القرآنَ والسنَّةَ يدوران على لسانه دوَران السِّوار في مِعصم الفتاة، ويسمعون حُكم الله ينثال من فمه انثيال بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ من أَلْسنة المصلِّين!.

وقد كان يحتج.. ويخالِف.. ويقضي، ويفلسِف حُكمه وقضاءه ببيان يبهر أهلَ الفأفأةً والتأْتأة ببيانٍ هاشميٍّ، وبرهانٍ قطعيٍّ وحجةٍ دامغة، وهو ـ بعدُ ـ أَمردُ لم يَبلغ الحُلم، والمشايخ من حوله تسدُّ لِحَاهم الآفاقَ وتَزحم المجلس!..

فإمامُنا ـ سلام الله عليه ـ لم يُرضِ مخلوقاً بسخط الخالق،

ولم يفعل إلاَّ ما هو الأَولى،

ولا يليق «بوارث» علْم الأوَّلين والآخرين، و«حامل» الدعوة إلى الله، إلاَّ أن يمثِّل دور «وريث» الدعوة السماويَّة، و«وصيِّ» محمد ﷺ على رسالته العظمى التي ينبغي أن تَدُومَ إلى أن ينطفىءَ قرصُ الشمس!.

•

وينقدح في الذهن حالاً أن الوريثَ الأمينَ ـ المستأمَنَ مِنَ الله في أرضه ـ يُفْتَرَض أن لا يهادِن ولا يرضى بالحلِّ الوسط، بل يفعل كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام بقتال الناكثين، والقاسطين، والمارقين، وكما فعل السِّبطان، عليهما السلام

حين رفعا صوتَ الحقِّ بوجه الباطل، أي أنه كان على الإمام الجواد عليه السلام أن يقف في وجه الظُّلم، لأنَّ ذلك من واجبه الْعَينيّ.

أجل، هذا حق. ولكنَّ الوقوفُ في وجه الظُّلم يكون باليد أو باللسان.

أمَّا اليدُ يومئذٍ فلم يكن من شأنها أن تعمل عملاً في عهد تلك الفوضى التي مررت بصورةٍ بَشِعَةٍ من صورها.. ومَن رفع سيفاً بيده ـ حينها ـ قُتل به.

وأمَّا اللسان فقد جلَّى يومئذٍ وفتنَ الألبابَ، وولج إلى القلوب وهزَّ النفوس، حتى أن هذا الإشكال ـ الذي كان سؤالاً ـ ينقلب إلى جواب منه وفيه، أمامَ فتًى أعزلَ، معزولٍ عن قواعده الشعبية، مغلولٍ بمظاهر احترامٍ مصطنَعةٍ لم تترك له إلاَّ نافذةً يخاطب منها المخالِفين، والخاذلين والمزورِّين.. ثم « لا يبالي بعدها بمن خالفَه إذا وافقه، ولا يحفل بمن خذلَه إذا وازره، ولا يكترث بمن ازورَّ عنه إذا ساعده » عملاً بقول جدِّه الأعظم ﷺ..

فقد أعلنَ كلمة الحقِّ بين الناس وحمَّلهم مسؤوليات المخالفة والخذلان والازورار..

ورغم ما كان عليه من حال « التطويق السلطاني » تَقاصرَ أيُّ أحدٍ ـ حتى السلطان ـ أن يحتويَ « كلمتَه » أو أنْ يَحُدَّ مِن حَولِه وطَولِه إذا سنحت فرصة « القول ـ الحق »!.

قد سدُّوا السُّبل بوجهه، وأوصدوا الأبواب، وحبسوه لَدْنَ العود في « قفص الزواج » وبكَّروا في خطب ودِّه، وجعلوه عريساً لأميرة القصر الأثيرة المتكبِّرة على الأمراء والوزراء، وأوطأوا نِعالَه بُسطَهم، وجَعلوا منه الشغلَ الشاغلَ لمقرَّبي القصر وأباعدِه ـ نساءً ورجالاً ـ ورُفع فوق الحكَّام والفقهاء والأمراء.. وكان جوهرة عِقد مجلس إمارة المؤمنين ودُرَّةَ تاج الْمُلك.. وهو عالـمٌ بسرائرهم، ومطَّلعٌ على ما في ضمائرهم.. عارفٌ بأن ذلك كلَّه شِباك قضبانٍ لقفصٍ ذهبيٍّ يعزلونه فيه عن قواعده وفاعلياته ويُبعدونه فيه عن ميدانه، ويحاولون إذابةَ شخصيَّتِه وصَهْرَها مع زُمرة المتسلِّطين.. على حقِّه!.

وكان ذلك كذلك.. ولذلك.

ولكنَّه.. لم يغبْ عنه شيءٌ من أمرهم.

وحين نُدرك نحن بعض هذه الجوانب، فما يكون شأنُ الإمام عليه السلام؛ وهو يعيشها، ولا تخفى عليه خافيةٌ ممَّا أدركناه، وممَّا غاب عنَّا عِلْمُه؟.

وكيف نُريده أن يتحرَّك لِيُظهرَ بوارَ ما هم فيه، وعليه؟.

قد عَمد ـ أولَ ما عمَد ـ إلى القيام بوظيفة «الوصيّ».

فاحتوى الحاكمَ الذي حاول احتواءه.

وذلك حين «جَهَّلَ» العالِم الذي تربَّع على كرسيِّ الفتوى في الدِّين، واستوى مكانَهُ فقيهَ العصر الذي خُلِقَ والفقهُ والعلم جزءانِ منه،

وحين نطق عن علمٍ علَّمه إيَّاه الله...

وحين كشف عمائمَ مكوَّرةً أعشاشاً للشياطين، ومزوَّرة لِنَيْلِ المال والجاه.

وحين كسَف هالة الرِّياء المشِعَّة من قفاطين رجال الحاشية والْمُشيرين،

وأخيراً.. حين سفَّه ما هم فيه، وعليه.. وكرَّس حُكم الله، وقدَّسَ القرآنَ وكرَّسَ السنَّة..

.. فظهر ـ للنَّابهين ـ أنه يهدم مُلْكاً بغير مِعول،

وَيَدُكُّ عرشاً غاشماً، بغير حسام،

وينتصر في معركة جهادٍ بدون سلاح؛ إذ استطاع أن يَنفض الغبار عن وجه الحقِّ ليبدوَ لألاءً بدون جَلَبة.. واستوت الغلَبَةُ لله تعالى على لسان خليفةٍ من خلفائه سبحانه على الأرض، لا ينطق عن الهوى.. ولا يخشى غائلة المكر والخِداع والقوى!.

•

وهكذا.. فإن بابَ القفص الذهبيِّ كان مفتوحاً للإمام عليه السلام، يُذيع منه كلمة الحق.. دون وجَل.

واعياً أنَّ جدَّه أمير المؤمنين عليه السلام كان قد قبع في زاوية مسجد رسول

الله ﷺ أياماً، ثلاثةً «ينشر كلمة الحق باللِّسان.. «وأياماً ثلاثةً» يُمليها بالسيف.. فكان بذلك حافظ الشريعة وحارس الرسالة..

وأنَّ نجله السِّبطَ المجتبى حاور أعداءه «يوماً» بالحكمة والموعظة الحسنة، ففضح باطلَهم وكشف عن وثنيَّة لَبسوا لها ثوبَ الإسلام.. فظهر حقُّه للأنام، وحفظ الدين وحَمَلةَ الإسلام.

وأنَّ أخاه السِّبطَ الشهيد ـ أرواحُنا فداه ـ قد وقف «يوماً، أو بعضَ يومٍ» في كربلاء، فأزهق الباطلَ وأخزاه خزياً أبديّاً.. وأطلق كلمة الحقِّ لتُدوِّيَ في أسماع الأجيال إلى يوم الدين.. وكان سيد شهداء العالمين في العالمين..

وكذلك وقف أبناءُ الحسين عليه وعليهم السلام ـ واحداً بعد واحدٍ ـ يُبَيِّنُونَ للناس ما أُسيء فهمُه من أوامر الله تعالى ليُعيدوا الحقَّ إلى نصابه.

... فقال الإمام الجواد عليه السلام ـ من بعدهم ـ كلمة الحقِّ التي كانت «زنةَ» سيفِ جدِّه ـ ذي الفقار ـ.

و«كفاءَ» صُلْحِ عمِّه الحسن عليه السلام،

و«ثِقْلَ» تضحية جدِّه أبي عبدالله، الحسين سلامُ الله عليه، عقيدةً، وجهراً بكلمة الله، ودعوةً للعدل في مجلس الظُّلم..

وكان المنتصرَ في معركة تاريخٍ اشْتُرِيَ وبِيعَ، وزُوِّرَ وحُرِّف..

فأفتى بما سنَّه الإسلام لمن «لبسوا الإسلامَ لُبْسَ الفروِ مقلوباً»!.

وإنَّ ضربة عليٍّ عليه السلام يومَ الخندق ـ التي توازي عملَ الثقلَين ـ.

هي كوثيقة صُلح الحسن التي وازت الإبقاءَ على الدِّين والمتديِّنين، يومَ لم يكن الحاكم من الإسلام لا في طينٍ ولا عجين،

وكثورة الحسين التي أَبْقَتْ على كلمة «لا إلَه إلاَّ الله» إلى يوم الدِّين،

وكدمعة زين العابدين على أبيه التي سالت ابتهالاتٍ تَعْمُرُ القلوب بها وتربطها بالمعبود العظيم،

وكَكَلِمَتَي الباقرَين الصادقَين اللَّتَين كرَّستا حلال الله وحرامه إلى يوم يُبعثون،

وكحبس الكاظم الذي كان منبراً للدرس الربَّانيِّ السديد الرشيد.

و« كولاية العهد » للرِّضا التي كان قبولُه القسريُّ بها أعظمَ إسفينٍ في عروش الحكّام الظالمين،

و« الامانةُ » التي حملَها الأئمة عليهم السلام واحداً بعد واحد، هي واحدة.

أدَّوها بأمانة.. في عهودٍ متفرِّقةٍ، وبأدوارٍ مختلفة،

وكان كلٌّ منهم فذّاً في تمثيل دوره حين تأديته..

ولولا براعةُ تأديتهم لَفقدت الرِّسالة الكريمةُ معناها، ومبناها.

فقد رعَوها حقَّ رعايتها.. منذ الابتداء.. وحتَّى الانتهاء،

وظلُّوا « أُمناءَ » عليها.. و« أوصياء ».. كالأنبياء..

•

أجل،

قد ثبت كلٌّ واحد من أئمَّة أهل البيت عليهم السلام في ميدان الدفاع عن رسالة الإسلام أمامَ طاغية زمانه،

وقد أثبت وجوده، وضربَ إمَّا باليدِ أو باللِّسان،

ونادَى بكلمة الحقِّ عالياً رغم صَوَلان الباطل وجَوَلانه.

ولكنَّ الذي لا ينقضي التعجُّب منه، هو أن التساؤلات تنصبُّ حولَ سلامةِ موقفِ كلٍّ منهم، بظُلمٍ له فوق ظُلمه، حتى يضطرَّ مَوَاليهم إلى الدفاع، ثم يُسْكَتُ عن الحاكم الظالم ولا يَذكر أحدٌ ما أصاب إمامَ زمانه من ظُلمه وجَوره، ولا يُتَذَكَّر شيءٌ ممّا لَحِقَ بذلك الإمام الذي كان يؤخَذُ على غِرَّة، ويُراح ويُجاء به إلى الخليفة في بغداد، أو من بلادٍ إلى بلاد كالسِّلعة الرخيصة، ولا يُراعَى فيه إلٌّ ولا يُرعَى له ذِمام أو قُربَى من رسول الله ﷺ وهو القائل لأمَّته بِنَصِّ القرآن الكريم: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]!!.

فهل كان هذا التنكيلُ من مودَّة قُربَى الرسول؟!.

---

(١) الشورى - ٢٣.

لا والله... بل لو أوصاهم الرّسول بأن ينكّلوا بقُرباه لَخجلوا أن يفعلوا أكثر مما فعلوا!.

لقد حكموا الأمّة الإسلامية باسمه ﷺ، وباسم دينه، ثم تمادَوا في غيّهم الوقح وعاملوا ذرّيته بأقسى أنواع الظُّلم. ولو أنت ذكرت طاغيةً منهم بسوء لَعَضّوا عليك الأناملَ من الغيظ، ولَصرّوا بأنيابهم حنقاً، ورمَوك بالإلحاد بالتاريخ الذي يذكر ذلك الخليفة بتمام التبجيل وهو رأس النِّفاق والشقاق في زمانه!.

أمّا التاريخ «المقدّس» بنظرهم، فما أدراك ما ذلك التاريخ؟. وما أدراك بزُوره ووضعِه وتلفيقه!. وإن أنت نقدت ذلك التاريخ، وشككتَ في بعض فجوات دسّه وتلفيقه رمَوك بألْسنةٍ حِدادٍ وارتفع بوجهك صوتُ الضمائر الصَّدئة التي ترعى «قدسية» التاريخ، وتغفل عن قدسيَّة الله عزَّ وعلا، فهو يُسَبُّ على مرأى ومسمعٍ من الناس دون أن يكون في ذلك بأس، بشرط أن لا تنبس ببنت شفَةٍ على التزوير ومَن زوَّر أو على ذلك الْخَلق المتعوس من سَفَلة المسلمين حين حكم وتأمَّر!.

فالزمانُ هو الزمان.. لم يتغيَّر.
وقُلِ الحقَّ، يرتفعْ صوتُ الباطل.. ويُرعِدْ بوجهك صوت الْخَلق!.

فكأنَّ الشيطانَ نصَّب «مُحامين للدفاع» عن زُمرةٍ يقفون دائماً وأبداً أمام الكلمة المنصِفة!.

فكيف بك ـ يا أخي القارىء ـ وأنت تواجهُ عالَماً ظالِماً، كلّما وصلت كلمتُك المنصفةُ ـ عن هِنات ذلك التاريخ المقلوب المغلوب ـ إلى آذان «محامي الدفاع» لا يدَعون كلمتَك تصل إلى الأسماع والقلوب؟!.

ثم إذا هزَّت تلك الكلمةُ ضميراً حيّاً، فمن للضمائر الخدِرة المخدَّرة يحرّكها ويوقظها من الغاشية التي تحيق بها؟!.

فأنت ـ وكلَّ حرٍّ ـ إذن، مضطرٌ لأن تجعل نفسك مدافعاً عن المظلوم، لأن الادعاءة الغاشمَ ينصبُّ عليه، والاتّهاماتِ القاسيةَ تُنسب إليه، ويبقى ظالمُه حرّاً

طليقاً دون حسيبٍ أو رقيب، ودون أن يُقالَ كلمةٌ « ببابه العالي »!. فإن « ثعالب القصر » التي كانت تبذل المال، وتشتري الرجال، وتغيرّ الأمور من حالٍ إلى حالٍ، قد عَقبَها زُمرةٌ تنسج على نفس المنوال، وتقف في وجه كلِّ ما يُقال.. فتضيع الحقائق ـ هكذا ـ بين أشداق مؤرّخين مأجورين من ذَوي الأقلام التي فعل بها حُبُّ الدينا فعل السِّحر الحلال!.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[1] .. وَ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[2] برأيك.. ولو كان حقّاً، سديداً، رشيداً؟.

لا، لا تُزعج حالك بالبرهنة لمن لا يريد الاقتناع برأيك،

ولا تَذهبْ نفسُك حسراتٍ على أحدٍ.

لأننا نريد من الآخَرين إيمانَ اختيار، لا إيمانَ اضطرار،

وقد قال سبحانه في مُحكَم كتابه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا، لِنَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[3].. والأرض وزينتُها: امتحانٌ للعباد.

فما همَّك لو تركتَ كلاًّ وهواه ليسقطَ مَن يسقطُ في الامتحان، ويفوزَ من يفوزُ، بعد أن بشَّرتَ وأنذرت؟!.

●

لقد كان الجوادُ عليه السلام على خط السماء، وسيرة مَن مضى مِن هذه الشجرة المباركة الطيِّبة.

وما كان في حُسبانه أن ينتظر موافقةَ أحدٍ منَّا على خِطَّـةِ سيرِ عملِه.

ولا كـان في إطار التقويم أن تُعَلَّلَ أعمالُ أولياء الله وصفوتِه.. لأن أولياء الله يكونون دائماً على الحق ومعه وله، ولَو خالفَه سائرُ العالَمين.

ولم يألُ الإمامُ عليه السلام جهداً أيامَ حياته ـ في تثبيت المؤمنين، والاعتراض

---

(١) الكهف ـ ٦.

(٢) الشعراء ـ ٢.

(٣) الكهف ـ ٧.

على المارقين، وصدِّ الفسَقة والمخاريق، وهتكِ أهل البهتان.. يصحِّح، ويقوِّم.. ولم يقفْ بوجهه ما اعتورَ طريقَ مسيرته من فتنٍ وحروبٍ، ومن منافساتٍ مذهبيَّةٍ، وسَورات جدَليَّة كانت تمنع من حملِ الناس على العدل وقول كلمة الفصل التي تردُّهم إلى جادَّة الصواب.

فماذا يُراد منه فوق هذا، حتى يعترف الناس بأنه كان «موجوداً» ـ ثابتاً وجودُه ـ في ذلك المجتمع الذي سيطر فيه الفساد على الحُكم الإسلاميّ؟.

هل يُطلب منه أكثر ممَّا طلب الله تعالى من جدِّه الأعظم ﷺ حين قال له تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[1]: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[1]

فاتَّبَعَ ما أُوحيَ إليه،

وبشَّر وأنذر،

وكان شاهداً على الناس بعد التبشير والإنذار،

ولم يرفع سيفاً على ناطقٍ بالشهادتَين،

بل عمل بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[2]..

فلم تذهب نفسُ رسول الله ﷺ حسراتٍ على الضالِّين،

ولا ضرَّه مَن ضلَّ،

ولا كانت سيرةُ حفيدِهِ الجوادِ عليه السلام إلاَّ كسيرته:

في الشهادة على الظَّلَمة،

وفي التبشير وإذاعة أحكام الله،

وفي الإنذار بعد الإعذار،

ولم يَتَوانَ عن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر قَط.. حتى في مجلس «الخليفة» ولفيفِه.

---

(١) الأحزاب ـ ٢ و٤٥.

(٢) المائدة ـ ١٠٥.

أما هل أكرهَ قومَه على أن يكونوا مؤمنين؟.

فالجوابُ: لا.

لأنَّ جدَّه رسول الله ﷺ قال:

« لا أُبالي بمَن خالفني إذا وافقني،

ولا أحفل بمَن خذلني إذا وازَرني،

ولا أكترث بمَن ازْوَرَّ عنّي إذا ساعدني »[1].

فما همَّ سيرةَ إمامنا عليه السلام عُمْشُ العيون.. إذا لم يرَوا،

ولا أقلق خاطرَه صُمُّ الآذان.. إذا لم يسمعوا،

ولا ضاره أبواقُ ظالِميه إذا ولَّوا مُدْبِرين.. ورضُوا بضلالهم المبين..

●

---

(١) بحار الأنوار ج١٧ ص٣٢٤.



قِرانٌ واستهجانٌ..
وامتِحانٌ لترجمان القرآن

•

كان تزويجُ بنت المأمون من الإمام الرِّضا عليه السلام تجربةً ناجحةً للفتك بالإمام.

فَلْيكرِّرْها ذلك «المأمونُ» مع ابنه الجواد عليه السلام، ليصلَ به إلى ما وصل إليه مع أبيه.. من قتلِه وبُكائه!.

فقد عرف أنه يمكن أن يكونَ هذا الصبيُّ ملءَ مركز الولاية منذ طراوة عوده؟.

وأنَّه كانت له شخصيَّة «الإمام» وهَيبةُ «خليفة رسول الله» ﷺ، وعلمُه ومعرفته بالقرآن والسنَّة..

ثم خاف أن يُحسَّ المسلمون «بوجوده» وبكونه حجةً لله على الأرض..
إذ عرف مميِّزاته عن الآخَرين من فقهاء زمانِه؟!!

•

هذه أمورٌ أخذت تُراوِدُ ذهنَ الخليفة «القنَّاص» الذي كان نَيْقَداً فذّاً لا تجد أمهرَ منه إذا وقف على وَضَمِ التشريح..

ولكنَّ المأمون - بزعمي - كان «غيرَ مأمونٍ» حتى على عقيدته التي كان يَدينُ الله تعالى بها!. فقد كان مسلماً يَعبد ربَّهُ على حرفٍ، وخليفةً أعمى بصيرتَهُ الْـمُلك..

وها هو قد قطع يقينُه أنَّ الجواد إمامٌ وإن كان صغيراً ـ لأنه يراه ـ فيما بينه وبين نفسه ـ مصداقاً لِمَا قاله سيِّدُ الشعراء ـ المتنبِّي:

وتسعدُني في غمـرةٍ بعـد غمـرةٍ سَبـوحٌ، لها منهـا، عليهـا شـواهـدُ

حيث إن الوقائع تزدحم على فكره فيضيق بها، وتتوالَى على خاطره فيعجز عن احتوائها، وتنثال على قلبه فيحار.. ويقع وسط إعصار!.

فقد مررتَ ـ يا قارئي ـ بآياتٍ بيِّناتٍ أتى بها الإمام عليه السلام عبرَ مراحل طفولته، وصباوَته، وفتوَّته ـ وستمرُّ بأكثر فأكثر تحت عنوان مستقل ـ وهي إن دلَّت فإنما تدل على طفلٍ ذي عجائب، وصبيٍّ ـ غلامٍ ذي غرائب، وفتًى ذي معاجز لا يتيسَّر تعليلُها إلاَّ عن طريق الإيمان بالله قادراً، مقدِّراً حكيماً.. وكلُّها لم تَخفَ على المأمون ذي الذكاء الوقَّاد..

سمعَ أنه ـ رضيعاً ـ يكلِّم الناس في المهد، فيبهر السامعين.

وأنَّهُ ـ قبلَ السنتَين من عُمره ـ.. يقرأ رسائلَ أبيه عليهما السلام، ويعمل بمقتضاها في مجاله الاجتماعيّ.

وأنَّهُ حين يَدرج نحو الفتوَّة، لا تأخذه الصَّبوةُ وطيشُ الغلمان، بل يتصدَّر مجلسَه الذي يَدلِفُ إليه مشايخ بني هاشم وغيرهم من الأعيان والفقهاء.. فيقول فيهم، وقولُه فصلٌ، ويَحكم فحُكمُه الحقُّ، ويُزار كما يُزار أكابرُ الأكابر، ويزن المتكلِّمـون بين يَديه كلامَهم وَزْنَ مَن يفقد الثقة بنفسه في حضرةِ إمام...

وأنَّهُ إذا خرج من بيته إلى رحاب الحياة الاجتماعية، خرج بحراً زاخراً يتدفّق العلم من حافَتَيهِ، وتدور بلاغةُ القرآن على لسانه وشَفَتَيه، فَيُرى عِدْلَ القرآن.. وتستوي له أحكامُ السنَّة، فَيُخال أنه المشرِّع من لَدُنِ الرحمان!.

ولا تَعجب.. فإنه أعجب.

وأنا ـ حين أبذل قُصارى جهدي وجُلَّ ما عندي من نعتٍ وبيان ـ أبقى دون ما يُمكن أن يقال فيه.

إذ لا يُمكن أن يُقال فيه، حقيقةُ ما هو فيه..

ولا يدرك الفهم، ولا القلم، شأوَ ما هو عليه،
لأنَّ أفعال الله تعالى، لا يَقدر شارحُها على شرحها بأكثرَ من الميسور.

•

فمذ دخل الإمامُ الفتى عليه السلام بغدادَ في عهد أبيه ـ وهو في السادسة من عمره(١) ـ لم تخفَ مواهبُه على أحدٍ، فضلاً عن أنها لم تخفَ على «الخليفة المأمون» الذي كان من أفهم أهل زمانه وأذكاهم.. فرصدَ ابنته «أُمَّ الفضل» له من ذلك الحين!.

ثم الْتقاه «الخليفة» بعد ذلك بسنتين ـ عقيب وفاة أبيه ـ واقفاً مع صبيانٍ من أبناء جيله، حين كان بطريقه إلى الصيد في بعض رحلات لهوِه وزهوِه..

ومُذ عرفَه أخذ على نفسه أن يحتويَه من أول عهد تفتُّحه ليسدَّ عليه آفاق الظُّهور ومنافذ الانطلاق في ممارسة «وظيفته» التي اختاره الله تعالى لها، ومنحَه جميع مقوِّماتها ومستلزِماتها.. ذاك أنَّ ديدنَ المأمون لم يتغيرَّ من مناصبة العداء للهاشميين «لقطع» نسل بيتهم الذي لا بدَّ أن يُرهص عن «مهديٍّ» يَقطع دابر الظُّلم، ويبيد الكفرَ، ويُقيم حدودَ الله بعد أن تندرس على أيدي «خلفاء» رسول الله ﷺ، الحائدين عن شرع الله الذي نزل في قرآنه وسنَّة نبيِّه، بدءاً من الأمويِّين والعباسيين، وانتهاءً بمَن خَلَفِهم ويَخلفهم.

•

نعم.. منذ وقف الإمامُ الفتى ـ عملاقاً خطيراً خَطِراً ـ في طريق المأمون ورجال حاشيته ـ بعد أن فرَّ الصِّبية وهربوا من طريقه ـ قرَّر الخليفة الوقوف في طريق «إمامته» التي عرفها من فم أبيه الرِّضا عليه السلام قبل ذلك ببضع سنين..

---

(١) كان للإمام أبي جعفر عليه السلام رحلتان إلى بغداد:
الأولى: سنة ٢٠١ هجرية ـ في عهد المأمون ـ وكان ابنَ ستٍّ سنوات.
والثانية: سنة ٢٢٠ هجرية ـ في زمان المعتصم ـ وكان ابنَ خمسٍ وعشرين سنة. وقد قتل مسموماً في تلك السنة.. وما هو مثبَتٌ في هامش الصفحة ٣٣٧ من تُحف العقول خطأ.

ذلك أنه قد «اجتاز المأمون بابن الرِّضا عليه السلام ـ بعد موت أبيه، وهو دون الثامنة من عمره ـ وكان في الطريق، فقال المأمون: مالَكَ لا هربتَ في جملة الصبيان؟.

قال: مالي ذنبٌ فأفرَّ منه، ولا الطريق ضيِّقٌ فأوسِّعَه عليك. سِرْ حيث شئت.

فقال: مَن تكون أنت؟.

قال: أنا محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

فقال: ما تعرف من العلوم؟!

قال: سَلْني عن أخبار السماوات.

فودَّعه ومضى ـ وفي نفسه شيءٌ.. وفي صدره غلَيان ـ وكان على يده بازٌ أشهبُ يطلب به الصيد.

فلما بَعُدَ عنه نهض عن يده الباز، فنظر يمينَه وشمالَه فلم يَر صيداً، والبازُ يثب عن يده.

فأرسله فطار يطلب الأفق حتى غاب عن ناظره ساعة، ثم عاد إليه وقد صاد حيَّة.

فوضع الحيَّة في بيت الطعم وقال ـ أي المأمون ـ: قد دنا حتفُ ذلك الصبيِّ في هذا اليوم على يدي.

ثم عاد وابنُ الرضا عليه السلام في جملة الصبيان، فقال: ما عندك من أخبار السماوات؟.

فقال عليه السلام: نعم، يا أمير المؤمنين. حدثَني أبي، عن آبائه، عن النبيِّ، عن جبرائيل، عن ربِّ العالمين أنه قال:

بين السماء والهواء بحرٌ عجَّاجٌ يتلاطم به الأمواج، فيه حيَّاتٌ خُضْرُ البطون رُقْطُ الظُّهور، يصيدها الملوك بالبُزاة الشُّهب، يُمتحَنُ به العلماء ـ أي الأئمة ـ.

فقال: صدقتَ، وصدقَ أبوك، وصدق جدُّك، وصدق ربُّك. فأركبه، ثم

زوَّجه أمَّ الفضل »[1].

وروَى ابن حجر الهيثمي هذه القصة في كتابه: الصواعق المحرقة ـ الذي كتبه للردِّ على معتقدات الشيعة الإمامية بالخصوص ـ على الشكل التالي:

« وممَّا اتَّفق أنه بعد موت أبيه بسنةٍ واقفٌ والصبيانُ يلعبون في أزقَّة بغداد، إذ مرَّ المأمون ففرُّوا ووقف محمدٌ وعمرُه تسعُ سنين. فألقى الله محبَّته في قلبه فقال له:

يا غلامُ، ما منعك من الانصراف؟.

فقال له مسرعاً: يا أمير المؤمنين لم يكن بالطريق ضِيقٌ فأوسِّعه لك، وليس لي جرمُ فأخشاك، والظنُّ بك حَسَنٌ أنك لا تضرُّ مَن لا ذنب له.

فأعجبه كلامُه وحُسن صورته فقال له: ما اسمُك واسمُ أبيك؟.

فقال: محمد بن علي الرِّضا.

فترحَّم على أبيه وساق جواده. وكان معهُ بزاةٌ للصيد، فلما بَعُدَ عن العمار أرسل بازاً على درَّاجةٍ، فغاب عنه ثم عاد من الجوِّ في منقاره سمكةٌ صغيرةٌ وبها بقاءُ الحياة فتعجَّب من ذلك غايةَ العجَب. ورأى الصبيان على حالهم ومحمد عندهم، ففرُّوا إلاَّ محمداً. فدنا منه وقال له: ما في يدي؟.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى خلقَ في بحر قَدرته سمكاً صغاراً يَصيدها بازاتُ الملوك والخلفاء، فيُختبَرُ بها سُلالةُ أهل بيت المصطفى.

فقال له: أنت ابن الرِّضا حقًّا. وأخذه معه وأحسنَ إليه وبالغ في إكرامه فلم يزل مشفقاً به لِمَا ظهر له بعد ذلك من فضله وعلمه، وكمال عظَمته، وظهورِ برهانه مع صِغَرِ سنِّه »[2].

فقول المأمون: أنت ابنُ الرِّضا حقاً، يدلُّ على أنه تأكَّد من أنه وارثُ أبيه في الإمامة، وأحدُ أهل بيت النبوَّة المرصودين ـ من لدُن الله تبارك وتعالى ـ « لولاية » أمور الناس بعد رسوله الكريم ﷺ.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٥٦ـ٥٧ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٣٤ والمناقب ج ٤ ص ٣٨٨ـ٣٨٩ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤١٠ إلى ٤١٢ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٢٩٥ـ٢٩٦ وإثبات الهداة ج ٦ ص ٢٠١ـ٢٠٢.

(٢) الصواعق المحرقة ص ٢٠٦.

وقد كان يعلم أنه ابنُ الرِّضا حقّاً وحقيقةً من حيث الْبُنُوَّة.. ويشكُّ ـ إلى حـدٍّ ـ في كونه ابنَه المختار لمواريث السماء. فاتَّضح له ذلك بالبرهان.. فليأخذْه إليه بكلتا يدَيه لئلاَّ يفلت من «قبضته الحديديَّة» والفرصةُ مؤاتيةٌ «لأسره» والنظر في أمره!.

وليكرِّرْ معه الدَّور الذي مثَّله مع أبيه: من حُبٍّ له فاض به قلبُه فجأةً..

إلى تقريبٍ، فإكرامٍ، فإنعام،

فإلى ترويجٍ، فتزويجٍ «فولاية تهريج»..

يتبعُها قتلٌ في نهاية المطاف.. يدلُّ على ذلك قوله:

«قد دنا حتفُ ذلك الصبيِّ في هذا اليوم على يدي»!.

أي أنه سَيُلحقه بأبيه الذي لقيَ على يدَيه الشَّذا والأذى..

ونحن لا نخترع ولا نبتدع، ولا نحرِّف.. بل نورد ما قاله، ونَدينه من فمه.

وإلاَّ فما تفسير هذا الحبِّ الذي تفجر من قلب «خليفةٍ كبيرٍ» لصبيٍّ صغيرٍ وقف ناظراً لِلَعِب أترابه؟!.

ثم ما معنـى شَغَفِـه بـه وهـو ابـنُ ضَـرَّةِ بنتـه «الأميرة العـاقـر» بنـت أمير المؤمنين؟!!».

فوالذي برأَ النَّسمة ما أَحبَّ قلبُ رجلٍ ابن ضَرَّةِ بنته العاقر، والضَّرَّةُ أُمُّ ولدٍ ـ مملوكة.. فكيف وبنتُه بنتُ سلطانِ البلاد وحاكمِ العباد!. اللهم إلاَّ إذا كان حبُّه له تولِّياً له واعترافاً بإمامته المفروضة من السماء، المنصوصة من خاتم الأنبياء، وهذا ما يَبعد عنه المأمونُ بُعد الأرض عن السماء.

ربَّما كانت نباهةُ الصبيِّ قد اجتذبت قلب المأمون.. ولكنَّ رغبتَه في تطويقه ـ قبل أن تُبعده عنه الأقدارُ ـ قد شدَّته إليه.. فأحبَّ فيه هذا النُّبوغ المتفتِّح؛ ومِن الْحُب ما قتلَ.. المحبوب!. وما يجول في صدور بـعيدي النظر ـ كالمأمون ـ أمرٌ يؤْبه له.

كما أن قول المأمون «للإمام الفتى»: «صدقتَ وصدق أبوك وصدق جدُّك» هو تكذيبٌ سافلٌ، مبَطَّنٌ بتصديقٍ سافر، ولا يَحمل غير معنى التكذيب له ولأبيه

ولجدّه «ضمناً» إذ أنه يخطّط للبعيد البعيد.. أي ليومٍ يَقتل فيه «الإمامَ الفتى» ويُعتبر بريئاً من دَمِه «علناً» براءةَ الذئب من دم يوسف عليه السلام.

والمأمون هو ابنُ أبيه... وهو من الزُّمرة المتربِّعة على كرسيِّ الحكم والظلم، تَرصدُ كلَّ ما يناوىءُ دعوتَها، ويهدِّد كيانَها، ويهدم مستقبلَها.. وهو أمهرُ الراصدين.. وأكثرُ حنكةً من أبيه وإخوته لأنه ذو أحابيلَ وذو عقابيل.

●

وقد يسأل سائلٌ عمّا حملَ الإمامَ عليه السلام، على الإذعان للأمر الواقع، والانقيادِ إلى أمرٍ يعرف عُقباه؟. أو كيف مشى إلى مصيرٍ هو عالمٌ حقَّ العلم بأنه مُلاقيه؟

وهل يقتنع عاقلٌ بأن «إماماً» عارفاً، يمضي مع عدوِّه إلى آخر الشوط الذي يَعلم نهايتَه؟.

هذه التساؤلات ـ وما شابَهها ـ في غاية الوجاهة. وهي تستحقُّ العناية والإجابة عليها لولا أنه «إمام» وحجةٌ على الخلق، مضى على ما مضى عليه جدُّه أميرُ المؤمنين عليه السلام حين برز إلى مضجع قتلِه في مسجد الكوفة، وجدُّه الحسين على السلام يومَ خرج إلى مصرعه في كربلاء، وغيرُهما من آبائه الذين اجترعوا السمَّ، وكلُّهم - كلُّهم ـ عالِمون بذلك، مذعنون لمشيئة الله عزَّ وجلّ.

فالأئمة محلُّ بلاء الله واختباره، كرُسله.. ابتُلي بهم الظالمون، وامتُحن أصحاب الظنون، وظلَّ عن معرفة سرِّهم وفلسفة تصرفاتهم الجاهلون. وقد قال إمامُنا نفسُه عليه السلام:

«الصبرُ على المصيبة، مصيبةٌ عند الشامت بها»(1).

فأجاب بقوله هذا على خلفيَّة السلبيَّات في هذه التساؤلات التي تزدحم في أذهان جَهَلة أمرِه، ومحا بقوله علاماتِ الاستفهام وشاراتِ التعجُّب التي ترتسم في مخيِّلات

---

(1) كشف الغمة ج ٣ ص ١٣٩.

الشاكّين والمرتابين، حين يرَونه صابراً على العيش مع أعدائه، ذهاباً من السلطان المتربع على قمة هرم العداوة، ووصولاً إلى زوجته التي يفترشها الأرض ـ في سفح الهرم ـ وهو يَعلم أن «ذاك» أو «هذه» أو «هما معاً» سيقتلانه.

إنّه وليّ لله يغيظ نفوسهم، ويجثم على صدورهم.

وترتعد منه فرائصُهم، وتتقلقل أركانُ سلطانهم حين لا يداريهم في الجهر بالحق!.

ثم يَبوؤون بالخزي، والعار، والشنار.. والنار، وغضبِ الجبّار، حين تتلطّخ أيديهم بدمائه الزكيّة.. ويكون بينهم إماماً.. ويموت بأيديهم إماماً.. ويبقى إماماً، وحجةً لله ووليّاً له «حيّاً وميتاً»..

فهم ـ معه ـ حائفون!. وهم ـ بعد قتله ـ مُعتدون ـ ظالمون.. يحيَون وَجِلين.. ويموتون خاسرين للدنيا التي لم يَخلدوا فيها، وللدين الذي ضيّعوه، وللآخرةِ التي هم في موقفها سامدون حيث ﴿لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾[1]!. فيتلقّاهم ﴿مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ، لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2].

فالسياسة التي كانت متّبعةً مع الهاشميين من قِبَلِ الحُكم الإسلامي لم تتبدّل منذ لحوق النبيِّ صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى. وهي سياسة إفقارٍ وتضييقٍ يؤدّي أولاً إلى الإقامة الجبرية أو الحبس، ثم ينتهي بالعنف الذي يصل إلى القتل، حتى لَكأنَّ ذُريَّة النبي صلى الله عليه وآله كانت غريبةً عن الإسلام، عدوّةً للمسلمين، محاربةً لربِّ العالمين، أو لَكأنّها دخيلةٌ على الإسلام من الترُّك أو الديلم!. لا بل إنَّ التُّرك والديلم قد تحكّموا ببعض الخلفاء، ولعبوا بعروشهم، وعَزلوا وولّوا من أرادوا، وصرفوا المالَ، وقتلوا الرجالَ، وقادوا الجيش وحكموا الناس وزَوَوُا الخليفة في قرنة قصره حتى قيل فيه:

خليفةٌ في قفصٍ بين «وصيفٍ» و«بَغا»
يقول ما قالا له كما تقول الببّغا!.

(١) الأنعام ـ ١٥٨.
(٢) التحريم ـ ٦.

في حين أن الإسلام لم يفرّق بين عربيٍّ وعجميٍّ، تركيّاً كان أو ديلمياً، هنديّاً أو صينيّاً، شرقيّاً أو غربيّاً.. فياليت البيت الهاشميَّ كان تركيّاً أو ديلميّـاً!. إذنْ للَقِيَ من المسلمين خيراً ممّا لَقي، ولَعاش أهل البيت عليهم السلام مسلمينَ مع المسلمين، ولَكانوا في منَجى من ظُلم الحاكمين المسلمين!.

أفكانَ هذا جزاء محمدٍ ﷺ في عترته ـ أهل بيته؟!!

قد طلب النبيُّ ﷺ من المسلمين أن يُوَادُّوا قرابتَه.. فحادُّوهم!.
وأوصى أن يحفظوه بحفظهم.. فقتلوهم!.
ورغب في حُبِّهم.. فقلَوهم وأبغضوهم!.
وركَّز ـ طيلة عهدِ رسالته ودعوته ـ على تَوَلِّيهم.. فأنكَروهم، «وأبعدوهم»!
فكيف تتلقى مُسْلميكَ في يوم الدِّينِ، أيها الرسولُ الأمين؟؟

صدِّقوني أن الجواب لا يخفى على أحدٍ..

وبهذا المنطق ـ ومن هذا المنطلَق ـ خطب الخليفةُ الإمامَ لنفسِه قبل بنتِه، سواءً أشغفه حبّاً أم مجَّه كرهاً..

فقرَّبه وأدناه،
وحدَب عليه وراعاه،
وصار إذا كلَّمه تفدّاه!.

ثم تعشَّقه كما تعشَّق أباه، ورفعه على سائر فقهاء عصره، وعلى أقرب المقرَّبين في قصره، بعد أن رأى فيه «الولد» الموعود الذي كان ذكرُه يدور على لسان أبيه الرِّضا عليه السـلام، فاكتنفه ـ علناً ـ ليُبعده عن أيِّ تطلُّعٍ شعبيٍّ أو أيِّ نشاطٍ اجتماعيٍّ، سرّاً وجهراً..

ثم ﴿فَكَّرَ ـ مُغيرةُ ذلك العصر ـ وَقَدَّرَ،
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ـ لهذا الإمام الفتى ـ.
ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ـ قَتْلَهُ كما قتلَ والدَه،
ثُمَّ نَظَرَ ـ متأملاً بمستقبل الفتى ـ

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾[1] حين قدَّر أنه فتًى حَرِيٌّ باستقطاب الناس!.

فتصيَّد فكرُه ـ اللاهثُ وراء اجتثاث أصول هذه الأسرة الشريفة ـ أمراً خطيراً..

إذ قرَّر تجنيد المرأة مرةً أخرى بزفاف ابنته الصغرى للإمـام الفتى، كما جنَّـد أختها الكبرى لأسرِ أبيه واغتياله داخل بيته، قبل أن يخرج إلى المجتمع ويستقطب المسلمين..

وإنَّ سربال «ولاية العهد» ـ الذي خلَعه على «الأب» حين أراد، ونزعَه حين شـاء ـ لا يزال محتفظاً به..

فَلْيُلبسْه «للابن» بعد إحكام خطَّة الزواج أولاً..

فقد تعلَّق بالإمام «الأب» من قبلُ.. وأدناه،
وقرَّبه.. «فولاَّه»! ثم أبعدَه.. ونحَّاه..
ولحقَ به، وقدَّم له العنبَ المسمومَ، فأرداه، في منفاه!.
وبكاه بدموع التماسيح.. وتفدَّاه!!![2].

●

---

١) المدثر ـ ١٨ ـ ٢٢.

٢) فالمأمون من المجرمين السفَّاكين القُساة. وانظر مروج الذهب ج٣ ص ٤١٣ تجد شهادة «الأمين» بأخيه.. فإنه حين حوصر قُبيل قتله قال لأحمد بن سلام الذي كان معه في الغرفة:
يا أحمد ما أشكُّ أنهم سيحملونني إلى أخي، أفترَى أخي قاتلي؟.
قال له: كلاَّ إن الرحم ستعطفه عليك.
فقال: هيهات!. المُلك عقيمٌ لا رحم له.. وهو أعْرَفُ بأخيه.
وفي ص ٤١٤: لمَّا وُضع رأس «الأمين» بين يدي أخيه «المأمون» بعد أن حُمل إليه إلى خراسان، استرجع وبكى.. ثم أمر بنصب الرأس على خشبةٍ في صحن الدار!. وأعطى الجند رزقهم وأمر الكل بلعنه، فكان الواحد منهم يقبض عطاءه ويلعنه، إلى أن قبض واحد من العجم عطاءه فقيل له: العنْهُ، فقال: لعنَ الله هذا، ولعنَ والدَيه وما ولَدا، وأدخلَهم في كذا وكذا من أمهاتهم!. فسمع «المأمون» ذلك وتغافلَ وتبسَّم.. ثم خجل وأمر بإنزال رأس أخيه عن الخشبة.
وفي ص ٤١٩ ذكر أن «المأمون» كان يقول: يُغتفَرُ كلُّ شيء إلاَّ القدْحُ في المُلك!. ولمَّا خلص إليه الأمر قال: هذا مُلكٌ لولا أنه بعده هُلك.. وهذا سرور لولا أنه غرور..

نعم، جاء دورُ المرأة ـ حِبالةِ الشيطان وأبرعِ جنوده!.
وبواسطتها يربح « خليفة العصر » المعركة من أحد طرفَيها:
فإمّا أن يصير الإمام صهراً مُوالياً للعرش فلا يرفع ناظرَه إلى ما فوق حاجِبَيه، ويرضى بأن يقبع في يثرب مغموراً بهدايا العرش وعطاياه.. وهذا مستحيل.
وإمّا أن تقوم « السَّفيرةُ الصغيرةُ » بالوظيفة التي أُعِدَّتْ لها « أختُها الكبيرة! ».
فتدوفَ السمَّ للإمام في الشراب أو الطعام، وينتهي الفصل الثاني من رواية « المأمون » مع الأب والابن، على يدَي الأختِ وأختها: الإبليستَين الرجيمتَين!.

•

ومُذ أَذاع الخليفة السِّر ـ والإمامُ دون التاسعة من عُمره ـ فارَ التنُّور.. والْتهبتِ الصُّدور،
ووَرِمت الأنوف، وأخذ دمُ العروق بالغلَيان.. وأوشك أن يثور البركان!.
فما في كلِّ مرةٍ تَسْلَمُ الْجَرَّة..
ولا العباسيون يأمنون لدخول هاشميٍّ قويٍّ إلى قصر الخلافة من جديد بعد أن تخلَّصوا من « ولاية العهد » للرِّضا عليه السلام..
فلا بُدَّ ـ إذن ـ من معارضة « الخليفة » في الزواج الجديد!.
.. ولن أدعَ صَبْرَ القارىء يَنفد بانتظار معرفة ما جرى.
بل سأنقله إلى ذلك الجوِّ ليرى الصورة التي وصفَها ابنُ شبيب الريّان، وعليٌّ بن ابراهيم الهاشمي، بقولها:
« غَلُظَ الأمرُ ـ أمرُ الزواج ـ على العبّاسيِّين واستنكروه،
وخافوا أن ينتهي الأمرُ مع المأمون إلى ما انتهى مع الرِّضا عليه السلام من « الولاية ».
فخاضوا في ذلك..
واجتمع منهم أهلُ بيته الأدنَون فقالوا:
يا أمير المؤمنين، أتُزوِّج قُرَّة عينك صبياً لم يتفقَّه في دين الله، ولا يعرف

فريضةً من سنَّة، ولا يميِّز بين الحقِّ والباطل؟!. فلو صبرتَ عليه حتى يتأدَّبَ ويقرأ القرآن، ويعرفَ فرضاً من سنَّة.

فقال المأمون: واللهِ إنَّه لأفقهُ منكم، وأعلمُ بالله ورسوله، وسُننه وفرائضه وحلاله وحرامه منكم، وأقرأُ لكتاب الله، وأعلمُ بِمُحكَمه ومتشابَهه، وناسخه ومنسوخه، وظاهره وباطنه، وخاصّه وعامّه، وتأويله وتنزيله منكم!. فاسألوه، فإن كان الأمرُ كما وصفتم قِبلتُ منكم في أمره، وإن كان الأمرُ كما قلتُ، علمتم أن الرجل خيرٌ منكم.

فقالوا: نُنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تُقيم على هذا الأمر الذي عزمت عليه من تزويج ابن الرِّضا، فإنَّا نخاف أن يَخرج به عنّا أمرٌ قد ملَّكناه الله عزَّ وجلَّ، ويَنزع منَّا عزّاً قد ألْبسَنا الله!. وقد عرفتَ ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبلَك، من تبعيدهم والتصغير بهم.. وقد كنَّا في وهلةٍ من عملك مع الرِّضا ـ عليه السلام ـ ما علمتَ، فكفانا الله المهمَّ من ذلك. فاللهَ اللهَ أن تردَّنا إلى غمٍّ قد انحسر عنَّا!. واصرفْ رأيك عن ابن الرِّضا، واعدلْ إلى مَن تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيره.

فقال لهم المأمون: أمَّا ما بينكم وبين آل أبي طالب فأنتم السببُ فيه. ولَو أنصفتم القومَ لَكانوا أولَى منكم.

وأمَّا ما كان يفعله مَن قبلي بهم، فقد كان قاطعاً للرحم، وأعوذ بالله من ذلك!. واللهِ ما ندمتُ على ما كان منِّي من استخلاف الرِّضا عليه السلام. ولقد سألتُه أن يقوم بالأمر وأنزعُه عن نفسي، فأبَى، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً.

وأمَّا «أبو جعفر» فقد اخترتُه لتبريزه على كافة أهل الفضل، في العلم والفضل، مع صغَر سنِّه، والأعجوبةُ فيه بذلك!. وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفتُه منه، فيَعلمون أن الرأيَ ما رأيتُ فيه.

فقالوا: إنَّ هذا الفتى، وإنْ راقك منه هَدْيُه، فإنه صبيٌّ لا معرفة له ولا فقه. فأمهلْه ليتأدَّب، ثم اصنعْ ما تراه بعد ذلك.

فقال المأمون لِلائميه: ويحكم!. أمَا عَلِمتم أن أهل هذا البيت ليسوا خَلْقاً من

هذا الْخَلق؟. أَمَا عَلِمتم أن رسول الله ﷺ بايعَ الحسنَ والحسينَ عليهما السلام وهما طفلان؟. أَوَلَمْ تَعلموا أنها ذُريَّةٌ بعضُها من بعضٍ، يَجري لآخِرهم ما يَجري لأوَّلهم؟!!

ويحكم!. إنِّي أَعْرَفُ بهذا الفتى منكم. وإن هذا من أهل بيتٍ عِلْمُهم من الله تعالى وموادِّه وإلهامِه.. لم يزل آباؤه أغنياء في علمِ الدِّين والأدب، عن الرعايا الناقصة عن حدِّ الكمال. فإن شئتم فامتحنوه بما يتبيَّن لكم به ما وصفتُ لكم من حاله[1].

قالوا: قد رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا بامتحانه. فَخَلِّ بيننا وبينه لِننصُبَ مَن يسأله بحضرتك عن شيءٍ من فقهِ الشريعة، فإن أَصاب في الجواب عنه لم يكن لنا اعتراضٌ في أمره، وظهر للخاصَّة والعامَّة سديدُ رأي أمير المؤمنين فيه، وإن عجز عن ذلك فقد كُفينا الْخَطْب من ذلك في معناه»[1].

- وسكتوا عند هذا الحد.. وصمَتُوا،

وصمتَ المأمون بعد هذا المواجَهة الشرِسة،

وخيَّم جوُّ الجدِّية الذي يَعلم الله تعالى - وحدَه - ما يتمخَّض عنهِ ذلك الامتحان من نتائج.

ولكن الله غالبٌ على أمره،

والحقُّ أبلجُ.. يُعلن عن نفسه.. وقد تهيَّأَ الأمرُ لظهور مواهب الله تبارك وتعالى لأهل هذا البيت الكريم المبرَّئين من كلِّ دنَس!.

«وقد قال المأمون لجماعته بعد إطراقة قصيرة:

شأنكم وذلك متى أردتم»[1].

---

(١) أنظر مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٠-٣٨١ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٢٩٥-٢٩٦ وص ٢٩٩-٣٠٠ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٣-١٤٤ والاختصاص ص ٩٨-١٠١ بتفصيل، والإرشاد ص ٢٩٩ باختصار، وإعلام الورى ص ٣٣٥-٣٣٨ والصواعق المحرقة ص ٢٠٦ وتحف العقول ص ٣٣٢-٣٣٤ بتفصيلٍ أيضاً، وكذلك في الاختصاص ص ٩٨-٩٩ وتجده مفصلاً في الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٤٤٣.

فانفرط عقدُ المجلس المنافق.. واجتمع رأيُ «أَبالستِه» على مسألة يحيى بن أكثم ـ الذي كان يومئذٍ قاضيَ القصر ـ على أن يسأل الإمامَ أبا جعفر عليه السلام مسألةً لا يَعرف الجواب فيها.

وكان ذلك.. ووعدوه بأموالٍ كثيرةٍ.. وبهدايا نفيسة على مبادرته.

ثم رجعوا إلى المأمون وطلبوا منه أن يعيِّن لهم يوماً للمناظرة ـ الامتحان فأجابهم إلى ذلك.

وقد قدَّر الله تبارك وتعالى إظهار حجَّته في أرضه:

عملاقَ حقٍّ.. بين أقزام باطل.

وتعيَّن الموعد زماناً ومكاناً..

•

وفي قصر الخلافة ـ في الوقت المقرَّر ـ جيء بالطَّبخة والطُّهاة.. وعلى رأسهم شيخُ الطبَّاخين ـ رئيس قضاة البلاط اللَّوَّاط[1]..

---

(١) قال المسعودي في مروج الذهب ج٣ ص ٤٣٤ وص ٤٣٥ (وانظر الاختصاص في هامش ص ٩٨ ـ ٩٩): وكان يحيى بن أكثم قد وَلِيَ قضاء البصرة قبل تأكُّد الحال بينه وبين «المأمون» فرُفع إلى المأمون أنه أفسد أولادَهم بكثرة لواطه!. ـ فعذرَهُ ـ وقال: لو طَعنوا عليه في أحكامه قُبِلَ منهم.

وقد ظهر منه الفواحش وارتكاب الكبائر واستفاض ذلك عنه، وهو القائل:

أربعــةٌ تَفتنُ ألحــاظُهــم	فعينُ مَـن يعشقهـم ســاهـرة
فــواحــدٌ دُنيــاه في وجهــه	منــافــقٌ ليســت لــه آخِــرة
وآخــرٌ دنيــاه مفتــوحــةٌ	مــن خلفــهِ آخــرةٌ وافــرة
وثــالــثٌ قــد حــاز كِلتَيها	قــد جمع الدنيــا مــع الآخِــرة
ورابــعٌ قــد ضــاع مــا بينهــم	ليســت لــه دنيــا ولا آخــرِة

فعزله «المأمون» عن البصرة.. وولاَّه في «قصر بغداد».. وولاَّه المعتصم من بعده فكان «قاضيَ البلاط» في سامرَّاء.

وبلغت شهرتُه باللواط أن قال فيه ابنُ أبي نعيم:

يــا ليــت يحيى لم يَلِــدْهُ أكثمُــهْ	ولم تطــأْ أرضُ العــراق قــدَمُــهْ =

ولكن « الشيخ » لم يَنعم بالرئاسة طويلاً ،

لأنَّ هيبة الإمام عليه السلام محتْ « مشيخته » ، وكسفت بياضَ عمامته ، ومسحتْ هالة قداسة الدِّين عن وجهه .. ومسخت جُثَّةَ قاضٍ نبتَ لحمُه على أطايب القصر .. فذاب وَرَمُ الشحم ، وتَقوقع الهيكل الخاوي في قرنةٍ !.

وبردَ وهجُ الغرور .. من صدور شهود الزُّور !.

إذ أَشرقتْ طلعةُ أبي جعفر عليه السلام على المجلس ومَن فيه من الْكُبراء .. وهو ابنُ تسع سنين وأشهرٍ معدودة .. فاهتزَّ المجلس ومَن فيه .. واصطفقتْ أركانُه واضطرب إيوانُه .. إلى أن استقرَّ الإمامُ في صدر المكان ، على فراشٍ وثيرٍ بين مِسْوَرتَين ..

فبدا مهيباً ، شامخاً ، ذا رزانةٍ ووقار ، وهيبةٍ ليست لغير الأنبياء !.

فجمد دمُ الحاضرين .. وأخذَهم مثلُ الإفْكِل .. بين يَدي ذلك « السيد العزيز .. وقَرُّوا قرارَ العبيد » !.

وجلس المأمون ـ متأدِّباً ـ في دَستٍ متَّصلٍ بدَست الإمام عليه السلام .

وقعد « قاضيهم » مطأطىءَ الرأس .. كاسرَ النظرَ ـ بين الشهود الْعُدول ـ ولم يرتفع نظرُه إلى سُدَّةِ الممتحَنِ المسؤول .. إلى أن أُشير له ، فقال بصوت متهدِّج :

= أَلْوَطُ قاضٍ في العراق نَعلمُهْ ... أي دَوَاةٍ لم يَلُقْهَا قَلَمُهْ
وأيُّ شِعْبٍ لم يَلِجْهُ أَرْقَمُهْ

وعندما دخل على المأمون قال له : مَن الذي يقول :

قاضٍ يرى الحدَّ في الزِّناء ، ولا ... يرى على مَن يلوط من باسِ

فقال له : هو ابنُ أبي نعيم يا أمير المؤمنين الذي قال :

أميرُنا يرتشي وحاكِمُنا ... يلوط ، والراسُ شرُّما راسِ
قاضٍ يرى الحدَّ في الزِّناء ، ولا ... يرى على مَن يلوط من باسِ
ما أحسبُ الْجَورَ ينقضي وعلى الْـ ... ـأُمَّة والٍ من آلِ عباسِ !.

فخجل المأمون ، وسكت .. وقد قال فيه آخرُ :

وكنَّا نُرَجِّي أن نرى العدلَ ظاهراً ... فأعقبَنا بعد الرجاء قُنوطُ
متى تصلح الدُّنيا ويَصلح أهلُها ... وقاضي قضاة المسلمين يلوطُ !.

« يأذن لي أميرُ المؤمنين أن أسأل أبا جعفر عن مسألة ؟.

فقال المأمون: استأذنْه في ذلك.

ـ فازدادت الهيبةُ والرهبةُ.. وتعقَّد الموقفُ، وتغضَّنت الْجِباه الناقمة.

فتوجَّهَ يحيى بن أكثم إلى الإمام عليه السلام وقال: أتأذن لي، جُعلت فداك، في مسألة ؟.

فقال أبو جعفر عليه السلام: سَلْ إن شئت.

قال يحيى: ما تقول، جُعلت فداك، في مُحْرِمٍ قتلَ صَيْداً ؟.

فقال الإمام عليه السلام، على البديهة:

قتلَه في حِلٍّ أو حرَم ؟.

عالماً كان الْمُحرِمُ، أو جاهلاً ؟.

قتلَه عمداً، أو خطأً ؟.

حُرّاً كان الْمُحرِمُ، أو عبداً ؟.

صغيراً كان، أو كبيراً ؟.

مبتدئاً بالقتل، أو مُعيداً ؟.

من ذوات الطير كان الصيدُ، أم من غيرها ؟.

من صِغار الصيَّد، أم من كِبارها ؟.

مُصِرّاً على ما فعلَ، أو نادماً ؟.

في اللّيل كان قتلُه، أم في النَّهار ؟.

مُحْرِماً كان بالعمرة إذ قتَله، أو بالحجِّ كان مُحرماً »[1] ؟.

ففرَّع عن السؤال أَحَدَ عَشَرَ إشكالاً تقتضي حوالَي عشرين فتوًى ربَّما كان جناب « القاضي » لا يعرف إلاَّ بعضَها القليل.

---

(١) أنظر الاختصاص ص٩٨ ـ ١٠١ وتحف العقول ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٠٢ إلى ص ٤٠٧ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٢٩٨ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٥ والإرشاد ص ٣٠٠ إلى ص ٣٠٣ والصواعق المحرقة ص ٢٠٦ وإعلام الورى ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ وبحار الأنوار ج ٥٠ ص ٧٦ ـ ٧٧ والاختصاص ص ٩٩ وتجده مفصلاً في الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

ولذلك أخذ سربالُ الْجَلالة ينكشطُ عن حضرة القاضي،
وأخذت «صُرَرُ المال» الموعودُ بها، تذوب تِباعاً أمام ناظرَيه،
وأُرتج عليه برِتاجٍ صفيق.. وبان في وجهه العجزُ والانقطاع..
ولَجلجَ «قاضي الأرض» حتى بان لأهل المجلس عجزُه وجهلُه بين يدَي «قاضي السماء»!.
وخنسَ جهلُ قضاة السلاطين الحاكمين.. أمام علْم قاضي أَحكمِ الحاكمين!.
وَبُؤسَى لشهود الزُّور،
ونُعْمَى للذرِّية التي زَكَّاها الله بالتطهير!.
.. فقال المأمون ـ بعد استغلاق القول على قاضيه، وبعد انبهار أعوانه وذَويه ـ:
«الحمد لله على هذه النِّعمةِ والتوفيق لي في الرأي.
ثم نظر إلى أهل بيته «الكرام» وقال لهم: أَعرفتم الآنَ ما كنتم تُنكِرونه؟!!
ثم أَقبلَ على أبي جعفر عليه السلام، فقال:
أَتخطب يا أبا جعفر؟. اخطبْ لنفسك جُعلت فداك، وأنا مزوِّجك أُمَّ الفضل ـ ابنتي ـ وإن رُغم قومٌ لذلك!.
فقال عليه السلام: نعم، يا أمير المؤمنين»[1].

●

وفي صَبيحة اليومٍ التالي رُؤيَ الخليفةُ في مجلسه، ورجالُ حاشيته من حوله ـ وكان يتصدَّر المجلس الفتى العريس.. نعـم العـريس في ذلـك الْعُمـر المبكِّـر ـ فافتتح الخليفة الكلام بِقَولةٍ بليغةٍ فوجىء بها الحاضرون، واضطربت لها الأُسرة العباسية، إذ قال:

---

(١) أنظر مع المصادر السابقة: تذكرة الخواص ص ٣٢١ والكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ وفي بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٧٤ ذكر أن سبط ابن الجوزي ـ في تذكرته ص ٢٠٢ ـ قال: زوَّجه ابنته قبل وفاة أبيه الرِّضا عليه السلام، وهذا وهمٌ لأنه كان يومئذٍ لا يزال في السابعة من عمره. وحينه سمّاها على اسمِه في حياة أبيه عليهما السلام. أما عقد القران فتمَّ سنة ٢٠٥ هجرية وكان في التاسع وأشهرٍ، ولكنه لم يأخذها إليه إلاَّ في سنة ٢١٥ هجرية، والله أعلم.

« الحمد لله الذي تصاغرتِ الأمورُ لمشيئته،
ولا إلّه إلاّ اللهُ إقراراً بِرُبُوبيَّتِه،
وصلَّى اللهُ على محمدٍ عبدِه وخيرتِه.
أما بعد:
فإنَّ الله جعل النِّكاح الذي رضيَهُ لكمال سبب المناسبة.
ألاَ وإنِّي قد زوَّجتُ «زينب» ابنتي من محمدٍ بن عليٍّ بن موسى، الرضا.
وأمهرناها عنه أربعمئة درهم»
فخيَّم وجومٌ هائل على الحضور.. وصُعِقُوا للمفاجأة!.
.. وقطع الوجومَ نهوضُ العريس الفتى ليقول:
« الحمد لله إقراراً بنعمته،
ولا إلّه إلاّ الله إخلاصاً لوحدانيَّته.
وصلَّى الله على محمدٍ سيِّد بريَّتِه، والأصفياءِ من عترتِه.
أمَّا بعد:
فقد كان من فضل الله على الأنام أنْ أغناهم بالحلال عن الحرام، فقال سبحانه: ﴿وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

ثم إن محمَّد بن علي بن موسى، يخطب أُمَّ الفضل بنت عبد الله المأمون، وقد بذل لها من الصَّداق مهر جدَّته فاطمة بنت محمد. وهو خمسمئة درهمٍ جِياداً. فهل زوَّجتَني يا أمير المؤمنين بها، على هذا الصداق المذكور؟.

فقال المأمون:
نعم قد زوَّجتُك يا أبا جعفر أمَّ الفضل ابنتي على الصداق المذكور، فهل قبلتَ النكاح؟
قال أبو جعفر عليه السلام:

---

(١) النور - ٣٢.

قد قبلتُ ذلك ورضيتُ به »[1].

وهجمت مظاهر الأفراح.. حين انفجر بركانٌ آخرُ.. من نوعٍ آخرَ، ذي طُغيان،

إذ برزت معالِمُ العرس الملوكيِّ..

وانطلقت حناجرُ خدمِ القصر تقلِّد الملاَّحين،

إذ جرُّوا في باحة القصر سفينةً مصنوعةً من الفضَّة،

مشدودةً بحبالٍ من الإبريسم.. تسير على عَجلةٍ.. وهي مملوءةٌ بالطِّيب والعطور.

فأمر المأمونُ الخاصةَ بالتطيُّب.. ثم أمَر من بعدهم العامَّة بذلك.

وتلا ذلك تَقاطرٌ إلى ما حولَ الموائد الشهيَّة، والولائم الفاخرة التي صُفَّتْ في ردهات القصر، فأكل الجميعُ بعد أن تطيَّبوا وتعطَّروا.

ثم خرجت بعد الفراغ من الأكل، هدايا وجوائزُ لتوزَّع من الغد بحسب مراتب الناس وأقدارهم.

.. وإذ حان الموعدُ، اجتمع الناسُ وسائرُ القوَّاد والحجَّاب، والخاصة والعامة، للتهنئة والتبريك.. فأُخرجت ثلاثةُ أطباقٍ من الفضَّة.. فيها بَنادقُ مسكٍ وزعفران.. معجونٌ في أجوافها رقاعٌ مكتوبةٌ:

بأموالٍ جزيلة،

وعطايا سنيّة،

وإقطاعات عقاريَّة..

أمر المأمون بنثرها على القوم من خاصتّه، فكان كلُّ مَن وقع في يده بندقةٌ يُخرج الرُّقعة التي فيها، ويفوز بما كُتب له في الصكّ!.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٧٣ وص ٧٦-٧٧ وإعلام الورى ص ٣٣٦ إلى ٣٣٨ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٢ نقلاً عن تاريخ بغداد للخطيب، ورواية عن يحي بن أكثم قاضي قُضاة المأمون. وانظر الإرشاد ص ٢٩٩-٣٠٤ في حديث طويل، وتذكرة الخواص ص ٣٢١ والأنوار البهيَّة من ص ٢١٢ إلى ص ٢١٥ وحلية الأبرار ج ٢ من ص ٤٠٢ إلى ص ٤٠٧ بتفصيل، والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٢٩٥-٢٩٦ وص ٢٩٩ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٣ وص ١٤٥-١٤٦ وص ١٦٠ والصواعق المحرقة ص ٢٠٦ وإعلام الورى ص ٣٣٦-٣٣٧ والاختصاص من ص ٩٨ إلى ص ١٠١ وتحف العقول ص ٣٣٢-٣٣٣ وبعض المصادر السابقة لهذا الرقم.

ثم وُضعت البدَر... فنُثر ما فيها على القواد وغيرهم،
فانصرف الناسُ وهم أغنياء بالجوائز والعطايا،
ثم فاضت أريحيَّة المأمون فتقدَّم بالصدقة على كافة المساكين،
وكان عرسٌ.. قَلَّ نظيرُه في العالَمين»[1].

•

أجلْ، كان عرسٌ تجلَّى فيه البذخُ والسرَف،
وفاض فيه السرور، والحبور،
وكان قرانَ امتحانٍ.. لسفير الرَّحمان.. وترجمان القرآن!.
وتَمَّ زواجٌ نادرُ المثال في مراسم الفخامة والضخامة والأُبَّهة والبذخ والبذل غير المحدود!.
وما درى أحدٌ ـ غير الإمام عليه السلام ـ أنَّه تَمَّ اغتيال الإمام، ووُضع في قفصٍ ـ هو بالحقيقة ـ للاتِّهام، وإن كان ذهبيَّ الإخراج!.
ذاك أن القِران ـ بحدِّ ذاته ـ كان قرانَ لُعبةٍ سياسيَّة مفضوحةٍ، ينتظر المأمونُ أن يجيء فيها حسابُ الحقل على حساب البيدر!.
وأنَّه امتحانٌ فقهيٌّ، ذهبت فيه تخميناتُ عبَّاسيِّي الخليفة أدراجَ الرِّياح،
إذ كان امتحاناً خُلقيّاً.. سقطتْ فيه خُلقيَّةُ الحُكم، وفقاهة قُضاة القصر.
بل هو امتحانٌ إنسانيٌّ.. رسب فيه «سيِّد القصر»... وارتفع فيه الإمامُ إلى مصافِّ الصَّفوة من الأولياء، والأنبياء، والرُّسل!.
لأنه دخل إلى قصر الظُّلم.. ليفضح الظالمين..

•

أمَّا ذَنْبُ الإمام ـ ومبرِّرُ اغتياله ـ فهو كونُه إماماً «يقيناً» من أئمَّة أهل البيت

---

(١) أنظر بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٧٩ وهو كذلك في الإرشاد ص ٢٩٩ـ٣٠٤ والاختصاص ص ١٠١ وتحف العقول ص ٣٣٣ـ٣٣٤ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠١ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٥ إلى ١٤٨ وإعلام الورى ص ٣٣٨ والاختصاص ص ٩٩ـ١٠٠ وتجده مفصلاً في الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٤٤٥.

الهاشميّ الأُلَى تولّى الحاكمون إبعادَهم عن الناس، وعَزْلَهم عن مراتبهم.. بالقتل!.

والذي يلفت النظر في مظاهر هذا العرس، أن «خليفة المسلمين» يبذِّر «مال المسلمين» ويَهَبُ أرض خراج المسلمين إلى القوّاد والأعوان والممكِّنين له سلطانَه، في حين «أن أمير المؤمنين عليَّ بنَ أبي طالبٍ عليه السلام، كان يَكنس «بيت المال» كلَّ يوم جُمعة ـ بعد أن يكون قد قسَّم جميع ما فيه على مستحقِّيه، وحَرَمَ نفسَه ـ،

ثم يَنضحُه بالماء بعد الكنْس،
ثم يصلِّي فيه ركعتَين،
ثم يقول: تَشهدانِ لي يومَ القيامة»[1].

فَلَم يكن أمير المؤمنين عليه السلام ليستأثر بشيءٍ من «مال المسلمين» لنفسه بل لم يكن يدَع يومَ الجمعة التالي يأتي وفي «بيت المال» شيءٌ، وفي الناس ذو حق..

وما قسَّم المال على الحاشية ولا على الأقرباء أيُّها «المأمون» على أموال الأمة، ولا على الأعوان!.

وما من أحدٍ في المخلوقين يملك ناصيةَ الإيمان إلاَّ الإمامُ عليه السلام،
لأنه النبراسُ السماويُّ الذي يستضيء به رُوَّاد الإسلام والإيمان في أرض الله.

●

ومضى نهارُ العرس قصيراً.. لأنه ضاق بما جرى فيه من معالم الفرَح!.

ولكنه لم تَغب شمسُه إلاَّ وقد أصبح الخيطُ بأيدي النِّساء.. والنساءُ إذا أمسكنَ خيوط الْحَبْك، ووقفنَ على خطِّ الأحداث، أَحكمنَ لُعبةَ التحريك!.

فسريعاً ما نهضت عمَّة العروس رافعةً رأسها.. بارزةً إلى الميدان، لتُمارس حبكة النِّسوان.. فأرسلت بياسر ـ خادمِ القصر المقرَّب ـ ليستأذن على الإمام العريس ويقول ـ بحسَب رواية أبي هاشم بن القاسم الجعفري ـ:

---

(١) أنظر الوسائل م ١١ ص ١٣ وسائر الكتب التي عرضت لسيرة خلافته (ع) في الكوفة.

«يا سيِّدنا، إنّ سيِّدتنا أُمَّ جعفر ـ أُخت المأمون ـ تستأذنك في المصير إلى «ستّنا» أُمّ الفضل.

فقال الإمام ـ عليه السلام ـ للخادم ـ: قُل لها: أَقبِلي علينا بالرَّحب والسَّعة.

ووافتْ أُمُّ جعفر، فاستأذنت عليه قبل استئذانها على أُمِّ الفضل، ودخلت **فسلَّمت عليه واستأذنتْهُ في الدخول على زوجته.. ثم ما لبثتْ أن عادتْ إليه وقالتْ** له:

يا سيِّدي، إنِّي أُحبُّ أن أراك مع ابنتي في موضعٍ واحدٍ، فتقرَّ عيني وأَفرح، وأُعرِّف أمير المؤمنين اجتماعَكما، فيفرح.

فقال ـ عليه السلام ـ: ادخُلي، فإنِّي على الأثر.

فدخلتْ. ودخل الإمامُ عليه السلام، والسُّتورُ تُشالُ بين يدَيه..

ولكنّه، ما لبثَ أنْ خرجَ راجعاً وهو يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ!.﴾[1] ثم جلس.

وخرجت العمَّةُ ـ مذعورةً للمفاجأة ـ تتعثَّر بذيول الْخَيبة لفرط الدَّهشة، ثم قالت: يا سيِّدي، أنعمتَ عَلَيَّ بنعمةٍ لم تُتِمَّها بالجلوس؟!.

فقال عليه السلام: ﴿أَتَى أمرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ..﴾[1] إنَّه حَدَثَ ما لا يَحسن معه الجلوس، فارجعي إلى أُمِّ الفضل فاستخبريها عنه، فإنَّه من سِرِّ النساء.

ـ ذلك أن العروس أخذتها الدَّهشة من هيبة الإمام عليه السلام، وصعقَها جمالُه وشعاعُ هالة النُّور المحيط بطَلعته المشرقة، فجاءها ما يجيءُ النسوان في غمرة هذه المفاجأة الْمُذهِلة، وأصابَها ما أصابَ «صُوَيحباتِ يوسف» عليه السلام من قبلُ.. فتقطَّعتْ نِياطُ قلبها وحدَث ما لا حُكمَ لها عليه!.

ودخلت عليها العمَّة، وعادت خائبةً.. لأن العروس اعترفت لها بما قاله عنها الإمام عليه السلام، وقالت: يا عمَّةُ، وما أَعْلَمَهُ بذاك منِّي؟!!

---

(١) يوسف ـ ٣١ والنحل ـ ١، وانظر المصادر التالية لهذا الرقم.

فقالت لها: وما هو يا بُنَيَّة؟. ظننتُ أنه رأى في وجهكِ كُرهاً، فرجع!.

قالت: لا واللهِ يا عمَّةُ ما رأى كُرهاً.. ولكنْ، كيف لا أدعو على أبي وقد زوّجني من ساحر؟!.

فقالت لها عمَّتُها: لا تقولي هذا القول، فليس رأيُ أبيكِ فيه، ولا في أبيهِ قبلَه، رأيَكِ، فما الذي حدَث؟!.

قالت أمُّ الفضل ـ العروس ـ: واللهِ، يا عمَّةُ، إنَّه لمّا طلعَ عَلَيَّ جمالُه، حدَث لي ما يَحدث للنساء. فضربتُ يدي إلى أثوابي وضَممتُها!.

فَبُهِتَتِ العمَّةُ من قولها، وخرجت تَوّاً فدخلت على الإمام عليه السلام، وقالت: يا سيِّدي، تَعلم الْغَيب!.

قال: لا.

قالت: فنزلَ إليك الوحي؟.

قال: لا.

قالت: فَمِنْ اين لك عِلْمُ ما لا يَعلمُه إلاّ الله، وهي؟!!

قال: وأنا أيضاً أعلمُه. مِنْ عِلْمِ الله عِلْمُنا، وعن الله نُخْبِر.

قالت: يا سيِّدي، وما كان إكبارُ النسوة اللّواتي خرج عليهنَّ يوسف؟.

قال: هو ما حصلَ لأُمِّ الفضل من الْحَيض»[1].

•

«ثم لـمَّا كان ضحى النهار التالي لليلة الفرح، كان أول المهنئين للإمام عليه السلام، أبو هاشم الجعفريُّ الذي دخل عليه وقال: يا مولاي، قد عَظُمَتْ علينا برَكةُ هذا اليوم.

فقال عليه السلام: يا أبا هاشم، عَظُمَتْ بَرَكاتُ الله علينا فيه.

قال: نعم، يا مولاي. فما أقول في اليوم؟.

فقال: تقول فيه خيراً، فإنه يُصيبك.

---

(1) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٨٣ـ٨٤ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٩٨ـ١٩٩ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤١٥ـ٤١٦ وهو في مصادر أخرى متعدِّدة عرضت لتفصيل ذلك الزواج.

قال: يا مولاي، أَفعلُ هذا ولا أُخالفُه.

قال عليه السلام: إذاً ترشَد ولا ترى إلاَّ خيراً »[1].

وقال الحسين المكاري:

« دخلتُ على أبي جعفر ببغداد وهو على ما كان من أمره ـ أي من النعيم والإقامة في قصر الخلافة ـ فقلتُ في نفسي: هذا الرجل لا يرجع إلى موطنه أبداً، وما أَعْرَفَ مَطْعَمه! ـ أي ما أكثرَهُ وأَطْيَبَهُ وأحسنَهُ ـ.

فأطرق ـ الإمام ـ رأسه ثم رفعه وقد أصفرَّ لونُه فقال:

يا حسين، خبزُ شعير، وملحٌ جريش في حَرَم رسول الله أَحَبُّ إليَّ ممَّا تراني فيه »[2].

ذاك أن الدُّنيا ـ بما فيها ـ لا تساوي عند الأئمَّة جَناحَ بَعوضة.

•

وبعد أفراح الْقِران ـ عَقيب التجلِّي في الامتحان ـ على الشكلَين اللذَين رأينا، وفي ذَينك المكان والزمان، جمع المأمونُ علماء دولته، وفقهاء إمارته، ووزراءه، وقُوَّاده، والأعيانَ وبعضَ الخاصة، وأمرَ أن يجلسوا بحسب مراتبهم، ثم قال لأبي جعفر عليه السلام:

إنْ رأيتَ، جُعلت فداك، أن تَذكر الفقهَ في ما فصَّلْتَهُ من وجوه قتلِ الْمُحرم الصيدَ، لِنَعْلَمَهُ ونستفيدَه. ـ أي ما سأله عنه يحيى بن أكثم يوم الامتحان ـ.

فنظروا ـ جميعهم ـ إلى ذلك الفتى الكريم، المتربِّع على عرشٍ من العروش التي أعدَّها الله تبارك وتعالى لإظهار عظَمته وقُدرته في نُصرة أنبيائه وأوليائه، حين يعترض أهلُ البهتان مسيرتَهم في إظهار أمرِه، وحين ينالون من قُدسيَّة إرادته عزَّ وعلا بالتعدي على حُرماته وكرامة أصفيائه.

فهالَهم ما رأَوا فيه من رُوح المحمَّديَّة والعلويَّة، ومن رَوح النبوَّة والوصيَّة،

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٧٩ وتحف العقول ص ٤٧٩.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٤٨ ومختار الخرائج والجرائح ص ٢٠٨.

مجسّدتَين تحت هالةٍ تشعُّ من سُمرة المخلوق المجتبى ـ العظيم، الذي أرادوا مبارزته تحدّياً لصُنع الله تعالى في هذا البيت المطهَّر، فبهرَهم الجوُّ المحيطُ به من الهيبة والرهبة.. قبل أن يتكلّم!.

ودخل في حُسبانهم أن تَخيب آمالُهم مرةً ثانيةً بما يَظهر من عِلْمِه وفضله، وأن يُصيبهم الفشلُ والخذلان ـ إذِ الحقُّ أَحَقُّ أن يُتَّبع ـ وإذ هم ـ في قرارة نفوسهم ـ يعرفون قَدْرَ أهل هذا البيت وحقَّهم، ولكنَّهم ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفْوَاهِهِمْ، وَيَأْبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ!.﴾[1]. فاستولت عليهم الرهبة واحتبَسوا أنفاسهم حين قال أبو جعفر عليه السلام:

نعم،

إنَّ الْمُحرم إذا قتل صيداً في الْحِلِّ، وكان الصيدُ من ذوات الطير، وكان من كبارها، فعليه شاة،

وإذا قتل فرخاً في الْحِلِّ، فعليه حَمَلٌ قد فُطِمَ من اللَّبن،

فإنْ أصابه في الْحَرم فعليه الجزاء مضاعفاً.

وإذا قتله في الحرَم فعليه الحمَلُ وقيمةُ الفرخ.

فإذا كان من الوحش، وكان حمارَ وحشٍ، فعليه بقرة،

وإن كان نعامةً فعليه بدنة.

وإن كان ظبياً فعليه شاة.

وإن كان قتلَ شيئاً من ذلك في الحرَم، فعليه الجزاء مضاعفاً، هدياً بالِغَ الكعبة.

وإذا أصاب الْمُحرم ما يجب عليه الْهَدْيُ فيه، وكان إحرامُه بالحجِّ، نَحَرَهُ بِمِنَى،

وإن كان إحرامُه بالعمرة، نحرَه بمكة،

وجزاءُ الصيد على العالِم والجاهِل سواء،

وفي العمد عليه المأثَم،

وهو موضوع عنه في الخطاء،

---

(١) التوبة ـ ٣٢.

والكفَّارة على الْحُر في نفسه،
وعلى السيِّد في عبده.
والصغيرُ لا كفَّارةَ عليه،
وهي على الكبير واجبة.
والنَّادمُ يُسقط عنه نَدَمُهُ عقاب الآخرة،
والمصرُّ يجب عليه عقاب الآخرة»[1].

●

فَـ ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟!»[2].

وبذلك بسط الإمام عليه السلام ـ على مسامعهم ـ تسعَ عشرةَ فتوًى تفرَّعت عن سؤال قاضي القضاة،

فتفتَّحت أساريرُ وجوهٍ قليلة،
وقطَّبت وتقبَّضت وجوهٌ كثيرة.
واسودَّت وجوه الفقهاء!.

ووقعت الكُرة في الْمَضْرب لِصُالحِ المأمون مرةً ثانيةً بعد أن فاز بالضربة الأولى، فقال ليحي بنِ أكثم: اطرحْ على أبي جعفر، محمد بنِ عليٍّ الرِّضا، مسألةً ثانيةً لعلّك تَقطعُه فيها.

فنهض العبدُ المطيع يتعثَّر بأطراف ثوبه، وركع بين يَدي الإمام الفتى عليه السلام، وقال ممتثلاً أمر سيِّده:

يا أبا جعفر، ما تقول في رَجُلٍ نكحَ امرأةً على زِنًى، أيَحِلُّ له أن يتزوَّجها؟.

فقال عليه السلام: يدَعُها حتى يستبرئَها من نُطفته ونُطفة غيره، إذ لا يُؤْمَنُ

---

(١) الاختصاص ص ١٠٠ وتحت العقول ص ٣٣٣ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٠ـ٣٨١ وحلية الأبرار ج ٢ من ص ٤٠٢ إلى ص ٤٠٧ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٢٩٨ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٥ـ١٤٧ والإرشاد ص ٣٠٢ والاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٤٤٥.

(٢) المائدة ـ ٧٥.

منها أن تكون قد أَحدثتْ مع غيره حَدثاً كما أَحدثتْ معه، ثم يتزوَّجها إذا أراد. فإنَّما مَثَلُها كَمَثَلِ نَخلةٍ أكلَ رجلٌ منها حَراماً، ثم اشتراها فأكل منها حلالاً »[1].

فوجم الشيخ.. وهيمن على الكُلِّ جوُّ التعظيم للبديهة الرشيدة، وللنموذج الربَّاني الكبير الظاهر في هذا الفتى ـ الْمُعجز!.

ثم قطع الصَّمت صوتُ المأمون الذي قال:

أحسنتَ يا أبا جعفر، أحسنَ الله إليك!. فإنْ رأيتَ أن تسأل يحي عن مسألةٍ كما سألك.

فاحمرَّ وجهُ القاضي، واخضرَّ، واصفرَّ.. واربدَّ، ثم اسودَّ وتمغَّر وكاد أن يُسمع أزيزُ صدره رعباً من الورطة التي زجَّه الخليفةُ فيها.

وأدرك الإمامُ عليه السلام حرجَ موقف القاضي، فقال يخيِّره بلُطف: أَسألُك؟.

فلم يجدْ يحي بُدّاً من القول: ذاك إليك جُعلت فداك.

ثم وجد منفذاً للهروب والخلاص فقال متمِّماً: فإن عرفتُ جواب ما تسألني عنه، وإلاَّ استفدتُه منك.

شأنه في موقفه شأنُ سَحَرةِ فرعون لَمّا اتَّضحت لهم آيةُ ربِّهم، فآمنوا بها ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهٰرُونَ﴾[2].

وإذ أَلقى الْمُفتي السلطانيُّ الخطيرُ عصاه، وأَظهرَ إيمانَهُ علناً، قال الإمامُ عليه السلام:

« أَخْبِرْني عن رَجُلٍ نظر إلى امرأةٍ في أول النهار، فكان نظرُه إليها حراماً عليه،

فلمَّا ارتفع النَّهارُ حلَّت له،

فلمَّا زالت الشمسُ حَرُمت عليه،

---

(١) تحف العقول ص ٣٣٥ وغيره من مصادر بحثنا.

(٢) الأعراف ـ ١٢٠ ـ ١٢٢ والشعراء ـ ٤٧ ـ ٤٩.

فلمَّا كان وقتُ العصر حلَّت له،
فلمَّا غربت الشمسُ حَرُمت عليه،
فلمَّا دخلَ وقتُ الْعِشاء الآخرة حلَّت له،
فلمَّا كان وقتُ انتصافِ اللَّيل حَرُمت عليه،
فلمَّا طلعَ الفجرُ حلَّت له.
ما حالُ هذه المرأة؟ وبماذا حلَّت له؟ وحَرُمت عليه؟!!»[1].

ولَكأنَّه سُمع همسُ القاضي الذي يجول في صدره ويَعتمل به فكرُه قائلاً بتعجُّب فيما بينه وبين نفسه:

امرأةٌ واحدةٌ، تحلُّ لرجل واحدٍ، أربعَ مرَّاتٍ في اليوم، وتَحْرُم عليه أربعَ مراتٍ في ذلك اليوم؟!! هذا عِلْمُه عند ربِّي، ولا يُحيط به فقهي.. ولا فقهُ أحد!.

وهل هذا من الْبِدْع في الشَّرع؟.
أم أنَّه لم يَنزل به حُكم؟.
هذا ممَّا لا يَعرفه إلاَّ مَن كان عِلْمُه من عِلْمِه تعالى!.

.. أما الْحُضور.. فَعَلاهم صمتُ أهــل القبــور.. وانــزوَوْا في زوايـا المجلس كالخُشُب المسنَّدة، وكالصخور!.

وتَقوقعَ كلُّ الْجُلَساء على أنفسهم، كالخنافس، رغم أن الإمام عليه السلام فتحَ على الجميع بابَين للتفكير بالْمَخرج حين قال:

ما «حال» تلك المرأة؟.
وبماذا حلَّت له، وحَرُمت عليه؟.

لأن للنساء حالاتٍ كثيرةً... وللتحليل والتحريم ـ في شرعنا ـ فروعٌ أكثر..

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨١ وتحف العقول ص ٣٣٥ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٠ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٧ والإرشاد ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ والصواعق المحرقة ص ٢٠٦ وإعلام الورى ص ٣٣٧ والاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦.

وكان ينبغي لهم أن يحاولوا، لو لم يكونوا بين يدي الإمام عليه السلام!.

فبوجوده الْمُرعب لهم، سُدَّت عليهم منافذُ التفكير.. وكان «الشيخُ يحيى» أولَ مَن لَمْلَمَ شتاتَه بين الحاضرين واعترف بالعَيِّ فقال للإمام عليه السلام بصراحة:

لا واللهِ لا أهتدي إلى جواب هذا السؤال، ولا أعرف الوجه فيه. فإنْ رأيتَ أن تُفيدنا.

وشمتَ المأمون بأقاربه ـ خاصةً ـ وبجميع مَن لَفَّتهم الخيبة وباؤوا بالفشل!.

وجاء دورُ كرَمِ خُلق الإمام الفتى، ودورُ ما برأه الله تعالى عليه من الطِّيبة والجدارة بحملِ أمرِه حيث جعلَه عَيبةَ عِلْمِه، فقال عليه السلام:

هذه أَمَةٌ لرجلٍ من الناس:
نظر إليها أجنبيٌّ في أول النهار فكان نظرُه إليها حراماً عليه،
فلمَّا ارتفع النهارُ ابتاعها من مولاها فحلَّت له،
فلمَّا كان عند الظُّهر أعتقها، فَحَرُمت عليه،
فلمَّا كان وقتُ العصر تزوَّجها، فحلَّت له،
فلمَّا كان وقتُ المغرب ظاهَرَ منها، فَحَرُمت عليه،
فلمَّا كان وقتُ العشاء الآخرة كفَّر عن الظهار، فحلَّت له،
فلمَّا كان نصفُ الليل طلَّقها واحدةً، فحرُمت عليه،
فلمَّا كان عند الفجر راجَعَها، فحلَّت له[1].

●

فقد كلَّف الإمامُ عليه السلامُ قاضيَ السلطان أنْ يَستخرج مُخَّ البعوضة!.

وأَنْ نُكلِّف خاطر ذلك القاضي أن يعلَم كيف تحلُّ امرأةٌ واحدةٌ لرجلٍ واحدٍ، أربع مراتٍ في اليوم، وكيف تَحْرُم هي ذاتُها، عليه هو ذاتُه، أربع مراتٍ في ذلك اليوم، هو تكليفٌ فوق مقدوره، وعبءٌ لا يقوم به إلاَّ مَن كان كالإمام يُزَقُّ العِلْمَ زَقّاً، ويُرْفَدُ بالإلهام..

(١) أنظر جميع مصادر الرقم الذي قبل السابق.

وقد كان المأمون يتمنّى ويعمل جاهداً في أن يقطع الإمـامَ عليـه السلام ولـو بسؤال، ويُعْيِيَهُ ولَو بجواب، ويهتبل كلَّ فرصةٍ لِيُحرجَهُ فيُخرجَهُ عن حدِّ المعقول، فيفتك به علناً.. ولكنه كان يبوءُ بالخسران.. وتَشِيلُ بالإمام «الصغير» كِفَّةُ الميزان!.

فالمأمونُ لم يَقعد عن رغبته في إبطال علمِ الأئمَّة ليربح المعركة في خصومتهم ويجتثَّ شجرتَهم. وكان منذ أيام أبيه الرضا عليه السلام يجلب جهابذة المتكلِّمين من أهل الْفِرَقِ ليُجلبِ عليهم ويَقطع حُجتهم ويُعجزهم ولَو بسؤال واحد!.

آيةُ ذلك أن الدعوة الإمامية لم تكن لتؤثِّر في نطاق حكم العباسيين تأثيراً ظاهريّاً فحسب، بل كانت تُرِي حُكمَهم باطلاً. وتَهدف إلى هدم كلِّ ظُلمٍ وطغيانٍ مهما كان نوعه، ولإماتة الباطل وإحياء الحقِّ وإعادة أمور الدين إلى نصابها.. فكان المأمون يرى في إمامة هذا «الصغير» خطراً داهماً يتحدَّاه بعد إمامة أبيه «الكبير» لأن الأمر سيبدو للعامِّ والخاصِّ بشكل «إمامةٍ ـ معجزةٍ» قذفتهم بها السماء!.

فلا بدَّ لها من التصدِّي.. والتحدِّي.

فَلْيجمع العلماء المخالفين، والفقهاء غير الموالين من هاهنا وهاهنا لِيُعجز هذا «الصغير».. الخطير!. ويورِّطَهُ بأية وسيلةٍ كانت..

.. وعلى هذا الأساس نفخ قاضيَهُ يحي بن أكثم بالعصبية الحاقدة ـ التي كانت مستفحلةً في ذلك العصر ـ حتى جعل كرشَهُ كالبالون، وعقد مجلساً حافلاً بالناس تَنحنحَ فيه القاضي «الوارم» وترنَّح وتواقَحَ فاستأذن ـ من الخليفة والإمام ـ وقال:

«ما تقولُ يا ابن رسول الله في الخبر الذي رُوي: أنه نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ وقال: يا محمد: إن الله يُقرئك السلام ويقول لك: سَلْ أبا بكرٍ هل هو عنيٍّ راضٍ، فإنِّي عنه راض؟.

فقال أبو جعفر: لستُ بِمُنكِرٍ فضل أبي بكر، ولكنْ يجب على صاحب هذا الخبر أن يأخذ مثال الخبر الذي قاله رسولُ ﷺ في حِجة الوداع:

«قد كَثُرَتْ عَلَيَّ الكذّابة، وستكثُر. فمَن كذَب عَلَيَّ متعمّداً فَلْيتبوّأْ مَقْعَدهُ

من النار. فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسُنّتي، فما وافق كتابَ الله وسُنّتي فخذوا به، وما خالف كتابَ الله وسُنّتي فلا تأخذوا به».

وليس يوافق هذا الخبرُ كتابَ الله. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ، وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]. فالله عزَّ وجلَّ خَفِيَ عليه رضا أبي بكرٍ من سُخطه حتّى سأل من مكنون سِرِّه؟!. هذا مستحيلٌ في العقول.

قال يحيى: وقد رُوِيَ أَنَّ مثَل أبي بكرٍ وعُمَرَ في الأرض كمثَلِ جبرائيلَ وميكائيلَ في السماء؟.

فقال: وهذا أيضاً يجب أن يُنظر فيه، لأن جبرائيلَ وميكائيل ملَكان لله مقرَّبانِ لم يَعصيا الله قَط، ولم يفارِقا طاعتَهُ لحظَةً واحدة.. وهما قد أشركا بالله عزَّ وجلَّ وإنْ أَسلما بعد الشِّرك. وكان أكثرُ أيامهما في الشِّرك بالله، فمحالٌ أن يُشَبِّههما بهما.

قال يحيى: وقد رُوِيَ أنهما سيِّدا كُهول أهل الجنَّة، فما تقول فيه؟.

فقال عليه السلام: وهذا الخبر محالٌ أيضاً، لأن أهل الجنَّة كلّهم يكونون شباباً، ولا يكون فيهم كهل. وهذا الخبرُ وضعَهُ بَنو أُميَّة لمضادَّة الخبر الذي قال رسول الله ﷺ في الحسن والحسين بأنهما سيِّدا شباب أهل الجنَّة.

فقال يحيى بن أكثم: ورُوِيَ أن عُمر بن الخطّاب سراجُ أهل الجنَّة.

فقال عليه السلام: وهذا أيضاً محالٌ، لأن في الجنَّة ملائكةَ الله المقرَّبين، وآدمَ، ومحمداً، وجميعَ الأنبياء والمرسلين، لا تضيء بأنوارهم حتى تضيء بنور عمر؟.

فقال يحيى: وقد رُوي أن السَّكينة تَنطق على لسان عُمر.

فقال عليه السلام: لستُ بِمُنكِرٍ فضائلَ عُمر، ولكنَّ أبا بكرٍ أفضلَ من عمر، فقال على رأس المنبر: إنَّ لي شيطاناً يعتريني، فإذا مِلْتُ فَسَدِّدوني.

---

(١) قَ - ١٦.

فقال يحي: قد رُوِيَ أن النبيَّ ﷺ قال: لَو لم أُبعث لَبُعِثَ عُمر.

فقال عليه السلام: كتابُ الله أَصدقُ من هذا الحديث. يقول الله في كتابه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ، وَمِنْكَ، وَمِنْ نُوحٍ﴾[1].. فقد أخذ الله ميثاق النبيِّن، فكيف يمكن أن يُبَدِّل ميثاقَهُ؟. وكان الأنبياءُ لم يُشركوا طرفة عينٍ، فكيف يُبعث بالنبوَّة مَن أشرك وكان أكثرَ أيامه مع الشِّرك بالله، وقال رسولُ الله ﷺ: نُبِّئْتُ وآدمُ بين الرُّوح والجسد؟!!

قال يحي بن أكثم: وقد رُوِيَ أن النبيَّ ﷺ قال: ما احتبسَ الوحيُ عنِّي قَطُّ، إلاَّ ظننتُه قد نزل على آل الخطَّاب.

فقال عليه السلام: وهذا محالٌ أيضاً، لأنه لا يجوز أَنْ يشكَّ النبيُّ ﷺ في نبوَّته. قال الله تعالى: ﴿أَللهُ يصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً، وَمِنَ النَّاسِ﴾[2].. فكيف يمكن أن تنتقل النبوَّة ممَّن اصطفاه الله، إلى مَن أشركَ به؟!.

قال يحي بن أكثم: رُوِيَ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: لو نزل العذابُ لَمَا نَجا منه إلاَّ عُمر.

فقال عليه السلام: وهذا محالٌ أيضاً، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فيهم، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3]. فأخبر سبحانه أن لا يعذِّب أحداً ما دام فيهم رسولُ ﷺ، وما داموا يستغفرون الله تعالى»[4].

ورأى ذلك المأمون، وسمع...

ونظر إلى البعيد البعيد فرأى إمامة هذا «الإمام الصغير» أخطرَ من إمامة الكبير.. لأنَّها في غاية التسديد والتأييد.. ولا يقوم لها شيء!.

---

(١) الأحزاب ـ ٧.

(٢) الحج ـ ٧٥.

(٣) الأنفال ـ ٣٣.

(٤) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٨٠ إلى ص ٨٣ وهو في الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٤٤٦ـ٤٤٩ وأنظر حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٧.

وإذا هو لم يلجأ إلى اغتياله واغتيال أتباعه ـ عاجلاً ـ استفحل أمرُهُ وكَثُرَ القائلون بإمامته.. وكان ما لا تُحمد عقباه ـ آجلاً ـ..

ورأى غيرُ المأمون ذلك أيضاً، وتنبَّهوا إلى عمق تأثيره عليه السلام في العقول، وإلى قُدرته الفائقة على كسب الوقت لإظهار الحقِّ الذي هو عليه، والباطل الذي هم عليه.. فخافوا جميعهم ـ أن تَفسدَ أُحدوثتُهم لدى الناس..

•

ولذا أقبلَ المأمونُ على مَن حضره من أهل بيته فقال لهم:

هل فيكم من يُجيب على هذه المسألة بمثل هذا الجواب، أو يعرف القول فيما تقدَّم من السؤال؟!!.

قالوا: لا واللهِ، إنَّ أمير المؤمنين أَعلمُ بما رأى.

فقال المأمون: ويحكم، إنَّ أهل هذا البيت خُصُّوا من الْخَلق بما ترَون من الفضل.

وإنَّ صِغَرَ السنِّ لا يمنعهم من الكمال.

أَمَا عَلمتم أنَّ رسول الله ﷺ افتتح دعوتَهُ بدعاء عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام وهو ابنُ عشر سنين، وقَبِلَ منه الإسلام، وحكمَ له به، ولم يَدْعُ أحداً في سنِّه غيرَه؟.

وبايع الحسنَ والحسينَ عليهما السلام وهما دون الستِّ سنين ولم يبايع صبيّاً غيرَهما؟.

أَوَلاَ تَعلمون الآنَ ما اختصَّ الله به هؤلاء القوم،

وأنَّهم ذُرِّيةٌ بعضُها من بعضٍ، يجري لآخرهم ما يَجري لأوَّلهم؟!.

قالوا: صدقتَ يا أمير المؤمنين[1].

---

(١) أنظر في كل ما سبق بحار الأنوار ج ٥٠ من ص ٧٦ إلى ص ٧٨ والاحتجاج للطبرسي ج ٢ من ص ٢٢٧ إلى ص ٢٢٩ والإرشاد للمفيد من ص ٢٩٩ إلى ص ٣٠٤ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٤ وأنظر ص ١٤٧ تجده ببعض الاختصار، وهو في إعلام الورى ص ٣٣٧-٣٣٨.

ثم نهض القوم.. واضطرمت نارُ الحقد، وبدأ أجيجُها في الصدور.. وسُمِعَ حسيسُها منذئذٍ جلياً.. بعد أن أشعلَ المأمونُ الفتيل.

•

ولم يكن صدرُ هذا المأمون بأقلِّ صدورِ قومه احتواءً للحقد ـ بالرغم من كلمة الحقِّ التي قالها ـ ولا أقلَّ منها حسيساً وحسداً وتأجُّجاً.. فهو ماهرٌ في التمثيل، ساهرٌ على «عباسيته» دون بديل، يصطنع الحيَل التي لا يصل إلى فهمها قومُه ولا غير قومه، لأنه هو مَن هو في الفهم والعلم وحبك المؤامرات.

وليس مَن يَعلم كمَن لا يَعلم مِن أمر حبس الإمام في سجن ذلك الْقِران، ومِن تجنيد المرأة لبلوغ غاياتٍ معيَّنة.

ولا يظننَّ ظانٌّ أني أظلم «المأمون» أو أفتري عليه حين أكشف عن بصَمات يده في المكيدة للأئمَّة عليهم السلام، بعد إكرامه الظاهر لاثنَين منهم زوَّجهما ابنتَيه الواحدة بعد الأخرى، وبعد تولية أوَّلها واحتضان ثانيهما وإظهار فضله وكراماته.

فقد قال الحسنُ بنُ الجهم: «دخلتُ على الرِّضا عليه السلام، وقلتُ له: يا ابنَ رسول الله، الحمد لله الذي وهبَ لك من جميل رأي أمير المؤمنين ـ المأمون ـ ما حمله على ما أرى من إكرامه لك وقبوله لقولك.

فقال عليه السلام: لا يغرَّنك ما أَلْفَيْتَهُ عليه من إكرامي والاستماع منِّي، فإنه سيقتلني بالسمِّ وهو ظالمٌ لي.

إنِّي أعرف ذلك بعهدٍ معهودٍ إليَّ من آبائي عن رسول الله ﷺ.
فاكتُمْ هذا ما زلتُ حيّاً»[1].. فَفَعل.. وهذه واحدة.
والثانية أنَّ أحمد بنُ عليٍّ الأنصاريّ قال: «سألتُ أبا الصلت الهرويَّ فقلتُ له:

كيف طابت نفسُ المأمون بقتل الرِّضا عليه السلام، مع إكرامه ومحبَّته له وما جعلَ له من ولاية العهد بعدَه؟!!

فقال: إنَّما كان المأمون يُكرمه ويُحبُّه لمعرفته بفضله.

---

(١) عيون أخبار الرِّضا ج ٢ ص ٢٠٢.

وجعل له ولاية العهد من بعده لِيُرِيَ الناسَ أنه راغبٌ في الدُّنيا، فيسقط محلّه من نفوسهم.

فلمَّا لم يَظهر منه في ذلك للناس إلاَّ ما ازدادَ به فضلاً عندهم، ومحلاً في نفوسهم، جلب عليه المتكلِّمين من الْبُلدان طمعاً أن يَقطعه واحدٌ منهم فيسقط محلُّه عند العلماء، وبسببهم يَشتهر نقصُه عند العامَّة ـ وهذا امتحانٌ من المأمون للرضا عليه السلام قبل امتحان ابنهِ ـ فكان لا يكلِّمه خصمٌ من اليهود والنصارى والصابئين والبراهمة والْمُلحِدين والدهريَّة، ولا خصمٌ من فرق المسلمين الْمُخالفين، إلاَّ قطعَه وأَلْزَمه الحجة.

وكان الناسُ يقولون: واللهِ إنه أولى بالخلافة من المأمون. وكان أصحاب الأخبار ـ جواسيس القصر ـ يرفعون ذلك إليه فيغتاظ من ذلك ويشتد حسدُه له.

وكان الرِّضا عليه السلام لا يحابي المأمونَ من حق.

وكان يُجيبه بما يَكره في أكثر أحواله فيُغيظُه ذلك ويحقد عليه ولا يُظهره له.

فلمَّا أعيتْه الحيلة في أمره، اغتالَه فقتلَه بالسمّ »[1].

فهذان بِدْلاَنِ وشاهدا عدلٍ، سَمِعَا ورَأَيَا، وعايَشا فصولَ الروايتَين عن قُربٍ لا عن كثَب، لأنهما كانا من جملة العُشراء الذين يدخلون المسرح دون استئذان، وقد عَرَفَا حقائقَ الأمور ودقائقَها.

فقد كان الإمام الرِّضا عليه السلام يَعرف أن المأمون قاتِلُه بالسمِّ، وأنَّه الممهِّدُ لقتلِ ابنهِ من بعده، ولذلك نبَّهه ـ بصراحةٍ ـ حين أفاق من إغماءة الاحتضار ـ في آخر لحظات حياته ـ ورآه يتباكى بجانبه قائلاً له:

« أَحْسِنْ يا أمير المؤمنين معاشرةَ أبي جعفر، فإنَّ عُمرك وعُمره هكذا ـ وجمعَ بين سَبَّابَتَيه ـ »[2]. معلناً له أن عُمريهما متقاربانِ، ومحذِّراً إيَّاه من البطش به لأن مَوته وموته متلازمان إلى حدٍّ ما..

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء ص ٢٤١.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء ص ٢٤٣ـ٢٤٤.

وهكذا كان، إذ ماتا ما بين ثلاثين شهراً، كما ذُكِرَ سابقاً.

ولذا فقد استقرَّ عند المأمون العدُّ العكسيُّ قبل الإيقاع بالإمام الفتى بعد أن زوَّجه، فسمح له ـ إذ ذاك ـ بمغادرة العاصمة ـ بغداد ـ ليُقيم في المدينة المنوَّرة سنين طوالاً لم يذكره فيها المأمونُ إلاَّ بخير لأنه بمحافظته عليه إنما يحافظ على نفسه لتقاربُ موتهما.

ولو حاولْنا تَبرئةَ السلطـان «المأمـونِ» على شِرعـة الرحمان مـن دم الإمـام، لَفَضَحتْهُ «أمانةُ» البحث واعتبرتْ مَن يبرِّئه «غير مأمون» على نقل حقيقة ما توصَّلَ إليه إلى القرَّاء، ولاَرتفعتْ إصبعُ العدالة تُشير إلى يدَيه الملطَّختَين بدمِ أبيه من قبلُ، بالرَّغم من أن موته سبقَ موتَ صهره الثاني بثلاثين شهراً!.

فما أَبرعَ الإمامَ الرِّضا عليه السلام في إعلانِ تحذيره له حين قال له وهو يجمع سبَّابتَيه: فإنَّ عُمرك وعُمره هكذا!.

ولكنه ضارعت براعتَه في التحذير والإنذار، براعةُ المأمون في الحيطة لعرشه حين ربطَ خيطَ المكيدة بخنصر «أُمِّ الفضل» التي فاتها الفضلُ والنُّبل، وخانتها كرامة الأسرة العريقة التي تحدَّرتْ منها!.

نعم، إنه لَمأمونٌ ـ بالغُ الأمانةَ ـ في الكيد لهذا البيت الذي يتظاهـر بـاحترامـه وإكرامه، ولا يجوز لنا أن نُنكِر عليه أمانته تلك. فإن خطَّته قد أُحكمت بالدِّقة المعهودة منه:

تقريبٌ.. فتزويجٌ.. فترويجٌ.. فتنفيذٌ ـ عاجلٌ، أو آجلٌ ـ لإصابة الهدَف!.

ولم يكن ذلك منه عَجَباً، فهو سليل بيتٍ كان سيِّدهُ هارون الرشيد ـ أبوه ـ الذي قال لولده ـ المأمون بالذات ـ حين لامَهُ على عدَم ردِّ الحقِّ إلى الهاشميِّين ما زال يعرفه لهم:

الْمُلك عقيمٌ يا بُنَيَّ.. واللهِ لَو نازعْتَني الْمُلك، لأَخذتُ الذي فيه عيناك!.

فالمأمون عزيزٌ على أبيه مقرَّبٌ إليه.. ومع ذلك فإن نفسه تطيب بقتله إذا نازعه الْمُلك!.

والمأمونُ العزيزُ على أبيه، كان ابنَ أبيه حقّاً وحقيقةً، ولو رأيناه ينضح بما ليس فيه أثناء مراقبة مجالسه مع الإمام الجواد عليه السلام.. فرأيُ أبيه هو رأيُه، ولم يختلفا بشيء.. وبالأمس نصب رأس أخيه الأمين على خشبةٍ في الدار وأمرَ بِلَعْنِه!.

ولكنَّ الإمام عليه السلام لم يُنازع المأمونَ مُلكاً ليأخذ الذي فيه عيناه، ولا اقتطع طرَفاً من أطراف سلطانه، ولا عدا على شيءٍ من أمره، ولا فاهَ بكلمة فيها ريحُ التطلُّع إلى ما كان فيه السلطان من غضارة النعيم الزائل.. ولا أبوه، الرِّضا عليه السلام، فعل شيئاً من ذلك. ولكن الْمُلك عقيم.. ومجال السُّعـاةِ الْبُغاة في القصور مفتوحُ الباب على مصراعَيه.. والوشاةُ، والنمَّامون، والمتزلِّفون حاضرون ما زال طعمُ الأفاويهِ الطيِّبة تحت أضراسهم، وما زالت كروشُهم مملوءةً بعفَن الحياة.. يجرِّئُهم على ذلك سمعُ «ربِّ القصر» المفتوح على النَّميمة والوشي في كل آنٍ.. لأنه قاتلٌ، ابنُ قاتلٍ.. من أُسرةٍ قَتَلَةٍ قال فيها النبيُّ ﷺ:

«ويلٌ لِذُرِّيتي من وُلْدِ العبَّاس!».

•

وبالنسبة لاغتيال إمامنا الجواد عليه السلام،

ولدى التحليل ثَمَّ، تَشير الدلائل ـ التي تأبَى الشك ـ إلى الجانـي الذي هو هو حاملُ العنب المسوم إلى أبيه في «مروَ» بالأمس،

وقد قتل الأبَ ـ بالأمسِ ـ بأسلوبه الذي كشفناه باختصار،

وألحقَ به ابنَه ـ اليومَ ـ مُنذ قرَّبهُ وزوَّجه.. وإن كانت نهاية الفاجعة قد تمَّت على يد «المعتصم» الذي لم يعصمه الشيطانُ عن هذه الموبقة النكراء والفَعلة الشَّنعاء!.

وصدِّقْني أنه لو طال العهدُ بالمأمون لَتربَّص بالذُّرية الهاشميَّة وألحقَ آخرَها بأوَّلها!.

ولكنَّ أخاه المعتصم، لم يكن معتصماً تجاه هذه الأُسرة الشريفة، كما كان أخوه المأمون غير مأمونٍ عليها، وكما كان الرشيد ـ أبوهما ـ غير رشيد تِجاهَها!.

فالمعتصم قد أخذ الشُّعلة من يد أخيه، وتابع المسيرة، وسار على سيرة أبيه وسمعَ

لنداء ضميره الْخَدِر، ولرأي وزيره الأَشِر، ودسِّ مُشيره الْبَطِر،
وفاق بالفتك فَتْكَ أخيه،
وأقرَّ بفَعلته الشنعاء عين أبيه.. وأخيه!.

●

أمَّا الإمام - العريس، فقد عاد بعدها إلى يثرب بعد أن ربطته أحابيلُ سلطان قصر بغداد برباط.. ولم يعرِّس بالأميرة إلا في السنة ٢١٥ هجرية، أي بعد عقد الزواج بحواليَ سبع سنوات أخذها بعدها إليه.. بغير رأي أبيهـا الذي ألـحَّ عليـه كثيراً بالبقاء إلى جانبـه في بغـداد.. لئلا يُفلـت مـن «القبضـة الحديـديـة» التي «صنعها» له.. ولذلك لم يمهله أكثر من سنتين عاد بعدهما فاستقدمه إلى بغداد «مشتاقاً».. بل تَوّاقـاً للنقمة قبل أن يفوت الأوان ولكنه لم يُقم عنده إلاَّ لموسم الحج حيث عاد لأداء الفريضة المقدَّسة.

«ولَمَّا توجَّه أبو جعفر عليه السلام من بغداد، منصرفاً من عند المأمون ومعـه أم الفضل، قاصداً بها المدينة، صار إلى شارع باب الكوفة ومعه الناس يشيِّعونه فانتهى إلى دار المسيَّب عند مغِيب الشمس، فنزل ودخل المسجد، وكان في صحنه نَبْقَة - شجرة سِدْر أو نخل - لم تَحمل بعد. فدعا بكوزٍ فيه ماء فتوضأ في أصل النَّبقة، وقام فصلَّى بالناس صلاة المغرب، فقرأ في الأولى «الحمد» وَ«إذا جاء نصر الله والفتح، وقرأ في الثانية «الحمد» و«قل هو الله أحد» وقنتَ قبل ركوعه فيها، وصلَّى الثالثة وتشهَّد وسلَّم، ثم جلس هنيهة يذكر الله تعالى، وقام من غير أن يعقِّب فصلَّى النوافل أربع ركعات، وعقب بعدها وسجد سجدتَي الشُّكر. فلمَّا انتهى إلى النبقة رآها الناس وقد حملت حَمْلاً حَسَناً، فتعجبوا من ذلك وأكلوا منها، فوجدوه نبقاً حلواً لا عجم فيه - دون بزرة - وودَّعوه ومضى عليه السلام من وقته إلى المدينة، فلم يزل بها إلى أن أشخصه المعتصم في أول سنة عشرين ومئتين الى بغداد، فأقام بها حتى تُوُفِّي[1].

---

(١) كشف الغمة ج ٣ ص ١٤٨ والأنوار البهية ص ٢٢١ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩٦ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠١ والإرشاد ص ٣٠٤ وإعلام الورى ص ٣٣٨ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٧٧ وص ١٨٣ وص ٢٠٦ وص ٢٠٧ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢١ - ٤٢٢.

لإبليس جنودٌ..
من حملة السمّ!.

•

لقد كان استشهادُ أئمَّة أهل البيت عليهم السلام ـ بالقتل أو بالسَّم ـ، تضحيةً في سبيل نشر العقيدة الإسلامية الحقَّة التي نزلت من عند الله تبارك وتعالى.

وكانت تضحياتُهم ـ لو فكَّرنا وقدَّرنا ـ نعمةً جزيلةً على المسلمين الذين كلَّما ذكروها ذكروا ظُلم المتصدِّين لرُسل الله تعالى، فمقتوا الظُّلم والنفاقَ والكفر، وتأصلت العقيدةُ في نفوسهم، وتعمَّق الإيمانُ في قلوبهم.. ولولا ذلك لَضاع عبادُ الله المؤمنون الصالحون مع مَنْ ضاع حول قِصاع القصور وموائد السلاطين.

فما من ناطقٍ بالشهادتَين ـ حقاً وصدقاً، وبشرطها وشروطها قولاً وعملاً ـ إلاَّ وكان الفضلُ في ذلك لهم عليهم السلام.. فلا جَرَمَ أنْ يَعلم المؤمنون أنَّ جميل أهل بيت النبيِّ ﷺ، يطوِّق أعناقهم في كلِّ حقٍّ يقولونه، وفي كلِّ عملٍ مقبولٍ يعملونه.

فلولا كلمة الحقِّ التي جَهروا بها في مجالس الباطل وعند الحكَّام الظالمين، لَكُنَّا ـ جميعاً ـ من عَبَدَةِ السُّلطان ومن جنود الشيطان الذين يجرُّهم بِلِحَاهُمْ، ثم نبرِّر سقطاتِنا بِلَوْكِ الكلام، وبما بَرَّرَ به الناسُ بِدَعَ معاوية، وموبِقاتِ ابنِه يزيد، بأنها عملُ مجتهدٍ أخطأَ وله حَسَنة!. وندَّعي ـ معها ـ أنَّنا مسلمون، والإسلام براءٌ منَّا.

وكما أننا لولا نبيُّنا العظيم ﷺ، لم نكن مسلمين،

فكذلك لولا الأئمَّة من أهل بيته عليهم السلام، لم نكن مؤمنين ولا عارفين بأصول دِيننا وفروعه، لأن استمرار الدعوة السماوية ـ إلى اليوم ـ تمَّ كالآتي:

صَدع النبيُّ ﷺ بالدعوة، وحملَ أثقال الرسالة ـ سِلْماً وحرباً ـ مدةَ ثلاثٍ وعشرين سنة،

وجاهد أمير المؤمنين عليه السلام دفاعاً عنها ـ في أول عُمره، وفي آخره ـ وصبرَ على هضم حقِّه ـ فيما بين ذلك ـ طيلة سبع وعشرين سنة؛ ثم أمضاها وأقام حدودها في حكومةٍ لم تُكمل أربعَ سنوات.

وأحاطها من بعدهما صبرُ الحسن عليه السلام على الأذى من الأغراب والأصحاب ـ لِيَسلمَ الدِّين ـ مدة تسع سنوات،

وفَداها الحسين عليه السلام فضحَّى بسبيلها مجاهداً أئمَّة الْكُفر، وفاز بالشهادة الفذَّة بعد معاناةٍ دامت اثنتَي عشرة سنة.

وَرَبّى الأُمَّةَ على روحانيَّتها وجَوهرها زينُ العابدين عليه السلام، ثم فقَّهَها بها الباقرانِ الصادقان عليهما السلام بصبرٍ واجتهادٍ في مدرسةٍ عاشت مع الأول أربعاً وثلاثين سنةً، ومع الثاني تسع عشرة سنةً، ومع الثالث أربعاً وثلاثين سنة،

ثم رعاها منبرُ الكاظم عليه السلام الذي ارتقاه ـ مرةً حُرّاً، ومرةً في الحبس ـ طوالَ خمسٍ وثلاثين سنة،

وقوّاها ورسَّخها حِجَاجُ الرِّضا وابنهِ الجواد وحفيدِه الهادي عليهم السلام، وجدالُهم لإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل عبرَ عشرين سنةً مع الْجَد، وثماني عشرة سنةً مع الابن، وأربعٍ وثلاثين سنةً مع الحفيد،

وعمَّق مفاهيمَها العسكريُّ عليه السلام رغمَ جَور السلطان الغاشم، مدَّة ستِّ سنوات،

ثم استلمَ زمامَها ابنُه الإمامُ المهديُّ المنتظرُ عجَّل الله تعالى فرَجه، وتَوارى عن أعين الظَّلَمة لِيُقيم في قلوب مَوَاليه، وهو يراقب شيعتَهُ ويطَّلع على أعمال الناس كافةً منذ حواليَ اثني عشر قرناً، فـتمَّ بذلك كلِّه ـ متضافراً ـ استمرارُ الدعوة الإلٓهية على أيدي هذه الصَّفوة من الْخَلق الذين انتدبَهم الله تعالى لأمره، وجعلهم خُلفاء في أرضه، وتمَّ ـ أيضاً ـ استمرارُ أهل الحق ـ إلى اليوم ـ على طريق الإيمان وصراط

الله المستقيم.. فجزى الله نبيَّنا وأئمَّتنا ـ عنَّا ـ خير جزاءِ المحسنين، وبمقدار ما ضحَّوا من أجلنا، وكفاءَ ما تحمَّلوا من الأذى والظُّلم.

ومَن أنكر ذلك عليهم، خرج من حظيرة الإيمان.

ومَن ردَّ حقَّهم الممنوحَ لهم من الله خَلَعَ ربقةَ الإسلام، ولو عاش عُمر نوحٍ بين المسجد والقرآن..

●

قال رسولُ الله ﷺ لعمِّه العباس يوماً:

« ويلٌ لِذُرِّيتي من ذُرِّيتك!.

فقال: يا رسولَ الله، فأَخْتَصِي؟.

قال ﷺ: إنَّه أمرٌ قد قُضي »[1].

ذاك أنه لا يقع الخصيُ ـ فعلاً ـ من جهة، ولا يمنع الخصيُ يومها وقوعَ الأمر المحتوم؛ لأن « عبد الله بن العباس » كان قد وُلد وصار له أولادٌ، من جهةٍ ثانية.

والأمثلةُ المصداقيَّةُ لهذا الخبر الشريف تزدحم في ذاكرة كلِّ إنسانٍ يُلِمُّ بتاريخ هاتَين الأسرتين ـ بَني هاشم، وبَني العباس ـ لدرجةِ أنَّ المفكِّر لَيَحَارُ أيَّ الأمثلة يَذكر، لأنها كلَّها كانت على نَسَقِ مَن قال في بَني هاشم، وبَني أُميَّة:

فابنُ حَربٍ للمُصطفَى، وابنُ هندٍ لِعَلِيٍّ، ولِلْحُسينِ يَزيدُ

وكما كاد كلُّ سلطانٍ أُمويٍّ لإمام زمانه، فكذلك كاد كل سلطان عباسيٍّ لإمام زمانه سواءٌ بسواء.. فالأمويون تولَّوا إطفاء نور الله بقتل خمسة أئمَّةٍ من أهل بيت النبي صلوات الله عليه وعليهم، والعباسيون قتلوا ستةً منهم!. ثم لَو ظَفروا بخاتَمهم ـ المهدي عجَّل الله تعالى فرَجه ـ لألحقوه بآبائه!. ولكنَّ الله غالبٌ على أمره إذ رصدَهُ لإحياء ما اندرس من معالم الدِّين، ولإعزاز شريعة سيِّد المرسَلين في آخر الزمان، ولكي يثأر ممَّن تسوَّروا محرابَ جدِّه، ودنَّسوا قُدسيَّة أمرِ ربِّه، وليمحوَ الظُّلم ويُقيم العدل ويَنشر كلمةَ الله تعالى.

---

(١) بحار الأنوار ج ١٨ ص ١١٩ نقلاً عن الخرايج.

ومع ذلك يقول « المسلمون » الذين يظلمون النبيَّ صلى الله عليه وآله : إنَّ هؤلاء ، وهؤلاء ، خلفاءُ رسولِ الله!!! جاهلين قَدْر نبيِّهم العظيم ، ومستهزئين بقوله الكريم يوم شَدَّدَ على مودَّة أهل قُرباه... ولذا استجهلَ أولئك الخلفاءُ الجائرون جميعَ الذين تَسَمَّوا مسلمين ، فدعَوا أنفسَهم « أُمراء مؤمنين » فأقرُّوهم على ادِّعائهم! . وقَنعوا بلحسِ الصحون ولَو تلوَّثت اللِّحى والذُّقون! . ونسوا أنَّه سيقال لهم يوم القيامة ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[1] .

ولكنهم باؤوا بِخِزْيِ « خلافة » مكذوبة ـ حملوا وزرَها منذ جعلوها قيصريَّة ـ كسرويَّة ، وتلقَّفوها تَلَقُّفَ اللاعبين بالكرة..

•

والأحجَى أن نعود لما نحن فيه.

فحينَ فعلَ سُمُّ المأمون فِعْلَه بالإمام الرِّضا عليه السلام ، ووقعت الصيحة في طوس « جاء المأمون حافياً حاسراً يضرب على رأسه ويقبض على لحيته ، ويأسف ويبكي وتسيل دموعه على خدِّيه ، فوقف على الرضا عليه السلام وقد أفاق ، فقال :

يا سيِّدي والله ما أدري أيَّ المصيبتَين أعظم علَيَّ : فَقْدي لك وفراقي إياك ، أو تُهمة الناس لي أنيِّ اغتلتُك وقتلتُك ؟! .

فرفع الرضا عليه السلام طرفه إليه ثم قال : أَحسِنْ يا أمير المؤمنين معاشرة أبي جعفر ، فإن عُمرك وعُمره هكذا ـ وجمعَ بين سبَّابتَيه[2] ! .

فاجترض المأمونَ ـ الخائنُ غيظه ، وأكلت الحسرةُ والندامة قلبه ، وأحرقت كبده لَـمَّا عرف أن الرِّضا عليه السلام يَعلم عِلْمَ يقينٍ بفعلته الشنعاء الذي اهتزَّ لها عرشُ الرحمان ، حين سَمَّ وليَّ الله في أرضه! .

وبعد اغتيال الإمام الرِّضا عليه السلام بالسُّم سنة ثلاثٍ ومئتَين هجرية ، عاد المأمون إلى بغداد ، فدخلَها في صفر سنـة أربعٍ ومئتَين ، ولباسُه ولباسُ أصحابه

---

(١) الصافات ـ ٢٤ .

(٢) عيون أخبار الرِّضا ح ٢ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

جميعاً الْخُضرة، وكذا أعلامُهم.

ومُذ غادر «مَرْوَ» ـ بعد تنفيذ مهمَّته الشَّنيعة ـ بَلَغه في «سرخس» أن قوماً وثبوا على الفضل بن سهلٍ في الحمَّام فقتلوه، فبعث الحسنَ بنَ سهلٍ إلى بغداد قبلَه لِيَقمع الثورة التي أَشعلَها عليه إبراهيمُ بنُ المهدي؛ ففعلَ وهزمَهُ وأصحابَهُ، واختفى ابنُ المهدي، ونزل المأمون، حين وصوله، في قصر الرَّصافة.. وسوَّى أمور سلطانه.

.. ثم تقلَّبت الأيام ـ سراعاً ـ على هذا الرجل الْحُوَّلِيِّ الْقُلَّبِيِّ، فالْتَقى بالإمام عليه السلام ـ مع الصبيان ـ كما ذكرنا سابقاً.. وكان ما كان.. فزوَّجه عازماً على إيراده موردَ أبيه!. لكنَّ شغبَ بني العباس جعله «يتريَّث» لأنهم ـ حال وصوله ـ وجَّهوا إليه بعمَّته زينب بنت سليمان بن عليٍّ بن عبد الله بن عباس، التي كانت عندهم «عالية القدر، وافرة المجد والسؤدد، يشبِّهونها بالمنصور في الأُبَّهة والعزِّ» فطلبوا منها أن تَدخل على المأمون وتسألَه الرجوع إلى لُبْسِ السواد وتركِ الْخُضرة التي أَعلن لُبْسَها بعد تولية الإمام الرِّضا عليه السلام، وأن يعودَ شِعارُهم إلى ما كان عليه من جهة، وأن يترك عزمه على العهد للإمام الجواد عليه السلام بعد أبيه إذا كان بصدد توليته بعد أن رآها خيرَ طريقةٍ لإزالة الأئمَّة عن مراتبهم، رامياً إلى الوقوف بوجه ولادة «مهديِّهم» الذي يهدم عروش الظُّلم، وقوفَ النمرود في وجه ولادة إبراهيم عليه السلام، ووقوف فرعون في وجه ولادة موسى عليه السلام.

وقد سمعتْ زينب لذَويها الذين أَبْدَوا خوفهم من أَنْ يولِّيَ المأمونُ الجوادَ عليه السلام، ومن أن يموتَ أو يثبَ عليه مَن يقتلُه، فينتقل المُلك إلى الهاشميين. وكانوا ـ إذ ذاك ـ لا يأملون قَتْلَ الإمام الفتى قبل موت المأمون مئةً بالمئة!. ـ فدخلت «زينب العباسية» عليه فقام إليها ورحَّب بها وأكرمَها، فاغتنمت فرصةَ إجلالِه لها وسارعتْ إلى اقتناص عاطفته فقالتْ له فور استقرارها معه:

«يا أمير المؤمنين، إنَّك على بِرِّ أهلك من وُلْد أبي طالب والأمرُ في يدك، أَقـدرُ منك على بِرِّهم والأمرُ في يد غيرك أو في أيديهم. فَدعْ لباسَ الْخُضرة وعُدْ إلى لباسِ أهلك، ولا تُطمعنَّ أحداً فيما كان منك.

فعجب المأمونُ بكلامها وقال لها: واللهِ يا عمَّةُ ما كلَّمني أحدٌ بكلامٍ أَوقعَ من

كلامكِ في قلبي، ولا أقصدَ لِمَا أردتِ، وأنا أُحاكِمُهم إلى عقلك.

فقالت: وما ذاك؟.

فقال: ألستِ تعلمين أنَّ أبا بكرٍ (رض) وَلِيَ الخلافة بعد رسول الله فلم يُوَلِّ أحداً من بَني هاشم شيئاً؟.

قالت: بَلى.

قال ـ وهو صاحبُ لسانٍ وبيانٍ ـ: ثم وَلِيَ عُمر (رض) فكان كذلك. ثم وَلِيَ عثمان (رض) فأقبلَ على أهله من بَني عبد شمس فولاَّهم الأمصار، ولم يُوَلِّ أحداً من بَني هاشم.

ثم وَلِيَ عليٌّ (ع) فأقبلَ على بَني هاشم، فولَّى عبدَالله بن عباس البصرة، وعُبيدَ الله بن عباس اليمن، وولَّى مَعبداً مكَّة، وولَّى قثم بن العباس البحرَين؛ وما ترك أحداً ممَّن ينتمي إلى العباس إلاَّ ولاَّه، فكانت هذه له في أعناقنا، فكافأتُه في وُلده بما فعلتُ.

فقالت ـ العجوزُ الشمطاءُ، الداهيةُ الدَّهياء ـ: لله دَرُّك يا بُنَيَّ، ولكنَّ المصلحة لِبَني عمِّك من وُلْدِ أبي طالبٍ ما قلتُ لك.

فقال ـ بعد تأمُّل ـ: لا يكون إلاَّ ما تُحِبُّون..

.. ثم فكَّر المأمونُ مليّاً وقدَّرَ بأن القواعد تنخرم عليه إن هو ولَّى الإمام الجواد عليه السلام كما ولَّى أباه من قبل.. وربما خرج الأمرُ من بَني العباس وبَني عليٍّ بسبب الاختلاف، خصوصاً وأنَّ في الأرض بقايا من بني أُميَّة قد تجد الفرصة مُتاحةً لتفريق الكلمة وإثارة الفتنة.. فجلسَ لِبَني العباس وجمعَهم، ودعا بِحُلَّةٍ سوداء فلبسَها وترك الْخُضرة، ولبس الناس كذلك، فلم تُلْبَسِ الْخُضرةُ ببغداد سوى ثمانية أيام»[1].

•

(١) أنظر هامش بحار الأنوار ج٤٩ ص ٣١١ و٣١٢ وتذكرة الخواص ص٣١٨ـ٣١٩ والكامل لابن الأثير ج٦ ص١٥٣ـ١٥٤ وانظر في المحجة البيضاء ج ٤ ص ٢٩٥ـ٢٩٦ وص ٢٩٩ شغب =

والذي لا يجوز أن يُفْهَم ـ عقلاً وواقعاً ـ من إطلاق كلمة الولاية بالعهد للإمام الجواد عليه السلام من فم المأمون بعد تزويجه لابنته، أن المأمون قد عرف الحقَّ ورغب في أن يردَّه إلى أهله. لأنَّ من عرف الحقَّ، وأهلَ ذلك الحقِّ، يردُّه إليهم حالاً، ولا يتقمَّصه إلاَّ في حال الكُفر بما جاء من عند الله عزَّ اسمُه..

فأمرُ الولاية سماويٌّ، جعلَه الله سبحانه من تمام الإيمان برسالته السماويَّة إلى العباد منذ يوم البعثة الكريمة إلى يوم الميعاد، وإنكارُها إنكارٌ لأصلٍ من أصول الإسلام أصيلٍ يُسأَل عنه المسلم بين يدَي ربِّه.

فلا جَرَمَ أن نبقى على قولنا من أن المأمون لم يعترف لأصحاب الحقِّ بحقهِّم بدليل جوابه لعَّمته من أنه يريد أن يبرَّهم ليردَّ جميلاً لعليٍّ بن أبي طالبٍ عليه السلام، لأنه حين وَلِيَ الخلافةَ أَمَّرَ جميع وُلْدِ العباس!. وإن هو إلاَّ رجلٌ ظفر به الشيطانُ فجرَّه إلى ابتكار مثل ذلك العهد بالولاية لِمَنْ« كان إماماً مفترَض الطاعة » من أهل البيت الهاشميِّ، ليقيِّده به، وليجعلَه في مُتناوَل يده يفتك به حين يشاء دون أن يكون متَّهماً بدمه، وخصوصاً حين كان يغطي خطَّته الماكرةَ بالمصاهرة والتقريب والتفدِّي!.

هذا وإنَّ مصارحته لزينب بنت سليمان لم يَعْدُ أن قال فيها حقاً، ثم برَّر عمله بمكافأة عليٍّ عليه السلام الذي ولّى أربعةً من أكابر بني العباس إلى جانب تأمير كثيرين منهم أثناء خلافته القصيرة ـ العسيرة، أعني أنَّ المأمون قد خلع ـ بولاية العهد للرِّضا ـ ذلك « الجميلَ » من عُنقه بطريقة جاهليَّة وعصبيةٍ قَبَليَّةٍ لا أكثرَ ولا أقَل!. وأنه لم يعترف بحقٍّ لأهل الحقِّ، ولا يريد أن يردَّ إليهم حقاً.. ولذلك فإنه ـ خوفَ اهتزاز عرشه، وضياع الأمر من يدَيه ـ سارعَ إلى تبديل لباس الْخُضرة

= العباسيِّين على المأمون عند عزمه على تزويج ابنته للإمام عليه السلام، وراجع كذلك كشف الغمة ج ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ لترى احتجاجهم الشديد وجوابَ المأمون. وانظر الإرشاد ص ٢٩٩ وص ٣٠٠ وص ٣٠٣ ففيه تفصيلٌ شامل، وكذلك ترى مثله في إعلام الورى ص ٣٣٥ إلى ص ٣٣٨ والاختصاص ص ١٠١ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ والصواعق المحرقة ص ٢٠٦.

بالسواد بحضور المشاغبين عليه قبل أن تتمَّ ثمانيةُ أيام. وكان قد قال ـ من قبلُ ـ لعمَّته: واللهِ ما كلَّمني أحدٌ بكلامٍ أوقعَ من كلامكِ في قلبي، حين هزَّت له رَسَنَ «الإمارة» وأنذرتْه باحتمال زوال الـمُلْك من أيديهم، وأقنعتْهُ بأنه ـ حال كونه أميراً ـ يبقى أقدرَ على برِّ الهاشميِّين.. وكأنَّ الهاشميين بحاجةٍ إلى برِّ أحدٍ مع برِّ الله تعالى بهم ومع جعلِهم مصطفَين على عباده، ومختارين لكلمتِه، ونبراساً لبريَّته؟؟؟

فعهودُ الولاية التي كان يعقدها المأمون مصائدُ ـ مكائدُ هي من مكائد إبليس التي وسوسَ بها في صدر مَن وجدَهُ «مأموناً» على تنفيذها للوقوف بطريق إمامٍ بعد إمامٍ ليسدَّ بابَ ظهوره، وليعطِّل قَنَواتِ عَمَلِه، ويشلَّ نشاطَ دعوتِه بطريقةٍ مبتكرةٍ فريدةٍ من نوعها، تتجلَّى في التقريب ـ فالترويج ـ فالتزويج ـ فالاغتيال!.

•

أمَّا إمامُنا عليه السلام، فقد كان عالماً بما يدور في أجواء أفراد الطُّغمة العباسيَّة فرداً فرداً، وعارفاً بما هم عليه وفيه. يتسرَّب إليه ذلك من أصدق المصادر ـ وقبل أن تكون ـ إذ لا تُخفي عليه حكومةُ السماء خافيةً. فقد جاء عن إسماعيل بن مهران قولُه:

«رأيتُ أبا جعفر عليه السلام في سنة سبع عشر ومئتَينِ ودَّعِ البيت ليلاً، يستلم الرُّكن اليمانيَّ والحجرَ الأسودَ في كلِّ شَوط. فلمَّا كان في الشوط السابع الْتزمَ البيتَ في دُبر الكعبة قريباً من الرُّكن اليمانيِّ وفوق الْحجَر المستطيل وكشفَ عن بطنه، ثم أتى الحَجر الأسود فقبَّله ومسحه، وخرج إلى المقام فصلَّى خَلْفَه، ثم مضى ولم يَعُدْ إلى البيت، وكان وقوفُه في الملتزَم بمقدار ما طاف بعضُ أصحابنا سبعة أشواط، وبعضُهم ثمانية»[1].

ورُوي بلفظه عن ابن مهزيار وروَى أيضاً:

أمَّا «لَـمَّا خرج أبو :جعفر عليه السلام من المدينة إلى بغداد الدفعة الأولى من

---

(١) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٤ إلى ص ٤٣٦.

خرجتَيه ـ وهي هذه ـ قلتُ عند خروجه:

جُعلت فداك، إنّي أخاف عليك في هذا الوجه، فإلى مَن الأمرُ بعدَك؟.

فكرَّ إليَّ بوجهه ضاحكاً، وقال لي:

ليس الْغَيبةُ حيث ظننتَ في هذه السنة.

فلمَّا استدعَى به المعتصمُ صرتُ إليه فقلت له: جُعلت فداك، أنت خارجٌ، فإلى مَن الأمرُ مِن بعدك؟.

فبكى حتى اخضلَّت لحيتُه ـ تبلَّلتْ ـ ثم الْتفتَ إليَّ فقال:

عند هذه ـ أي الْخَرجة، أو السَّنة ـ يُخاف علَيّ. الأمرُ من بعدي إلى ابني علِيّ»[1].

أفلا تقرأُ بين سطور هاتين الحادثتَين أنَّ الإمام عليه السلام كان يعرف ما في نفوس العباسيِّين ـ واحداً واحداً ـ من وراء الأبعاد التي تَفصله عنهم، ويَعلم ما يدور في ضمائرهم، ويحدِّد تصرُّفاتهم معه ساعةً بعد ساعة؟!!

بَلى، ونعم.. فَمِنْ أمثلة بِرِّ العباسيِّين بالإمام الجواد عليه السلام ـ يا عمَّةَ الخليفة ـ «أن المعتصم استعمل على المدينة المنوَّرة ومكَّةَ المكرَّمة عُمر بن الفرج الرُّخجى الذي كان يقسو على آل أبي طالب ويضيِّق عليهم، ويمنعهم سلوكَ سُبل العيش، ويحول بينهم وبين مساءلة الناس لهم، ويحذِّر الناسَ برَّهم وصِلَتَهم، حتى أنه كان لا يبلُغه عن أحدٍ بَرَّهُم بشيءٍ وإنْ قَلَّ إلاَّ أنهكهُ عقوبةً وأثقلَهُ غُرماً وأشبعهُ عذاباً!. فبلَغ بهم ضيقُ الحال أنْ صارت العلَويَّاتُ يُصَلِّينَ في القميص الواحد واحدةً بعد واحدةٍ لأنهنَّ لا يملكنَ غيره، ثم يرفعنَه إذا تخرَّق، ويجلسن في منازلهنَّ عَوارِيَ حَواسِر»[2]!.

وقبَّح الله مثلَ ذلك البِرِّ يا عمَّة الخليفة!!

---

(١) الكافي م١ ص ٣٢٣ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٦٦ والأنوار البهية ص ٢٢٢ـ٢٢٣ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٥ـ٤٣٦.

(٢) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٥ـ٤٣٦.

وَلْيكنْ معلوماً لديك أَيَّتُها العجوزُ الضالَّةُ الْمُضِلَّةُ أن الإمامَ عليه السلام كان على موعدٍ مع مكركم وغدركم، وهو يعرف موعدَ اغتياله على أيدي آل بيتكِ الْقَتَلةِ السفَّاحين، إذ أَعْلَمه الله تعالى ذلك قبل وقوعه، وَأَطْلَعه من لَدُنْه على خوافي نفوسكم الأمَّارة بالسوء.. فقولي لآلِك الْقَتَلةِ المجرمين: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[1]!. وبشِّريهم ـ بُشِّرْتِ بالسوء ـ أَنَّ الله تعالى قد أَتَى بُنيانهم من القواعد، وقد باؤوا بأوزارهم وجرائمهم وَ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾[2]!.

•

أمَّا ما كان في آخر أيام الإمام عليه السلام، وما كان من أمرِ وصيَّته، فقد حدَّث الخيرانيُّ عن أبيه ـ وهما من الأعاجم ـ فقال:

«إنــه كان يلزم باب أبي جعفرٍ عليه السلام للخدمة التي وُكِّلَ بها، وكان أحمد بن محمد بن عيسى ـ أبو جعفر الأشعري ـ يجيء في السَّحر في كلِّ ليلةٍ ليعرف خبر علَّة أبي جعفر عليه السلام.

وكان الرسول الذي يختلف بين أبي جعفر عليه السلام وبين أبي، إذا حضر قام أحمد وخلابهِ أبي.

فخرجتُ ذات ليلةٍ، وقام أحمد عن المجلس وخلا أبي بالرسول، واستدار أحمد فوقف حيث يسمع الكلام، فقال الرسول لأبي:

إن مولاك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إنِّي ماضٍ والأمرُ صائرٌ إلى ابني عليٍّ ـ أي الهادي عليه السلام ـ وله عليكم بعدي ما كان لي عليكم بعد أبي.

ثم مضى الرسول ورجع أحمدُ إلى موضعه وقال لأبي:

ما الذي قال لك؟.

قال: خيراً.

---

(١) النحل ـ ٢٦.

(٢) المائدة ـ ٥٣.

قال: قد سمعتُ ما قال، فَلِمَ تكتمه؟. وأعاد ما سمع، فقال له أبي:

قد حرّم الله عليك ما فعلت، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[1] فاحفظ الشهادةَ لعلّنا نحتاج إليها يوماً ما، وإيَّاك أن تُظهرها إلى وقتها.

فلمّا أصبح كتب والدي نسخة الرسالة في عشر رقاع، وختَمها ودفعَها إلى عشرةٍ من وجوه العصابة - أي الأصحاب - وقال:

إنْ حَدَثَ بي حدثُ الموت قبل أن أطالبكم بها فافتحوها واعملوا بما فيها.

فلما مضى أبو جعفر عليه السلام، ذكر أبي أنه لم يخرج من منزله حتى قَطع على يدَيه نحوٌ من أربعمئة إنسانٍ - أي اقتنعوا بوصيَّة أبي جعفر لولده الهادي عليهما السلام - واجتمع رؤساء العصابة عند محمد بن الفرَج يتفاوضون في هذا الأمر.

فكتب محمد بن الفرَج إلى أبي يُعلمه باجتماعهم عنده، وأنه، لولا مخافة الشهرة لَصَارَ معهم إليه، ويسأله أن يأتيَه.

فركب أبي وصار إليه، فوجد القوم مجتمعين عنده، فقالوا لأبي:

ما تقول في هذا الأمر؟.

فقال أبي لِمَنْ عندهم الرقاع: أَحْضِرُوا الرقاع.. فأَحْضَروها.

فقال لهم: هذا ما أُمرتُ به.

فقال بعضُهم: قد كنّا نحب أن يكون معك في هذا الأمر شاهدٌ آخر.

فقال لهم: قد آتاكم الله عزَّ وجلَّ به. هذا أبو جعفر الأشعري يشهد لي بسماع هذه الرسالة..

وسأله أن يشهد بما عنده، فأنكر أحمدُ أن يكون قد سمع من هذا شيئاً.

فدعاه أبي إلى المباهلة.

فقال لَـمَّا حقَّق عليه: قد سمعتُ ذلك. وهذه مكرمةٌ كنتُ أحب أن تكون لرجلٍ من العرب، لا لرجلٍ من العجم..

فلم يبرح القوم حتى قالوا بالحقِّ جميعاً»[2].

---

(١) الحجرات - ١٢.

(٢) الكافي م ١ ص ٣٢٤.

وقال محمد بن الحسن الواسطي: إنه سمع أحمد بن أبي خالد ـ مولى أبي جعفر ـ يحكي أنه أَشهدَه على هذه الوصية المنسوخة ـ أي المكتوبة كما يلي ـ:

شهد أحمد بن أبي خالد ـ مولى أبي جعفر ـ أن أبا جعفر: محمد بن علي، بن موسى، بن جعفر، بن محمد، بن علي، بن الحسين، بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، أَشهدَه أنه أوصى إلى عليٍّ ابنِه بنفسه وإخوانه، وجعل أمر موسى ـ أخيه الأصغر ـ إذا بلغ إليه ـ أي إلى موسى نفسه ـ. وجعل عبد الله بن المساور قائماً على تركته من الضياع والأموال والنفقات والرقيق وغير ذلك إلى أن يَبلغ عليّ بنُ محمد، صيَّر عبد الله بن المساور ذلك اليوم إليه، يقوم بأمر نفسه وإخوانه، ويصير أمر موسى إليه، يقوم لنفسه بعدهما على شرط أبيهما في صدقاته التي تَصَدَّق بها، وذلك يوم الأحد لثلاث ليالٍ خلَون من ذي الحجة سنة عشرين ومئتَين. وكتب أحمد بن أبي خالد شهادته بخطِّه، وشهد الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن، بن عليّ بن الحسين، بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وهو الجوّاني، على مثل شهادة أحمد بن أبي خالد في صدر هذا الكتاب، وكتب شهادته بيده، وشهد نصر الخادم وكتب شهادته بيده»[1].

وقد قال إبراهيم بن محمد:

«كان أبو جعفر، محمد بن عليٍّ عليه السلام، كتبَ إليَّ كتاباً وأَمَرني أن لا أفكَّه حتى يموت يحي بن أبي عمران ـ ويحي هذا وكيلٌ معتمدٌ من وكلائه وأصحابه المقرَّبين ـ.

قال: فمكث الكتاب عندي سنتَين. فلما كان اليوم الذي مات فيه يحي بن أبي عمران، ففككتُ الكتابَ فإذا فيه:

قُمْ بما كان يقوم به.

وكان إبراهيم ـ هذا ـ يقول: كنتُ لا أخاف الموتَ ما كان يحي بن أبي عمران حيّاً»[2].

---

(١) الكافي م١ ص ٣٢٥.

(٢) إثبات الهداة ج ٦ ص ١٨١ ـ ١٨٢

فَمَن أنبأ الإمامَ عليه السلام بأن هذا يموت قبل ذاك؟.

ولِمَ كتبَ الكتاب لذلك الرجل قبل موت صاحبه بسنتين؟!.

وكيف أَمِنَ صاحُبه الموتَ واطمأنَّ للحياة طالما بقي وكيلُ إمامِه حيّاً؟!!

فلا بُدَّ من القول بأن الإمام عليه السلام قد أُوتيَ عِلْمَ المنايا وعِلِمَ البلايا في جملة ما أُوتيَه من نِعَمِ الله تعالى ومواهبه.

وأنَّهُ إنّما كتب الكتاب لصاحبه قبل موت صاحبه بسنتَين ليكشف لأصحابه جميعاً عن أمرِه ـ الذي هو أمرُ ربِّه ـ بُغيةَ تعميق عقيدتهم وترسيخ إيمانهم بالإمامة في ذلك العصر الشديد التعصُّب، الكثير المذاهب الباطلة.

وأنَّ صاحبه الثاني أَمِنَ من الموت ـ فعلاً ـ مدة بقاء صاحبه الأول حيّاً، بدافع عقيدته الراسخة في صدره، وبباعث إيمانه العميق بولاية أهل هذا البيت الكريم عليهم السلام، الذين جعلهم الله سبحانه سفراءَهُ وأُمناءه.. وإنَّ قول صاحب إبراهيم: كنتُ لا أخاف الموتَ ما زال يحي حيّاً، يدلُّ على مرتبةٍ عاليةٍ من التصديق واليقين، وهذا ما نفتقر إليه لنكون في مصافِّ المؤمنين الأبدال..

●

.. وأمّا كيف كانت نهايةُ حياة الإمام الجواد عليه السلام، وكيف مات؟. فلا تُنتظر له ميتةٌ على غير شكل ميتة آبائه وأبنائه.

فقتلُ الأفذاذ من الهاشميّين أضحى عادةً قَرَّرها «وثَنيُّون»، لأن الهاشميّين ربّانيُّون..

وكرامةُ.. الأفذاذ ـ من الهاشميِّين ـ هي الشهادةُ التي اختصَّهم بمرتبتها السامية سلطانُ السماء جلَّ وعزَّ.. ليرفعَ من درجاتهم.. ولأنَّهم على الحقِّ فلا مكانَ لهم عند سلطان الأرض الذي هو على الباطل..

وهكذا.. قتلَ السلطانُ الأرضيُّ الجائرُ، هذا الإمامَ ـ الشابَّ العظيمَ، قِتْلَةَ الباطل للحقِّ، بفتوى إبليس القضاء وأبالسة الأرض.. وكانت للفتوى صفةُ «الاستعجال».. فاغتيلَ شابّاً طريَّ العود خشيةَ استتمام عملِه الوظيفيِّ، وظهورِ

قواعده الجماعية، بعد بروز الكامنِ من عِلْمِه اللَّدُنيّ!.

كيف لا، وهم يرَونه ـ منذ صِغَرِهِ ـ يكشفُ جَهْلَ الفقهاء، ويَبْقُرُ كروش المتخومين حولَ موائد قُصور الحكَّام، ويفضحُ المتأمِّر على الناس بالباطل وباسم الإسلام!.

لهذا كلِّه كانت لاغتياله صفةُ الاستعجال، فإن السلطان الجائر لا يُطيق التروِّيَ في قتلِ الغيلة إذا عرف أن واحداً يفضح جَوره وباطلَه، ويهزُّ رُكْنَ عرشه القائم، الطاغي الظالم..

●

ونحن لن نوزِّع التُّهمَ من عندنا.. ولن نقول إلاَّ ما قاله غيرُنا وطوتْهُ بطونُ كُتب التاريخ والأخبار.. وسنكون بعيدين عن الوضع والاختلاق، مُشيرين بإصبعنا إلى المجرمين الذين نادَوا على أنفسهم بالجريمة التي اهتزَّت لها السماء قبل الأرض.

فالإمامُ الجواد عليه السلام قُتل مسموماً.. وليس بذلك شكٌّ.

أمَّا كيف سُمَّ؟. ومَن دَسَّ له السُّم؟. فهناك قولان تاريخيان.

أحدُهما يضع في قفص الاتِّهام قاضيَ الشرع الشريف ـ أحمد بن دؤاد[1].. وبعض الوزراء والكُتَّاب.. وجعفر بن المأمون.. وعلى رأسهم المعتصمُ نفسُه.

وثانيهما يُلبس الجريمةَ للزوج اللئيمة.. وأخيها لأمِّها وأبيها ـ جعفر ـ.. وبعض «رُسل الشَّر».. وبرئاسة المعتصم أيضاً.

فالمعتصمُ ـ في الحالتَين، وبحسَب القولَين ـ مشتركٌ لم يَعصمه عن ذلك إيمان.. وقد كان على رأس المباشِرين والمنفِّذين، وأوَّلَهم، لا ثانيَ أحدهم.

فَمِنَ القول الأول ما جاء في تفسير العيَّاشي من أن زرقان ـ وهو لقبٌ لأبي

---

(١) أحمد بن أبي دؤاد كان قاضياً ببغداد في عهود المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. وقد حصل خلاف بينه وبين محمد بن عبد الملك الزيات في أيام المتوكل، فغضب عليه هذا وصادر من ابنه محمد مئةً وعشرين ألف دينار، وجواهر بأربعين ألف دينار أيضاً، وبعث به وبابنه من سامرّاء إلى بغداد، وكانت وفاته سنة ٢٤٠.

جعفر الزيات المحدِّث ـ صاحب أحمد ابن أبي دؤاد وصديقه ـ وابنُ أبي دؤاد هو قاضٍ ووزيرٌ ومُشيرٌ للمأمون والمعتصم ـ قال:

« رجع ابنُ أبي دؤاد ذات يومٍ من عند « المعتصم » وهو مغتمٌّ، فقلت له في ذلك، فقال: وددتُ اليومَ أني قَدْ مِتُّ منذ عشرين سنة.

قال: قلت له: ولِمَ ذاك؟

قال: لِـمَا كان من هذا الأسود أبي جعفر ـ محمد بن علي بن موسى ـ اليومَ بين يَدي أمير المؤمنين.

قال: قلت له: وكيف كان ذلك؟.

قال: إن سارقاً أقرَّ على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفةَ تطهيرَه بإقامة الحد عليه. فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه. وقد أحضر محمدَ بنَ عليٍّ، فسألَنا عن القطع في أي موضعٍ يجب أن يُقطع؟.

قال: فقلت: من الكرسوع ـ أي طرف الزَّند ـ.

قال: وما الْحُجة في ذلك؟.

قال: قلت لأن اليد هي الأصابعُ والكفُّ والكرسوع، لقول الله في التيمُّم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾(١) .. واتَّفق معي على ذلك قوم.

وقال آخَرون: بل يجب القطع من المرفق.

قال: وما الدليل على ذلك؟.

قالوا: لأن الله لَـمَّا قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾(٢) في الْغَسْل، دَلَّ على أن حدَّ اليد هو المرفق.

قال: فالتفتَ إلى محمدٍ بن عليٍّ عليه السلام فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟.

فقال: قد تكلَّم القومُ فيه يا أمير المؤمنين.

---

(١) النساء ـ ٤٣.

(٢) المائدة ـ ٦.

قال: دَعْني مما تكلَّموا به!. أيُّ شيءٍ عندك؟.

قال: اعْفُني يا أمير المؤمنين.

قال: أقسمتُ عليك بالله لَما أخبرتَ بما عندك فيه.

فقال: أمَا إذا أقسمتَ عليَّ بالله، إني أقول: إنَّهم أخطأوا فيه السنَّة، فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فَيُتْرَك الكف.

قال: وما الْحُجة في ذلك؟.

قال: قولُ رسول الله: السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدَين، والرُّكبتَين، والرجلَين. فإذا قُطعت يدُه من الكرسوع، أو المرفق، لم يبقَ له يدٌ يسجد عليها. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ﴾[1] يعني هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾[1] وما كان للهِ لا يُقطع.

قال: فأعجب «المعتصمَ» ذلك، وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف.

قال ابن ابي دؤاد: قامت قيامتي وتمنَّيت أني لم أكُ حيّاً.

قال زُرقان: قال ابن أبي دؤاد: صرتُ إلى «المعتصم» بعد ثلاثةٍ فقلت: إن نصيحة أمير المؤمنين عليَّ واجبةٌ، وأنا أكلِّمه بما أعلم أني أدخل به النَّار. ـ وكأنَّ النَّصيحة لله غير واجبة عند فضيلة القاضي!. ـ.

قال: وما هو؟.

قلت: إذا جمع أمير المؤمنين في مجلسه فقهاء رعيَّته وعلماءهم لأمرٍ واقعٍ من أمور الدِّين فسألهم عن الحُكم فيه فأخبروه بما عندهم من الحُكم في ذلك وقد حضر مجلسَه أهلُ بيته وقوّادُه ووزراؤه وكُتَّابُه، وقد تسامع الناس بذلك من وراء بابه، ثم يَترك أقاويلَهم كلِّهم لقول رجلٍ يقول شطرُ هذه الأمَّة بإمامته ويدَّعون أنه أُولى منه بمقامه ثم يَحكم بحكمه دون حكم الفقهاء؟!.

قال: فتغيَّر لونُه وتنبَّه لِمَا نبَّهتُه له وقال: جزاك الله عن نصيحتك خيراً.

---

(١) الجن ـ ١٨.

قال: فأمرَ اليومَ الرابعَ فلاناً من كُتَّاب وزرائه بأن يدعوَه - أي يدعو الإمام الجواد عليه السلام - إلى منزله. فدعاه فأبَى أن يُجيبه وقال:

قد علمتَ أني لا أحضر مجالسكم.

فقال: إني إنّما أدعوك إلى الطعام، وأُحب أن تطأ ثيابي وتدخل منزلي فأتبرَّكَ بذلك، فقد أَحبَّ فلانٌ بن فلان من وزراء الخليفة لقاءك.

فصار إليه، فلمَّا طعم منها أحسَّ السَّم، فدعا بدابَّته، فسأله ربُّ المنزل أن يقيم، قال:

خروجي من دارك خيرٌ لك.

فلم يزل يومَهُ ذاك وليلتَهُ في خِلْفَةٍ[1] حتى قُبض عليه السلام»[2].

وكان الإمامُ عليه السلام قد تُرك في الدار وحدَه، وحاول المعتصم مَنْعَ الشيعة من تشييعه، فاحتشدوا حول الدار بسيوفهم، واستخرجوا الجنازة بالقوَّة إذ كانوا متعاقدين على الموت ومتعاهدين على الوقوف بجرأةٍ ظاهرة.

•

وممَّا لا شك فيه أن المعتصم أقلُّ دهاءً من أخيه المأمون، ولذلك كان يبدو عليه الغيظ من ظهور الحقِّ ومن بروز الإمام بشكل مميَّز بخلاف أخيه. بل كانت ترتسم على وجهه إماراتُ الحقد والحسد للإمام، ولذلك سريعاً ما وافق على إشارة قاضيه ابن أبي دؤاد الذي اقترح عليه قتل الإمام. ذاك أنه أيقن أنه إذا أُتيح لمواهب الإمام عليه السلام أن تظهر للسواد لاستقطبَ الأمَّةَ من حوله، ولَبَارَ ما هم فيه من الْحُكم الظالم الغاشم، فتعجَّلَ المعتصمُ فَعْلَتَهُ المجرمةَ التي كانت تكملةً لفصول الرواية التي «أجاد» أخوه المأمونُ فُصولَها الأولى، وساعد في «التعجيل» رأيُ

---

(١) الخلفة: الهيضة، وهي انطلاقُ البطن، والقيءُ، المتكرِّران.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٧٥-٧٦ نقلاً عن تفسير العياشي ج ١ ص ٣١٩-٣٢٠، وهو في الأنوار البهية ص ٢٢٣ إلى ٢٢٥ بتفصيل، وكذلك في حلية الأبرار ج ٢ ص ٤١٨-٤١٩ وانظر الصواعق المحرقة ص ٢٠٦ حيث ذكر أنه مات مسموماً.

القاضي المشيرِ ابنِ أبي دؤاد وإشارتُه حين «أنذرَ» العرشَ بإعصارٍ قد يعصف فيه عمَّا قريب.. ناسياً موقفه بين يَدي ربِّه العزيزِ الجبار!.

ولذلك فإنه «لَـمَّا بويع المعتصم سنة ٢١٨ هجرية جعل يتفقَّد أحوال الإمام عليه السلام، فكتب إلى عبد الملك الزيّات أن يُنْفِذَ إليه التقيَّ عليه السلام وأُمَّ الفضل، فأنفذ الزيّاتُ عليَّ بن يقطين[1] إليه. فتجهَّز وخرج إلى بغداد، فأكرمه ـ المعتصم ـ وعظَّمه ـ تغطيةً لآخر فصول الرواية العباسية ـ وأنفذ أشناس ـ أحدَ رجاله ـ بالتُّحف إليه وإلى أُمِّ الفضل ـ بُغيةَ تحريك عِرْقِ العباسيَّة عندها ـ..

ثم أَنفذَ إليه شراب الأُتْرُجِّ ـ أي عصيرَه ـ تحت ختمِه على يدَي أشناس، فقال:

إن أمير المؤمنين ذاقَه قِبَلَ أحمد بن أبي دؤاد، وسعيد ابن الخطيب ـ قاضِيَيهِ الشرعيَّين! ـ وجماعةٍ من المعروفين، ويأمرك أن تشرب منها بماء الثلج. وصُنع في الحال.

قال عليه السلام: أشربُها بالليل.

قال: إنها تنفع بارداً وقد ذاب الثلج. وأصرَّ على ذلك.

فشربَها عالماً بفعلهم»[2].

فالخليفة الذي يتفقَّد أحوالَ واحدٍ يأمرُ واليَهُ ببِرِّه والإحسان إليه، ولا يأمرُه بإحضاره تحت الحفظ والرقابة.

وهو إذا أمرَ بِحَملِه إليه، لا يستدعي زوجتَه معه، لولا أنَّ له بها حاجةً في الفصل الأخير من رواية الاغتيال.

وقد أنفذ الزيّاتُ ـ بأمرٍ من الخليفة ـ أحدَ ابنَي يقطين ـ الشيعـيَّ ـ تمويهاً على الشيعة وعلى العامة، ومن أجل أن يقال: ذهب وبخدمته وزيرٌ من شيعته وشيعة أبيه.

---

(١) علي بن يقطين توفي سنة ١٨٢ أي قبل ذلك بـ ٣٦ سنة. ولعلَّه أحدُ ولديه: الحسن أو الحسين بن علي بن يقطين.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٨ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٤ وأنظر مروج الذهب ج ٣ ص ٤٦٤ وأكثر مصادر بحثنا.

وبعث بالتُّحف والهدايا ليتحدَّثَ الناسُ بإكرامه للإمام، وليحرِّك عصبيَّة الأميرة ـ الخطيرة فتَشعرَ بدفءِ الإيواء تحت جناح « العباسيَّة » المتسلِّطة.

وأرسل بالشراب مختوماً.. لماذا ؟.

لسببٍ واحدٍ واضح ـ على الأقلِّ.. وهو إبعاد التُّهمة عن « قصر السُّموم المعلوم » بشهادة قاضيَي زورٍ ورَدَ اسماهُما أعلاه، مع جماعةٍ آخرين من الوزراء والأعيان المنافقين.

وذاق الخليفةُ الشراب أمام شهود الحال، وداف السُّم ـ أمامَهم أيضاً لأنه كان بمشُورتهم ورأيهم ـ ثم ختمَهُ بحضورهم.

ويلفت النظرَ أنَّه قال لأشناس: « ويأمرك أن تشرب منها بماء الثلج ».. فَلِمَ الأمرُ ؟. وَلِمَ ماءُ الثلج ؟.

كان الأمرُ، كيلا يحصلَ بطءٌ في شُربه ويذهبَ فعلُ السمِّ فيه.. وبماء الثَّلج لتغطية طَعم السُّم بالبرودة التي تؤثِّر في إخفاء الطَّعم والرائحة.. وكلمةُ « صُنع في الحال » لئلا يطفوَ شيءٌ من بقايا زيت السُّموم على وجه الإناء.. والإصرارُ من الخادم على الإمام بأن يشرب حالاً يفضح كل أسرار الجريمة.. ولذلك: شربها عالماً بفعلهم!.

ويلفت النظرَ أيضاً إرسالُ إبريق الشراب من بيتٍ إلى بيت، في حين أنه شرابٌ مبتذلٌ ليس من غالي أشربةِ « القصر العالي »، وإصرارُ ذلك الخادمِ المكرَّرُ بعدَّة عبارات سمعَها من سيِّده!.

فعلَى هذه التساؤلات وغيرِها ممَّا يَرِدُ في الموضوع ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[1] أيُّها القرَّاءُ الكرام..

أمَّا فَتْوَايَ المتواضعة، فهي أن الخليفة كان يَعلم أجوبة هذه الإشكالات، وقاضي قُضاته، وقُضاتُه.. وجماعةُ العارفين الذين شهدوا الختمَ على الشراب، يَعلمون..

---

(١) يوسف ـ ٤٣.

ولكنْ.. سَهَوا عن قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ؟!﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ؟!. بَلَى، وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[2]!.

•

نعم.. لقد حَسِبوا أن الله تعالى لا يسمع سرَّهم ونجواهم، وجهلوا أنه علاَّمُ لغيوب القائلُ في مُحكم كتابه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[3]!.

وظنُّوا ـ كذلك ـ أن الإمام عليه السلام، لا يَعلم خُدَعهم المغطَّاة بالتجلَّة والإكرام، وألاعيبهم الكامنةَ وراء التُّحف والهدايا ـ بعد التقريب والترويج والتزويج ـ تعميةً على شيعته وتضليلاً لهم عمَّا يُضمرونه له من السوء!.

وإنَّهم لَفي غاية السذاجة حين كانوا خلفاءَ إسلامٍ، ووزراء سلطان، وجماعةً من الأعيان، غفلوا ـ جميعاً ـ عن قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ، وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ!.﴾[4].. فلم يَفُتْ أمرُهم عالِمَ السِّر، ولا خفيَ مكرُهم عليه جلَّ وعلا، إذ كانوا ـ حين المؤامرة على الإمام الفتى عليه السلام ـ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ، وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ!. وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى..﴾[5].. فهل أتتك سذاجةٌ وجهلٌ في الدِّين أبسط وأقلَّ من هذه السذاجة وهذا الجهل بعظَمة الله، وهم أُمراءُ مؤمنين، وقُضاةُ مسلمين؟!.

لقد فضح الله ـ على يد تاريخهم المزوَّر المحرَّف ـ أكثرَ ما مكروه، فاستمعْ لما يأتي:

فقد سبق إرسالَ إبريق الشراب المختوم ـ المسموم، الممهورِ بشهادات الخليفة

(١) التوبة ـ ٧٨.
(٢) الزخرف ـ ٨٠.
(٣) الأنفال ـ ٢٤.
(٤) قٓ ـ ١٦.
(٥) النساء ـ ١٠٨.

وسائر أعوانه المنافقين، ما حدَّث به أحمدُ بن حماد المروزيُّ الذي كان من أصحاب الإمام، وابنِه، وحفيده عليهم السلام ـ قائلاً:

«دخلتُ على ابن أبي دؤاد يوماً وهو في مجلسه مع أصحابه، وسمعتُه يقول لهم بعد جلوسه:

يا هؤلاء، ما تقولون في شيءٍ قاله الخليفةُ البارحة؟.

فقالوا: وما ذاك؟.

قال: قال الخليفةُ: ما ترى الفلانيَّة ـ أي الشيعة ـ تَصنع إنْ أَخرجْنَا إليهم أبا جعفر سكرانَ يَنْشَى ـ يَسكر ويفقد وعيَهُ ـ مضمخاً بالخلوق؟.

قالوا: إذن تَبطلُ حجتُهم، وتَبطل مقالتُهم.

فقال المروزيُّ ـ أي الشيعي المتستِّر ـ: إنَّ الفلانيَّة يخالطونني كثيراً ويُفضون إليَّ بسرِّ مقالتهم ـ أي عقيدتهم ـ. وليس يلزمهم هذا الذي يجري من محاولة الحطِّ من قَدْر إمامهم.

قال ابنُ أبي دؤاد: ومن أين قلتَ هذا، وكيف استنتجتَه؟.

قال المروزيُّ: إنَّهم يقولون: لا بدَّ في كلِّ زمانٍ للهِ في أرضه من حُجةٍ يَقطع الْعُذر بينه وبين خَلْقه. فإنْ كان في زمان الحجة مَن هو مثلُه في الشرف والنَّسب، كان أدلَّ الدلائل على الحجة قصدُ السلطان له من بين أهله ونوعه، ليضعَ من قَدْره، ويُنزلَ من مرتبته، لأنه لا يخشى سواه.

فوجم المتآمرون.. إلاَّ أن ابنَ أبي دؤاد نقلَ قول المروزيِّ إلى الخليفة فقال:

«ليس في هؤلاء اليومَ حيلة، فلا تُؤذوا أبا جعفر»[1].

«فلا تؤذوا أبا جعفر» جملةٌ فيها سمُّ الأفعى المكشِّرة عن أنيابها.. التي لم تصر

---

(١) رجال الكشي ص٤٦٩ والمحجة البيضاء ج٤ ص٣٠٢ والإرشاد ص٣٠٧ والصواعق المحرقة ص٢٠٦ ومناقب آل أبي طالب ج٤ ص٣٨٠ وفي كشف الغمة ج٣ ص١٣٥ توفي في ذي الحجة في عهد الواثق بالله، وهو خطأ. وانظر الكامل لابن الأثير ج٦ ص١٥٣ـ١٥٤ والكافي م١ ص٤٩٢ وبحار الأنوار ج٥٠ من ص١ إلى ص١٣ وقال لليلتَين بقيتامن المحرَّم، وانظر ص٩٤ـ٩٥.

طويلاً عن اللَّدغ!. وقد قالها المعتصم لِيُعلن أن السلطان لا يقصد أذيَّةَ الإمام. فقد ورد الإمام بغداد لِلَيلتَينِ من المحرم سنة ٢٢٠ هجرية، وأقام بها حتى اغتيل في ذي القعدة من السنة ذاتها.. أي بعد وصوله بستة أشهر[1]!. فإذن، قد قال ذلك لِيُبْعِدَ الشبهة عن نفسه.. وتعجَّلَ اغتيالَ الإمامِ حتَّى لا تحول بينهما الظروف.

●

وعلى كلِّ حالٍ لم يَخُنِ الخليفةَ العقلُ، ولا خذلَه التفكيرُ حين رأى أنْ ليس في الشيعة حيلةٌ «اليومَ» بالذات.. فالإمامُ في ريعان شبابه، والمعتصمُ في أول عهد إمارته، والوقت مُتَّسعٌ.. فليتربَّصْ «يوماً» آخرَ ملائماً.. يُحْكِمُ فيه خطَّةَ الغدر، لأن المبادرة الفوريَّة قد تأتي مفضوحةً؛ فلا جَرَمَ أن يفكِّر بما هو أحكم.. ولأنَّ التريُّثَ أَسلمُ لإكمالِ مراسمِ الحفاوة بعد أن أُشخِص الإمامُ من المدينة إلى بغداد محمولاً.. بالقوَّة!. ـ وأيضاً ـ لأنَّ السماء والأرض ترقُبان «اليومَ» ما يجري بشان الإمام ـ وإنْ كان الخليفةُ لا يهتمُّ بمراقبة السماء اهتمامَهُ بمراقبة الأرض التي قد تقضُّ مضجعَهُ وتَهزُّ عرشَه لأنها لا تُمْهِل ـ في حين أن السماء تُمْهِلُ.. وإنْ كانت لا تُهمل!. ـ.

فانتظارُ «اليوم المناسب» أحجى على كل حال.. مضافاً إلى أن المعتصم حين قال: «لا تؤذوا أبا جعفر» قد تنبَّه إلى أن المأمون رمَى إلى خطَّة غدرٍ حين قرَّب الإمامَ وجَعَله صهراً على ابنتِه الأميرة الأثيرة، ثم أطلق له حريَّة الإقامة في المدينة المنوَّرة زَمَناً ما، إبعاداً لشُبهة الغدر، وعلماً بأنه في متناول يده دائماً وأبداً..

أجلْ، تنبَّه إلى أنَّ ما فعله المأمون هو عين الحكمة، فَلِمَ الاستعجال؟!!

ولكنْ.. هل يضمن لنفسه البقاء؟.

وهل له في عرشه صكُّ أمان؟.

وهذا فضلُ الإمام عليه السلام كشذا الطِّيب، لا يختفي إلاَّ في الْحِقاق..

فلا بدَّ ـ إذن ـ من حبسِه أو قتلِه..

---

(١) أنظر المصادر السابقة.

وفضلُ الإمام يَرفع من قدْرِه، ويحطّ من قَدْر غيرِه.

والسكوتُ عن «ظهوره» ليس في مصلحة «رَبِّ القصر» ولا في مصلحة عَبَدَتِه، ومُرتزِقتِه!.

وَلَكأَنِّي بالمعتصم قد ندم على ما رأى من التريُّث والصبر، إذ عاد الحقدُ فتحرك - عاجلاً - وقضى بإتمام الجريمة الكبرى!!.

فقد رُوي عن ابن أروبة - وقيل أرومة - أنه قال:

«إن المعتصم - الخليفة العباسي - دعا جماعةً من وزرائه فقال: اشهدوا لي على محمدٍ بن عليٍّ بن موسى زوراً، واكتبوا أنه أر د أن يَخرج - أي أراد أن يخلع الطاعة ويُعلن الثورة -.

ثم دعاه فقال: إنَّك أردت أن تَخرج علَيّ.

فقال الإمام عليه السلام: واللهِ ما فعلتُ شيئاً من ذلك.

فقال المعتصم: إنَّ فلاناً، وفلاناً، وفلاناً، شهدوا عليك.

فأُحضِروا، فقالوا: نعم، هذه الكتب أخذناها من بعض غِلمانك.

- قال: وكان جالساً في بهو، فرفع أبو جعفر عليه السلام يدَهُ وقال: اللهمَّ إنْ كانوا كَذَبوا علَيَّ فَخُذْهم.

قال: فنظرنا إلى ذلك الْبَهْوِ كيف يَرجفُ ويَذهبُ ويجيء، وكلّما قام واحدٌ وقع!.

فقال المعتصم: يا ابنَ رسول الله، إنِّي تائبٌ مَّا قلتُ، فادْعُ ربَّك أن يسكِّنَه.

فقال عليه السلام: اللهمَّ سَكِّنْهُ.. إنَّك تَعلم أنهم أعداؤك وأعدائي.

فسَكَن!.»[1].

فتأمّل!.

•

---

(١) بحار الأنوار ج٥٠ ص٤٥-٤٦ نقلاً عن مختار الخرائج والجرائح ص٢٣٧ وهو في الأنوار البهية ص٢١٢ وإثبات الهداة ج٦ ص١٨٧-١٨٨.

وبالعودة إلى البهو الذي هدأ اضطرابُه لا بدَّ أن نَعجبَ من خليفةٍ للمسلمين وضع نفسَه في مقعد رسول الله ﷺ، ونسألَه ونسأل قُضاة الشَّرع عنده قائلين:

أَمَا سمعوا اليمينَ القاطعةَ التي أَقسمَها الإمامُ عليه السلام «بأنه لم يَفعل شيئاً من ذلك»؟!!

قد كان على قُضاته أن يُطْلِعوه على أهميَّة اليمين في الدِّين، وأنها تُزيل الشُّبُهاتِ وتَنفي التُّهم، وأنَّها تُحقّ حقّاً وتُبطل باطلاً، وتَحُلُّ مشكلاً شرعيّاً وتقطع دابرَ فتنةٍ في كبائر المسائل وصغائرها..

فهل هم على غير هذا الدِّين ﴿يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟!﴾[1].

ويا أيُّها الخليفةُ «التائبُ» ممَّا اتَّهمتَ الإمامَ به حين نزلَ بك أمرُ الله، ثـم قلت للإمام: ادعُ ربَّك،

أما تعلَّمتَ من بَني إسرائيلَ غير هذه العبارة؟!.

قد كانوا يقولون لموسى: ادعُ ربَّك، ثم يتعقَّبون «أمر البقرة» كالمصدِّقين لنبيِّهم، وهم غيرُ مصدِّقين.

فما بالك تستغيث بالربِّ الذي تَعصيه، ثم تُعطه صفة الربوبيَّة للإمام فقط، إذ تُضيفه إلى «كاف الخطاب؟!».

أليس ربُّه ربَّك وربَّ شهودك المتآمرين معك؟. أم أنتم على غير هذا الدِّين؟!.

مَن كان ربُّه ربَّ الإمام، يَثِقُ بالربِّ كثقة الإمام به..

أَفَما كنتم تتفكَّرون.. ولا تتدبرَّون.. ولا تَقِفُون من الشيطان موقفاً واحداً رافضاً؟!!

•

وكأنِّي بالقارىء لا يزال واقفاً عند اهتزاز البهوِ بالطواغيت ـ الجواليت الذي لم يُعْرَفْ لاهتزازه تعليلاً ميسوراً.. ولذلك نقول له: إن هذه من عُلى الإمام عِليه السلام إحدى المعالي، وهي من آيات آبائه وأجداده التي رفَدتهم بها السماء ليواجهوا

---

(١) المجادلة ـ ١٤.

بها دعاةَ النِّفاق المتسوِّرين على محارِيب قُدسهم من المتسوِّدين على عباد الله ظلماً وعدواناً.

فبالأمس دخل الإمام الرِّضا عليه السلام على المأمون وعنده «زينب الكذَّابة» التي كانت تزعم أنها ابنةُ عليٍّ بن أبي طالب، وأن عليّاً دعا لها بالبقاء إلى يوم القيامة..

فقال المأمون للإمام عليه السلام: سَلِّمْ على أُختك.

فقال: واللهِ ما هي أُختي، ولا وَلَدَهَا عليٌّ بنُ أبي طالب.

فقالت زينب: واللهِ ما هو أخي، ولا وَلَدَهُ عليٌّ بن أبي طالب.

فقال المأمونُ للرِّضا عليه السلام: ما مِصداقُ قولك؟.

قال: إنَّا ـ أهلَ البيت ـ لُحومُنا محرَّمةٌ على السِّباع؛ فاطرحْها إلى السِّباع، فإن تَكُ صادقةً فإنَّ السِّباع تغبُّ لَحْمَها. ـ أي تَقربُه مرةً، وتتركه أُخرى، وتأنف أن تذوقه ـ.

قالت زينب: ابدأْ بالشيخ.

فقال المأمون: لقد أنصفتْ؟.

قال الرِّضا عليه السلام: أَجلْ..

فَفُتحتْ بِركةُ السِّباع، وأُضْوِيَتْ ـ أُهيجتْ ـ. فنزل الرِّضا إليها. فلمَّا أَنْ رأتْه بَصبصتْ ـ أي طأطأتْ رؤوسَها، وحرَّكتْ أذنابَها ـ وأومأت له بالسجود، فصلَّى ما بينَها ركعتَين، وخرج منها!.

فأمر المأمون «زينب» لِتَنزل، وامتنعتْ.. فطُرحتْ إلى السِّباع فأكلتْها»[1].

ولَو ذهبنا في ضرب المثل على آيات أهل هذا البيت عليهم السلام، لَطال بنا المقامُ واستطال وخرج بنا عن الموضوع الذي نحن بصدد بيانه.. وَ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ، وَنُوحاً، وآلَ إِبْرَاهِيمَ، وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[2]..

---

(١) فرائد السمطين ج ٢ ص ٢٠٨ـ٢٠٩ وبحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٤٩ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٥١٨ وهو في مروج الذهب والصواعق المحرقة وغيرهما من المصادر.

(٢) آل عمران ـ ٣٣ـ٣٤.

ولا شأنَ للمخلوق، باصطفاء الخالق لهذه الذُّريَّة الدُّريَّة الطاهرة الفاخرة!!

•

أمَّا القول الثاني ـ بشأن اغتياله عليه السلام ـ فهو ما رُويَ من أنَّ «أُمَّ الفضل كتبتْ إلى أبيها من المدينة تشكو الإمامَ عليه السلام وتقول: إنَّه يتسرَّى عَليَّ ويُغيرُني. ـ أي يتَّخذ السراريَّ والإماءَ فتغار منهنَّ عليه ـ.

فكتب المأمون إليها: يا بُنيَّة، إنَّا لم نزوِّجْكِ أبا جعفر ـ عليه السلام ـ لنحرِّم عليه حلالاً، ولا تُعاودي لذكرِ ما ذكرتِ بعدَها»[1].

.. وعرف المعتصم أن الزوجةَ الْغَيُورَ ـ بنتَ أخيه ـ لم تكن على مذهب زوجها ـ الإمام عليه السلام..

وأنها ـ بحمدِ الله ـ كانت عقيماً، قد ألهبَ الْعُقُم مَشاعِرَها وأحرق كبدها.

فبدأتْ معالمُ صورة الغدر بالإمام تتكوَّن وتتَّضح أمام ناظرَيه من على عرش مُلكه الغاشم..

.. ثم هذا جعفر ـ أخوها لأُمِّها وأبيها ـ حاضرٌ للغرَق في وحل التمثيليَّة،

فَلْيَكُنِ الممثِّلون ـ المنفِّذون من نفس الطِّين وذات العجين.. الأمرُ الذي يسهِّل التنفيذ بتمام الْيُسر والسرِّية..

•

قال العلاَّمة المجلسيُّ ـ رحمه الله ـ في «بحاره الزاخرة»:

«ثم إنَّ المعتصم جعلَ يعمل الحيلةَ في قتل أبي جعفر عليه السلام، وأشار على ابنة المأمون ـ زوجتِه ـ بأنْ تَسُمَّه، لأنه وقف على انحرافها عن أبي جعفر عليه السلام، وشدَّةِ غَيرتها عليه لتفضيله «أُمَّ أبي الحسن» ابنِه عليها، ولأنه لم يُرزق منها ولداً ـ

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٧٩ ـ ٨٠ والإرشاد ص ٣٠٤ وفي إثبات الهداة ج ٦ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ مع تفصيل، وكذلك هو في مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٢ وص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ وفي حلية الأبرار ج ٢ ص ٤١٢ إلى ص ٤١٤ وانظر المحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠١ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٤٨ وص ١٥٥ ـ ١٥٦ والصواعق المحرقة ص ٢٠٦.

فأجابَتْهُ إلى ذلك وجعلتْ سُمّاً في عنبٍ رازقيٍّ، ووضعتْهُ بين يدَيه. فلمّا أكلَ منه ندمتْ وجعلتْ تبكي.

فقال عليه السلام: ما بكاؤك؟!. واللهِ لَيَضربَنَّك بعقرٍ لا يَنجبر، وبلاء لا ينستر.

فماتتْ بعلَّةٍ في أغمضِ المواضع من جوارحها صارت ناسوراً، فأنفقت مالَها وجميعَ ما ملكتْهُ على تلك العلَّة، حتى احتاجت إلى الاسترفاد ـ أي المساعَدة الماليَّة ـ.

ورُويَ أنَّ الناسور كان في فَرْجِها »[1].

فَوَاعَجَباً من أميرة خطيرة، تُقيم في عصمة الإمام عليه السلام ستَّةَ عشر عاماً لم تَغرس في قلبها شيئاً من الرَّحمة أو المودَّة التي يجعلها الله تبارك وتعالى بين الزوجَين كما بيَّن في كتابه العزيز.

وأَستغفرُ الله والحقَّ، فإنَّه قلبُ أميرةٍ شِرِّيرة، عملتْ «بنُصب أهلها» ونسيتْ ما هي عليه من الدِّين الإسلاميّ!.

قد تمَّ زواجُها منه في السنة ٢٠٥ هجرية،

وتمَّ سَمُّهُ منها في السنة ٢٢٠ هجرية،

وكأنَّ سنوات الزواج ـ الستَّ عشرةَ ـ كانت عجافاً بالنسبة لعاطفة «الأميرة العقيم» المتحجِّرة القلب العمياء البصر والبصيرة!.

•

وروَى صاحب «إثبات الوصيَّة» هذه القصة كما يلي:

«لَمَّا انصرف أبو جعفر ـ عليه السلام ـ إلى العراق، لم يزل المعتصم وجعفر بن

---

(١) إثبات الهداة ج٦ ص١٩٧ وص٢٠٦ روايةً عن المحمودي عن أبيه في حديثٍ طويل، وبحار الأنوار ج٥٠ ص١٧ ومناقب آل أبي طالب ج٤ ص٣٩٨ وأنها سمَّته في فَرْجِه، وانظر الأنوار البهيَّة ص٢٢٥.

المأمون يدبِّرانِ ويعملانِ الحيلةَ في قتلِه ـ عليه السلام ـ.

فقال جعفر لأخته أُمِّ الفضل ـ وكانت لأمِّه وأبيه ـ في ذلك، لأنه وقف على انحرافها عنه وغَيرتها عليه لتفضيل أُمِّ أبي الحسن ـ ابنِه الهادي عليه السلام ـ عليها، مع شدَّة محبَّتها له، ولأنَّها لم تُرزق منه ولداً. فأجابت أخاها جعفراً. وجعلا له سمّاً في شيءٍ من عنبٍ رازقيٍّ ـ وكان يُعجبه العنب الرازقيّ ـ فلما أكلَ منه ندمتْ وجعلتْ تبكي.

فقال لها: ما بكاؤك؟!. واللهِ لَيَضربنَّك بفقرٍ لا ينجبر، وبلاءٍ لا يتستَّر؛ فكان كما قال. ـ فبُليتْ بعلةٍ في أغمض المواضع من جوارحها، صار ناسوراً ينتقض عليها في وقتٍ، فأنفقتْ مالَها وجميعَ مُلكها على العلَّة، حتى احتاجت إلى رِفْدِ الناس.

ويُروى أن الناسور كان آكلةً في فَرْجِها حتى تنكشف للطبيب يَنظر إليها ويُشير عليها بالدَّواء.

وتردَّى جعفر بنُ المأمون في بئرٍ فأُخرج ميِّتاً، وكان سكراناً»[1]!.

فيا للوفاء المجسَّم في تصرُّفات أميرةٍ.. وأمير.. مسلمَين!.

«هي» عاشت في حِجْرِ زوجها الذي غدرت به سِتَّةَ عشر عاماً.. ثم أقدمت على هذه الخيانة الْعُظمى التي هي من شأن ربَّات المسارح اللَّواتي يَلعبنَ أدوار الفاجراتِ والعاهرات!. لا من شأن الأميرات الكريمات.

و«هو» الأميرُ، جعفر بنُ المأمون ـ عمل بدافع عصبيَّة جاهلية تخطَّت الدِّين والقبيلة، والإنسانيَّة.. وبوحيِ أُمراء القصور الفاجرة الداعرة!. لا الأمراء النُّبلاء.

ولا لَوم على كِلَيْهِمَا.. لأن «مَن شابَهَ أباهُ فما ظَلَم!.».

●

أمَّا مَن دَسَّ السمَّ ـ حقّاً وحقيقةً ـ ودخل في هذه العمليَّة الخيانيَّة ـ الإجراميَّة

---

(١) نفس المصادر السابقة.

الفظيعة، فهو مفضوحٌ بطرفيه: الساعي، والفاعل.

ولن نَدَعَ القارىء يَضيع عنه ويَحار بين شراب الأُتْرُجِّ، والعنب الرازقيِّ،

ولن نُربكَهُ فيختلطَ عليه الأمرُ بين أن يأخذَ المعتصمَ بالجريمة، أو أن يأخذ بـ «أُمَّ الفضل.. وأُمَّ الأصل!.

فالمؤسِّس لأساس الظُّلم، هو المأمونُ.. خليفةُ أبيه الذي سبقَه في استعمال جُند السُّموم..

والساعي ـ بذَنبٍ محروقٍ ـ هو المعتصمُ.. وأعانَه قومٌ آخَرون.. جاؤوا بذلك ظُلماً وزوراً:

ذهاباً من ابن أبي دؤاد الذي لَبس عارَها وشنارها، واختار نارها بتزلُّفه للسلطان وإغضابه للرحمان، وبتصعيده للفكرة وعمله على تأجيج الحقد،

وانتهاءً بجعفر بن المأمون.. الشقيق الصَّفيق،

ومروراً بالجاهلة التي انتقمت لغَيرتها.. ولأسرتها.. وباءت بخزيِ الدهر بعد أن أجرمت وَابْتُليَتْ بداء ذَواتِ العهر.. فاجترضت باقيَ أيام حياتها غُصصاً مُرَّةً.. أليمة!. إذ انْزَوَتْ تشتغل بمداواة «الداء الذي لا دواءَ له» في أغمض مناطق إحساسها، فَنفرَ منها أقربُ المقرَّبين فانطرحتْ جيفةً مُنتنةً، وكانت نكالاً لكلِّ متجرِّيءٍ على الله تعالى في صَفْوَتِه من الْخَلق وخُزَّانِ عِلْمِه ومَواضعِ سرِّه، وسادةِ عباده وقادتِهم!.

•

فَأُمُّ الفضل هذه.. هذه إحدى «فضائلها»!.

ومن «رذائلها» ـ عَفْوَ القول والْهُجر ـ أنه قيل أيضاً:

«.. سمَّته في فَرْجِه بمنديل.

فلمَّا أَحسَّ بذلك قال لها: أَبلاكِ اللهُ بداءٍ لا دواءَ له!.

فوقعت الآكلةُ في فَرْجِها. وكانت تَرجع إلى الأطبَّاء ويُشيرون بالدواء عليها

فلا ينفع ذلك، حتى ماتت من علّتها »[1].

وإحدى « الفضيلتَين » تكفي « أمَّ.. الفضل.. لتكون غيرَ ذاتِ فضلٍ، وغير ذات نُبل!. ».

وأجار الله مُهجة التاريخ الإسلاميِّ المكتوب ـ مكذوباً، محرَّفاً مزيَّفاً، مغيَّراً مبدَّلاً، مليئاً بالنَّسخ والوضع والتعمُّل والتزوير ـ طمعاً بالمناصب السلطانية، وبِمَلْءِ الجيوب والكروش ـ فأضاع ـ بذلك ـ كثيراً من الحقائق، وجعل من « أشباهِ المسلمين » حُكَّاماً، وسلاطين، وخلفاءَ نَبِيٍّ كريمٍ لَبئسما فَعلوا ـ بعدَه ـ بأهل بيتِه وذَوي قُرباه!.

•

قال محمد بن الفرج:

« كتب إليَّ أبو جعفر عليه السلام: احملوا إليَّ الخُمس فإني لستُ آخذه منكم سوى عامي هذا.

فقُبض في تلك السنة »[2].

فما هذا الإنذار الذي تلقَّاه بموته ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ »[3]؟. ثم أفشاه ـ علناً ـ بين أصحابه، بكامل القطع والجزم!.

ومَن أخبره بنهاية عمره شاباً في ريَعان غضارته ونضارته؟.

إنه ليس من الرَّجم بالغَيب.. بل هو من الغَيبِ.. المحتوم.. مهما ظنَّ الخصوم.

وهو من صُلب عِلْمِ أهل البيت عليهم السلام، ومن صميمِ مواهب الله تعالى لهم.. وهنيئاً للمسلِّم باختيار الله المقلِّل من الاعتراضات عليه في خَلقِه وتدبيره..

---

(١) إثبات الهداة ج٦ ص١٩٧ والأنوار البهية ص ٢٢٤ وبعض المصادر السابقة.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص٦٣ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص٣٨٩ وإثبات الهداة ج٦ ص١٨٢ وص١٨٣ وكشف الغمة ج٣ ص ١٦٠ وإعلام الورى ص٣٣٤ـ٣٣٥ والمحجة البيضاء ج ٤ ص٣٠٨.

(٣) لقمان ـ ٣٤.

فللإمام الجواد عليه السلام قَولةٌ قالها في العشيَّة التي تُوفيَ فيها تُدهش العقول، وتُذهلها.. فقد حكى أبو مسافر أنه عليه السلام قال لَيلتئذٍ:

«إنِّي ميِّتٌ الليلة!.

ثم قال: نحن مَعشرٌ إذا لم يرضَ الله لأحدنا الدُّنيا نقلَه إليه»[1].

فأيُّ حيٍّ من الأحياء ـ بل أيُّ طبيبٍ ـ يستطيع أن يحدِّد وقت وفاته، ليلاً أو نهاراً، أو زماناً أو مكاناً، ويقول ذلك بملء فيه وبتمام الثقة؟.

لا أحدَ قطعاً.. وأمرُ هؤلاء النُّخبة من أمر الله سبحانه، وسِرُّهم من سِرِّه، ومَن آمنَ بذلك فقد أكملَ إيمانه وأقرَّ بمواهبه تعالى لعباده المخلَصين، وخلَّص نفسَه من وساوس النَّفْس وهَمزات الشياطين، ومن شوائب الكفر بما تقدِّرُهُ السماءُ وتقرِّرُه.

وإنَّه عليه السلام، لَـمَّا خرج حاجّاً في تلك السنة ومعه ابنةُ المأمون، خرج معه ابنُه عليٌّ الهادي عليه السلام ـ وهو في الثامنة من عُمره ـ. فخلَّفه في المدينة وسلَّم إليه المواريث والسلاح، ونصَّ عليه بمشهد ثقاته وأصحابه، وانصرف إلى العراق ومعه زوجتُه ابنةُ المأمون، فوجد أن المأمون قد خرج إلى بلاد الروم، فمات في رجب سنة ثماني عشرة ومئتَين، وبويع المعتصم في شعبان من تلك السنة[2].. ثم سُـمَّ الإمام عليه السلام بعد ثلاثين شهراً؛ وقد عَلِمَ أن حجه كان الأخير فسلَّم مواريث النبوَّة لولده الصغير، بجرأة الأنبياء على معرفة مصيره، وبيقين الأولياء في إدراك ما يعجز عنه غيرُه.. ومضى إلى بغداد عالماً أنه لا يعود منها.

•

وحكى صفوان بن يحيى، عن أبي نصر الهمدانيِّ ـ الذي كان من مَوالي الجواد، وابنِه الهادي، وحفيده العسكريِّ عليهم السلام ـ أنَّ السيدةَ الشريفةَ، حكيمةَ بنتَ الإمام الجواد عليه السلام، دخلتْ ـ بعد وفاة أبيها ـ على زوجته أم عيسى ـ وهذا لقبٌ جديدٌ للأميرة الخطيرة ـ لِتُعزِّيَها ـ وكان الناسُ يُعَزُّونها ويذكرون مناقبه ـ وقالت له:

(١) بحار الأنوار ج ٥ ص ٢ نقلاً عن مختار الخرائج والجرائح.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٦ وعدَّة مصادر تاريخية أُخرى.

فعزَّيتُها فوجدتُها شديدة الحزن والجزع عليه، تكاد تَقتلُ نفسَها بالبكاء والعويل، فخفتُ أن تتصدَّع مرارتُها.

فبينا نحن في حديثه، وكرَمه، ووصفِ خُلقه، وما أعطاه الله تعالى من الشرف والإخلاص، ومنحه من العزِّ والكرامة، إذ قالت أُمّ عيسى:

ألاَ أُخبرك عنه بشيءٍ عجيبٍ وأمرٍ جليلٍ فوق الوصف والمقدار؟.

قلتُ: وما ذاك؟.

قالت: كنتُ أَغار عليه كثيراً، وأُراقبهُ أبداً. وربما يُسمعني الكلام - أي يوبِّخها - فأشكو ذلك إلى أبي فيقول:

يا بُنيَّة احتمليه، فإنه بضعةٌ من رسول الله ﷺ. وهو كلَّما دخل عليه هرعَ إليه فضمَّه إلى صدره ورحَّب به وخلا معه فلا يأذن لأحدٍ بالدخول عليهما إلاَّ مَن كان من خاصَّته والمقرَّبين من أهله»[1].

وفي كشف الغمَّة رُوي هذا الحديث عن حكيمة بنت الرِّضا عليه السلام، وأنها قالت:

«لَـمَّا تُوفِّيْ أخي محمد بن الرِّضا، صرتُ يوماً إلى امرأته أُمّ الفضل، لسببٍ احتجتُ إليها فيه.

فبينا نحن نتذاكر فضل محمدٍ، وكرَمه، وما أعطاه الله من العلم والحكمة، إذ قالت امرأتُه أُمّ الفضل:

أُخبرك عن أبي جعفر بعجيبةٍ لم يُسمع مثلُها؟!.

قلتُ: وما ذاك؟.

قالت: إنَّه ربما كان أَغارني، مرةً بجاريةٍ، ومرةً بتزويج. فكنت أشكوه إلى المأمون فيقول: يا بُنيَّةُ احتملي، فإنه ابن رسول الله.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٩٥-٩٦ وفي ص ٩٩ نُقل الحديث عن إسماعيل بن مهران مرةً، وعن خيران الأسباطي مرةً ثانية، وهو في مهج الدعوات ص ٤٤ وفي مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ وفي كشف الغمة ج ٣ ص ١٥٥ - ١٥٦ بتفصيل أكثر.

فبينما أنا ذات ليلةٍ جالسةٌ، إذ أتت امرأةٌ من أحسن الناس وكأنَّها قضيبُ بانٍ أو غصنُ خيزران. فسلَّمتْ عليَّ، فسألتُها: مَن أنت؟. فقالت: أنا زوجةُ أبي جعفر ابن الرِّضا، وأنا امرأة من وُلْدِ عمَّار بن ياسر.

قالت أُمُّ الفضل: فأجلستُها لِحُرمتِه. ودخلَ عليَّ من الْغَيرة ما لم أملك نفسي، ووسوس إليَّ الشيطان بقتلها!. ثم احتملتُ ورحَّبتُ بها وأعطيتُها.

فلمَّا خرجتْ نهضتُ من ساعتي فدخلتُ إلى المأمون ـ وكان ثَمِلاً من الشراب، وقد مضى من الليل ساعاتٌ وهو لا يَعقل ـ فأخبرتُه بحالي، وقلت: إنَّه يشتمك، ويشتمني، ويشتم العباس ووُلْدَه.. وقلتُ ما لم يكن.

فَغاظَهُ ذلك وقال: علَيَّ بالسيف، واللهِ لأقتلنَّه.

فقام، وتبعتُه ومعه خادم.

وجاء، فدخلَ على أبي جعفر وهو نائمٌ، فضربه بالسيف حتى تطَّعه إرباً إرباً، وذبحه، وعاد فنام!.

فلمَّا أصبح كنتُ بجانبه، فرآني فقال: ما تصنعين هاهنا؟.

فَعرَّفْتُه ما كان بدا منه، وقلتُ: قد قتلت البارحةَ ابنَ الرِّضا!.

فبرقتْ عيناه وأُغشي عليه. فلمَّا أفاق قال: ويلكِ ما تقولين؟!!

قلتُ: نعم يا أَبَهْ، دخلتَ عليه ولم تزل تضربه بالسيف حتى قتلته.

فاضطرب من ذلك اضطراباً شديداً ثم قال: علَيَّ بياسر الخادم.

فلمَّا حضر الخادم قال: ويلكَ، ما هذا الذي تقول هذه؟.

فقال: صدقتْ، يا أمير المؤمنين.

فقال: هلكْنا، وافتضحْنا إلى آخر الأبد.. اذهبْ فانظر القصَّة.

فذهب الخادم فوجد أبا جعفر قائماً يصلِّي ولا أَثَرَ فيه.. فـأخبر أنه سالمٌ، ففرح وقال: ما بقيَ بعد هذا شيءٌ آخَر!. إنَّ هذا لَعِبرة الأوَّلين والآخِرين!. ثم أعطى الخادم ألف دينارٍ، وحملَ إليه عشرة آلاف دينار. واجتمعا، واعتذر إليه

بالسُّكر!. وأشار عليه ـ أي الإمام عليه السلام ـ بترك الشراب فقَبِل»[1].

وقال الإمامُ عليه السلام لِمَن حضر من الهاشميِّين وغيرهم ممَّن عرفوا بالقصة:
أوَ مَا علِمَ أنَّ لي ناصراً وحاجزاً يَحجز بيني وبينَه؟!![1].

ولن نصدِّق أُمَّ عيسى، ولا نكذِّبها، بل نُلقي التَّبِعة على كاهلها الذي كان يَحمل الأثقالَ الجسام.. ولا يَنوءُ بفضح سُكْرِ أبيها وقَتْلِه للإمام.

ولكننا نقول: يا ليت كان اللهُ جنَّبَ مرارتَها من التصدُّع!.

ولَيته صانَ قلبَها ـ الحسَّاسَ ـ من التمزُّق والجزَع!.

وحبَّذا لو أَبقى على دموعها ـ دموعِ التماسيح ـ التي ذَرفتْها على «عزيزٍ» أثيرٍ لديها كالإمام أبي جعفر عليه السلام!.

ولا حَرَمَ الله الأمَّة من أمثال هذه العواطـف الحاقدة ـ الكاذبة التي كثيراً ما يشاهُدها رُوَّادُ السينماءَات والملاهي تنهمرُ من عيون الكاذبات ـ المتصنِّعات، وتسيلُ من آماق الممثِّلات الماكرات!.

وما كان أغنى أُمِّ اللَّقب الجديد ـ أُم عيسى ـ عن انفجار الدموع، وانشطار المرارة، وتمزُّق القلب... وعيسى عليه السلام رسولُ الرحمة والمحبَّة والسلام؟!.

الممثِّلاتُ يَبِعْنَ في الملاهي دموعَهنَّ، ومرائرَهنَّ، وقلوبَهنَّ.. بأثمانٍ غالية.

فماذا قبضتِ ثَمَنَ ذلك يا ذاتَ اللَّقبَين؟!!

أولئك يتاجرنَ على خشبة المسرح... ويربحنَ شهرةً، ومالاً.

وأنتِ... خسرتْ صَفقتُك.. وبؤتِ بالخزيِ.. والعارِ.. والنارِ.. وغضبِ الجبَّار،

ودفعتِ غضارةَ النَّعيم في حياتكِ الدُّنيا.. ثَمَناً لخسارتك الأخرويَّة.. ومُقَابِلَ عرشِ غيرِكِ.. يا بنتَ الأمراء.. السفَّاحين!.

وشتَّان ما بين من يمثِّل دوراً لينال الشهرة والأجر،

---

(١) المصادر السابقة لهذا الرقم، وانظر حلية الأبرار ج ٢ ص ٤١٢ إلى ص ٤١٤ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٨٤ وما بعدها.

وبين مَن مثَلثْ دور خيانةٍ كُبرى.. ورجعت بالْخُسر، أَبَدَ الدَّهر.. ويومَ الحشر!.

•

وفي كلِّ حالٍ لحقَ الإمام عليه السلام بالرفيق الأعلى ـ مسموماً ـ وانضمَّ إلى قافلة الشهداء الأبرار من أجداده وآبائه عليهم الصلاةُ والسلام. وأَنْهَى ظلمُ «الحكَّام المسلمين» بموته حياةَ إمامٍ، لسانُ حال السؤال الَّذي يوجَّهُ إليهم يوم القيامة بشأنه يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1]؟!.

وانطوتْ بقتله صفحةٌ مشرقةٌ من صفحات المجاهدين في سبيل إيصال كلمة الله تعالى إلى عباده، ممَّن كانوا سَفَرتَهُ سبحانه في أرضه، وأُمناءَهُ على وحيه وعزائم أمره، من أهل بيت النبوَّة، ومَعْدِن الرسالة، ومُختلفَ الملائكة، ومَهبط الوحي والتنزيل، وكان ذلك يوم السبت لستٍّ خلَون من ذي الحجة[2] سنة عشرين ومئتين لانقضاء الهجرة النبويَّة الشريفة. وبعد وفاته دخلت زوجتُه ـ بنت المأمون ـ إلى قصر المعتصم فَجُعلت مع الحرَم، وذاقت بعده الحياة مُرَّةً، والموتَ زُؤاماً، وعذابَ الندامة والألَـمَ النفسيَّ الأليم علقماً.. ولاتَ ساعة مَندم!.

وكان عُمره خمساً وعشرين سنةً، وثلاثة أشهرٍ، واثني عشر يوماً[3]،

وخلَّفَ بعده ذكَرَين، هما: عليٌّ ـ الإمام الهادي عليه السلام ـ الذي ولد سنة ٢١٢ هجرية وكان ابن تسع سنين تقريباً، ثم أخوه موسى، وابنتَين هما: **فاطمةُ**، وأمامة[4].

---

(١) المؤمن ـ ٢٨.

(٢) وقيل في الخامس من ذي الحجة، كما قيل في يوم الثلاثاء لخمس خلَون منه، وقيل في حادي عشر ذي القعدة أو في آخره. ـ راجع مصادر الرقم التالي.

(٣) وقيل: خمسٌ وعشرون سنة، وشهران، وثمانية عشر يوماً، وقيل: ثلاثة أشهر، واثنان وعشرون يوماً، والله تعالى أعلم.

(٤) راجع بشأن كلِّ ما سبق: مناقب آل أبي طالب ج٤ ص٣٣٩ وبحار الأنوار ج٥٠ من ص١ إلى ص١٥ والكافي م١ ص٤٩٢ و٤٩٧ وكشف الغمة ج٣ ص ٢١٥ وص٢١٧ وص ١٤٠ ـ ١٤١ وص ١٥١ ـ ١٥٢ وص ١٥٥ وص ١٦٠ وتذكرة الخواص ص ٣٢١ وحلية الأبرار ج ٢ ص٤٢٣ والكامل لابن الأثير ج٦ ص١٥٣ ـ ١٥٤ والأنوار البهية ص ٢٢٢ والإرشاد ص ٢٩٧ وص ٣٠٧ ومروج الذهب ج ٣ ص ٤٦٤ والصواعق المحرقة ص ٢٠٦ وإعلام الورى ص ٣٣٨.

.. ثم دُفن الإمام عليه السلام خَلْفَ جدِّه الإمام الكاظم عليه السلام[1] في مقابر قريش ـ في أطراف بغداد، وتقوم الآن من حول مقامها مدينة الكاظمية المترامية الأطراف؛ ومقامُها مَزارٌ يكتظُّ بالزوّار والمتشرِّفين به ليلَ نهارَ بحيث تشتبك أيديهم في قضبان القفص الذهبيِّ الموضوع على قبرَيها وتتلاقى من حوله دموع الطائفين به، وتتصاعد دعواتُهم وابتهالاتهم إلى الله عزَّ وجلَّ في طلب الحوائج، ورجاءَ المغفرة، وتشفُّعاً بهذَين الإمامَين العظيمَين اللَّذَين اغتالَهما ظُلم الحاكمين باسم الإسلام الذي جاء به جدُّهما الأكرمُ محمدٌ ﷺ. وقد قامت «حضرتُهما» الشريفةُ تحت قُبَّةٍ كبرى ومآذنَ سامقةٍ إلى السماء ـ مذهَّبةٌ كلُّها ـ يرجع البصرُ عنها خاسئاً وهو حسير ـ وقامت في وسط عاصمة الظُّلم والْجَور لتكون قَذًى في أعْيُنِ ظالمي أهل بيت النبيِّ إلى يوم يُبعثون، ومَحَجَّةً يفيء إليها الواهون، ويأوي إلى هيكل قُدسها المؤمنون الْمُوَالون إلى أن يقومَ الناس لربِّ العالمين..

أمَّا الظالمون.. فقد طواهم التراب.. وأخنى عليهم الدهر.. وديارهم خراب.. وقبورهم قد ذهب بعفنها التراب.. والله وحدَه يَعلم سوء مصيرهم بعد وقوفهم بين يَدي ربِّهم الذي يحاسب على مثقال الذَّرَّة!!

•

أمَّا مدة ولايته فكانت سبع عشرة سنة[2].

وقيل إنَّه مضى له في عهد والده سبع سنين وأربعة أشهر ويومَين، وعاش بعده ثماني عشرة سنة إلاَّ عشرين يوماً، أو تسع عشرة سنة إلاَّ خمسةً وعشرين يوماً، وقد توفي عنه أبوه سنة ٢٠٣ هجرية..

•

(١) أنظر جميع المصادر في الرقم السابق.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٧٩ وذكر أن وفاته كانت في عهد الواثق خطأ، ومثله في حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢٣، وأنظر بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٧ إلى ١٣ وص ١٠٤ وكشف الغمة ج ٣ ص ٢١٥ وص ٢١٧ والكافي م ١ ص ٤١٧ وص ٤٩٧ وتذكرة الخواص ص ٣٢١ وأكثر المصادر التي ذكرناها بالنسبة لوفاته (ع).

وكانت إمامتُه بقيّةَ مُلك المأمون، وأولَ مُلك المعتصم ـ بعد أن مضى منه ثلاثون شهراً، وقد قال ابنُ بزيع العطار ـ كما ذكرنا سابقاً ـ:

« قال أبو جعفر: الفرَج بعد المأمون بثلاثين شهراً. فنظرْنا فمات عليه السلام بعد ثلاثين شهراً »[1].

وقال محمد بن الفرج:
« كتب لي أبو جعفر عليه السلام: إذا غضب الله تبارك وتعالى على خلقِه، نحّانا عن جوارهم »[2].

•

« وذكر ابنُ همداني الفقيهُ، في تتمة تاريخ أبي شجاع الذي كان من وزراء العباسيين، في ذيل كتاب تجارب الأمم:
أنه لَـمّا خرّقوا القبور بمقابر قريش في بغداد وأحرقوها وهدَموها، حاولوا حَفْرَ ضريح أبي جعفر، محمد بن عليٍّ عليهما السلام، وإخراجَ رمّتِه وتحويلَها إلى مقابر أحمد، فحالَ ترابُ الهدم ورمادُ الحريق بينهم وبين معرفة قبره »[3].

وقد أبَى الله تعالى إلاَّ صَوْنَ أوليائه ـ أحياءً وأمواتاً ـ عن أن تمسَّ أجسادَهم الطاهرةَ الأيدي الآثمةُ التي يحرّكها السلطانُ والشيطان..

ثم اندثرت قبورُ مَن أحرقوا قبورَ أوليائه سبحانه ومن هدَموها، وبادوا وبادَ ذكرُهم وباؤوا بخسران الدينا وخزي الآخرة.

وخلدَ ذكرُ أهل الحق إذ سبق القضاءُ وجفَّ القلمُ بعد أن قال الله تعالى في مُحْكَمِ كتابه:

---

(١) كشف الغمة ج ٣ ص ١٥٣.
(٢) الكافي م ١ ص ٣٤٣.
(٣) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠ إلى ص ١٥ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩٧.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا ! ﴾[1].

فلا يدوم إلاَّ الحق.. والظُّلْمُ مرتعُه وخيم..

أمَّا الظالمون ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لم تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ ! ﴾[2].

---

(١) المؤمن ـ ٥١.

(٢) القصص ـ ٥٨.

بَعضُ آياتِه وَدَلالاته وَمعَاجزه الخَارِقة

•

مَررنا بكثيرٍ كثيرٍ من آياته ودلالاته فيما سبق.

ولا يُجفلنَّ القارىءَ هذا العنوانُ الذي يُغضب ضِعافَ النفوس فيقولون: هل للإمام آيات؟. ودلالات؟!. وهل هو رسولٌ.. مبعوثٌ ببراهين؟. ومعاجز؟!!

أجل، له آيات.. ولا يَتعجَّلنَّ الأمور حتى يتبيَّنها.. فالعَجلةُ من الشيطان.

والإمامُ ليس نبياً، ولكنَّه وَصِيٌّ مستأمنٌ على الرسالة؛ شأنُه معها كشأن النبيِّ الذي أدَّاها كاملةً قبل موته، ووظيفتُه حياطتُها من الزيادة والنقصان والتحريف والتأويل، وكلِّ ما يمسُّ جوهرها أُصولاً وفروعاً.

وإنَّ أستاذ كلِّ نبيٍّ هو الله عزَّ وجلّ،

وأستاذ كلِّ إمامٍ هو النبيُّ الذي عَهِدَ إليه.

فأستاذُ هذا، أستاذُ ذاك.. وكلاهما لا ينطقان عن الهوى. لأنَّ الأنبياء وأوصياءهم يُزَقُّون العلمَ زقّاً، مع فارقِ أنَّ النبيَّ يوحَى إليه بأوامرَ ونواهٍ يبلِّغها للناس، وأنَّ الإمام يَخْلُفه في رعاية الشريعة، ويُلْهَم القولَ إلهاماً.

وهنا لا بدَّ من التوسُّع في موضوعٍ عَرَضنا له تحت عنوان: أُوتيَ الحُكم صبيّاً » لزيادة الإيضاح:

قال الله تعالى ـ وهو المعلِّمُ الأول ـ: ﴿خَلَقَ ٱلإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ ٱلبَيَانَ[1]﴾. والإنسانُ هو خليفتُه على أرضه فلا عَجَبَ أن يجعل مُسْتَواهُ فوقَ مستوياتِ بقيَّةِ مخلوقاته.

وهذا يعني ـ بالبديهة ـ أنه تعالى هو العالِمُ والمعلِّمُ أولاً وأخيراً، ولذا قال عن رُسله ـ إبراهيم وأبنائه وحَفَدته الذين اختصَّهم بالنبوَّة ـ صلَواتُه وسلامه عليهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ..﴾[2] لأنه هو تعالى جاعِلُهم كذلك، ومُنصِّبُهم أئمَّةً وأَدِلاَّءَ لخلقه؛ قد عَهِدَ إليهم بشؤون عباده، وحماهم وتعهَّد خطاهم، وأيَّدهم بنصره..

ثم قال تعالى متحدثاً عن شيخ الأنبياء، نوحٍ عليه السلام:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3].

فبيَّن نوحٌ عليه السلام أنَّ عِلْمه من الله تبارك وتعالى.

وقال سبحانه على لسان أبي الأنبياء، إبراهيم عليه السلام:
﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[4]..

أيْ أنّ لَدَيه من العلم ما لم يتسنَّ لأبيه بالرغم من أن أباه كان يعيش مع الناس، وأنَّ إبراهيم عليه السلام وُلِدَ ونشأ ودَبَّ ودرجَ في الغار بعيداً عن أعين المتربِّصين به ليقتلوه حين ولادته.

---

(١) الرحمان ـ ٤.
(٢) الأنبياء ـ ٩.
(٣) الأعراف ـ ٦١ و٦٢.
(٤) مريم ـ ٤٣.

وبشأن إبراهيم عليه السلام ـ الذي كانت آيتُه أُمَّ الآيات السماوية ـ قال عزّ من قائل:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[1].

فلم تفعل نار النمرود[2] فيه فِعْلَ النَّار التي نعهدها، وذهب حرُّها وذهب معه حقدُ النمرود وجميع أتباعه من الكافرين.

ثم قال تبارك وتعالى عن ابن أخته لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾[3]. فكان سبحانه معلِّمه ومُلْهِمُه العلمَ والحكمة.

وقال يعقوب عليه السلام لِبَنيهِ بعد تضييعهم ليوسف:
﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[4]

ثم قال سلامُ الله عليه بعد أن رأوا أنَّ يوسف عليه السلام لا يزال على قيد الحياة:

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ ـ أي قميص يوسف ـ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟﴾[5].

وكان يعقوب عليه السلام، قد قال ليوسف بملء الثقة وهو يفسِّر له رؤياه التي رآها في منامه، ويعدِّد له نِعَمَ الله التي أعدَّها له: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى

---

(١) الأنبياء ـ ٦٩.

(٢) النمرود: هو نمرود بن كوش بن حام بن نوح، جاء ذكره في سفر التكوين وكُتب العرب. وقد ضُرب به المَثَل بالجبروت والتكبُّر.

(٣) الأنبياء ـ ٧٤.

(٤) يوسف ـ ٨٦.

(٥) يوسف ـ ٩٦.

﴿أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾[1]..

وكذلك قال يوسف عليه السلام لرفيقَيه في السجن بعد أن فسَّر لهما ما رأَيَاهُ في المنام: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[2]..

ثم قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً..﴾[3].

وعنه وعن أخيه هارون عليهما السلام قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ... وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[4].

وعن موسى عليه السلام ورفيقه في سفره لمقابلة الخضر عليه السلام قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾[5].

.. فعلمُ الأنبياء والأولياء ـ كلِّهم ـ علمٌ لَدُنِّيٌّ، رَبَّانِيٌّ، موهوبٌ غيرُ مكسوب كما رأيت.. بل لقد أَوْحَى سبحانه إلى أُمِّ موسى وهي ليست بنبيَّةٍ ولا وصيَّة فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى..﴾[6] ثم امتنَّ بذلك على نبيِّه موسى عليه السلام وقال: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى: أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ...﴾[7].

أفلا يجوز أن يوحَى إلى الإمام الذي يحمل مسؤولية السماء الكبرى، ثم يوحى لأم موسى عليه السلام، وللنحلة؟!.

---

(١) يوسف ـ ٦٦.
(٢) يوسف ـ ٣٧.
(٣) القصص ـ ١٤.
(٤) الصافات ـ ١١٤ إلى ١١٨.
(٥) الكهف ـ ٦٥ و٦٦.
(٦) القصص ـ ٧.
(٧) طه ـ ٣٨ـ٣٩.

بلَى والله.. ولقد قال عزَّ وجلَّ متحدثاً عن داود عليه السلام: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ... وَعَلَّمْنَاهُ، صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ..﴾[1].

ثم قال تعالى عنه وعن ابنه سليمان عليهما السلام:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً، وَقَالاَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. فهو مُعطيهما العلمَ، ومُفضِّلُهما على المؤمنين من عباده.

ثم قال عزَّ وجلَّ عنهما عليهما السلام: ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾[1]. وقال عن سليمان عليه السلام:

﴿.. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَان..﴾[3] أي علّمه الْحُكم في القضيَّة التي عُرضت على أبيه وعليه، عليهما السلام.

وقال عن سليمان عليه السلام أيضاً:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيْحَ ـ أي: سَخَّرْنَاها له ـ تَجْرِي بِأَمْرِه..﴾[3].

ليسير عليها بساطُ الريح الذي كان يحمله من بلدٍ إلى بلدٍ مع حاشيته وجيشه حيث تأتمر الريحُ بأمره!. وهذه من الآيات العجيبة لأن مخلوقاً من الناس يتصرَّف في العوامل الطبيعية ويغيِّر مجراها!. ولذا فإن سليمان عليه السلام قال متحدِّثاً عن نعمة ربِّه:

﴿.. يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ!﴾[4].

---

(١) الأنبياء ـ ٧٩ و٨٠.

(٢) النمل ـ ١٥.

(٣) الأنبياء ـ ٧٩ و٨١.

(٤) النمل ـ ١٦.

ثم قال عليه السلام متحدِّثاً عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[1].

ثم قال سبحانه ـ عن طالوت الذي هو مَلِكٌ، لا نبيٌّ ولا وصيٌّ ـ على لسان نبيٍّ من أنبياء بَني إسرائيل: ﴿قَالَ: إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ..﴾[2].

وعن عيسى عليه السلام قال عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ: إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَهْلاً، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّورَاةَ وَالإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي، فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي، وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي...﴾[3].

بل لقد أوحى إلى حَوارِيِّي عيسى عليه السلام ـ وهذا وحيٌ للأولياء لا للأنبياء ـ:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ: أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي..﴾[3].

بل: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ..﴾[4].

والنحلُ حشرات!.

وكذلك تكلَّم سبحانه عن دَخْلِه بشأن أيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، ويونس، وزكريّا، ويحيى، عليهم السلام جميعاً، ثم قال عن مريم ابنة عمران عليها السلام:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا، وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً

---

(١) النمل ـ ٤٢.

(٢) البقرة ـ ٢٤٧.

(٣) المائدة ـ ١١٠ و١١١.

(٤) النحل ـ ٦٨.

لِلْعَالَمِينَ﴾[1]. فهو سبحانه وتعالى الذي جعلها آيةً ـ جعلاً ـ ووفْقَ إرادته..

وهذا يعني أنه عزَّ وجلَّ، يكوِّن عباده كيف يشاء، ويمنح العلْم والحكمة لمن يشاء.

بل إن الملائكة، الذين بأيديهم أمورُ السماوات والأرضين وجميع مخلوقات الله، قد خاطَبوا الله تعالى: و ﴿قَالُوا: سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[2]. كما ذكرنا منذ قليل.

أمَّا محمدٌ ﷺ فقال له سبحانه:

﴿..وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[3]. وذلك بأن جعله خاتَمَ الأنبياء وأفضلَهم، وجعل أوصياءه خاتَمِي الأوصياء وأفضلَهم أيضاً..

•

هذا هو «العلم» الموهوبُ، الذي يكون من قِبَلِ الله جلَّ وعلا القائل في مُحكَم كتابه:

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[4].

والقائلُ ـ عزَّ من قائل ـ:

﴿..يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[5]..

ولم يكن عِلْمَ شهادات تخصُّصٍ، ولا علم إجازاتٍ، وماجستير، ودكتوراه، ولكنه العلمُ الربَّانيُّ الذي اختصَّ به الصَّفوة من عباده.

فسبحانَ مَن خلقَ الناس وهداهم إلى ما فيه صلاحُهم، وهم ﴿لاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ!﴾[6].

•

(١) الأنبياء ـ ٩١.
(٢) البقرة ـ ٣٢.
(٣) النساء ـ ١١٣.
(٤) يوسف ـ ٧٦.
(٥) المجادلة ـ ١١.
(٦) البقرة ـ ٢٥٥.

ونحن نقول للمتعجِّبين المستنكِفين عن الاعتراف بمرتبة الإمامة والولاية ما كان يقوله محمدٌ صلى الله عليه وآله لِمُنْكِري رسالتِه:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَسْتَ مُرْسَلاً،
قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[1].

فَلْيُصَدِّقْ مَن شاء أن يكون من المؤمنين،

وَلْيُكَذِّبْ مَن أراد أن يكون في صف المكابِرين العاملين برأيهم الشخصي، كما كذَّب قارون الذي قال عن ثروته الطائلة وغناه العظيم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[2]. فخسفَ الله تعالى به وبداره وبماله الأرض..

أو أن يكون في عداد المستكبِرين الذين قال سبحانه عنهم:

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا،
ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ،
بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ.
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[3].

فلا يجوز أن تأخذَ الفتنةُ بزمام رأينا وتسدَّ علينا منافذ التفكير.. فممَّا صرح به الأئمة عليهم السلام أنَّ الإمام: «ينظر بنور الله، ويسمع بفهمه، وينطق بحكمته. يُصيب فلا يخطىء، ويَعلم فلا يجهل، قد مُلِىء حلماً وعلماً»[4].

ذاك أن الإمامة عهدٌ من الله سبحانه يسير الإمام بموجبه فلا يتعدَّاه.. وإنَّ إسماعيل بن عمَّار سأل أبا الحسن الأول ـ أي الإمام الكاظم عليه السلام ـ فقال:

«فرضَ الله على الإمام أن يوصيَ ـ قبل أن يَخرج من الدينا ـ ويَعهد؟.

قال: نعم.

فقال: فريضةٌ من الله؟.

---

(١) الرعد ـ ٤٣.

(٢) القصص ـ ٧٨.

(٣) الزمر ـ ٤٩.

(٤) الإمامة والتبصرة بالخيرة ص ٧٩ ـ ٨٠.

قال: نعم »[١].

وروَى عمرو بن الأشعث عن الإمام الصادق عليه السلام، قائلاً:

« سمعته يقول ـ ونحن في البيت معه نحوٌ من عشرين إنساناً ـ:

لعلَّكم ترَون أنَّ هذا الأمر إلى رجلٍ منَّا يضعه حيث يشاء؟.

لا والله، إنَّه لَعهدٌ من رسول الله ﷺ، مسمًّى رَجُل فَرجل حتى ينتهي الأمرُ إلى صاحبه »[١].

وعن يحي بن مالك عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال:

« سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[١]؟.

فقال: الإمام يؤدِّي إلى الإمام »[١].

فالأئمةُ عليهم السلام مكلَّفون برعاية شؤون الرسالة؛ وهم مسددون مؤيَّدون من قِبَلِ الله تبارك وتعالى. وهم مفهَّمون مُلْهَمون، يُلْقَى إليهم ويُوحَى، كما أُلْقِيَ وأُوحيَ إلى غيرهم من عباد الله المصطفَين لحملِ كلمة الله.

فالإمامُ أمير المؤمنين عليه السلام كان من محمدٍ ﷺ كما كان هارونُ من موسى، إلاَّ أنه لا نبيَّ بعده. أي أنه كانت تتوافر عنده جميع شروط النبوَّة وحملِ الرسالة، ولكنه ليس نبيّاً.

والإمامُ الحسن عليه السلام كان يَعلم ما لا يَعلمه الناس، وفعلَ ما عهد إليه جدُّه محمدٌ ﷺ، ولم يَعْدُ ذلك العهدَ قيد شَعرة.

والإمامُ الحسين عليه السلام قام بما شاء الله تعالى له من الشهادة الفذَّة في سبيله، بعهدٍ من جدِّه معهودٍ، وهو مختومٌ عليه، مقرَّرٌ من عند ربِّه..

والإمامُ زين العابدين عليه السلام لم يتخطَّ حدود ما رُسم له، فكان مؤدِّباً ربَّانيّاً بارعاً، ومربِّياً نادراً لسائر العالَمين.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨ ـ ٣٩ والآية في النساء ـ ٥٨.

والإمامُ الباقر عليهُ السلام حقق المدرسة السماويَّة التي كلَّفه بها خالقه ورفع بنيانَها، وشرع في تأثيل العقيدة ونشر أحكام الله تعالى على الأرض، ففسَّر القرآن وبيَّن السنَّة وأوضح الكثيرَ من الحلال والحرام..

والإمامُ الصادق عليه السلام أتمَّ دَوْرَ أبيه وأجداده بما انصرف إليه من إرساء دعائم الدين، فكان شيخ فقهاء عصره ـ بل شيخ فقهاء العصور إلى يوم النشور ـ وكان الإمامان: مالك، وأبو حنيفة من تلامذته في الفقه[1] ـ كما كان جابر بن حيَّان من تلامذته في علم الكيمياء والإكسير وما إلى ذلك كالجفر الذي فيه علمُ ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة.. فمَن علَّمه ذلك حتى أتقن الكيمياء وغيرها؟.

والإمام الكاظم عليه السلام كان أستاذ الفقهاء رغم حبسه وعزله عن قواعده مدة أربع عشرة سنة[1] كان فيها تحت أعظم رقابةٍ عرَفَها التاريخ، ولكنها لم تَحُلْ بينه وبين نشر عِلْمه والقيام بوظيفته..

أمَّا الإمام الرِّضا عليه السلام فكان مطمحَ أنظار جهابذة العلم والفقه من سائر الطوائف الإسلامية وغيرها، وكان سيِّدَ المتكلِّمين في عصرٍ كان فيه العلمُ والفلسفة في إبَّان ازدهارهما.

وجاء من بعدهم الإمامُ الجوادُ الفتى عليه السلام، الذي نُريك بعض آياتِه وبيِّناته في هذا الموضوع، بعد أن مررتَ بكثيرٍ منها في المواضيع السابقة.

●

قال محمد بن عليٍّ الهاشميَ ـ الذي كان مناصباً للشيعة، منكِراً حقَّ الأئمَّة ـ:

«دخلتُ على أبي جعفر عليه السلام صبيحة عُرسه ببنت المأمون، وكنتُ قد تناولت من أول الليل دواءً، فأولُ مَن دخل في صبيحته أنا؛ وقد أصابني العطش وكرهتُ أن أدعوَ بالماء.

فنظر أبو جعفر عليه السلام في وجهي وقال: أراك عطشاناً.

---

(١) حلية الأولياء ٣/١٩٨ والصواعق المحرقة ص١٩٩ والأمويون والعباسيون لجرجي زيدان ص١٥٣.

قلتُ: أَجلْ.

قال: يا غلامُ اسقنا ماءً.

فقلتُ في نفسي: الساعةَ يأتونه بماءٍ مسموم، واغتممتُ لذلك.

فأقبل الغلام ومعه الماء.

فتبسَّم في وجهي ثم قال: يا غلام ناولني الماء.

فتناول الماء وشرب. ثم ناولَني وتبسَّم، فشربتُ.

وأَطلتُ عنده، وعطشت،

فدعا بالماء ففعلَ كما فعل بالمرَّة الأولى، فشرب ثم ناولَني وتبسَّم.

وقال محمد بن حمزة:

قال لي محمد بن عليٍّ الهاشمي هذا:

واللهِ إنِّي لأَظنُّ أنَّ أبا جعفر عليه السلام يَعلم ما في النفوس كما تقول الرافضة»[1].

أجلْ، لقد عرف الإمامُ عليه السلام ما في نفس زائرِه من غير أن يتكلَّم زائرُه!.

ولذلك شهد الزائرُ ـ وهو عدوٌّ للإمام ـ بهذه الشهادة دون مواربة.

وقد جرَت هذه الحادثةُ مع رجلٍ لا يتولاَّه ولا يقول بإمامتِه،

وقد أقسمَ الرجلُ يميناً على أن الإمام صلواتُ الله عليه يَعلم ما في النفوس،

لأنه عرفَ عَطَشَ جليسِه مرتَين من دون أن يتكلَّم جليسُهِ!.

ثم كيف عَلِمَ الإمام سلامُ الله عليه أن هذا الذي لا يواليه يحتمل أنَّ القوم سيسقونه سمّاً مع الماء، فشرب من الماء قبل أن يقدِّم إليه ليعرِّفه أنه غيرُ مسموم؟!!

وما معنى تَبَسُّمِه في وجه مَن لا يعترف بإمامته؟.

أَلاَ يعني ذلك أنه يريد أن «يعتقد» غريمُه بأنه يَعلم ما في النفوس؟!.

---

١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٥٤ والإرشاد ص ٣٠٥ـ٣٠٦ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٧٤ـ١٧٥ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩١ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٣ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٥٠.

أوَلاَ يـدلّ ذلـك ـ أيضـاً ـ على أن القـوم يـدسُّـون السمَّ في طعـام وشراب أعدائهم؟!.

بلى،

وبشهادة هذا الذي هو من رجال القصر يتحقَّق «ماءُ القصر المسموم». كما أنَّهُ تحقَّق بشرب الإمام عليه السلام قبل زائره للتهنئة، أن ذلك الماء ـ بالخصوص ـ كان غير مسموم، فشرب منه الإمام بعد أن «عَلِمَ» سلامتَهُ لِيُزيل من فكر الرجل أن «العروس الأميرة» ستدوف له السمَّ في الماء منذ صبيحة ليلة العرس!.

وإذا تحرَّك عَجَبُ قارئي الكريم من بعض ما منحَ الله تعالى هذا الإمام العظيم من عطاياه التي لا تفسَّر بالمعقول، فانني سأرود معه ردهاتِ قصر الإمارة في بغداد لندخل إلى بعض أبهائه الفخمة ونشهد الشريط التمثيليَّ التالي ونستمع إلى ما رواه محمد بن الرَّيان إذ قال:

«إحتال المأمون على أبي جعفر عليه السلام بكلِّ حيلةٍ فلم يمكنه فيه شيء. فلما اعتلَّ وأراد أن يبنيَ عليه ابنتَه ـ وكان الإمام عليه السلام دون الحُلم ـ دفع إلى مئة وصيفةٍ من أجمل ما يكنَّ، إلى كلِّ واحدةٍ منهنَّ جاماً فيه جوهر، يستقبلن به أبا جعفر عليه السلام إذا قعد في موضع الإختان، فلم يلتفت إليهنَّ.

وكان رجلٌ يقال له «مخارق» صاحبُ صوتٍ وعُودٍ وضربٍ، طويل اللحية. فدعاه المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، إنْ كان في شيءٍ من أمر الدُّنيا فأنا أكفيك أمْرَه.

فقعد بين يدَي أبي جعفر عليه السلام، فشهق «مخارقُ» شهقةً اجتمع إليه أهلُ الدار، وجعل يضرب بعوده ويُغَنِّي.

فلمَّا فعل ساعةً وإذا أبو جعفر عليه السلام لا يلتفت إليه، ولا يميناً ولا شمالاً، ثم رفع رأسه وقال:

إتَّقِ اللهَ ياذا الْعُثنون.

قال: فسقطِ الْمِضرابُ من يده والْعُود، فلم ينتفع بيده إلى أن مات.

قال: فسأل المأمونُ عن حاله.

قال: لَمَّا صاح بي أبو جعفر فزعتُ فزعةً لا أُفيق منها أبداً»[1].

ولو كان ذو العثنون ـ المجبولُ على النِّفاق، وذو اللِّحية المضمَّخة بفجور الفُسَّاق ـ لو كان يَتَّقي الله تبارك وتعالى لَمَا تجرّأ على أن يتبرَّع للمأمون بأن يكفيَهُ أمْرَ الإمام..

فإنه ـ مُذ جهلَ حقَّ الإمام عليه السلام ـ عرَّفه الله تعالى حقَّه وقدرَه.. ثم أبقى غضبَه «بصمةً» على يدِه الشلاَّء الآثمة.. وفزعةً في قلبه الخواء.

فقد كانت يدُه تحرِّكها أناملُ الشيطان،

وكان قلبُه مرتعاً للأبالسة من بني الإنسان.

•

ومن آياته الخارقة ما حكاه محمد بن أبي العلا عمَّا جرى بينه وبين يحيى بن أكثم ـ قاضي قضاة السلطان الذي تقدم أنه كان شيخَ الامتحان ـ إذ قال محمد:

«سمعتُ يحيى بن أكثم، قاضيَ سامرَّاء، بعدما جاهدتُ به وناظرتُه، وجاورتُه.

وقد قلت له يوماً: علِّمني من علوم آل محمد.

فقال يحيى: أُخبرك بشرط أن تكتمه عَلَيَّ حالَ حياتي.

قلتُ: نعم.

قال يحيى: بينا أنا ذات يوم دخلتُ أطوف بقبر رسول الله ﷺ، فرأيتُ محمد بن عليٍّ الرِّضا عليه السلام يطوف، فناظرتُه في مسائلَ عندي فأجابني ـ وأخرجَها إليَّ ـ. فقلتُ له: في نفسي «خَفِيَّةٌ» أريد أن أُبديَها وإنِّي والله لأستحيي من ذلك.

فقال عليه السلام: أنا أُخبرك بها قبل أن تسألَني.. تريد أن تسأل: مَنِ الإمام في هذا الزمان.

---

(١) بحار الأنوار ج٥٠ ص٦٢ ومناقب آل أبي طالب ج٤ ص٣٩٦ وما بعدها زيادةٌ موجودةٌ في الكـافي م ص٤٩٤ وفي إثبات الهداة ج٦ ص١٧٢ ـ ١٧٧ بتفصيل وتوسُّع، وهو كذلك في حلية الأبرار ج٢ ص٤٠٩.

قلتُ: واللهِ هو هذا.

قال عليه السلام: أنا هو.

فسألتُه علامةً..

وكان في يده عَصاً فنطقتْ فقالت: إنَّ مولاي إمامُ هذا الزمان، وهو الْحُجة »[1].

فهل هذا سِحر؟.

لا. ولكنَّها حادثةٌ خارقةٌ لا تصدر عن وليٍّ الله في كلِّ وقت.. وقد كانت ضروريَّةً لجناب قاضي القصر الذي قَبِلَ انتدابه لامتحان وليِّ الله من قِبَلِ أعدائه، فباءَ - يومَها - بالفشَل والخجَل!.

وحقَّ لابن أكثم أن يطلب كتمان هذه القصَّة، لأنها تقطع رزقَه.. ولسانَه.. وتَقصف عُمره!. لأنه - في قصر المعتصم، بعد المأمون - رأسُ مال القصر الفقهي.. وعلى فتاواه يقوم عرشُ الظلم..

فويلٌ لمن أعان ظالماً.. لأنه يستحقُّ الشفقةَ لو كانت الشفقةُ تجوز عليه!.

وإمامةُ الإمام لا تخفى على « سائر » أهل الزمان، بل يعرفها الخاصُّ والعامُّ. إلاَّ أنَّ منهم من يُذعن ويعترف.. ومنهم مَن يَنظرُ، ويَبسرُ.. ويقول: إنه ساحر!.

●

« وقد رَوى دعبلُ الخزاعي أنه دخل على أبي الحسن الرِّضا عليه السلام، وأمرَ له بشيءٍ، فأخذه ولم يحمد الله، فقال له الإمام: لِمَ لَمْ تَحمد الله؟.

قال: ثم دخلتُ بعده على أبي جعفر عليه السلام، فأمرَ لي بشيءٍ فقلت الحمد لله.

فقال لي عليه السلام: تأدَّبت؟. »[2].

فمَن أخبر الإمام عليه السلام بما حدث لدعبل مع أبيه؟. وكيف عرف أنه

---

(1) إثبات الهداة ج ٦ ص ١٦٧ والأنوار البهية ص ٢١٦ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩٣ - ٣٩٤.

(1) المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٥ - ١٧٦ وص ٢٠١ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٥٣.

يومئذٍ لم يحمد الله تعالى على العطيَّة، ثم التفت فحمدَهُ الآن؟.

وهل يمكن أن يعرف ذلك إذا لم يكن محدَّثاً؟.

لا، طبعاً.. وإنَّه لَكذلك، اعترف بذلك المتعجبّون أم أنكروه.

•

وقال محمد بن سهل بن اليسع:

« كنت مجاوراً بمكة، فصرتُ إلى المدينة، فدخلتُ على أبي جعفر الثاني عليه السلام، فأردتُ أن أسأله عن كسوة يكسونيها فلم يتَّفق لي أن أسأله حتى ودَّعتُه وأردتُ الخروج. فقلت: أكتبُ إليه وأسأله.

فكتبتُ إليه الكتاب وصرتُ إلى المسجد على أن أصلِّيَ ركعتَين وأستخيرَ الله مئة مرة، فإن وقع في قلبي أن أبعث إليه بالكتاب بعثت، وإلاَّ خرَّقته.. ففعلتُ، فوقع في قلبي أن لا أبعث، فخرَّقتُ الكتاب.

وخرجتُ من المدينة، فبينما أنا سائر إذ رأيتُ رسولاً ومعه ثياب في منديلٍ، وهو يتخلّل القطار ـ أي القافلة ـ ويسأل عن محمد بن سهل القميِّ، حتى انتهى إليَّ فقال لي: مولاك بعث إليك بهذا. وإذا مُلاءتان، قال أحمد بن محمد: فقضى الله أنّي غسلتُه حين مات وكفَّنته فيهما »[1].

فكيف عرف الإمام عليه السلام « ما أراد ابن الْيَسع »؟.

ولماذا أرسل له بالثياب، ولم يُهمل مطلبَه؟.

والجوابُ أنه عرف ما أراده من الكسوة ـ دون غيرها ـ بإلهامٍ من الله تعالى الذي جعله وليّاً لأمره. ولولا الإلهامُ، أو النَّكتُ بالقلب من الملَك، لَمَا تأتّى له ذلك. ومثلُه لا يتأتّى لساحرٍ ولا لكاهن.

أمَّا إرسال الكسوة له فهو ذو مغزًى هامٍّ كان كالسيف ذي الحدَّين، إذ يصيب بذلك هدفَين:

---

(١) إثبات الهداة ج ٦ ص ١٨٧ وبحار الأنوار ج ٥٠ ص ٤٤ عن مختار الخرائج والجرائح ص ٢٧٣.

أولها: أنه يدلُّ بذلك على نفسه وأنه الإمامٌ الذي يحار الناس في صِغَرِ سنِّه وقدرته على تحمُّل أعباء الولاية بين مئات الفقهاء الذين أنافوا على الستِّين والسبعين من الْعُمر، وبين طوائفَ مذهبيةٍ قويَّةِ الانتشار يحتضن بعضَها السلطان.

وثانيها: أنه يثبِّت به فؤاد صاحبه، فيطمئنُّ إلى أن أمر الله قد يحمله الصغيرُ - كعيسى بنِ مريم عليه السلام وغيره - كما يحمله الكبير، بلا فَرْقٍ، لأن مَن قَدِرَ على إيجاد الكائناتِ والمخلوقاتِ من كَتْمِ الْعَدَم، قادرٌ على نفث العلم في الصدور، وعلى إطلاق لسان الصغير بالحكمة وقول الحق. مضافاً إلى أن صاحبه هذا، يحمل هذا الخبر إلى أكثر من واحدٍ، وينقله سرّاً وعلانيةً في أكثر من مناسبة، فيفشو بذلك أمرُ الإمام بدلالاتٍ خارقةٍ للعادة أمدَّه بهاربُّه بالإلهام.

•

وكذلك قال الحسن بن علي الوشاء:

« كنتُ بالمدينة - بالصُّريا في المشربة - مع أبي جعفر عليه السلام، فقام وقال: لا تَبرح.

قلتُ في نفسي: كنتُ أردتُ أن أسأل أبا الحسن الرِّضا عليه السلام قميصاً من ثيابه فلم أفعل، فإذا عاد إليَّ أبو جعفر عليه السلام فأسأله.

فبعثَ إليَّ بقيمصٍ ابتداءً، من قبل أن أساله، ومن قبل أن يعود إليَّ وأنا في المشربة وقال الرسول.

يقول لك: هذا من الثياب التي كان يصلِّي فيها الرِّضا عليه السلام »[1].

فقد حصل منه عليه السلام ذلك كذلك. أي قبل أن يسأله « الوشاء » ودون أن يتلفَّظ بما كان يتمنَّى أن يطلبه من أبيه، وقبل أن يَعلم أحدٌ غير الله تعالى بنيَّته. وقد تعمَّد الجوادُ عليه السلام أن يكون الثوب ممَّا صلَّى فيه أبوه صلواتُ الله عليه، لأن « الوشاء » كان يُضمر ذلك في نفسه.

فكيف علم بنيَّته وما دار في نفسه، وهو غائب عنه؟

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٥٢ وإثبات الهداة ج ٦ ص ٢٠٣.

تأمَّلْ قليلاً لتعرف أنه لولا هذه الدلائل المقنعة التي كان يُعطيها الإمام عليه السلام وغيرها من الوسائل، لَضاع شيعتُه في خضمِّ ذلك البحر المتلاطم من الأهواء التي غصَّ بها ذلك الزمان، فضلاً عن الجوِّ الخانق الذي كانوا يعيشون فيه هم وأئمتُهم عليهم السلام.

•

ومن دلائل ما منَّ الله تعالى به عليه من العطايا التي اختصَّ بها عبادَه المكـرَمين، ما حدَّث به عنه القاسم بنُ عبد الرحمان ـ الزيديّ الذي كان منحرفاً عنه ولا يقول بإمامته ولا بإمامة أربعةٍ من آبائه ـ فقد قال:

«خرجتُ إلى بغداد، فبينا أنابها إذ رأيتُ الناس يتعادَون ـ أي يتراكضون ـ ويتشرَّفون ـ أي ينظرون من عَلٍ ـ وينظرون.

فقلتُ: ما هذا؟

فقالوا: ابنُ الرِّضا.

فقلتُ: واللهِ لأَنظرنَّ إليه.

فطلع على بغلٍ أو بغلةٍ.

فقلتُ: لعنَ الله أصحابَ الإمامة حيث يقولون: إنَّ الله افترض طاعةَ هذا!.

فعدلَ إليَّ وقال: يا قاسم بن عبد الرحمان: ﴿أَبشَراً واحداً منَّا نَتَّبِعُهُ؟!. إنَّا إذاً لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ!﴾[1].

فقلتُ في نفسي: ساحرٌ والله!.

فعدلَ إليَّ، فقال: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟. بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[1].

قال: فانصرفتُ، وقلتُ بالإمامة، وشهدتُ أنَّه حجةُ الله على خَلقِه، واعتقدتُه بعد أن قلتُ له: عَلِمْتَ منِّي ما لم يَعلمْهُ إلاَّ الله»[1].

وكأنِّي بالإمام عليه السلام قد ألقى نظرةً على المستشرفين لرؤيته بعد أن استقرَّ

---

(١) إثبات الهداة ج ٦ ص ١٩١ وص ١٩٦ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٥٣ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٥ والآيتان الكريمتان في القمر ـ ٢٤ و٢٥.

على بغلته وقال: عَلَ عَلْ أيُّها القطيع الذي يُساق ولا يعرف المستقرَّ ولا إلى أين الْمَساق!.

فإنه لَيعتصر قلبَهُ الغمُّ لهذه الجموع التي استولَى عليها الشيطان وأنساها ذِكْرَ الرَّحمان، فضاعت عن راعيها وكانت عُرضةً للهلاك في سبيل حُطام الدُّينا!.

يَرمقها بطرفة الشريف، ويَتنفَّس الصُّعداء، ويقول: اللهُمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يَعلمون.. ثم يُلقي «كلمتَهُ» البالغةَ إذا حان حينُها كما فعل مع القاسم بن عبد الرَّحمان الذي كان شديد العداوة له ولشيعته، ثم انقلب ـ بفضل حُجة الإمام البالغة ـ إلى وليٍّ حميمٍ عدلَ إلى الصراط المستقيم وقال بإمامته بعد أن رأى برهان ربِّه..

•

وكان عمر بن فرج الرُّخَّجي من أعداء إمامنا عليه السلام، ومن الساخرين منه وممَّن يقول بإمامته ـ وقد انتفجَ صدرُه من تولِّي الْمَناصب، وانتفخَ كرشُه من لذائذ الدُّنيا وأطايبها ـ وقد زار بغداد مرةً، وخرج للتنزُّه مع الوزراء والكُتَّاب ورجال البلاط، فرأى الإمامَ عليه السلام على شاطىء دجلة، فأراد أن ينال منه ويهوِّنَ من شأنه لدى الطُغمة من رجال قصر الخلافة، وحكى ما جرى له معه قائلاً:

«قلتُ لأبي جعفر: إنَّ شيعتك تدَّعي أنَّك تَعلم كلَّ ماءِ دجلةَ ووزنَه!.

فقال لي بدون اكتراث: يَقدر الله تعالى أن يفوِّض عِلْمَ ذلك إلى بَعوضةٍ أم لا؟.

قلتُ: نعم، يَقدر.

فقال: أنا أكرمُ على الله تعالى من بَعوضةٍ، ومن أكثرِ خلقِه»[1].

فجاء الجواب بسيطاً دون تعقيد..

وبُهت الذي كفر بإمامته، وأراد أن يسخر منه ومن شيعته،

---

(١) الأنوار البهية ص ٢١٩.

وذهب إشكالُه الهاذِرُ، مع ماء دجلةَ الهادر!.

وطنَّ في أُذنَي هذا المستهزىء قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.. وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ!.﴾[1]..

ونصرَ الله تعالى عبدَه.. وازدردَ السائلُ كيدَه.. وعلمَ أن الممتحِنَ الهازىء سقط.. حين تورّط.

فالجوادُ ـ سليلُ الأجودين ـ كان بالمرصاد لجميع شُبهات المشكّكين، يجلوها لهم، ويقدِّم البرهانَ تلوَ البرهان لِيُبطلَ مَكْرَ الماكرين، ويُثبِّتَ عقيدةَ الْمُوالين، ويُقيم الحجةَ لله على خلقِهِ فلا يقولون: لِمَ لَمْ تَنصب لنا إماماً يميِّز لنا الحق من الباطل فتِهنا عن سواء السبيل؟.

والأعجبُ مِمَّا مرَّ ومن بعض ما يمرُّ، هو أن عمر بن فرج الرُّخَّجي نفسه، الذي تصدَّى للإمام على شاطىء دجلة بسؤال يريد أن يُفحمه به أمام رجال القصر، قد قدم إلى المدينة ـ بعد ذلك ـ فطلب الخليفةُ رجلاً عالماً أديباً، مخالفاً لأهل البيت، وأمرَه ـ هو بالذاتَ ـ أن يلازم الإمام الفتى عليه السلام في صِغَرِه وبعد موت أبيه، وأن يمنع الشيعة منه ويعلِّمه العلوم والأدب.

فأخذ «عُمَرُ الإمامَ عليه السلام فحبسه في القصر، وكان إذا خرج أَقفلَه.
وإذا أراد أن يعلِّمه شيئاً وجدَه عالماً به!.
فَسُئِلَ عنه فقال: ما في المدينة أحدٌ أَعلمَ منِّي إلاَّ هذا الصبيّ!.

هذا مات أبوه بخراسان، وهو صغيرٌ بالمدينة، ونشأ بين هذي الجواري السُّود، فَمِنْ أين عَلِمَ هذا؟!»[2].

وهذا حقّ. فَمِن أين له بهذا العلم الغزير، حتى نال شهادة أمير المدينة وقاضيها المنصَّب ـ من الخليفة ـ لتعليمه، قبل أن يبلغ الْحُلم؟!.

وهل يتيسَّر ذلك لغير معلَّمٍ من قِبَلِ الله عزَّ وجلَّ، مفهَّمٍ من لَدُنْـهُ، ملهَـمٍ

(١) المؤمن ـ ٥١.
(٢) إثبات الهداة ج ٦ ص ٢٠٧-٢٠٨.

بالعلم دون كِتابٍ ولا كُتّاب؟!!

المكابَرةُ ـ وحدَها ـ هي التي أودتْ بِدُنيا «أبي جهلٍ» وآخرته..

والعنادُ ـ لا غيرَهُ ـ هو الذي ألبسَ «أبا لهبٍ» عارَ الزَّمان، وخلَّد تقريعَهُ في القرآن، وباء في الآخرة بالخسران..

فلا ينبغي أن يجعلنا جهلُنا بأسرار أهل البيت عليهم السلام في صفّ أبي لهبٍ وأبي جهلٍ.. مهما كانت درجةُ الجهل مستفحلةً عندنا...

ثم ما عتَّم أن اقتصَّ الله تعالى لوليِّه الكريم عليه السلام من هذا العدوِّ الزَّنيم في دار الدنيا قبل الآخرة، فممَّا حكاه ابنُ سنان قوله:

«دخلتُ على أبي الحسن عليه السلام ـ أي الإمام الهادي، بن الجواد ـ.

فقال: يا محمد، حدَث بآل فرَج حدَث؟.

فقلت: مات عمر.

فقال: الحمد لله على ذلك ـ أحصيتُ له أربعاً وعشرين مرة ـ!.

ثم قال: أفلا تدري ما قال لعنَهُ الله لمحمد بن عليٍّ، أبي؟.

قلتُ: لا.

قال: خاطبَهُ في شيءٍ، قال: أظنُّك سكراناً!.

فقال أبي ـ أي الجواد عليه السلام ـ: اللّهم إن كنتَ تعلم أني أمسيتُ لك صائماً فأذقْهُ طَعم الْحَرَبِ وذلَّ الأسر.

فوالله ما أنْ ذهبت الأيام حتى حُرِبَ مالَه وما كان له ـ سُلب ـ ثم أُخذ أسيراً؛ **فهوذا مات: لا رحمه الله، وقد أدال الله عزَّ وجلّ منه، وما يزال يديل أولياءه من أعدائه**»[1].

ألاَ ﴿..إنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ!. قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[2].

●

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩٧ والكافي م ١ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧.

(٢) الطلاق ـ ٣.

وعن داود بن القاسم الجعفري ـ أبي هاشم ـ، قال:

« دخلتُ على أبي جعفر عليه السلام ومعي ثلاثُ رقاعٍ غير معنْونة، واشتبهتْ عليَّ فاغتممت.

فتناول إحداها وقال: هذه رقعة ريَّان بن شبيب. ثم تناول الثانية فقال: هذه رقعة فلان..

فبُهِتُّ أنظرُ إليه. فتبسَّم وأخذ الثالثة فقال: هذه رقعة فلان.

فقلت: نعم، جُعلت فداك.

فأعطاني ثلاثمئة دينار، وأمرَني أن أحملها إلى بعض بني عمِّه.

ثم قال: أمَا إنَّه سيقول لك: دلَّني على حِرِّيفٍ يشتري لي بها متاعاً، فَدُلَّه عليه.

قال: فأتيتُه بالدنانير، فقال لي: يا أبا هاشم: دُلَّني على حرِّيفٍ يشتري لي بها متاعاً. فقلت: نعم.

وكلَّمني جمَّالٌ سألني أن أخاطبه في إدخاله مع بعض أصحابه في أموره.

فدخلتُ عليه لأكلِّمه، فوجدتُه يأكل ومعه جماعة، فلم أتمكَّن من كلامه.

فقال: يا أبا هاشم: كُلْ. ووضع بين يَدَيَّ ما أكل منه ثم قال ابتداءاً من غير مسألة: يا غلام، انظر الجمَّالَ الذي أتانا به أبو هاشم، فَضُمَّهُ إليك »[1].

●

وقال أبو هاشم، نفسه:

« دخلت معه يوماً بستاناً فقلت له: جُعلت فداك، إنِّي مولعٌ بأكل الطين. فادعُ الله لي..

فسكت، ثم قال لي بعد أيامٍ ابتداءاً منه:

يا أبا هاشم قد أذهب الله عنك أكل الطين.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٤١ ومختار الخرائج ص٢٣٧ والكافي م ١ ص ٤٩٥. والإرشاد ص ٣٠٧ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩٠ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٧٤ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٠٨ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٤ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٥١ والإرشاد ص ٣٠٦ وإعلام الورى ص ٣٣٤.

قال أبو هاشم: فما من شيءٍ أبغض إليّ منه اليوم »[1].

فمَن ـ يا قارئي العزيز ـ: أنبأه بأسماء أصحاب الرّقاع لَولا إلهام العليم الخبير ؟!.

أم أنه كان يعرف خطوط الناس جميعاً حتى عرف خطوطهم؟.

أَم كان موعوداً برسائلهم وكانوا من نُوّابه وأبوابه في البلدان؟.

لا هذا ولا ذاك. بل أنبأه الذي أنبأ آدم بالأسماء... وهو من صفوةَ بَني آدم الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطهرَّهم تطهيراً.

ولو فكَّرت بقصة الجمّال، وقصة أكل الطين، لَتَجلَّتْ لك منزلةُ هذا الإمام الكريم من ربِّ العالَمين!.

•

ولأبي الصلت الهرويِّ قصةٌ من غرائب ما جرى لِمُعاصِري إمامِنا عليه السلام، وإن كانت ليست بأغربها عن الحدوث، فقد رواها بنفسه قائلاً:

« أمرَ المأمون بحبسي بعد دفن الرِّضا عليه السلام، فَحُبستُ سنةً، فضاق عَليَّ الحبس.

وسهرتُ ليلةً ودعَوت الله تعالى دعاءً ذكرتُ فيه محمداً وآل محمد صلَوات الله عليه وعليهم، وسألتُ الله تعالى بحقِّهم أن يفرِّج عنِّي. فلم أستتِمَّ الدعاء حتى دخل علَيَّ أبو جعفر، محمد بن عليٍّ عليهما السلام في السِّجن فقال لي:

يا أبا الصَّلت ضاق صدرُك؟

فقلتُ: إيْ والله.

قال عليه السلام: قُم. فَأَخرجَني ثم ضرب يده إلى القيود ففكَّها، وأخذ بيدي فأخرجني من الدار والحرس والغلمان يَرَونني فلم يستطيعوا أن يكلِّموني. وخرجتُ من باب الدار ثم قال لي:

---

(١) كشف الغمة ج٣ ص١٥١ ومناقب ال أبي طالب ج٤ ص٣٩٠ وحلية الأبرار ج٢ ص٤٠٨ والمحجة البيضاء ج٤ ص٣٠٤ والإرشاد ص٣٠٦ وإعلام الورى ص٣٣٤ وإثبات الهداة ج٦ ص١٧٤.

إمضِ في وديعة الله تعالى، فإنك لن تصلَ إليه، ولا يصلُ إليك أبداً.

فقال أبو الصَّلت: لم أَلْتَقِ بالمأمون إلى هذا الوقت»[1].

وأُلقي كيدُ الظالمين في نحورهم.. وماتوا بغيظهم بعد تحرير حبيسهم المظلوم.. على يد الإمام الغلام الذي لا يزال في التاسعة من عُمره، في حين أنه كان في الحجاز، وكان الحبيس في خراسان!.

●

وقال إبراهيم بن سعيد:

«رأيتُ محمد بن عليٍّ الرِّضا عليه السلام وله وَفْرَةٌ سوداءُ، مسحَ عليها فاحمرَّت، ثم مسحَ عليها بباطن كفِّه فصارت سوداء كما كانت.

فقلتُ: رأيتُ أباك عليه السلام لا أشك يضرب يده إلى التراب فيجعله دنانير ودراهم»[2].

وهذه ليست من السحر في شيءٍ، ولكنها علمٌ علَّمه الله تعالى إياه، ليكون حجةً على خلقه مميَّزاً عن غيره بمواهبَ سماويةٍ تجعله موضع ثقة الناس دون غيره من المدَّعين لولاية أمور الْخَلق..

●

وللأئمَّة عليهم السلام خوارق كثيرةٌ قوَّى الله تعالى بها أمرهم، وشدَّ أزرهم، وأفلج حجَّتهم ليمسِكوا بقلوب عباده المؤمنين، وليوصِلوا دعوتَه إلى الناس أجمعين..

ومن ذلك أنها تُطوى لهم الأرضُ ـ كما ذكرنا في مكانٍ آخر ـ ولا يكون لهم ظلٌّ عليها كما للناس ـ وهذا دليلٌ محسوسٌ ملموسٌ لُوحِظَ ورُؤي ـ. ومن آيات إمامنا في هذا المورد قولُ محمد بن العلا الذي قال:

«رأيتُ محمد بنَ عليٍّ عليه السلام، يحجُّ إلى مكةَ بلا راحلةٍ ولا زادٍ من ليلته ويرجع.

---

(١) حدائق الأنس ص ٢٨٢.

(٢) إثبات الهداة ج ٦ ص ١٩٧ - ١٩٨.

وكان لي أخٌ بمكة لي معه خاتمٌ، فقلتُ له: تأخذ لي منه علامة.

فرجعَ من ليلته ومعه الخاتم»[1].

فأيَّةُ قوَّةٍ في الأرض كانت يومئذٍ تحمل المسافرَ من يثرب إلى مكَّة، ليزور البيت الحرام، ويطوف، ويسعى، ويصلِّي، ويقضي بعض الحاجات، ثم يعود من ليلته بعد أن قطع حوالَي ألفٍ ومئتَي كيلومترٍ ذهاباً وأياباً؟.

وكيف فعل الإمام عليه السلام ذلك، ثم بحث عن الرجل فحمل منه العلامة؟!.

ولِمَ طلب الخاتمَ بالذات ـ أي الذي كان يُضمره صاحبُه في نفسه ـ ولم يطلب شيئا غيرَه؟.

كلُّ ذلك علمُه عند الله تعالى، وعند أهله؛ وهو من الإعجاز المزدوج الذي يَثقل على أسماع الناس وإن كان على الله تعالى هيِّناً..

•

وإليك أعجب من ذلك. فقد قال محمد بن عميرة:

«رأيتُ محمد بن عليٍّ عليه السلام يضع يده على منبرٍ فتورق كلُّ شجرة من فرعها!. وإنِّي رأيتُه يكلِّم شاةً فتُجيبه»[1].

ومثلُ ذلك ما رواه عمارة بن زيد الذي قال:

«رأيت محمد بن عليٍّ عليه السلام فقلت له:

ما علامة الإمامة؟.

قال: إذا فعلَ هكذا، فوضع يده على صخرةٍ فبانَ أصابُعه فيها!.

ورأيتُه يمدُّ الحديدَ بلا نار!.

ويَطبع على الحجارة بخاتمه»[1].

وهذه ـ كلُّها ـ غرائبُ وعجائب.. إلاَّ إذا صدرت عن سفير الله في أرضه الذي حمَّله أمانته وزوَّده بقدرته التي يطأطىء العقلُ السليمُ لما يَصدر عنها!.

•

---

(١) إثبات الهداة ج٦ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

وبعدُ:

فنضع بين يدَي القارىء الكريم ما رواه الحافظُ أبو نعيم ـ أحدُ الأئمة عند علماء إخواننا من أهل السنَّة ـ في كتابه الجليل ـ حلية الأولياء ـ حيث قال:

« حكى أبو يزيد البسطامي، قال:

خرجتُ من بسطام قاصداً لزيارة بيت الله الحرام، فمررت بالشام إلى أن وصلتُ إلى دمشق. فلمّا كنت بالغُوطة مررت بقريةٍ من قراها فرأيت في القرية تلَّ ترابٍ وعليه صبيٌّ رُباعيُّ السن يلعب بالتراب.

فقلتُ في نفسي: هذا صبيٌّ، إن سلَّمتُ عليه لَمَّا يَعرف السلام، وإن تركتُ السلام أخللتُ بالواجب، فأجمعتُ رأيي على أن أسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه، فرفع رأسه وقال:

والذي رفعَ السماء وبسطَ الأرض، لولا ما أمرَ الله به من ردِّ السلام لَمَا رددتُ عليك. استصغرت سنّي؟!! عليك السلام ورحمة الله وبركاته وتحياته ورضوانه. ثم قال:

صَدَقَ الله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا..﴾[1] وسكت.

فقلت: ﴿أَوْرُدُّوهَا﴾[1].

فقال: ذاك فعلُ المقصِّر مثلك.

فعلمتُ أنه من الأقطاب المؤيَّدِين.

فقال: يا أبا يزيد، ما أَقدمَك إلى الشام من مدينة بسطام؟!!

فقلتُ: يا سيدي قصدتُ بيتَ الله الحرام.

ـ إلى أن قال ـ:

فنهض وقال: أعلى وضوءٍ أنت؟.

قلتُ: لا.

فقال: اتْبَعني.

فتبعتُه قدرَ عشر خُطًى فرأيتُ نهراً أعظم من الفرات. فجلس وجلستُ،

---

١) النساء ٨٦.

وتوضَّأ أحسنَ وضوءٍ، وتوضأتُ، وإذا قافلةٌ مارَّةٌ. فتقدمتُ إلى واحدٍ منهم وسألتُه عن النهر فقال: هذا جيحون.. فسكتُّ. ثم قال لي الغلام: قُم، فقمتُ معه ومشيتُ معه عشرين خطوةً وإذا نحن على نهرٍ أعظم من الفرات وجيحون، فقال لي: اجلس. فجلستُ، ومضى. فمرَّ عليَّ أناسٌ في مركبٍ لهم فسألتُهم عن المكان الذي أنا فيه، فقالوا: نيلُ مصر وبينك وبينها فرسخٌ أو دون فرسخٍ، ومضَوا.

فما كان غير ساعةٍ إلاّ وصاحبي قد حضر وقال لي: قم، قد عُزم علينا.

فقمت معه قدر عشرين خطوةً، فوصلنا عند غيبوبة الشمس إلى نخلٍ كثيرٍ، وجلسنا. ثم قام وقال لي: امشِ، فمشيت خلفه يسيراً وإذا نحن بالكعبة.

ـ إلى أن قال ـ:

فسألتُ الرجلَ الذي فتح الكعبة فقال لي:

هذا سيدي محمد الجواد صَلَّى الله عَلَيه.

فقلت: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1].

وقد يقول قائلٌ: هذه من «شطحات» صوفيَّة البسطامي!.

فنقول له: إنها حادثة طبيعية لا تعدو حادثة دفن أبيه عليه السلام يومَ تُوفي في خراسان وكان هو في المدينة «والأئمة عليهم السلام تُطوى لهم الأرض بلا أدنى ريبٍ في ذلك، ويعلمون ما عند أصحابهم»[2].

●

ومثلها ما حكاه علي بن خالد الذي قال:

«كنت بالعسكر ـ سامرَّاء ـ التي بناها المعتصم وانتقل هو وعكسرُه إليها، فبلغني أن هناك رجلاً محبوساً أُتِيَ به من الشام مكبولاً ـ مقيَّداً ـ وقالوا إنه تنبَّأ ـ ادَّعى النبوَّة ـ.

قال: فأتيتُ الباب ودفعتُ شيئاً للبوَّابين حتى وصلتُ إليه، فإذا رجلٌ له فهمٌ وعقل.

---

(١) إثبات الهداة ج ٦ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٥٣.

(٢) الاختصاص ص ٣١٦ وما قبلها وما بعدها وكثيرٌ من بقية المصادر.

فقلت: يا هذا ما قضيَّتُك؟.

قال: إني كنت رجلاً بالشام أعبد الله في الموضع الذي يقال إنه نُصب فيه رأس الحسين عليه السلام. فبينا أنا ذاتَ ليلةٍ في موضعي مقبلٌ على المحراب أذكر الله تعالى، إذ رأيت شخصاً بين يدَيَّ، فنظرت إليه فقال لي: قم، فقمتُ معه. فمشى بي قليلاً، فإذا أنا في مسجد الكوفة.

فقال لي: تعرف هذا المسجد؟.

فقلتُ: نعم، هذا مسجد الكوفة.

قال ـ: فصلَّى وصليتُ معه، ثم انصرف وانصرفتُ معه.

ومشى قليلاً فإذا نحن بمسجد الرسول ﷺ. فسلَّم على رسول الله ﷺ؛ وصلَّى وصلَّيتُ معه، ثم خرج وخرجتُ معه. فمشى قليلاً وإذا نحن بمكَّة. فطاف بالبيت وطفتُ معه، ثم خرج فمشى قليلاً فإذا نحن بموضعي الذي كنت أعبد الله فيه بالشام. وغاب الشخص عنِّي فبقيتُ متعجِّباً حولاً ـ سنة ـ ممَّا رأيت.

فلما كان في العام المُقبل، رأيت ذلك الشخص فاستبشرتُ به. فدعاني فأجبتُه. ففعل كما فعل في العام الماضي.

فلما أراد مفارقتي بالشام قلتُ له: أسألك بالحقِّ الذي أقدرَك على ما رأيتُ منك إلاَّ أخبرتَني مَن أنت؟.

فقال: أنا محمد بن علي بن موسى بن جعفر.

فحدَّثتُ مَن كان يصير إليَّ بخبره، فرقَى ذلك إلى محمد بن عبد الملك الزيات ـ أي بلَغَهُ ـ فبعث إليَّ مَن أخذَني وكبَّلني في الحديد، وحملني إلى العراق وجلستُ كما ترى، وادُّعِيَ عليَّ المحال.

فقلتُ له: فأرفع عنك قصةً إلى محمد بن عبد الملك الزيات، وأشرح أمرك؟

قال: افعلْ.

فكتبت عنه قصةً إلى محمد بن عبد الملك الزيات وشرحتُ أمْره فيها ودفعتُها إلى محمد ـ أي ابن الزيات ـ الوزير والمشير في القصر ـ.

فوقَّع في ظهرها: قُلْ للذي أخرجك من الشام في ليلةٍ إلى الكوفة، ومنها إلى المدينة، ومنها إلى مكة، ومنها إلى الشام، أن يُخرجك من حبسك هذا!.

فغمَّني ذلك من أمره، ورَقَقتُ له، وانصرفتُ محزوناً عليه.

فلمَّا كان من الغد باكرتُ الحبس لأُعْلِمَهَ بالحال وآمُرَه بالصبر والعزاء، فوجدتُ الجندَ، وأصحابَ الحرس، وصاحبَ السجن، وخَلْقاً عظيماً من الناس يهرجون ـ أي أنهم في فتنةٍ واختلاط ـ.

فسألتُ عن حالهم؟.

فقيل: إن المحمولَ من الشام، المتنبِّيء، افتُقد البارحةَ من الحبس. فلا ندري أخُسفت به الأرض، أو اختطفته الطير؟!!».

وكان راوي هذه القصة ـ علي بن خالد ـ زيدياً، فقال بالإمامة لَـمَّا رأى ذلك، وحَسُن اعتقادُه»[1].

فَمَن أخبر الإمام عليه السلام بحبس الرَّجُل؟!.

وكيف بلَغه ما أجاب به ابنُ الزيَّات الذي تحدَّى فِعْلَ الله؟!.

ومَن خلَّص السَّجينَ في تلك الليلة وألْقَى كيدَ الوزير في نحره دون إمهالٍ.. وتركهم يهرجون حائرين؟!.

هـذا هو فعلُ الله عزَّ وجلَّ.. فماذا فعلَ المبطلون؟!.

•

ومن الآيات التي أَخبر الإمام عليه السلام بها عن الغَيب ـ من دون أن يَعلم الغَيب قطعاً، ولكنَّه عُلِّمه ممَّا بين يدَيه من مواريث النبوَّة وآثار السماء كما كان آباؤه عليهم السلام من قبله ـ أن عمران بن محمد الأشعري قال:

« دخلتُ على أبي جعفر الثاني عليه السلام، وقضيتُ حوائجي وقلت:

---

(١) كشف الغمة ج٣ ص١٤٩ ـ ١٥٠ والاختصاص ص٣٢١ ـ ٣٢٢ ومناقب آل أبي طالب ج٤ ص٣٩٣ والمحجــة البيضــاء ج٤ ص٣٠٢ ـ ٣٠٣ والإرشــاد ص٣٠٤ ـ ٣٠٥ وإعلام الورى ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ وإثبات الهداة ج٦ ص١٦٨ ـ ١٦٩.

إن أُمَّ الحسن تُقرئك السلام وتسألك ثوباً من ثيابك تجعله كفناً لها.

فقال: قد استغنتْ عن ذلك.

وخرجتُ لا أدري معنى ذلك، فأتاني الخبر أنها قد ماتت قبل ذلك بثلاثة عشر يوماً، أو أربعة عشر يوماً»(١).

فَمَنْ أبرق بموتها للإمام عليه السلام؟.

ومَن هتف في أُذنه بخبر وفاتها لولا أنه عنده علمُ المنايا والبلايا، وعلمُ ما كان وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، منصوصاً مُثْبَتاً، موجوداً بين يديه؟!!

ألاَ إنَّ ذلك من صُنع الله تبارك وتعالى، الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ صُنعاً..

•

ولن أدَعَك تمرُّ بموضوع آيات هذا الإمام العظيم صلواتُ الله وسلامُه عليه دون أن تقرأ الآيَةَ المعجزة التي أتاها يوم دفن والده عليه السلام، والتي أَشرتُ إليها سابقاً ولم أذكرْها.

فحين تُوفيِّ الإمام الرِّضا عليه السلام بمروَ من خراسان بأرض إيران، كان ابنُه الإمامُ الجواد عليه السلام في يثرب مدينة الرسول ﷺ في الحجاز، وكان في حوالَي السنة الثامنة من عُمره وبعض الأشهر.

«وفي روايةٍ عن أبي الصلت الهرويِّ - حـدَّث بها أكثر من ثمانية من الثقات - قال في حديث وفاة الرِّضا عليه السلام:

إن المأمون قدَّم إليه عنباً مسموماً وأمره أن يأكل منه. فأكل منه الرِّضا عليه السلام ثلاث حبَّاتٍ ثم رمى به وقام.

فقال له المأمون: إلى أين؟.

قال: إلى حيث وجَّهتني. وخرج مغطَّى الرأس.

فلم أكلِّمه حتى دخل الدارَ، فأمر أن يُغْلَق الباب، فَغُلِق.

ثم نام على فراشه ومكثتُ واقفاً في صحن الدار مهموماً محزوناً.

---

(١) كشف الغمة ج٣ ص١٥٣ وإثبات الهداة ج٦ ص١٦٨-١٦٩ وحلية الأبرار ج٢ ص٤٢١ والكافي م١ ص٤٩٢-٤٩٣.

فبينما أنا كذلك إذ دخل عليه شابٌ حسنُ الوجه، قَططُ الشَّعر، أشبه الناس بالرِّضا عليه السلام، فبادرتُ إليه وقلتُ له:

من أين دخلتَ والبابُ مُغْلَق؟!!

فقال: الذي جاء بي من المدينة في هذا الوقت هو الذي أدخلَني الدار والباب مُغْلَق.

فقلت له: ومَن أنت؟!!

قال: أنا حجةُ الله عليك يا أبا الصلت، أنا محمد بن عليّ.

ثم مضى نحو أبيه عليه السلام، فدخلَ وأمرني بالدخول معه.

فلمَّا نظر إليه الرِّضا عليه السلام وثب إليه فعانقه وضمَّه إلى صدره وقبَّل ما بين عينَيه، ثم سحبه سحباً إلى فراشه وأكبَّ عليه محمدٌ بن عليٍّ يقبِّله ويُسَارُّهُ بشيء لم أفهمه.

ورايت على شفتَي الرِّضا عليه السلام زَبَداً أشدَّ بياضاً من الثَّلج، ورأيت أبا جعفر عليه السلام يلحسه بلسانه. ثم أدخل يدَه بين ثوبه وصدره فاستخرج منه شيئاً شبيهاً بالعصفور فابتلعه أبو جعفر، ومضى الرِّضا عليه السلام ـ أي لحقَ بربِّه عزَّ وجلّ ـ.

فقال أبو جعفر عليه السلام: يا أبا الصلت ائتني بالمغتسَل والماء من الخزانة.

فقلت: ما في الخزانة مغتَسلٌ ولا ماء.

فقال: انتهِ إلى ما آمرُك به.

فدخلتُ الخزينة فإذا فيها مغتسَلٌ وماء، فأخرجته وشمَّرت ثيابي لأغسِّله معه، فقال لي:

تنحَّ يا أبا الصلت، فإنَّ مَن يُعينني غيرُك.

فغسَّله ثم قال لي: ادخُلِ الخزانةَ فأخرجْ إليَّ السفَط الذي فيه كفنُه وحنوطُه.

فدخلتُ فإذا أنا بسفطٍ لم أَرَهُ في تلك الخزانة قَط.

فكفَّنه وصلَّى عليه ثم قال: ائتني بالتابوت؟.

فقلتُ: أَمضي إلى النَّجار حتى يُصلح التابوت؟.

فقال: قُم، فإن في الخزانة تابوتاً.
فدخلت الخزانة فوجدت تابوتاً لم أرَهُ قَط.

فأتيته به، فأخذ الرِّضا عليه السلام، بعدما صلَّى عليه، فوضعه في التابوت وصفَّ قدمَيه وصلَّى ركعتَينِ لم يفرغ منهما حتى علا التابوتُ فانشقَّ السقفُ فخرج منه التابوت ومصى.

فقلت: يا ابن رسول الله، سيدي، الساعةَ يجيئنا المأمون ويطالبنا بالرِّضا عليه السلام فما نصنع؟!!

فقال لي: اسكتْ، فإنه يعود يا أبا الصلت. ما من نبيٍّ يموت بالمشرق ويموت وصيُّه بالمغرب إلاَّ جمع الله بين أرواحهما وأجسادهما.

فما أتمَّ الحديث حتى انشقَّ السقف ونزل التابوت. فقام فاستخرج الرِّضا عليه السلام من التابوت ووضعه على فراشه كأنَّه لم يُغسَّل ولم يُكفَّن، ثم قال: يا أبا الصلت افتحْ للمأمون.

ففتحت الباب فإذا المأمون والغلمان بالباب.

.. وبعد دفنه أمر المأمون بحبسي، فَحُبستُ سنةً.

فضاق علَيَّ الحبس، وسهرتُ ليلةً ودعوتُ الله تعالى بدعاءٍ ذكرت فيه محمداً وآل محمد ﷺ، وسألت الله بحقِّهم أن يفرِّج عنِّي. فما استتمَّ الدعاء حتى دخل عليّ أبو جعفر عليه السلام فقال:

يا أبا الصلت، ضاق صدرُك؟!!
فقلتُ: إي والله.
قال: قم فاخرجْ.

ثم ضرب يده إلى القيود التي كانت عليَّ ففكَّها وأخذ بيدي فأخرجني من باب الدار والْحَرسَةُ والغلمانُ يروَنني فلم يستطيعوا أن يكلِّموني. ثم قال لي:
إمضِ في ودائع الله فإنك لن تصل إليه، ولن يصل إليك أبداً.

قال أبو الصلت: فلم ألْتَقِ مع المأمون إلى هذا الوقت »[1].

وكنَّا قد ألمحنا إلى ذلك سابقاً، ونترك التحليل، للقارىء الكريم الذي صار على بَيِّنةٍ من أمر الإمام ـ سفيرِ الله تعالى في أرضه ـ وعلى علم من القُدرات الخفيَّة التي يتمتَّع بها سفيرُ الله..

•

وبمناسبة ذكر دفنِ الإمام الرِّضا عليه السلام، نَذكرُ لك ما رواه معمر بن خلاَّد الذي كان في المدينة المنوَّرة يومذاك، وقال:

« قال أبو جعفر: يا معمرُ اركبْ.

قلتُ: إلى اين؟.

قال: اركبْ كما يقال لك.

قال: فركبتُ، فانتهيت إلى وادٍ ـ أو وهدةٍ ـ.

فقال لي: قف ها هُنا. ـ أي ابقَ منتظراً ـ.

قال: فوقفتُ...

فأتاني، فقلتُ له: جُعلتُ فداك، أين كنت؟.

قال: دفنتُ أبي الساعةَ، وكان بخراسان »[2].

وكان المنطلَق من المدينة المنوَّرة!.

والذي هو مدعاةٌ للتساؤل بخصوص هذه الرواية، هو أنه لِمَ أركبَ الإمام (ع) معه معمراً؟.

ألم يكن باستطاعته أن يذهب وحده، وأن لا يأخذ هذا الرجل الجليل فيوقفه في مفازةٍ قفراء على شفير وادٍ موحش ليذهب إلى خراسان ويعود، ويبقى صاحبُه ضيفاً عليه في البيت؟!!.

بلى، ولكنه عليه السلام أخذه ليرويَ هذه الحادثة، لأنه الشاهد العدل الموثوق

---

(١) إثبات الهداة ج٦ ص١٧٨ إلى ص١٨٠ وعيون أخبار الرضا ج٢ ص٢٦٤ ومايليها، وإعلام الورى ص٣٢٧ وهو وارد في عدة مصادر أُخرى أشرنا إلى بعضها سابقاً.

(٢) المصدر السابق ج٦ ص١٩١ وكشف الغمة ج٣ ص١٥٣.

بين « الأصحاب »، ولأنه لا يقول إلاَّ الحقَّ ولا ينقل إلاَّ ما سمع، ولا يشهد إلاَّ بما رأى.

وبالمناسبة نذكر ما حدَّث به أيوب بن نوح قائلاً:

« سمعتُ أبا جعفر محمد بن علي بن موسى يقول:

مَن زار قبر أبي بـِ (طوس) غفر الله له ما تقدَّم من ذنوبه وما تأخرَّ، وإذا كان يوم القيامة يُنصب له منبرٌ بحذاء منبر رسول الله ﷺ حتى يَفرغ الله من حساب عباده »[1].

•

ونذكر لك جُملة وقائـع شفـى فيهـا مـرضى دون أن نعلِّـق عليهـا رغبـةً في الاختصار.

قال محمد بن عُمير بن واقد الرازي:

« دخلتُ على أبي جعفر بن الرِّضا ومعي أخي وبه بُهْرٌ شديد ـ ضِيقُ نَفَس وتتابعٌ وانقطاع ـ فشكا إليه ذلك الْبُهر.

فقال: عافاك الله ممَّا تشكو.

فخرجنا من عنده وقد عوفيَ فما عاد إليه ذلك الْبُهر إلى أن مات »[1].

وقال محمد بن عمير نفسُه:

« كان يُصيبني وجعٌ في خاصرتي في كلِّ أسبوع ويشتدُّ ذلك بي أياماً.

فسألتُه أن يدعوَ لي بزواله عنِّي.

فقال: وأنت عافاك الله.

فما عاد إلى هذه الغاية »[2].

•

وقال الشيخ أبو بكر بن إسماعيل ـ وقيل: علي بن أبي بكر بن إسماعيل ـ:

« قلتُ لأبي جعفر بن الرِّضا عليه السلام: إن لي جاريةً تشتكي من ريحٍ بها.

---

(١) فرائد السمطين ج ٢ ص ١٩٥.

(٢) كشف الغمة ج ٣ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٩٢.

قال: أئتني بها. فأتيتُه.

فقال لها: ما تشتكين يا جارية؟.

قالت: ريحاً في رُكبتي.

فمسح يده على رُكبتها من وراء الثياب، فخرجت وما اشتكت وجعاً بعد ذلك»[١].

وما حدَث شفاؤها وشفاءُ مَن ذكرناه قبلها ـ ومَن نذكره بعدها ـ إلاَّ بإذن الله تعالى الذي «جعل» عيسى بن مريم عليهما السلام يَشفي من المرض، ويُحيي من الموت بإذنه عزَّ وعلا.

•

وقال أبو سلَمة:

«دخلتُ على أبي جعفر عليه السلام، وكان بي صَمَمٌ شديد. فَخُبِّرَ بذلك لَـمَّا أن دخلت عليه.

فدعاني إليه فمسح يدَه على أُذنيَّ ورأسي ثم قال: اسمعْ وَعِهْ.

فوالله إني لأَسمع الشيءَ الخفيَّ عن أسماع الناس من بعد دعوته»[٢].

•

وقال محمد بن فضيل:

«خرج بإحدى رجلَيَّ العرق المدنيُّ. وقد قال ـ الإمام عليه السلام ـ لي قبل أن خرجَ الْعِرق في رجلي، وقد عاهدتُه فكان آخر ما قال: إنه ستُصيب وجعاً فَاصْبِرْ. فأيُّما رجلٍ من شيعتنا اشتكى فصبرَ فاحتسبَ كتبَ الله له أجرَ ألف شهيد.

فلمَّا صرتُ في بطن مرّ، ضُرب على رجلي، وخرج بيَ الْعِرق. فما زلت شاكياً أشهراً.

وحَجَجتُ في السنة الثانية فدخلت عليه فقلت: جعلني الله فداك، عَـوِّذْ رجلي. وأخبرتُه أن هذه التي توجعُني.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩٠.

فقال: لا بأس على هذه. أَرِني رجلَك الأُخرى الصحيحة.

فبسطتُها بين يَديه، وعوّذها.

فلمّا قمتُ من عنده خرج في الرِّجل الصحيحة. فرجعتُ إلى نفسي فعلمتُ أنه عوّذها من قبل الوجع فعافاني الله من بعد»[1].

●

وقال عبد الله بن رزّين: «كنتُ مجاوراً بالمدينة ـ مدينة الرسول ـ وكان أبو جعفر عليه السلام يجيء في كلِّ يومٍ مع الزوال إلى المسجد، فينزل على الصخرة ويسير إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ويرجع إلى بيت فاطمة ويخلع نعلَه فيقوم فيصلّي.

فوسوس إليَّ الشيطان فقال: إذا نزل فاذهبْ حتى تأخذ من التراب الذي يطأ عليه. فجلست في ذلك النهار أنتظره لأفعل هذا.

فلمّا أنْ كان في وقت الزوال، أقبل عليه السلام على حمارٍ له، فلم ينزل في الموضع الذي كان ينزل فيه، وجاوزَه حتى نزل على الصخرة التي كانت على باب المسجد، ثم دخل فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم رجع إلى مكانه الذي كان يصلّي فيه، ففعل ذلك أياماً.

فقلتُ: إذا خلع نعلَيه جئتُ فأخذتُ الحصى الذي يطأ عليه بقدمَيه.

فلمّا كان من الغد، جاء عند النزول فنزل على الصخرة، ثم دخل على رسول الله وجاء إلى الموضع الذي كان يصلي فيه، ولم يخلعها. ففعل ذلك أياماً.

فقلتُ في نفسي: لم يتهيّأْ لي ها هنا: ولكنْ أذهبُ إلى الحمّام، فإذا دخل الحمّام آخذُ من التراب الذي يطأ عليه.

فسألت عن الحمّام الذي يدخله، فقيل إنّه بالبقيع لرجلٍ من وُلْدِ طلحة. فتعرّفت اليومَ الذي يدخل فيه الحمّام وصرتُ إلى بابه وجلستُ إلى الطّلحي أُحدّثه وأنا انتظر مجيئه عليه السلام.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص٥٣ ـ ٥٤.

فقال الطَّلحي: إن أردت دخول الحمَّام فقم وادخل فإنه لا يتهيَّأ لك ذلك بعد ساعة.

قلتُ: ولِم؟.

قال: لأن ابن الرِّضا عليه السلام يريد دخول الحمَّام.

قلت: ومَن ابنُ الرِّضا؟.

قال: رجلٌ من آل محمد له صلاح وورع.

قلتُ له: ولا يجوز أن يدخل معه الحمَّام غيره؟.

قال: نخلِّي له الحمَّام إذا جاء.

فبينا أنا كذلك إذ أقبل عليه السلام ومعه غلمانٌ له، وبين يديه غلام معه حصير، حتى أدخله المسلخ - محلَّ نزعِ الثياب - فبسطَه.

ووافَى، فسلَّم، ودخل الْحُجرة على حماره، ودخل المسلخ، ونزل على الحصير.

فقلت للطَّلحي: هذا الذي وصفتَه بما وصفتَ من الصلاح والورع.

فقال: يا هذا، لا واللهِ ما فعل هذا قَطُّ إلاَّ في هذا اليوم.

فقلتُ في نفسي: هذا من عَمَلي، أنا جَنيتُه.

ثم قلت: أنتظرُه حتى يخرجَ فلعلِّي أنال ما أردتُ إذا خرج.

فلمَّا خرج وتلبَّس، دعا بالحمار فأُدخل المسلخ وركب من فوق الحصير وخرج عليه السلام.

فقلتُ في نفسي: قد واللهِ آذيتُه ولا أعود، ولا أَروم ما رمتُ منه أبداً. وصحَّ عزمي على ذلك.

فلمَّا كان وقتُ الزوال من ذلك اليوم، أقبل على حماره حتى نزل في الموضع الذي كان ينزل فيه في الصحن. فدخل وسلَّم على رسول الله ﷺ، وجاء إلى الموضع الذي كان يصلِّي فيه في بيت فاطمة عليها السلام، وخلع نعلَيه وقام يصلي»[1].

---

(١) مناقب آل ابي طالب ج ٤ ص ٣٩٥-٣٩٦ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٧٠-١٧٢ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢١-٤٢٢ والكافي م ١ ص ٤٩٣-٤٩٤.

فَمَن ذا الذي كان يُخبر الإمام عليه السلام بما كانت تنطوي عليه نيَّةُ هذا الرجل مرةً بعد مرةٍ إذا زار المسجد أو إذا ذهب إلى الحمَّام، فصار يتحاشى النزول على التراب والحصى لئلا يأخذ الرجلُ ذلك من تحت قدمَيه فيقدِّسه؟!.

ثم مَن ذا الذي أخبره بندم الرجل وإقلاعه عن الفكرة، حتى عاد إلى عادته الأولى وصار يطأ التراب والحصى؟!.

إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكَّرون..

•

وأتابع وَضْعَ وقائعَ عدةٍ - بين يَدي قارئي الكريم - فيها شيءٌ من الغيب الذي لا يعرفه إلاَّ عبادُ الله الْمُكْرَمون.

فقد قال يحيى بن أبي عمران:

«دخل من أهل الريِّ جماعةٌ من أصحابنا على أبي جعفر عليه السلام وفيهم رجلٌ من الزيديَّة، فسألْنا عن مسائل.

فقال أبو جعفر لغلامه: خُذ بيد هذا الزيديِّ، فأخرجْه.

فقال الزيديُّ: أشهد أن لا إلَه إلاَّ الله، وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ. وأنك حجةُ الله»[1].

ويلاحَظ أنه عليه سلام الله وتحيتُه لم يقلْ لغلامه: أخرجْ هذا الزيديَّ، إلاَّ ليستدلَّ الزيديُّ على إمامتِه بمعرفته لِمَا أخفاه عنه وعن أصحابه من جهة، وإلاَّ لأنه عَلِمَ أن الزيديَّ يبحث عن الحقِّ لِيَتَّبِعَه.

ولذا قدَّم له هذا البرهانَ القاطعَ والحجةَ الدامغة على إمامته المنصوصة من لَدُنِ الله تعالى ورسوله ﷺ، فقال بها واطمأنَّ قلبُه إليها.

•

وقال أحمد بن حديد:

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٤٤-٤٥.

« خرجتُ مع جماعةٍ حُجَّاجاً، فقُطع علينا الطريق.

فلمَّا دخلت المدينة لقيتُ أبا جعفر عليه السلام في بعض الطريق، فأتيتُه إلى المنزل فأخبرتُه بالذي أصابنا.

فأمرَ لي بكسوةٍ، وأعطاني دنانيرَ وقال: تُفَرِّقُها على أصحابك على قدَر ما ذهب.

فقسَّمتُها بينهم فإذا هي على قدَر ما ذهب منهم، لا أقلَّ ولا أكثر »[1].

فلولا أن الإمام عليه السلام مُلْهَمٌ محدَّث، لَمَا عَرف مقدارَ ما سُلب من كل واحدٍ، ولَمَا أَعطى المجموع الصحيح دون زيادةٍ أو نقصان.

•

وقال عمرانُ بنُ محمد:

« دفع إليَّ أخي درعاً أَحملها إلى أبي جعفر عليه السلام مع أشياء.

فقدمتُ بها ونسيتُ الدرع.

فلمَّا أردتُ أن أودِّعه قال لي: احملِ الدِّرع »[1].

فكيف تَنبَّهَ إلى أن عمران قد نسي الدِّرع التي كان ينبغي أن يحملها معه؟.

•

وقال المطرفيّ:

« مضى أبو الحسن الرِّضا عليه السلام ولي عليه أربعةُ آلاف درهمٍ لم يكن يعرفها غيري وغيرُه.

فأرسلَ إليَّ أبو جعفر عليه السلام: إذا كان في الغد فَأْتِني.

فأتيتُه فقال لي: مضى أبو الحسن ولك عليه أربعة آلاف درهم؟.

فقلتُ: نعم.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

فرفع المصلّى فإذا تحته دنانير. فدفعها إليَّ، فكانت قيمتُها في الوقت أربعة آلاف درهم»[1].

فكيف تفسِّر علْمه بالدَّين الذي على أبيه ولا يعرفه أحدٌ حيٌّ غير الدائن؟. وكيف علَمَ مقدارَهُ بالضبط، ولم يَزِدْ أو يُنقصْ وبقيمة الدنانير التي كان قد أعدَّها للدائن؟.

●

وعن محمد بن فضيل الصيرفي أنه قال:
«كتبتُ إلى أبي جعفر عليه السلام كتاباً في آخره: هل عندك سلاحُ رسول الله ﷺ؟.
ونسيتُ أن أبعث بالكتاب.

فكتبَ إليَّ بحوائج، وفي آخر كتابه: عندي سلاحُ رسول الله ﷺ، وهو فينا بمنزلة التابوت في بَني إسرائيل، يَدور معنا حيث دُرنا. وهو مع كلِّ إمام»[2].

وهذا هو الجواب الذي كان يتوخَّاه الصيرفيُّ ليطمئنَّ إلى إمامته.. ولكنْ مَن بلَّغ الإمامَ عليه السلام رغبتَه وما توخَّى السؤال عنه؟.

هل ذاك إلاَّ الملَكُ المسدِّد المؤيِّد المحدِّث؟!.

●

وحدَّث بن أرومة قائلاً:
«حملتِ امرأةٌ معي شيئاً من حُليٍّ، وشيئاً من دراهم، وشيئاً من ثياب. فتوهَّمتُ أن ذلك كلَّه لها ولم أَحتطْ عليها ـ أي لم يسألها التفصيل ـ أنَّ ذلك لغيرها، فَحُمِلَتْ إلى المدينة مع بضاعاتٍ لأصحابنا.
فوجَّهتُ ذلك كلَّه إليه وكتبتُ في الكتاب أنِّي قد بعثتُ إليك من قِبَلِ فلانة

---

(١) كشف الغمة ج٣ ص ١٥٠.
(٢) بحار الأنوار ج٥٠ ص٥٣.

بكذا، ومن قِبَلِ فلانٍ وفلان بكذا.

فخرجَ في التوقيع: قد وصلَ ما بعثتَ من فلانٍ وفلان، ومن قِبَلِ المرأتَين تَقبَّل الله منك، ورضيَ عنك، وجعلك معنا في الدنيا والآخرة.

فلمّا سمعتُ ذِكْرَ المرأتَين شككتُ في الكتاب أنَّه غير كتابه، وأنَّه قد عُمِل عليَّ دونه، لأنّي كنت في نفسي على يقينٍ أنَّ الذي دفعتْ إليَّ المرأةُ كان كلُّه لها، وهي امرأةٌ واحدة. فلمّا رأيتُ امرأتَين اتَّهمتُ موصِلَ كتابي.

فلمّا انصرفتُ إلى البلاد، جاءتني المرأةُ فقالت: هل أوصلتَ بضاعتي؟.

فقلتُ: نعم.

قالت: وبضاعة فلانة؟.

قلتُ: هل كان فيها لغيرِك شيء؟.

قالت: نعم، كان لي فيها كذا، ولأختي فلانة كذا.

قلتُ: بَلى، أوصلت.. وزال ما كان عندي»[1].

فسبحان مَن علَّم الإنسانَ ما لم يَعلم.. وعلَّم هذا الإمام الهُمامَ عليه السلام ما لم نَعلم!.

•

وحجَّ إسحاقُ بنُ إسماعيل بن نوبخت سنة ٢٠٢ هجرية. واستأذن على الإمام عليه السلام في جملة من الناس ـ والإمام عليه السلام في السابعة من عُمره ـ وحدَّث عمَّا جرى معه فقال:

«أعددتُ في رقعةٍ عشر مسائل. وكان لي حَمْل ـ أي كانت امرأتُه حُبلى ـ فقلت في نفسي: إن أجابني على مسائلي، سألتُه أنْ يدعوَ الله أنْ يجعلَه ذَكراً.

فلمَّا ألحَّ الناسُ عليه بالمسائل، وكان عليه السلام يُفتي بالواجب، فقمتُ لأخفِّف والرقعةُ معي، لأسألَه في غدٍ عن مسائلي.

فلمَّا نظر إليَّ عليه السلام قال: يا إسحاق، قد استجاب الله دعائي، فسمِّه أحمد.

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء ص ٥٢ـ٥٣.

فقلت: الحمد لله، هذا هو الحجةُ البالغة»[1].

وانصرف إلى بلده، مطمئناً إلى إمامة سيِّده الذي قدَّم له الحجةَ البالغةَ على إمامته، حين عَلِمَ ما في نيَّته، ودعا الله أن يرزقه ولداً ذَكراً، وعرف أنه تعالى استجاب دعاءه.. فاقترح على أبيه أن يسمِّيَه أحمد!.

وَوُلد له ذَكرٌ سمَّاه احمد، كما أُمر.

وتلك من عُلاه إحدى معاليه صلواتُ الله وسلامُه عليه.

●

وقال صالحُ بنُ عطية الأصحب:

«حججتُ فشكوتُ إلى أبي جعفر عليه السلام الوحدة.

فقال: أمَا إنَّك لا تَخرج من الحرَم حتى تشتري جاريةً تُرزق منها ولداً.

فقلت: جُعلتُ فداك، أَفتَرى أَنْ تُشيرَ عليَّ؟.

فقال: نعم، اعترضْ ـ أي عاينِ الجواري ـ فإذا رضيتَ فأعلمْني.

فقلت: جُعلتُ فداك، فقد رضيت.

قال: اذهبْ فكنْ بالقُرْب حتى أوافيَك.

فصرتُ إلى دكَّان النخَّاس، فمرَّ بنا، فنظرَ ثم مضى.

فصرتُ إليه فقال: قد رأيتُها. إنْ أعجبك فاشترِها على أنها قصيرةُ العُمر.

قلتُ: جُعلتُ فداك، فما أصنع بها؟.

قال: قد قلتُ لك.

فلمَّا كان من الغد مررتُ إلى صاحبها فقال: الجاريةُ محمومةٌ وليس فيها غرضي.

فعدتُ إليه من الغد فسألتُه عنها، فقال: دفنتُها اليوم؟.

فأتيتُه ـ أي عاد للإمام عليه السلام ـ فأخبرته، فقال: اعترضْ.

فاعترضتُ، فأعلمتُه، فأمرَني أن أنتظره.

فصرتُ إلى دكَّان النخَّاس، فركب ـ عليه السلام ـ فمرَّ بنا.

---

١) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٠٠.

فصرتُ إليه، فقال: اشترِها، فقد رأيتُها.

فاشتريتُها، فحوّلتُها وصبرتُ عليها حتى طَهُرت ووقعت عليها. فحملتْ وولدتْ لي محمداً ابني »[1].

ولا جرَم أن نقف مع هذه القصة عند تعجُّباتٍ عدة. أهمُّها:

تأكيدُ الإمام عليه السلام أنَّ ابن عطية لا يغادر الحرم إلاّ ومعه جاريةٌ، يُرزق منها ولداً!.

وجزمُه عليه السلام بِقِصَرِ عُمر الجارية التي اختارها صاحبُه.. وموتُها بعد يومين!!!

واختيارُه لِمَولاه الجاريةَ التي يُرزق منها ولداً.. ذَكَراً!.

فما هذا التأكيد الجازم؟. وهل هو الذي يَهَبُ الذكور؟!. ويعرف العمرَ الطويلَ من العمر القصير لولا أن ذلك ممّا علّمه إياه ربُّه العليم القدير؟!.

•

وإذا أردت الأعجبَ فانظر إلى ما حكاه إبراهيم بن سعيد ممّا كان عليه السلام يفعله مع الشاكّين في أمره المتوقّفين عن الاعتراف بإمامته. فقد قال هذا الرجل:

« كنتُ جالساً عند محمد بن عليٍّ، الجواد عليه السلام، إذ مرَّ بنا فَرَسٌ أُنثى.

فقال: هذه تَلِدُ الليلةَ فِلْواً ـ أي مُهراً ـ أبيضَ الناصية، في وجهه غُرَّة.

فاستأذنتُه ثم انصرفت مع صاحبها، فلم أزل أُحدّثه إلى الليل، حتى أتتْ فِلْواً كما وصف.

فأتيتُه، فقال: يا ابن سعيد، شككتَ فيما قلتُ لك أمس؟!! إنَّ التي في منزلك حُبلى بابنٍ أعور.

فولدتْ واللهِ محمداً، وكان أعور!. »[1].

فتأمّلْ... وعلِّل.. دون عَوَرٍ في نظرك إلى مثل هذه الأمور الخارقة.. وكُنْ من

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٥٨ وهو في ص ٤٣ باختصار.

الْمُنصفين.. ومن المبصِرين لا أصحابِ الْعَوَرِ في النَّظَر.

●

قال صالح بن داود اليعقوبي:

«لَـمَّا توجَّه ـ الإمامُ ـ في استقبال المأمون إلى ناحية الشام، أمرَ أبو جعفر عليه السلام أن يُعقد ذَنَبُ دابَّته، وذلك في يومٍ صائفٍ شديد الْحَرِّ، لا يوجد الماء.

فقال بعضُ مَن كان معه: لا عهدَ له بركوب الدوابِّ، فإن مَوقع عقدِ ذَنَب البرذون غيرُ هذا.

فما مَررنا إلاَّ يسيراً حتى ضَلَلنا الطريق بمكان كذا، ووقعنا في وحلٍ كثيرٍ، ففسد ثيابُنا وما معنا، ولم يُصبه شيءٌ من ذلك»[1].

أجلْ، فإنَّ مَن خاض في أمر أهل هذا البيت بعمًى وبلا تبصُّرٍ، فتحَ عينَيه فَوَجَد نفسه يخوض في الوحل!. لأنَّ بأيديهم سِرّاً من سِرِّ الله عزَّ وجلّ لا يُدركه غيرهم.

فاللهمَّ نجِّنا من أن نَضلَّ أو نُضلَّ أو نَحولَ عن الحق أو نَزول.

●

وقال أُميَّةُ بنُ عليٍّ القيسي:

«دخلتُ أنا وحمَّاد بن عيسى على أبي جعفر بالمدينة لنودِّعه.

فقال لنا: لا تَخرجا، أقيما إلى غَد.

فلمَّا خَرجنا من عنده قال حمَّاد: أنا أخرج، فقد خرج ثَقَلي. ـ أي اغراضي ومتاعي ـ.

قلتُ: أمَّا أنا فأُقيم.

فخرج حمَّاد، فجرى الوادي تلك الليلة، فغرق فيه، وقبرُه بسيَّالة»[2].

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء ص ٤٥ ومختار الخرائج ص ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق. نفس الجزء ص ٤٣ وكشف الغمة ج ٣ ص ٢١٨.

ولو خرج أميَّةُ أيضاً عن أمر الإمام، لَخرجت روحُه غرَقاً، ولَجرَّه رفيقُه بعُرقوبه إلى الموت غَرَقاً في وحلِ الشكوك والريب!.

•

وعن الحسن بن عليٍّ أن رجلاً جاء إلى التقيِّ الجواد عليه السلام ـ وهو ابنُ خمس سنواتٍ ـ وقال: «أدرِكْني يا ابن رسول الله، فإن أبي قد مات فجأةً، وكان له ألفا دينارٍ ولست أصِلُ إليها، ولي عيالٌ كثير!.

فقال: إذا صلَّيتَ العتمة، فصلِّ على محمد وآله مئة مرَّة لِيُخبرك بها.

فلمَّا فرغ الرجل من ذلك رأى أباه يُشير إليه بالمال.

فلمَّا أخذه قال: يا بُنيَّ اذهبْ به إلى الإمام وأَخبره بقصَّتي، فإنَّه أمرَني بذلك.

فلمَّا انتبه الرجلُ أخذ المال وأتى أبا جعفر عليه السلام وقال: الحمد لله الذي أكرمك واصطفاك»[1].

وهنيئاً لمن أكرمه الله تعالى بتصديق أمرِه، والإيمان بولاية تراجمة وحيِه ووُلاة عزائمه..

•

وحكى القاسمُ بنُ المحسن قائلاً:

«كنتُ فيما بين مكةَ والمدينة، فمرَّ بي أعرابيٌّ ضعيف الحال. فسألني شيئاً، فرحمتُه وأخرجتُ له رغيفاً فناولتُه إياه.

فلمَّا مضى عنِّي هبَّت ريحٌ شديدةٌ ـ زوبعة ـ فذهبتْ بِعِمامتي من رأسي، فلم أرَها كيف ذهبتْ وأين مرَّت.

فلمَّا دخلتُ على أبي جعفر بنِ الرِّضا عليهما السلام قال لي: يا قاسم، ذهبتْ عِمامتُك في الطريق؟.

قلتُ: نعم.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩١.

قال: يا غلام، أخرجْ إليه عِمامتَه.

قلتُ: يا ابن رسول الله كيف صارت إليك؟.

قال: تصدَّقتَ على الأعرابيِّ، فشَكرَ الله لك، وردَّ عِمامتَك. وإنَّ الله لا يُضيع أجر المحسنين»[1].

•

فآيات الإمام الفتى عليه السلام مع أصحابه لم تكن لتنقضيَ - بُغيةَ تثبيت المنحرفين عنه - لِيُلقيَ حجةَ الله عليهم - ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ!.﴾[2].

فاستمع لِمَا حكاه عليُّ بنُ جريرٍ حيث قال:

«كنتُ عند أبي جعفر عليه السلام جالساً، وقد ذهبتْ شاةٌ لِمَولاه.

فأخذوا بعضَ الجيران، يجرُّونهم إليه ويقولون: أنتم سرقتم الشاة.

فقال لهم أبو جعفر: ويلكم، خَلُّوا عن جيراننا فلم يسرقوا شاتَكم. الشاةُ في دار فلان، فأَخْرِجوها من داره.

فخرجوا فوجدوها في داره، فأخذوا الرجلَ فضربوه وخرَّقوا ثيابه وهو يحلف بالله لم يسرق هذه الشاة، إلى أن صاروا به إلى أبي جعفر عليه السلام، فقال:

ويحكم، ظلمتم الرجلَ فإن الشاة دخلت داره وهو لا يَعلم.

ثم دعاه فوهب له شيئاً بدلَ ما خُرِّق من ثيابه وضربِه»[1].

فبأبي وأُمِّي الحجةُ الفتى الذي علمُه من علمِ ربِّه تبارك اسمُه، الذي لم يُخف عنه خافيةٌ تُظهر فضلَهُ وقدرَه ليرى مَنْ كان عنده نظر، ويسمعَ مَن ليس به صَمَم..

•

قد قال إسماعيل بن عياش الهاشمي:

«جئتُ إلى أبي جعفر - عليه السلام - يوم عيدٍ، فشكوتُ إليه ضيقَ المعاش.

---

(١) كشف الغمة ج ٣ ص ١٥٧ والمحجة البيضاء ج ٤ ص ٣٠٧ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٩٣.

(٢) الأنفال - ٤٣.

فرفع المصلَّى، وأخذ من التراب سبيكةً من ذهبٍ فأعطانيها.
فخرجتُ إلى السوق فكان فيها ستَّة عشر مثقالاً من ذهب»[1].

فما هي ماهية هذه اليد الشريفة التي تبحث في التراب تحت المصلَّى فتُخرج سبائك الذهب؟.

وما هو قدرَها عند بارئها حتى يحوِّل - سبحانه - التراب الذي تمسُّه تلك اليد الطاهرة المطهَّرة إلى ذهب مسبوك؟.

إن وليَّ الله، إذا شاءَ أمراً راجحاً لإظهار بُرهانه.. شاءَهُ الله عزَّ وعلا..

•

وحكى أحمدُ بنُ عليٍّ بنِ كلثوم السرخسي قائلاً:

«قال أبو زينبة - وفي حلقِ الحكَم بن يسار المروزي شِبْهُ الخطِّ كأنَّه أثرُ الذَّبح - فسألته عن ذلك فقال -:

«كُنَّا سبعةَ نفرٍ في حُجرةٍ واحدةٍ ببغداد في زمن أبي جعفر الثاني - عليه السلام - فغاب عنَّا الحكَم عند العصر ولم يرجع تلك الليلة.

فلمَّا كان جَوفُ الليل جاءنا توقيعٌ من أبي جعفر عليه السلام:

إنَّ صاحبكم الخراساني - أي المروزي - مذبوحٌ مطروحٌ في لُبدٍ في مزبلة كذا وكذا، فاذهبوا فداووه بكذا وكذا.

فذهبنا فحملناه، وداويناه بما أمرَنا به فبرىءَ من ذلك»[2].

أما سببُ ذبحِ هذا الشيعي المستضعَف، فإنه كان - بحسب ما في المصادر - قد تَمتَّعَ بامرأةٍ في دار قومها ببغداد، على سنَّة رسول الله ﷺ - وبشكلٍ سرِّيٍّ لاستهجان المتعة في ذلك العصر - فأخذه القومُ، وذبحوه ولفوُّه في لُبدٍ، وطرحوه في المزبلة ليلاً، ولم يَشعر بهم أحد.

---

(١) كشف الغمة ج ٣ ص ١٥٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٩٧ وإثبات الهداة ج ٦ ص ١٩٤ وبعض مصادر بحثنا الأخرى.

فاسألْ معي أيّها القارىء المنصِف أبازينبةَ هذا عن أمور غامضةٍ في هذه الجريمة:

أولها: مَن أنبأَ الإمامَ عليه السلام أنَّ مَولاه «الحكَم» قد انفرد عن أصحابه وتمتع بامرأة في ذلك الوقت؟.

وثانيها: مَن أَخبره بذبحِهِ؟.

وثالثُها: كيف عَلِمَ أنهم لفّوه بلُبد؟.

ورابعها: مَن دلَّه على المكان الذي طرحوه فيه؟.

وخامسها: كيف عرف منزل أصحابه فوجَّه خادمه إليهم بالكتاب عن حال الرجل المذبوح؟.

وسادسها: أيُّ طبيبٍ علَّمه طريقة مداواة الذبيح؟.

وسابعها: كيف عَلِمَ أن صاحبهم لم ينزفْ دمُه بعدُ، وعليهم أن يُدركوه حالاً؟!.

هذه غوامضُ تخفى علينا يا قارئي الحبيب.

أمَّا الإمامُ عليه السلام، فإن الدُّنيا ـ كلّها ـ تُمَثَّلُ بين يدَيه بحجم الجوزة ـ بقدرة الله تعالى وكما قال الإمام الصادق عليه السلام سابقاً ـ ينظر إليها كما ينظر أحدُنا إلى الكُرة في كفِّه، فلا يغيب عنه من أمر العباد شيء.. وإلاَّ لَكان عبداً قاصراً مثلَنا، لا حَوْلَ له ولا طَول.. ولا حجةَ عنده تميِّزه عن الآخرين..

•

قال عبد العظيم بن عبد الله الحسني:

«دخلتُ على سيدي محمد بن عليّ بن موسى عليهم السلام وأنا أُريد أن أَسأَله عن القائم من هو، المهديُّ أو غيرُه؟.

فابتدأني فقال: يا أبا القاسم، إن القائم منَّا هو المهديُّ الذي يجب أن يُنتظَرَ في غَيبته، ويُطاعَ في ظُهوره، وهو الثالثُ من وُلْدي.

والذي بعثَ محمداً بالنبوَّة، وخصَّنا بالإمامة، لَو لَم يَبْقَ من الدُّنيا إلاَّ يومٌ

واحدٌ، لَطَوَّلَ الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظُلماً وجَوراً.

وإن الله تبارك وتعالى لَيُصلح له أمره في ليلةٍ كما أصلح أمر كليمهِ موسى عليه السلام، إذ ذهب ليقتبس ناراً، فرجعَ وهو رسولٌ نَبِيّ.

ثم قال عليه السلام: أفضلُ أعمال شيعتِنا انتظارُ الفرَج»[1].

---

(١) حدائق الأنس ص ٢٨٢. وإعلام الورى ص ٤٠٨ وبحار الأنوار ج ٥١ ص ١٥٦ ومصادر كثيرة أخرى.

مِن فَلسَفَتِهِ وَأفكَاره

•

إمامُنا الجواد عليه السلام مؤدِّبٌ عظم يقف القلم عن وصف فلسفته وكلامه، ويعجز الفكر عن نعتِ حِكَمِهِ وآرائه. وهو كآبائه الميامين يغترف من مَعين ربٍّ العالَمين، حتى أن العلْم يكاد يخرج من فم الإمام منهم إثر الإمام كما جاء في توحيد الصَّدوق[1] بشكلٍ يفتن الألباب ويأخذ بِمَجامع القلوب!.

فقد صدرت عنه أقوالٌ بليغةٌ في وحدانية الله تبارك وتعالى.

وآثارٌ دينيةٌ، وخُلقيةٌ، وحِكَميةٌ تدلُّ على عقل الحكيم المحنَّك يحمله الإمام الشابُّ الذي خنقوا شبابَهُ الذي رأوه قذًى في عيون باطلهم الذي يحيَونه..

وله نظرياتٌ في علم الاجتماع، وأدب السلوك تدهش ذوي العقول.. فغصَّت بعظَمته لَهَواتُهم.

كما أن له فتاوى فريدةً مررنا بذكر أكثرها، وأحكاماً في الحق حَـرِجَـتْ بها صدورهم، وضاقت بها أنفاسُهم، ورمتهم بقلَقٍ نغَّص عليهم الحياة فضاقوا به وبأنفسهم وخافوا أن تنكشفَ للناس أُحدوثتُهم وينفضحَ زورُهم!.

قد عاصر عهد ظلمٍ غاشم كثرت فيه النزاعات المذهبية والعقائدية التي كان من آثارها حبسُ الإمام أحمد بن حنبل وجَلْدُهُ بأمر «المعتصم بالشيطان» وأحمدُ هو مَن هو في تفقُّهه وتمذهُبه. وساد بين المسلمين اختلافٌ بلغ الذروة في تفريقهم وجعلهم

(١) انظر الخبر في توحيد الصدوق ص ٢٣ وص ١٥٨ وقد سبق أن ذكرناه وأشرنا إلى مصادره.

شِيَعاً وطوائف، إذ تراشقوا بالتُّهم، ورمَى بعضُهم بعضاً بالتفسيق والتكفير، واستحلَّ فريقٌ دمَ فريق، وتنازعَ المعتزلةُ والمحدثون نزاعاً بدأ بخلق القرآن وقِدَمِه وانتهى بكثيرٍ من أصول الدِّين وفروعه، فلم تَعْثُرْ قَدَمُ إمامنا عليه السلام في ذلك الوقت، ولا زلَّ لسانُه، ولاعيَّ بيانُه عن لفظِ كلمة الحقِّ لأنه معصوم اللسان ومن تراجمة الوحي والقرآن الذين عصَمَهم الله وجعلهم أدلاَّءَ على أمره وهُداةً لبريَّته، لا تتعدَّى وظيفتُهم قولَ كلمة الحق التي كانوا يُلقونها إلى الناس صريحةً ولو من وراء قُضبان السجن أو من بين أربعة جُدران!.

● فَمِنْ أقواله عليه السلام:

قد قال علي بن مهزيار: «كتب أبو جعفر عليه السلام إلى رجلٍ بخطِّه وقرأتُه في دعاءٍ كتبَ به أن يقول في طلب الحاجة:

«ياذا الذي كان قبل كلِّ شيء، ثم خلق كلَّ شيء، ثم يبقى ويفنى كلُّ شيء وياذا الذي ليس في السماوات الْعُلَى، ولا في الأراضين السُّفلى، ولا فوقهنَّ ولا بينهنَّ ولا تحتهنَّ، إلّهٌ يُعبد غيرُه.»[1] ثم يدعو بما يشاء.

● وتكلَّم عليه السلام في التوحيد:

فعن أبي هاشم الجعفري، قال:

«سألتُ أبا جعفر محمد بن عليٍّ ـ الثاني ـ عليهما السلام: ما معنى الواحد؟.

قال: المجتمَعُ عليه بجميع الألسن بالوحدانية.

وفي جوابٍ آخر قال عليه السلام: الذي اجتماعُ الألسن عليه بالتوحيد، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ، لَيَقُولُنَّ الله..﴾[2]» بعد ذلك له شريك وصاحبة؟!. ـ وهذا استفهامٌ إنكاري ـ.

وفي هامش «التوحيد»: لا يخفي أن السؤال ليس عن «المفهوم» لأن السائل

---

(١) المصدر السابق نفسه

(٢) توحيد الصدوق ص ٨٢ وص ٨٣ والكافي م ١ ص ١١٨ والآية في العنكبوت ـ ٦١ ولقمان ـ ٢٥ والزمر ـ ٣٨ والأعراف ـ ٩ وتجده مفصلاً في الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٤٤١.

عارف به، ولا عن الحقيقة الشرعية إذ ليس له حقيقة شرعية وراء ما عند الْعُرف ـ بل عن معنى الواحد في حقِّ الله تعالى أنه بأيِّ معنًى يُطْلَق عليه تعالى، فأجاب عليه السلام أنه يُطْلَق عليه بالمعنى الذي اجتمع عليه الناس كلُّهم بلسان فِطْرتهم عليه، وذلك المعنى أنه تعالى لا شبيه له ولا شريك له في الألوهيَّة وصنع الأشياء كما أشار إليه بالاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ لَيَقُولُنَّ الله..﴾[1].

•

وبالنسبة لقول «المجسِّمة» قال عليه السلام:

«مَن قال بالجسم، فلا تُعطوه من الزكاة، ولا تصلُّوا وراءه.

سبحان مَن لا يُحَدُّ، ولا يوصَف! ليس كمثله شيءٌ، وهو السميعُ البصير».

•

وقال عبد الرحمان بن أبي نجران:

«سألتُ أبا جعفر الثاني عليه السلام عن «التوحيد» فقلت: أَتُوهِمُ شيئاً؟. ـ والهمزةُ: للاستفهام، والفعل: مجهولٌ من باب التفعيل، ويرجع الضميرُ إلى لفظة الجلالة: الله، وشيئاً: منصوب على التمييز.. أو أن الكلام إخبارٌ، والفعلُ بصيغة المتكلِّم: ـ أَتَوَهَّمُ شيئاً ـ. وشيئاً: مفعولٌ لأتوهَّم. أي أنه هل يجوز أن أتوهَّمَ شيئاً عندما أَذْكُرُ الله؟. والأول أصح بالنظر لجواب الإمام عليه السلام الذي قال:

نعم، غير معقولٍ، ولا محدود. فما وقع وهمُك عليه من شيءٍ فهو خلافُه. لا يُشبهه شيءٌ، ولا تُدركه الأوهام. كيف تُدركه الأوهام وهو خلافُ ما يُعْقَلُ، وخلافُ ما يُتَصَوَّر في الأوهام. يُتوهَّم شيءٌ غيرُ معقولٍ ولا محدود[2].

•

«وسئل عليه السلام: يجوز أن يقال (عن) الله: إنه شيء؟.

---

(١) لقمان ـ ٢٥ والزمر ـ ٣٨ والزخرف ـ ٩.

(٢) المصدر السابق ص١٠٦.

فقال: نعم، يُخرجه من الحدّين: حدِّ التعطيل، وحدِّ التشبيه »[1].

•

وقال أبو هاشم الجعفري أيضاً:

« قلتُ لأبي جعفر بن الرِّضا عليه السلام: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ؟. ﴾.

فقال: يا أبا هاشم أوهامُ القلوب أدقُّ من أبصار العيون. أنت قد تُدرك بوهمك السِّنْدَ والهندَ والبلدانَ التي لم تدخلها، ولم تدركها (ولا تدركها) ببصرك. فأوهام القلوب لا تُدركه، فكيف أبصارُ العيون »[2]؟.

وعنه أيضاً، قال:

« كنتُ عند أبي جعفر الثاني عليه السلام، فسأله رجلٌ فقال: أَخبرْني عن الرِّب تبارك وتعالى له أسماءٌ وصفاتٌ في كتابه؟. فأسماؤه وصفاتُه هي هو؟.

فقال أبو جعفر عليه السلام: إنَّ لهذا الكلام وجهَين:

إنْ كنتَ تقول: هي هو، أي: أنه ذو عَددٍ وكثرة، فتعالى الله عن ذلك.

وإنْ كنتَ تقول: هذه الصفات والأسماء لم تزل، فإنَّ « لم تزل » يحتمل معنَيين:

فإنْ قلتَ: لم تزل عنده في علمه، وهو مستحقُّها فَنَعم.

وإن كنتَ تقول: لم يزل تصويرُها، وهجاؤها، وتقطيعُ حروفها، فمعاذَ الله أن يكون معه شيءٌ غيره.

بل كان الله ولا خَلْق. ثم خَلَقها ـ أي أسماءه وصِفاته ـ وسيلةً بيِّنةً بينه وبين خلقِه يتضرَّعون بها إليه ويعبدونه. وهي ذكرُه ـ أي ما يُذكَرُ به سبحانه ـ. وكان الله ولا ذِكْر. والمذكورُ بالذِّكر هو الله القديمُ الذي لم يزل. والأسماءُ والصفاتُ مخلوقاتُ المعاني، والمعنيُّ بها هو الله الذي لا يليق به الاختلاف والائتلاف، وإنما يختلف ويأتلف المتجزِّىء. فلا يقال: الله مؤتلف، ولا: الله كثير، ولا قليل. ولكنه

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق ص١١٣ والآية في الأنعام ـ ١٠٣.

القديم في ذاته، لأن ما سِوَى الواحد متجزِّيءٌ، واللهُ واحدٌ لا متجزيءٌ، ولا متوهَّمٌ بالقلة والكثرة. وكلُّ متجزِّيءٍ أو متوهَّمٍ بالقلَّة والكثرة فهو مخلوقٌ دالٌّ على خالقٍ له. فقولُك: إن الله قديرٌ، خبَّرت أنه لا يُعجزه شيء. فنفيتَ بالكلمة العجز، وجعلتَ العجزَ سِواه. وكذلك قولك: عالِمٌ، إنما نفيتَ بالكلمة الجهل، وجعلتَ الجهلَ سِواه. فإذا أفنى الله الأشياء، أفنى الصُّوَرَ والهجاء، ولا ينقطع ولا يزال مَن لم يزل عالماً»[1].

وزاد في الكافي:

فقال الرجل: فكيف سمَّينا ربَّنا سميعاً؟!.

فقال: لأنه لا يخفى عليه ما يُدْرَك بالأسماع. ولم نَصِفْهُ بالسمع المعقول في الرأس. وكذلك سمَّيناه بصيراً لأنه لا يخفى عليه ما يُدْرَك بالأبصار، من لون أو شخصٍ أو غير ذلك. ولم نَصِفْهُ ببصرِ لحظةِ العين.

وكذلك سمَّيناه لطيفاً لعلمه بالشيء اللطيف مثلِ البعوضة وأخفى من ذلك وموضع النشوّ منها والعقل والشهوة للسَّفاد، والحدَب على نسلها، وإقام بعضها على بعض، ونقلها الطعام والشراب إلى أولادها في الجبال والمفاوز والأودية والقفار، فَعَلِمْنا أن خالقها لطيفٌ بلا كيف، وإنما الكيفيَّة للمخلوق المكيَّف.

وكذلك سمَّينا ربَّنا قويّاً لا بقوَّةِ البطش المعروف من المخلوق، ولو كانت قوَّتُه قوَّةَ البطش المعروف من المخلوق لَوقع التشبيه، وَلاَحْتُمِلَ الزيادةُ، وما احتَمل الزيادة احتَمل النقصان، وما كان ناقصاً كان غير قديم، وما كان غير قديمٍ كان عاجزاً.

فربُنا تبارك وتعالى لا شبه له ولا ضدَّ ولا نِدَّ ولا كيفَ ولا نهاية، ولا تبصار بصر؛ ومحرَّمٌ على القلوب أن تُمَثِّله، وعلى الأوهام أن تَحُدَّه، وعلى الضمائر أن تَكوِّنه. جلَّ وعزَّ عن أداة خلقِه وسِمات بريَّتِه، وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً»[1].

•

---

(١) توحيد الصدوق ص١٩٣ والكافي م ١ ص١١٦ ـ ١١٧.

وقال داود بن القاسم الجعفري: « سألتُه عن الصمَد؟.

فقال: الذي لا سُرَّة له.

قلتُ: فإنهم يقولون: الذي لا جَوف له.

فقال عليه السلام: كلُّ ذي جَوفٍ له سُرَّة »[1].

وورد بلفظ: « جُعلت فداك، ما الصمد؟.

قال: السيد المصمود إليه في القليل والكثير »[1].

•

ومن أقواله عليه السلام، الْحِكَمِيَّةِ المفرَدة:

« لو سكت الجاهلُ ما اختلفَ الناس »[2].

إذ لا يتكلَّم ـ حينئذ ـ إلاَّ العارفون من أصحاب العقول التي ـ إن هي خالفت في الرأي ـ لا تجادل بغير المعقول ولا تشهر سلاحاً.

•

وقال عليه السلام:

« مقتلُ الرجل بين لِحْيَيْهِ،

والرأيُ مع الأناة،

وبئس الظَّهيرُ الرأيُ الْفَطير ».

وكلُّ كلمةٍ من هذه الكلمات تتحمَّل معنًى يستغرق بيانُه الصفحاتِ الطوال.

كما أنه قال عليه السلام:

« ثلاثُ خِصال تُجتلَب بهنَّ المحبة:

الانصافُ في المعاشرة، والمواساة في الشدة، والانطواء والرجوعُ إلى قلبٍ سليم ».

---

(١) تحف العقول ص ٣٣٥-٣٣٦.

(٢) أقواله الشريفة كلُّها في كشف الغمة ج ٣ من ص ١٣٦ إلى ص ١٥٨ والاختصاص ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ وتحف العقول ص ٣٣٥-٣٣٧ والأنوار البهية ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٢٤ فما فوق، إلاَّ ما أشرنا إليه.

والخصلة الواحدة منهنَّ تكفي لأن تجعل صاحبها محبَّباً لدى عُشْرائه لما يرونه فيه من خُلق وإنصاف وحُسن معاملةٍ للآخرين.

•

وقال سلامُ الله عليه:

« فسادُ الأخلاق بمعاشرة السفهاء،

أو صلاح الأخلاق بمنافسة العقلاء.

والْخَلْقُ أشكالٌ، فكلٌّ يَعمل على شاكلته.

والناسُ إخوانٌ، فمَن كانت أُخوَّتُه في غير ذات الله فإنها تحوز عداوته، وذلك قولُه تعالى:

﴿أَلأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، إلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[1] ».

•

وقال عليه السلام:

« مَن استحسن قبيحاً كان شريكاً فيه ».

« الشريفُ كلُّ الشريف مَن شرَّفه علمُه، والسؤددُ حَقُّ السؤدد مَن اتَّقى الله ربَّه، والكريمُ كلُّ الكريم مَن أكرمَ عن ذلِّ النارِ وجهَه ».

فتصوَّرْ إنساناً في أول تفتُّح عينَيه على نور الحياة، يُملي على الناس بمثل هذه الدُّرَرِ والْغُرر، التي تدل على العقل الحصيف، والعلم الغزير، والإيمان الراسخ الذي لا يَحمله إلاَّ رُسلُ السماء، ذاك أنه مسدَّدٌ مؤيَّدٌ قد جعل أموره بيد الله تعالى، فتولَّى الله سبحانه جميع شؤونه.

•

وقد روى أحمد بن حمدون أنه عليه السلام قال:

« كيف يَضيع مَن اللهُ كافلُه؟.

---

(١) الزخرف - ٦٧.

وكيف ينجو مَن اللهُ طالبُه؟.
ومَن انقطع إلى غير الله وكَلَهُ اللهُ إليه،
ومَن عملَ على غير علمٍ أفسدَ أكثر ممَّا يُصلح».

•

وقال عليه السلام:

«أهلُ المعروف إلى اصطناعه أحوجُ من أهل الحاجة إليه، لأنَّ لهم أجرَهُ وفَخْرَهُ وذِكرَه. فمهما اصطنع الرجلُ من معروف فإنما يبدأ فيه بنفسه، فلا يطلبنَّ شُكْرَ ما صنع إلى نفسه من غيره».

•

وكذلك قال سلامُ الله وصلواتُه عليه:

«العفافُ زينةُ الفقر، والشكرُ زينةُ الغنى، والصبرُ زينةُ البلاء، والتواضع زينةُ الحسَب، والفصاحةُ زينة الكلام، والعدلُ زينةُ الإيمان، والسكينةُ زينةُ العبادة، والحفظُ زينةُ الرواية، وخفضُ الجناح زينة العلم، وحسنُ الأدب زينة العقل، وبسطُ الوجه زينةُ الْحِلم، والإيثـارُ زينة الزهد، وبذلُ المجهود زينةُ النفس، وكثرة البكاء زينة الخوف، والتقلُّل زينةُ القناعة، وتركُ المنِّ زينةُ المعروف، والخشوعُ زينةُ الصَّلاة، وتركُ ما لا يَعني زينةُ الورع».

وكفى بالصَّمتِ والتأمُّلِ الواعي، غَنَاءً عن التعليق على هذه الْحِكَمِ، التي هي زينةٌ في جوامعِ الْكلِم، وبدائع القول..

•

وقال صلواتُ الله عليه:
«.. عنوانُ صحيفة المؤمن حُسْنُ خُلقه.
- وفي موضعِ آخر قال: «في حُسْنِ الثَّناء عليه».

فمَن علَّمك هذا يا سيدي منذ نعومة أظفارك؟.

ومن أين لك عقلُ الشيوخ، وفكرُ الفلاسفة، وتجارب العلماء، واختبارات السنين وأنت ـ بعدُ ـ في مَطلع الحياة وفي عمر الزهور، ثم تُفيض على الناس من هذه الآيات التي لا يُفيضها إلاّ مَن كان في عُمر النَّسور، وعاركَ الحياةَ وعانَى تجارب الدهور؟!.

قد جلَّ معناك عن أن تُدركِه أفهام الْبُسَطاء،
وسمَتْ قيمُتك عن أن توضَع في المعايير وموازين التقويم،
وتعاليت عن الوصول إلى تفسير ما أنت عليه في الواقع ونفس الأمر،
لأنك منّا في الإنسانية... وفوق معقولنا في مَبناك ومعناك.
ومَن حاول تفتيح عينَيه للنظر إليك، أعشاه نورُ الحقِّ المجسَّد فيك..
فعادَ إمَّا خاسئاً حسيراً، وإمَّا مفتوناً مبهوراً!.

•

وقال عليه السلام:
«أربعُ خصالٍ تُعين المرءَ على العمل: الصحةُ، والغنى، والعلم، والتوفيق».
و: «لَن يستكمل العبدُ حقيقةَ الإيمان، حتى يُؤْثِرَ دينَه على شهوته، ولن يَهلك حتى يُؤْثِرَ شهوته على دينه».
و«العاملُ بالظُّلم، والْمُعين له، والرّاضي به شُركاء».

•

ومن حِكَمِه الخالدة قولُه عليه السلام:
«إنَّ لله عباداً خصَّهم بالنِّعم، ويُقرُّهم فيها ما بَذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم وحوَّلها إلى غيرهم».

«ما عظُمتْ نعمةُ الله على عبد إلاّ عظُمت مؤونة الناس عليه. فمَن لم يَحتمـلْ تلك المؤونة فقد عرض النعمة على الزوال».

« مَن أمل إنساناً فقد هابَه، ومَن جهل شيئاً فقد عابَه، والفرصُة خلسة..
ومَن كَثُرَ همُّه سَقُمَ جسمُه، والمؤمنُ لا يَشفي غيظَه...».
« مَن استغنى بالله افتقر إليه الناس، ومَن اتَّقى الله أَحبَّه الناسُ وإن كَرِهوا ».

•

« عليكم بطلب العلم، فإنَّ طلبه فريضة، والبحث عنه نافلة. وهو صلةٌ بين الإخوان، ودليلٌ على المروءة، وتحفةٌ في المجالس، وصاحبٌ في السفَر، وأُنْسٌ في الْغُربة ».

•

« العلماءُ غرباءُ لكثرة الجهَّال بينهم ».

•

« التوبة على أربعة دعائم: ندمٌ بالقلب، واستغفارٌ باللسان، وعملٌ بالجوارح، وعزمٌ على ألاَّ يَعود ».

•

« كُفْرُ النِّعمة داعيةُ المقت. ومَن جازاك بالشُّكر، فقد أعطاك أكثرَ ممَّا أخذ منك ».

•

« القصدُ إلى الله تعالى بالقلوب، أبلغُ من إتعاب الجوارح بالأعمال ».

•

« العلمُ عِلْمان: مطبوعٌ، ومسموع. ولا ينفع مسموعٌ إذا لم يكن مطبوع.
ومَن عرف الحكمة لم يصبر على الازدياد منها ».
ولفظة « يَكُنْ » هنا من « كان » التامَّة، أي: إذا لم يكنْ علمٌ مطبوعٌ موجوداً.

•

الجمالُ في اللسان، والكمالُ في العقل».

●

«ألفضائلُ على أربعة أجناس:
أحدُها: الحكمةُ، وقوامُها في الفكرة.
والثاني: العفةُ، وقوامُها في الشهوة.
والثالث: القوةُ، وقوامُها في الغضب.
والرابع: العدلُ: وقوامُه في اعتدال قوى النفس».

●

«أَقصدُ العلماء للمَحجَّة، الْمُمسِكُ عند الشُّبهة. والجدَلُ يورث الرِّياء. ومَن أخطأ وجوهَ المطالب خذلتْهُ الحيَل. والطامعُ في وثاق الذلّ، ومَن أَحبَّ البقاءَ فليُعدَّ للبلاء قلباً صَبوراً».

●

«مَن أمَّل فاجراً، كان أدنى عقوبتِه الحرمان».

●

«موتُ الإنسان بالذنوب، أكثرُ من موته بالأجَل. وحياتُه بالْبِرِّ، أكثرُ من حياته بالْعُمر».

●

«لا تعالجوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، ولا يطولَنَّ عليكم الأمدُ فتقسوَ قلوبُكم، وارحموا ضُعفاءَكم، واطلبوا الرحمةَ من الله بالرحمة لهم».

وطولُ الأمد هو أن يستسلم المرءُ للحياة مؤمِّلاً بطول البقاء، فيسوِّف العمل، وتَفتر همتُه عن القيام بالواجب، فيضعف يقينُه ويقسو قلبُه.

●

«مَن استفاد أخاً في الله، فقد استفاد بيتاً في الجنَّة».

●

« مَن أطاع هواه، أعطى عدوَّه مُناه ».

•

« راكبُ الشهوات لا يُقال عثرتَه ».

•

« بالثِّقة بالله تعالى، ثمنٌ لكلِّ غالٍ، وسُلَّمٌ لكلِّ عالٍ ».

•

« عزُّ المؤمن غناهُ عن النَّاس ».

•

« لا تكن وليَّ الله في العلانية، عدوّاً له في السِّر ».

•

« إصبرْ على ما تكره فيما يُلْزِمُك الحقَّ، واصبرْ عمَّا تحب فيما يدعوك إلى الهوى »

•

« مَن استغنى كَرُمَ على أهله. فقيل له: وعلى غير أهله؟. قال: لا، إلاَّ أن يكون يُجدي عليهم نفعاً ».

ذلك أن المستغني عن الغرباء، لا يهتمُّ الغرباء بشأنه، ولا يَعنيهم من أمره شيءٌ، إلاَّ في الحالة التي ذكرها الإمام عليه السلام، وهي أن يكونوا مستفيدين من غناه.

•

« قد عاداك مَن ستر عنك الرُّشدَ اتِّباعاً لِمَا يهواه ».

•

« إيَّاك ومصاحبة الشرِّير، فإنه كالسيف المسلول: يَحْسُنُ منظرُه، وتَقْبُحُ آثارُه ».

•

« كفى بالمرء خيانةً، أن يكون أميناً للخوَنة ».

•

« ثلاثٌ من عملِ الأبرار: إقامةُ الفرائض، واجتنابُ المحارم، واحتراسٌ من الغفلة في الدِّين.

وثلاثٌ يَبلغنَ بالعبد رضوانَ الله تعالى: كثرةُ الاستغفار، وخفضُ الجانب، وكثرةُ الصدقة.

وأربعٌ مَن كُنَّ فيه استكملَ الإيمان: مَن أعطى للهِ، ومَن منعَ للهِ، وأَحَبَّ للهِ، وأَبغضَ في الله.

وثلاثٌ مَن كُنَّ فيه لم يندم: تركُ العجَلة، والمشورةُ، والتوكُّلُ عند العزم على الله عزَّ وجلّ ».

•

« مَن وثق بالله أراه السرور، ومن توَّكل عليه كفاه الأمور. والثقة بالله حصنٌ لا يتحصَّن به إلاَّ مؤمنٌ أمين، والتوكُّل على الله نجاةٌ من كلِّ سوء، وحرزٌ من كلِّ عدوّ.

والدِّينُ عزٌّ، والعلم كنزٌ، والصمتُ نورٌ، وغايةُ الزهد الورع، ولا هَدْمَ للدِّين مثل الْبِدَع، ولا أفسدَ للرجال مثل الطمع.

وبالراعي تَصلح الرعيَّة، وبالدُّعاء تُصرف البليَّة. ومن ركب مركب الصبر، اهتدى إلى مضمار النَّصر.

ومَن عابَ عِيبَ، ومَن شتمَ أُجيب.
ومَن غرس أشجارَ التُّقى، اجتنى أثمارَ الْمُنى ».

•

وقال عليه السلام:

« حَسْبُ المرءِ من كمالٍ المروءة، تـركُه ما لا يُحمل به. ومن حيائه أن لا يَلقى

أحداً بما يكره، ومن عقله حُسْنُ رِفقه، ومن أدبه أن لا يترك ما لا بدَّ منه. ومن عرفانه علمُه بزمانه، ومن ورعه غضُّ بصره وعفَّةُ بطنه. ومن حُسْنِ خُلْقِه كفَّهُ أذاه. ومن سخائه برُّه بمَن يجب حقُّه عليه، وإخراجُه حقَّ الله من ماله. ومن إسلامه تركُه ما لا يَعنيه، وتَجَنُّبه الجدالَ، والمراءَ في دِينه. ومن كَرَمه إيثارُه على نفسه. ومن صبرِه قِلَّةُ شكواه. ومن عقله إنصافُه من نفسه. ومن حِلْمِه تركُه الغضبَ عند مخالفته. ومن إنصافه قَبولُه الحقَّ إذا بانَ له. ومن نُصْحِه نهيُه ما لا يرضاه لنفسه.

ومن حفظِه جوارَك تركُه توبيخَك عند إساءتك مع علمِه بعيوبك. ومن رفقِه تركُه عذلَك عند غضبك بحضرة مَن تَكره. ومن حُسْنِ صُحبتِه لك إسقاطُه عنك مؤونة أذاك.

ومن صداقته كثرةُ موافقته وقلَّةُ مخالفته. ومن صلاحه شدَّةُ خوفه من ذنوبه. ومن شُكرِه معرفةُ إحسانِ مَن أَحسنَ إليه. ومن تواضعِه معرفتُه بِقَدْره. ومن حكمته علمُه بنفسه. ومن سلامته قلَّـةُ حفظِـه لعيـوب غيره، وعنـايتُـه بـإصلاح عيوبه!.».

•

وقال عليه سلامُ الله وتحيَّاتُه وبرَكاتُه:

«لايُفْسِـدْكَ الظنُّ على صديقٍ وقد أصلحك اليقينُ له. ومَن وعظ أخاه سرّاً فقد زانَهُ، ومن وَعَظَهُ علانيةً فقد شانَه.

إستصلاحُ الأخيار بإكرامهم، والأشرارِ بتأديبهم. والمودَّةُ قرابةٌ مستفادَة. وكفى بالأجَل حرزاً. ولا يزال العقلُ والحمقُ يتغالَبانِ على الرجل إلى ثماني عشرةَ سنةً، فإذا بَلَغَها غَلَبَ أكثرُهما فيه.

وما أنعمَ الله عزَّ وجلَّ على عبدٍ نعمةً فَعَلِمَ أنَّها من الله، إلاَّ كَتَبَ الله جلَّ اسمُه له شُكرَها قبلَ أن يَحمده عليها. ولا أذنبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أنَّ الله مُطَّلِعٌ عليه إن شاءَ عذَّبه وإن شاء غفرَ له، إلاَّ غفرَ الله له قبل أن يستغفره!.

•

« وقال له رجلٌ: أوْصِنِي.

قال عليه السلام: وتَقبل؟.

قال: نعم.

قال: تَوَسَّدِ الصبرَ، واعتنقِ الفقرَ، وارفضِ الشهَواتِ، وخالفِ الهوى، واعلمْ أنّك لن تخلوَ من عينِ الله، فانظرْ كيف تكون».

•

وقال عليه السلام:

« أوحى الله إلى بعض الأنبياء:

أمّا زُهْدُك في الدُّنيا فيتعجَّلُك الراحة، وأمّا انقطاعُك إليّ فيعزِّزُك بي.

ولكنْ، هل عاديتَ لي عدوّاً، وواليتَ لي وليّاً؟!».

•

وكتب إلى بعض أوليائه:

« أمّا هذه الدُّنيا فإنّا فيها معترفون، ولكنْ مَن كان هواه هوى صاحبِه ودانَ بدِينه، فهو معه حيث كان. والآخرةُ هي دارُ الْقَرار.

تأخير التوبة اغترارٌ، وطولُ التسويف حَيرةٌ، والاعتلالُ على الله هلكةٌ، والإصرارُ على الذَّنْب أمنٌ لمكرِ الله ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

•

« ورُوِيَ أن جَمّالاً حمله من المدينة إلى الكوفة، فكلَّمه في وصلتِه ـ وقد كان أبو جعفر عليه السلام قد وصلَه بأربعمئة دينار ـ فقال عليه السلام:

سُبحانَ الله، أمَا علمتَ أنّه لا ينقطع الْمَزيدُ من الله حتى ينقطع الشكرُ من العباد؟!».

•

---

(١) الأعراف ـ ٩٩.

« وحُمل له حملُ بَزٍّ ـ أي ثياب من قطنٍ أو كتَّان ـ له قيمةٌ كثيرة. فَسُلَّ ـ سُرِق أو وقع ـ في الطريق. فكتبَ إليه الذي حملَه يعرِّفُه الخبر.

فوقَّع بخطِّه: إنَّ أنفسَنا وأموالَنا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودَعة. يُمَتِّعُ بما مَتَّعَ منها في سرورٍ وغبطة، ويأخذ ما أخذَ منها في أَجرٍ وحِسْبَة. فمَن غلبَ جزعُه على صبرِهِ حَبِطَ أَجرُه، ونعوذ بالله من ذلك ».

•

وقال عليه السلام:

« مَن شهد أمراً فكرهه كان كمَن غاب عنه، ومَن غاب عن أمرٍ فرضيَهُ كان كمَن شَهِدَه.

مَن أصغى إلى ناطقٍ فقد عبدَه. فإن كان الناطقُ عن الله فقد عبدَ الله، وإن كان الناطقُ ينطق عن لسان إبليس... ـ فقد عبدَ إبليس ـ.

•

وقال عليه السلام:

« كانت مبايعةُ رسول الله ﷺ النساءَ أن يغمس يدَه في إناءٍ فيه ماء، ثم يُخرجها وتغمس النساءُ بأيديهنَّ في ذلك الإناء بالإقرار والإيمان بالله، والتصديق برسوله على ما أَخذَ عليهن ».

•

وقال عليه سلامُ الله الدائم، وتحياتُه التي لا تنقطع:

« إظهارُ الشيءِ قبلَ أن يستحكمَ مفسدةٌ له.

المؤمنُ يحتاج إلى توفيقٍ من الله، وواعظٍ من نفسِه، وقبولٍ ممَّن يَنصحُه »!.

فاللهم أجعلَّنا ممَّن رغب في النصيحة يقدِّمها لإخوانه، واجعلنا من المنتصِحين.. والحمد لله رب العالمين.

•

شيءٌ مِنْ أحوالِهِ الكَريمَة

•

روَى الحسين بن أحمد التميمي:

«أنَّ أبا جعفر الثاني ـ عليه السلام ـ استدعى فاصداً في أيام المأمون فقال له:

افصدْني في الْعِرْقِ الزاهر.

فقال له: ما أعرف هذا العِرق يا سيِّدي، ولا سمعتُه.

فأراه إياه. فلمَّا فصدَه خرجَ منه ماءٌ أصفرُ فجرى حتى امتلأَ الطَّست.

ثم قال له: أمسكْهُ.

فأمرَ بتفريغ الطست ثم قال: خَلِّ عنه. فخرجَ دون ذلك.

فقال: شُدَّهُ الآن.

فلمَّا شدَّ يدَه أمرَ له بمئة دينار. فأخذها وجاء إلى بخناس ـ طبيب ذلك العصر المشهور ـ فحكى له ذلك فقال:

واللهِ ما سمعتُ بذلك العرق مُذ نظرتُ في الطب!. ولكنْ هناك فلانٌ الأسقُف قد مضت عليه السنون، فامضِ إليه فإن كان عنده علمُه وإلاَّ لم نَقدر على مَن يَعلمُه.

فَمَضَيَـا ودخلا عليه، وقصَّا الْقَصص. فأطرقَ مليّاً، ثم قال:

يوشك أن يكون هذا الرجل نبيّاً أو من ذُرِّيَة نبيّ»[١].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٩ وهو مذكور بتفصيل أوسع في الجزء ٣ من كشف الغمة.

فمن أين له المعرفةُ بالطب؟..

وأين اطَّلع على العِرق الزاهر، ومَن دلَّه على موقعه من الجسد؟!.

ولا عجَب فإنَّ مَن راجع طبَّ الأئمَّة عليهم السلام، يقع في حيرةٍ من أمرهم الذي لا يُفسَّرُ بالميسور من القول!. فما على العاقل إلاَّ أن يؤمن بأن عِلْمَهُمْ من عِلْمِ الله عزَّت قدرتُه.

ولقد كانوا يعالجون أنفسهم، ويَصفون العقاقيرَ لأصحابهم. ولم يُعرف عنهم أنهم استشاروا طبيباً في داءٍ ولا في جُرح..

فاستمع إلى الصباح بن محارب الذي قال:

« كنتُ عند أبي جعفر بن الرِّضا عليه السلام فذُكر أن شبيب بن جابر ضربتْهُ الريحُ الخبيثةُ فمالت بوجهه وعينه.

فقال: يؤخذ له القرنفل خمسة مثاقيل، فَيُصَيَّرُ في قنينةٍ يابسة ـ أي جافَّة ـ ويُضم رأسُها ضمّاً شديداً، ثم تُطيَّن وتوضع في الشمس قَدَرَ يومٍ في الصيف، وفي الشتاء قَدَرَ يومَين. ثم يُخرجه فَيَسحقه سحقاً ناعماً، ثم يدوفه ـ يخلطه ـ في الماء حتى يصير بمنزلة الخلوق. ثم يستلقي على قفاه ويطلي ذلك القرنفل المسحوق على الشِّق المائل، ولا يزال مستلقياً حتى يجفَّ القرنفل، فإنه إذا جفَّ رفعه الله عنه وعاد إلى أحسن عاداته بإذن الله تعالى.

قال: فابتدره أصحابُنا فبشَّروه بذلك، فعالجه بما أمره به، فعاد إلى أحسن ما كان بعون الله »[1].

•

وقال عبد الله بن عثمان:

« شكوتُ إلى أبي جعفر، محمد بن علي بن موسى عليهم السلام بَرْدَ المعدة في معدتي، وخفقاناً في فؤادي.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٨٦ـ١٨٧ نقلاً عن روضة الكافي ص ١٩١.

فقال: أين أنت عن دواء أبي ـ وهو الدواء الجامع ـ؟!.

قلتُ يا ابن رسول الله، وما هو؟.

قال: معروفٌ عند الشيعة.

قلت: سيِّدي ومولاي، فأنا كأحدِهم، فأعطني صفته حتى أُعالجه وأُعطي الناس.

قال: خُذ زعفراناً، وعاقرقرحاً، وسنبلاً، وقاقلةً، وبنجاً، وخربقاً أبيض، وفلفلاً أبيض، ـ أجزاءً سواء ـ وأبرفيون جزأين. يُدَقُّ ذلك كلُّه دقّاً ناعماً، ويُنخل بحريرةٍ، ويُعجن بضعفَي وزنه عسلاً منزوعَ الرغوة. فيُسقى صاحبُ خفقان الفؤاد ومَن به بردُ المعدة، حبةً بماء كمونٍ يُطبخ، فإنه يُعافَى بإذن الله تعالى»[1].

●

وقال محمد بنُ النضر، مؤدِّب أولاد الإمام عليه السلام:

«شكوتُ إليه ما أجد من الحصاة.

فقال: ويحك، أين أنت عن الجامع، دواءِ أبي؟!.

فقلت: يا سيدي ومولاي: أعطني صفته.

فقال: هو عندنا. يا جارية أَخرجي البستوقة الخضراء. فأخرجت البستوقة، وأَخرج منها مقدار حبة فقال:

إشرب هذه الحبَّة بماء السداب، أو بماء الفجل المطبوخ، فإنك تُعافَى منه.

فقال: فشربتُه بماء السداب، فوالله ما أحسستُ بوجعه إلى يومنا هذا»[2].

●

وحكى خيران ـ الخادم القراطيسي ـ مايلي:

«حججتُ أيام أبي جعفر، محمد بن عليٍّ بن موسى، وسألت عن بعض الخدم

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء ص ٢٤٧.

(٢) نفس المصدر ونفس الجزء ص ٢٤٩.

ـ وكانت له منزلة من أبي جعفر عليه السلام ـ فسألته أن يوصلني إليه.

فلمَّا سرنا إلى المدينة قال لي: تهيَّأْ، فإني أُريد أن أَمضيَ إلى أبي جعفر عليه السلام، فمضيتُ معه.

فلمَّا وافَينا البابَ قال: ساكنْ في حانوت. ـ أي انتظرْ بمجالسة بعض أصحاب الحوانيت المجاورة ـ.

فلمَّا أبطأ علَيَّ رسولُه، خرجتُ إلى الباب فسألت عنه، فأخبروني أنه قد خرج ومضى.

فبقيتُ متحيِّراً. فإذا أنا كذلك إذ خرج خادمٌ من الدار فقال: أنت خيران؟.

قلت: نَعم.

قال لي: ادخلْ.

فدخلتُ، فإذا أبو جعفر عليه السلام قائم على دُكَّانٍ ـ مصطبة ـ لم يكن فُرش له ما يقعد عليه، فجاء غلامٌ بمصلًّى فألقاه، فجلس.

فلمَّا نظرتُ إليه تهيَّبْتُهُ ودهشت!.

فذهبتُ لأصعد الدكَّان من غير درَجة، فأشار إلى موضع الدَّرجة. فصعدتُ وسلمتُ، فردَّ السلامَ ومدَّ إليَّ يدَه، فأخذتُها وقبَّلتُها ووضعتُها على وجهي.

وأَقعدَني بيده، فأمسكتُ يدَه ممَّا دخلني من الدهَش، فتركها في يدي. فلمَّا سكنتُ خلَّيتُها، فساءَلني.

وكان الريَّان بن شبيب قال لي: إنْ وصلتَ إلى أبي جعفر عليه السلام قلت له: مولاك الريَّان بن شبيب يقرأ عليك السلام، ويسألك الدعاء له ولولده..

فذكرتُ له ذلك، فدعا له، ولم يدعُ لولده.

فأعدتُ عليه، فدعا له ولم يدعُ لولده.

فأعدتُ عليه ثالثاً، فدعا له ولم يدعُ لولده!. فودَّعته ثم قُمت.

فلمَّا مضيتُ نحو الباب سمعتُ كلامَهُ ولم أفهم.

وخرجَ الخادمُ في أثري، فقلت له: ما قال سيِّدُك لَـمَّا قُمت؟.

فقال لي: قال: مَن هذا الذي يَرى أن يهديَ نفسَه؟. هذا وُلد في بلاد الشِّرك،

فلمَّا أُخرج منها صار إلى مَن هو شَرٌّ منهم. فلمَّا أراد الله أن يَهديَهُ هداه »[1].

ونحن إذا قرأنا اسمَ « خيران الخادم » هانَ هذا الاسمُ بنظرنا ورَخُصت قيمتُه.. ولكننا إذا عرفنا منزلته عند الأئمّة عليهم السلام وعند الله تعالى، أدركنا علوَّ منزلته وسموَّ رُتبته. فإنَّ « خيران » هذا قال:

« وجَّهتُ إلى سيِّدي ثمانية دراهم. وقلت: جُعلت فداك، إنَّه ربما أتاني الرجل لك قِبَلَهُ الحقُّ ـ أو قلتُ: يعرف موضعَ الحقِّ لك ـ فيسألني عمَّا يعمل به؟. فيكون مذهبي أخذُ ما يتبرَّع به في سِّر.

قال عليه السلام: اعملْ في ذلك برأيك، فإنَّ رأيك رأيي، ومَن أطاعَك أطاعني »[2].

ويكفي مثلُ هذا الشرَف لخيران تحمله هذه الشهادة الكريمة من الإمام عليه السلام..

وقد بلغ من حيطة هذا « الخادم لدين الله » أن قال عنه علي بن مهزيار:

« كتبَ إليَّ خيران: قد وجَّهتُ إليك ثمانية دراهم كانت أُهديتْ إليَّ من طرطوس دراهمُ منهم ـ أي من النصارى أو اليهود أو من غيرهم ـ وكرهتُ أن أردَّها على صاحبها أو أُحْدِثَ فيها حدَثاً دون أمرك. فهل تأمرني في قبول مثلها أم لا، لأعرفَهُ إن شاء الله تعالى وأنتهي إلى أمرك؟.

فكتب له الإمام عليه السلام، وقرأتُه:

إقبلْ منهم إذا أُهديَ إليك دراهمُ أو غيرُها، فإنَّ رسول الله ﷺ لم يردَّ هديةً على يهوديٍّ ولا نصرانيّ »[3].

فخيران هذا، من خيرة الأصحاب رضوان الله عليه وعليهم أجمعين.

●

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠٦ ـ ١٠٧ وهو في رجال الكشي تحت رقم ٥٠٥.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء ص ١٠٨ وهو في رجال الكشي تحت الرقم ٥٠٨.

(٣) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠٧ ورجال الكشي تحت الرقم ٥٠٥.

قال موسى بن القاسم:

« قلتُ لأبي جعفر عليه السلام:

قد أردتُ أن أَطوف عنك وعن أبيك، فقيل لي: إنَّ الأوصياء لا يُطاف عنهم.

فقال لي: بل طُفْ ما أمكنك، فإنَّ ذلك جائز.

ثم قلتُ له بعد ثلاث سنين: إنّي كنتُ استأذنتُك في الطواف عنك وعن أبيك فأذنتَ لي في ذلك، فطفتُ عنكما ما شاء الله. ثم وقع في قلبي شيءٌ فعملتُ به.

قاا: وما هو؟.

قلتُ: طفتُ يوماً عن رسول الله ﷺ ـ فقال: صلَّى الله على رسول الله ثلاث مرّات ـ. ثم اليوم الثاني عن أمير المؤمنين. ثم طفت اليومَ الثالث عن الحسن، والرابعَ عن الحسين، والخامسَ عن عليٍّ بن الحسين، والسادسَ عن أبي جعفر، محمد بن علي، واليومَ السابع عن جعفر بن محمد، واليومَ الثامنَ عن أبيك موسى، واليومَ التاسعَ عن أبيك عليّ، واليومَ العاشرَ عنك يا سيِّدي.. هؤلاء الذين أَدِينُ اللهَ بولايتهم.

فقال: إذنْ واللهِ تَدِينُ اللهَ بالدِّين الذي لا يَقبل من العباد غيرَه.

قلتُ: ربما طفتُ عن أُمِّك فاطمةَ، وربما لم أطُفْ.

فقال: استكثِرْ من هذا، فإنَّهُ أفضلُ ما أنت عاملُه إن شاء الله »[1].

●

وقال علي بن مهزيار:

« كتبتُ إلى أبي جعفر، وشكوتُ له كثرة الزلازل في الأهواز، وقلت: تَرى ليَ التحوُّلَ عنها؟.

فكتب عليه السلام: لا تتحوَّلوا عنها. صوموا الأربعاء، والخميس، والجمعة، واغتسلوا وطهِّروا ثيابكم وابرزوا يوم الجمعة وادعوا الله فإنه يدفع عنكم.

ففَعلْنا، فسكنت الزلازل »[2].

●

(١) المصدر السابق، نفس الجزء ص ١٠١ ـ ١٠٢ والكافي م ١ ص ٣٠٤.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠١.

وعن إبراهيم بن محمد الهمدانيِّ، قال:

« كتبتُ إلى أبي جعفر عليه السلام أَصِفُ له صُنْعَ « السميع » بي. ـ والسميعُ سيِّدُه الناصبيُّ الذي كان يَظلمه لاعتدال مذهبه ـ.

فكتب ـ عليه السلام ـ بخطِّه: عجَّلَ الله نُصرتَك ممَّن ظلَمك، وكفاك مؤنتَه. وأبشر بنصر الله عاجلاً إن شاء الله، وبالأجر عاجلاً، وأكثِرْ من حمدِ الله »[1].

وقال إبراهيم بن محمد الهمدانيِّ، نفسُه ـ في حديث ـ:

« .. وكتبَ إليَّ:

قد وصلَ الحساب. تقبَّل الله منك.. ورضيَ عنهم، وجعلَهم معنا في الدُّنيا والآخرة. وقد بعثتُ إليك من الدنانير بكذا، ومن الكسوة بكذا، فبارك لك فيه وفي جميع نِعَمِ الله إليك.

وقد كتبتْ إلى « النَّضر » امرأتُه أن ينتهيَ عنك وعن التعرُّض لك ولخلافك، وأَعلمتْهُ موضعَك عندي. وكتبتْ إلى « أيوب » امرأتُه بذلك أيضاً.

وكتبتُ إلى مَوَالِيَّ بهمدانَ كتاباً أمرتُهم بطاعتك والمصيرِ إلى أمرك، وأنْ لا وكيلَ سواك »[2].

•

وروَى محمد بن إبراهيم ـ وقيل علي بن إبراهيم ـ أن أباه قال:

« كنتُ عند أبي جعفر الثاني عليه السلام إذ دخل إليه محمد بن صالح بن سهل الهمداني، وكان يتولَّى له ـ ويقبض لاسمه ويُفتي بقضائه ـ فقال له:

جُعلت فداك، اجعلْني من عشرة آلاف درهمٍ في حِلِّ فإنني أنفقتُها.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: أنت في حِل.

فلما خرج محمد بن صالح من عنده قال:

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء ص١٠٨ وفي رجال الكشي تحت الرقم ٥٠٦.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء ص١٠٨ ـ ١٠٩ ورجال الكشي تحت الرقم ٥٠٩.

أحدُهم يَثِبُ على أموال آل محمد ﷺ، وفقرائهم ومساكينهم وأبناء سبيلهم، فيأخذها ثم يقول، اجعلْني في حِل. أتراه ظنَّ بي أنِّي أقول له: لا أفعل!. والله لَيسألنَّهم الله يومَ القيامة عن ذلك سؤالاً حثيثاً»[1]

●

وقال علي بن عيسى:

«أتى الجوادَ عليه السلام رجلٌ فقال:

أعطني على قدر مُرُوَّتك.

فقال عليه السلام: لا يَسَعني.

قال: على قدري.

قال: أمَّا ذا فَنَعَمْ.. يا غلامُ أعطِه مئتَي دينار»[2].

●

«وكتب عبد العظيم الحسني إليه عليه السلام يسأله عن الغائط ونَتْنِه؟.

فقال عليه السلام: إنَّ الله خلقَ آدم فكان جسدُه طيناً.

وبقيَ أربعين سنةً مُلْقىً تمرُّ به الملائكة تقول: لأمرٍ ما، خُلقت!.

وكان إبليس يدخل في فيه، ويخرج من دُبره. فلذلك صار ما في جَوف ابن آدم مُنْتِناً خبيثاً غيرَ طيِّب.

ويقال: إذا بالَ الإنسانُ أو تغوَّط يردِّد النظرَ إليهما، لأن آدم عليه السلام لما هبط من الجنَّة لم يكن له عهدٌ بهما. فلمَّا تناول الشجرة المنهيَّة أخذَه ذلك. فجعل ينظر إلى شيءٍ يخرج منه، فبقي ذلك في أولاده، لأنَّهُ تغذَّى في الجنَّة، وبالَ وتغوَّط في الدُّنيا»[3].

●

وقال رجلٌ من بني حنيفة من أهل بست سجستان:

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠٥ والكافي م ١ ص ٥٤٨ وكتاب الغيبة ص ٢٢٧ وحلية الأبرار ج ٢ ص ٤٠٧.

(٢) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٠٨ وكشف الغمة ج ٣ ص ١٥٨.

(٣) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٤.

« رافقتُ أبا جعفر في السنة التي حج فيها في أول خلافة المعتصم، فقلت له وأنا معه على المائدة، وهناك جماعةٌ من أولياء السلطان:

إنَّ والِيَنا - جُعلت فداك - رجلٌ يتولاَّكم أهلَ البيت ويحبُّكم، وعليَّ في ديوانه خراج. فإن رأيتَ - جعلني الله فداك - أن تكتب لي إليه بالإحسان؟.

فقال: لا أعرفه.

فقلتُ: جُعلت فداك، إنَّه على ما قلتُ من محبِّيكم أهلَ البيت، وكتابك ينفعني عنده.

فأخذ القرطاس وكتب:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ

أمَّا بعد فإن موصل كتابي هذا ذكرَ عنك مذهباً جميلاً، وإنَّما لك من عملك ما أحسنت فيه. فأحسنْ إلى إخوانك، واعلمْ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سائلُك عن مثاقيل الذرِّ والخردل.

قال: فلما وصلتُ سجستان، سبق الخبر إلى الحسين بن عبدالله النيسابوري - وهو الوالي - فاستقبلني على فرسخَين من المدينة، فدفعتُ إليه الكتاب فقبَّله ووضعه على عينَيه، ثم قال لي: ما حاجتك؟

فقلتُ: خراجٌ عليَّ في ديوانك.

قال: فأمرَ بطرحه عنِّي وقال:

لا تؤدِّ خراجاً ما دام لي عمل.. ثم سألني عن عيالي فأخبرتُه بمبلغهم، فأمر لي ولهم بما يقوتنا وفضلاً. فما أديتُ في عمله خراجاً ولا قطع عنِّي صلته حتى مات »(١).

وعن محمد بن الحسن بن أبي خالد شينوله، قال:

« قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام:

---

(١) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٦-٤٣٧ والإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة ص ٢٥ والأنوار البهيّة ص ٢١٩.

إنَّ مشايخنا روَوْا عن أبي جعفر ـ الباقر ـ وأبي عبد الله ـ الصادق ـ عليهما السلام، وكانت التقيَّة شديدة فكتموا كُتبهم فلم يَرْوُوا عنهم. فلمَّا ماتوا صارت الكتبُ إلينا.

فقال: حَدِّثوا بها فإنَّها حق»[1].

•

قال عبدوسُ بنُ إبراهيم:

«رأيتُ أبا جعفر الثاني عليه السلام، قد خرج من الحمَّام وهو من قرنِه إلى قَدَمِه مثلَ الْوَرد من أَثَر الحنَّاء»[2].

وإنما يذكر أصحابُنا هذه الدَّقائق عن سيرة الإمام عليه السلام لأنهم يحبُّون أن يلتزموا بما كان يلتزم به من الواجب في السنَّة، أو ممَّا هو من المستحَبِّ أو الأَولى.

فعن قاسم الصيقل، أنه قال:

«ما رأيتُ أحداً كان أشدَّ تشديداً في الظِّل ـ في الحج ـ من أبي جعفر عليه السلام!. كان يأمر بقلع القبة والحاجبَين إذا أحرم»[1].

•

وقال علي بن مهزيار:

«رأيتُ أبا جعفر الثاني عليه السلام ليلة الزِّيارة طافَ طوافَ النساء، وصلَّى خلف المقام، ثم دخل زمزمَ فاستقى منها بيده بالدلو الذي يلي الحجر، وشرب منه وصبَّ على بعض جسده، ثم اطَّلع في زمزم مرَّتَين.

وأخبرني بعضُ أصحابنا أنه رآه بعد سنةٍ فعلَ مثلَ ذلك»[1].

وقال ابنُ مهزيار نفسُه:

---

(١) الكافي م ١ ص١٥٣ وفي المصدر: شينولة، وهو تصحيف: شنبولة، ومحمد بن الحسن هذا حسن معتمد معروف.

(٢) حلية الأبرار ج ٢ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦.

« رأيتُ أبا جعفر عليه السلام يمشي بعد يوم النَّحر حتى يرمي الجمرة، ثم ينصرف راكباً.

وكنت أراه ماشياً بعد ما يُحاذي المسجدَ بِمِنَى ـ مسجد الخيف المبارك ـ. ونزل ـ فوق المسجد بِمِنَى قليلاً ـ عن دابَّته حتى توجَّه يرمي الجمرة عند مضرِب عليٍّ بن الحسين عليهما السلام.

فقلتُ له: جُعلتُ فداك، لِمَ نزلتَ ها هُنا؟.

فقال: إن هذا مضرِب عليٍّ بن الحسين، ومضرب بَني هاشم. وأنا أُحب أن أمشي في منازل بَني هاشم »[1].

وقال ابنُ مهزيار أيضاً:

« رأيتُ أبا جعفر الثاني عليه السلام، في سنة خمس عشرةَ ومئتَين، ودَّع البيت بعد ارتفاع الشمس، وطاف بالبيت يستلم الرُّكنَ اليمانيَّ في كلِّ شوط.

فلمَّا كان في الشوط السابع استلمه، واستلم الحجر، ومسح بيده، ثم مسح وجهه بيده.

ثم أتى المقام فصلَّى خلفه ركعتَين.

ثم خرج إلى دُبر الكعبة، إلى الملتزَم، والْتزمَ البيت، وكشف الثوبَ عن بطنه. ثم وقف عليه طويلاً يدعو.

ثم خرج من باب الحنَّاطين »[1].

•

وقال موسى بن القاسم البجليّ:

« رأيتُ أبا جعفر الثاني عليه السلام، يصلِّي في قميصٍ قد اتَّزر فوقَه بمنديل وهو يصلِّي »[1].

---

(١) المصدر السابق ذاته.

قال الحسن بن شمون:

« قرأتُ هذه الرسالة على عليٍّ بن مهزيار، عن أبي جعفر الثاني ـ عليه السلام ـ بخطِّه:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يا عليّ، أحسنَ الله جزاك، وأسكنَك جنَّته، ومنعَك من الخزي في الدُّنيا والآخرة، وحشرك الله معنا.

يا عليّ، قد بَلَوتُك وخَبَرتُك في النصيحة، والطاعة، والخدمة، والتوقير، والقيام بما يجب عليك. فلَو قلتُ: إنِّي لم أرَ مثلكَ، لَرَجَوتُ أنْ أكونَ صادقاً، فجزاك الله جنَّاتِ الفردوس نُزُلاً، فما خفيَ علَيَّ مقامُك ولا خدمتك، في الْحَرِّ والْبَرد، في الليل والنهار. فأسأل الله إذا جمع الخلائق للقيامة أن يَحْبُوَكَ برحمةٍ تغتبط بها، إنَّه سميعُ الدُّعاء »[1].

وهكذا كانوا يعرفون حقائقَ ودقائقَ ما يقوم به أولياؤهم المقرَّبون،

وكذلك كانوا يقدِّرون إخلاصَ المخلِصين ويشكرون عمل الْمُوالين من أصفيائهم الذين حملوا دعوتهم في أحلكِ الأزمنة.

•

ونحن إذا مررنا بأسماء أبوابهم، ووكلائهم، ومعتمديهم، نَظُنَّها أسماء رجالٍ عاديِّين، في حين أنهم من الأبدال الأبطال الذين عَمر الله تعالى بهم أرضَه وأنزلَ خيرَه.

« وقد كان بابُه الأولُ عثمان بن سعيد السَّمان،

ومن ثقاته: أيوب بن نوح بن درَّاج الكوفي، وجعفر بن محمد بن يونس الأحول، والحسين بن مسلم بن الحسن، والمختار بن زياد العبدي البصري، ومحمد بن الحسين بن أبي الخطَّاب الكوفي.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠٥ وكتاب الغيبة ص ٢٢٦.

ومن أصحابه: شاذان بن الخليل النيسابوري، ونوح بن شعيب البغدادي، ومحمد بن أحمد المحمودي، وأبو يحي الجرجاني، وأبو القاسم إدريس القمي، وعلي بن محمد، وهارون بن الحسن بن محبوب، وإسحاق بن إسماعيل النيسابوري، وأبو حامد أحمد بن إبراهيم المراغي، وأبو علي بن بلال، وعبد الله بن محمد الحضيني، ومحمد بن الحسن بن شمون البصري »[1].

وقد روُي أنه لم يعترف بإمامته - بادىء ذي بدء - سوى عددٍ قليل - قيل إنهم ثلاثة! -[2] ثم استطاع - في هذا المدى القصير من عُمره - أن ينشر النور في القلوب، وأن يؤجّج النفوس بوهج الإيمان، فوضع أكبر عددٍ من معاصريه على خطِّ الإيمان، يقولون بولايته ويأتمرون بأمره.

●

(١) أنظر بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٠٦ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٨٠.

(٢) راجع تراجم الرجال فقد قيل هم: أبو خالد الكابلي، ويحيى ابن أم طويل، وجُبير بن مطعم - أو حكيم بن جبير -.



بَعض مَا رَوَى وَمَا رُوِيَ عَنه
وَبعض رُواة حَديثه

قد مررنا بكثيرٍ من الأحاديث الكريمة التي نُقلت عن هذا الإمام الكريم عليه السلام طيَّ هذا الكتاب ـ تحت عنوان: من فلسفته وأفكاره، وفي مختلَف مواضيع الكتاب ـ. ونضع فيما يلي طائفةً أخرى منها تُعطي القارىء صورة واضحةً عن معالم حياته الشريفة التي حفلت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة، وأعطت الناس أمثولة القيادة والريادة التي يحملها وليُّ الله في الأرض من جهة أخرى، ودون أن نستقصي كلَّ ما صدر عنه سلام الله عليه، راجين أن يخرج القارىء من هذا الكتاب وهو على بيّنةٍ من أَمْرِ واحدٍ من أئمتنا الأفذاذ عليهم السلام، كان أقصرهم عُمراً، ومن أطولهم مدةً لحمل أعباء أمر السماء إذا ما قيس اضطلاعُه بالأمر إلى تمتُّعه بالعمر.. فيعلمَ أن آخرهم كأوَّلِهم، وكبيرهم كصغيرهم في السداد والرشاد، وأنهم ذُرِّيَّةٌ بعضها من بعض تخرَّج أفرادُها من معهدٍ واحدٍ هو معهد الرسول صلى الله عليه وآله، ونسلَهم ـ جميعَهم ـ الرسولُ، والوصيُّ، والبتول، صلواتُ الله وتحياتُه وبركاتُه عليه وعليهم.

•

قال ابن أبي نصر:

« كتبتُ إلى أبي جعفر عليه السلام: الخُمس أُخرجه قبل المؤونة أو بعد المؤونة؟.

فكتب إليَّ: بعد المؤونة»[1].

•

وعن عبد العظيم بن عبد الله الحسني، عنه عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه صلواتُ الله عليهما:

«قال أمير المؤمنين عليه السلام: قال رسولُ الله ﷺ:

إنَّ الله خلق الإسلام فجعل له عرصةً ـ أي فسحةً واسعةً بين الأبنية ـ وجعل له نوراً، وجعل له حصناً، وجعل له ناصراً.

فأما عرصتُه فالقرآن. وأما نورُه فالحكمة. وأما حصنُه فالمعروف. وأما أنصارُه فأنا وأهلُ بيتي وشيعتُنا.

فأَحبوا أهلَ بيتي وشيعتَهم وأنصارهم، فإنه لـمَّا أُسْرِيَ بي إلى السماء الدنيا فنسبَني جبرائيل عليه السلام لأهل السماء، استودعَ الله حُبِّي وحُبَّ أهل بيتي وشيعتهم في قلوب الملائكة، فهو عندهم وديعةٌ إلى يوم القيامة، ثم هبط بي إلى الأرض فنسَبني إلى أهل الأرض، فاستودع الله عزَّ وجلَّ حُبِّي وحُبَّ أهل بيتي وشيعتهم في قلوب مؤمني أمَّتي يحفظون وديعتي [في أهل بيتي] إلى يوم القيامة.

أَلاَ فلو أَنَّ الرَّجُلَ من أُمَّتي عبدَ الله عزَّ وجلَّ عُمره أيامَ الدنيا، ثم لقيَ الله عزَّ وجلَّ مبغضاً لأهل بيتي وشيعتي، ما فَرَّجَ الله صدره إلاَّ عن النفاق»[2].

•

وفي تفسير نور الثقلين[3] ـ نقلاً عن عيون الأخبار، بالإسناد إلى عبد العظيم بن

---

(١) الكافي م ١ ص ٥٤٥.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٤٦.

(٣) نور الثقلين ج ٣ ص ١٢٠.

عبد الله الحسني عن الإمام محمد بن علي الرِّضا، عن أبيه الرِّضا، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، قال:

دخلت أنا وفاطمة على رسول الله ﷺ فوجدته يبكي بكاءً شديداً. فقلت: فداك أبي وأمي يا رسول الله ما يبكيك؟

فقال: يا علي، ليلةَ أُسريَ بي إلى السماء رأيتُ نساءً من أُمَّتي في عذابٍ شديدٍ فأنكرتُ شأنهنَّ فبكيتُ لِمَا رأيتُ من شدة عذابِهنّ. ورأيت امرأةً معلَّقةً بشعرها يَغلي دماغُ رأسها، ورأيت امرأةً معلقةً بلسانها والحميمُ يصير في حلقها، ورأيتُ امرأةً معلَّقةً بثديَيها، ورأيت امرأةً تأكل جسدها والنار تُوقَدُ من تحتها، ورأيت امرأةً شُدَّ رجلاها إلى يدَيها وقد سُلِّط عليها الحيّاتُ والعقارب، ورأيت امرأةً صمَّاءَ عمياءَ خرساءَ في تابوتٍ من نارٍ يَخرج دماغُ رأسها من منخرها، وبدنُها متقطِّعٌ من الجذام والبَرص، ورأيت امرأةً معلقةً برجلَيها في تنورٍ من نار، ورأيت امرأةً يُقطع لحمُ جسدها من مقدَّمها ومؤخرها بمقاريض من نار، ورأيت امرأةً يُحرق وجهُها ويداها وهي تأكل أمعاءها، ورأيت امرأةً رأسُها رأسُ الخنزير وبدنُها بدنُ الحمار وعليها ألفُ لونٍ من العذاب، ورأيت امرأةً على صورة الكلب والنار تدخل في دُبرها وتخرج من فيها، والملائكة يضربون رأسها وبدنَها بمقامع من نار.

قالت فاطمة عليها السلام: حبيبي وقُرَّةَ عيني، أخبرني ما كان عملهنَّ وسيرتُهن حتى وضع الله عليهنَّ هذا العذاب؟.

فقال: يا بنتي، أما المعلَّقة بشعرها فإنها كانت لا تغطي شعرها من الرجال.

وأما المعلَّقة بلسانها فإنها كانت تؤذي زوجها،

وأما المعلَّقة بثديَيها فإنها كانت تمنع زوجها من فراشها.

وأما المعلَّقة برجليها فإنها كانت تخرج من بيتها بغير إذن زوجها.

وأما التي كانت تأكل لحم جسدها فإنها كانت تُزيِّن بدَنَها للناس.

وأما التي شُدَّ يداها إلى رجلَيها وسُلِّط عليها الحيَّات والعقارب فإنها كانت قذرة

الوضوء قذرةَ الثياب، وكانت لا تغتسل من الجنابة والحيض ولا تتنظّف، وكانت تستهين بالصلاة.

وأما الصمّاء العمياء الخرساء فإنها كانت تَلِدُ من الزّنى فتعلّقه في عنق زوجها.

وأما التي يُقرض لحمُها بالمقاريض فإنها كانت تَعْرض نفسها على الرجال.

وأما التي كانت يُحرق وجهُها وبدنُها وهي تأكل أمعاءها فإنها كانت قوّادة.

وأما التي كانت رأسُها رأسُ الخنزير، وبدنُها بدنُ الحمار فإنها كانت نمّامةً كذّابة.

وأما التي كانت على صورة الكلب والنارُ تدخل في دُبرها وتخرج من فمها فإنها كانت قَيْنَةً ـ مغنّيةً ـ بوجه حاسدة.

ثم قال: ويلٌ لامرأة أغضبت زوجها، وطوبى لامرأة رضي عنها زوجها»[1]!

●

قال عبد العظيم بن عبد الله الحسنيّ:

«حدّثني أبو جعفر الثاني صلواتُ الله عليه، قال:

سمعتُ أبي عليه السلام يقول:

سمعت أبي موسى بن جعفر عليه السلام يقول: دخل عَمرو بنُ عبيد على أبي عبد الله ـ الصادق ـ عليه السلام، فلمّا سلّم وجلس تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ..﴾[2] ثم أمسك.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما أسكتك؟.

قال: أُحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله عزّ وجلّ.

فقال: نعم، يا عَمرو.

أكبرُ الكبائر الإشراكُ بالله، يقول الله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ..﴾[3].

---

(١) نور الثقلين ج ٣ ص ١٢٠ وعيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٩ ـ ١٠.

(٢) الشورى ـ ٣٧ والنجم ـ ٣٢.

(٣) المائدة ـ ٧٢.

وبعده الأياس من رَوح الله، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وقتلُ النَّفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيْهَا ..﴾[2].

وقذفُ المحصنة، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

وأكلُ مالِ اليتيم، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[4].

والفرارُ من الزحف، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ، أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[5].

وأكلُ الرِّبـا، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[6]..

والسِّحْرُ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾[7].

والزِّنى، لأنَّ الله عزَّ وجل يقول: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾[8]

واليمينُ الغموسُ الفاجرةُ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً، أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخرة﴾[9].

---

(١) يوسف ـ ٨٨.
(٢) النساء ـ ٩٣.
(٣) النور ـ ٢٣.
(٤) النساء ـ ١٠.
(٥) الأنفال ـ ١٦.
(٦) البقرة ـ ٢٧٥.
(٧) البقرة ـ ١٠٢.
(٨) الفرقان ـ ٦٨ـ٦٩.
(٩) آل عمران ـ ٧٧.

والغلولُ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ..﴾ [1]

ومنعُ الزَّكاة المفروضة، لأن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿.. فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [2].

وشهادةُ الزُّور، وكتمانُ الشهادة، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿.. وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ..﴾ [3].

وشربُ الخمر، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان.

وتركُ الصلاة متعمِّداً، أو شيئاً ممَّا فرضَ الله، لأن رسول الله ﷺ قال: مَن تركَ الصلاةَ متعمِّداً فقد بريءَ من ذمَّة الله وذمَّة رسوله ﷺ.

ونقضُ العهد، وقطيعةُ الرحم، لأن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [4].

قال: فخرج عمرو وله صراخٌ من بكائه وهو يقول: هلكَ مَن قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم» [5].

●

وقال علي بن مهزيار:

« كتب رجلٌ إلى ابي جعفر عليه السلام لَمَاً يخطر على باله ـ أي بعض صغائر الذنوب ـ.

فأجابه في بعض كلامه: إن الله عزَّ وجلَّ إن شاء ثبَّتك، فلا تجعل لإبليس عليك طريقاً. قد شكا قومٌ إلى النبيِّ ﷺ لَمَاً يَعرض لهم لَأَنْ تَهويَ بهم الريحُ أو

---

(١) آل عمران ـ ١٦١.
(٢) التوبة ـ ٣٥.
(٣) البقرة ـ ٢٨٣.
(٤) الرعد ـ ٢٥.
(٥) الكافي م ١ ص ٣٣٨.

يقطَعوا أحبُّ إليهم من أن يتكلَّموا به ، فقال رسولُ ﷺ : أتَجِدون ذلك ؟ . قالوا : نعم . فقال : والذي نفسي بيده إنَّ ذلك لَصريحُ الإيمان ، فإذا وجدتموه فقولوا : آمنَّا بالله ورسوله ، ولا حولَ ولا قوَّة إلاَّ بالله »[1] .

●

وعن علي بن مهزيار نفسه أنه قال :

« كتب محمد بن حمزة الغنوي إليَّ يسألني أن أكتب إلى أبي جعفر عليه السلام في دعاءٍ أُعلَّمه يرجو به الفرَج ـ لأنه كان في السِّجن ـ .

فكتب إليَّ : أمَّا ما سأل محمد بن حمزة الغنوي من تعليمه دعاءً يرجو به الفرَج ، فقل له : يَلزم :

يا مَن يكفي من كلِّ شيء ، ولا يكفي منه شيءٌ ، اكِفني مما أنا فيه .

فإني أرجو أن يُكفى ما هو فيه من الغمِّ إن شاء الله .

فأعلمتُه ذلك ، فما أتى عليه إلاَّ قليلٌ حتى خرج من الحبس »[2] .

●

قال محمد بن علي بن بلال :

« مررنا إلى قبر محمد بن إسماعيل بن بزيع لنزوره .

فلمَّا أتيناه جلس عند رأسه مستقبل القبلة والقبرُ أمامه ثم قال :

أخبرني صاحبُ هذا القبر ـ يعني محمد بن إسماعيل بن بزيع ـ أنه سمع أبا جعفر الثاني عليه السلام يقول :

مَن زار قبر أخيه ، ووضع يده على قبره وقرأ : إنَّا أنزلناه في ليلة القدر ، سبعَ مرّات ، أمِنَ من الفزع الأكبر »[3] .

●

---

(١) المصدر السابق م ١ ص ٣٨٠

(٢) الكافي م ١ ص ٤٢٥ .

(٣) رجال النجاشي ص ٢٣٣ نقلاً عن رجال الكشي .

أمَّا أصحابه فكثيرون، ومنهم من صاحَبَ أباه أوجدَّه، ومنهم من عاصَرَ ابنَه وحفيدَه ـ عليهم السلام جميعاً ـ ولن نذكر إلاَّ بعض الأجلاَّء من الثقات المعتمدين تخفيفاً على القارىء الكريم، واختصاراً للموضوع، وبياناً لمن كان يدور في فَلَك ولايته الكريمة صلوات الله وسلامُه عليه، مرتِّبين أسماءهم بحسب الحروف الهجائية. ومنهم ـ رضوانُ الله عليهم ـ:

إبراهيم بن محمد الهمداني، وقد لحق من قبله أباه الإمامَ الرِّضا عليه السلام، وعاصر من بعده ابنَه الإمام الهادي عليه السلام.

إبراهيم بن مهزيار ـ ابو إسحاق ـ الأهوازي، الذي أدرك الإمام الحجة المهديَّ عجَّل الله تعالى فرَجه وكان من أبوابه ومُعتمديه بعد أن عاصر الأئمة الأربعة الأخيرين عليهم السلام.

أبو الحصين بن الحصين الحضيني، الذي صاحَب الإمام الهادي عليه السلام.

أحمد بن محمد بن أبي نصر البيزنطي، وقد عاصر أباه الإمامَ الرِّضا، وجدَّه الإمام الكاظم، عليهما السلام.

أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري، وقد صاحب الإمامَ الرِّضا عليه السلام.

أحمد بن محمد بن خالد بن عبد الرحمان بن محمد بن علي البرقي، وصاحب ابنَه الإمام الهادي عليه السلام.

أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري القمِّي، وهو شيخ القمِّيين، وقد عاصر إمامَنا وأباه، وابنَه، وحفيده، صلواتُ الله عليهم وسلامُه.

أحمد بن حمَّاد المروزي الذي عاصر الإمامَين: الهادي والعسكري عليهما السلام.

أحمد بن محمد بن عبيد القمِّي الأشعري.

إسحاق بن إبراهيم الحضيني، وقد لقيَ أباه الإمامَ الرِّضا عليه السلام من قبله.

جعفر بن محمد بن يونس الأحول، وقد صاحب ابنَه الإمامَ الهادي عليه السلام.

الحسن والحسين ابنا سعيد، الأهوازيَّان، وهما من أصحاب أبيه الإمام الرضا عليه السلام.

صفوان بن يحيي البجلي، وكان أوثقَ وأعبدَ أهل زمانه، وقد صاحب الإمامَين الكاظم والرضا عليهما السلام من قبله.

صالح بن محمد الهمداني، وقد صاحَب ابنَه الإمام الهادي عليه السلام.

علي بن مهزيار الأهوازي، وقد صاحَب أبا الإمام عليه السلام من قبله، وابنَه عليه السلام من بعده.

علي بن أسباط، وهو من أصحاب أبيه الإمام الرِّضا عليه السلام.

علي بن الحكم.

محمد بن خالد البرقي الذي صاحَب أباه وابنَه عليهما السلام من قبله، ومن بعده.

محمد بن سنان ـ أبو جعفر الزاهري ـ الذي كان من أصحاب الإمام الرِّضا عليه السلام.

محمد بن الحسن بن محبوب.

محمد بن الحسين بن أبي الخطَّاب الكوفي ـ وهو أبو جعفر الزيات المعروف ـ عاصر العسكرَيَّين عليهما السلام.

محمد بن إسماعيل بن بزيع، وهو من أصحاب أبيه عليه السلام.

مصدق بن صدقة الذي كان من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

معاوية بن حكيم.

موسى بن القاسم بن معاوية بن وهب البجلي، الذي هو من أصحاب أبيه عليه السلام[1]

والحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على رسوله الكريم وأهل بيته المنتجَبين.

•

(١) رجال الطوسي ص ٣٩٧ إلى ص ٤٠٩.



المصادر

١ ـ إثبات الهداة ج ٦ — الحر العاملي — طبع قم ـ إيران
٢ ـ الإرشاد — الشيخ المفيد — طبع إيران سنة ١٣٧٥ هـ.
٣ ـ إعلام الورى — الطبرسي — طبع بيروت سنة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.
٤ ـ الإمامة والتبصرة — ابن بابويه والد الصدوق — طبع بيروت سنة ١٩٨٥ .
٥ ـ الأنوار البهية — الشيخ عباس القمي — طبع بيروت سنة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
٦ ـ الايقاظ من الهجعة — الحر العاملي — طبع قم ـ إيران
٧ ـ بحار الأنوار : عدة أجزاء — المجلسي — طبع بيروت سنة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.
٨ ـ بصائر الدرجات — الصفّار — الطبعة الثانية ـ إيران
٩ ـ تحف العقول — الحرّاني — طبع بيروت سنة ١٣٣٥ هـ.
١٠ ـ تذكرة الخواص — سبط بن الجوزي — طبع بيروت ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
١١ ـ التوحيد — الصدوق — طبع دار المعرفة ـ بيروت.
١٢ ـ حدائق الأنس — الزنجاني — طبع بيروت سنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.
١٣ ـ حلية الأبرار ج ٢ — السيد هاشم البحراني — طبع قم ـ إيران سنة ١٣٥٥
١٤ ـ الاحتجاج ج ٢ — الطبرسي — طبع بيروت سنة ١٤٠٣ هـ. ١٩٨٣ م.
١٥ ـ الاختصاص — الشيخ المفيد — طبع إيران سنة ١٣٥٩ هـ.
١٦ ـ الخصال — الصدوق — طبع إيران سنة ١٣٩٩ هـ.
١٧ ـ رجال الطوسي — الطوسي — طبع النجف ١٣٨١ هـ. ١٩٦١ م.
١٨ ـ الصواعق المحرقة — ابن حجر الهيثمي — طبع مصر سنة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م.
١٩ ـ فرائد السمطين ج ١ وج ٢ — الجويني الخراساني — طبع بيروت سنة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.
٢٠ ـ الكامل — ابن الأثير — طبع مصر
٢١ ـ كشف الغمة — الإربلي — طبع إيران
٢٢ ـ مروج الذهب — المسعودي — طبع بيروت
٢٣ ـ معاني الأخبار — الصدوق — طبع إيران سنة ١٣٧٩ هـ.
٢٤ ـ مناقب آل أبي طالب — ابن شهراشوب — طبع بيروت سنة ١٩٨٥ م.



الفهرس

الموضوع:	الصفحة
الإهداء	٧
مبـررات هذا الكتاب	٩
١ ـ مَا لا بُدَّ من قوله:	
حديثُهم صَعب!	٢٥
٢ ـ مَا لا بُدَّ من قوله:	
هُم محدَّثون.. ومُلهَمون	
ويوحَى إليهم!.	٥١
سيكون لي ولد !.	
.. وكان ولدٌ معجزة!.	٨٣
أمٌّ الولد مملوكةٌ فذَّة!	١١١
وكان وعداً مفعولاً!	١٢١
يَا محمدَّ اصمُتْ!.	
.. وسقطَ الإفك	١٣٣
إنَّه أُوتِيَ الحُكم صبيّاً..	
وعِلمُه من عِلْم الله تعالى!	١٤٧
هو حُجة الله تعالى..	
.. مُنذ الصِّغَر!	١٧١

الموضوع	الصفحة

قِرَان واستهجان
وامتحان لترجمان القرآن ١٩٣
لإبليس جنودٌ..
مِن حَمَلَةِ السُّم! ٢٣١
بعضُ آياتِه ودلالاتهِ..
ومعاجزه الخارقة! ٢٦٩
من فلسفته وأفكاره ٣١٧
شيء من أحواله الكريمة ٣٣٣
بعضُ ما رَوَى،
وما رُوِيَ عنه
وبعض رُوَاة حديثة ٣٤٧
المصادر ٣٥٧
الفهرس ٣٥٩